

خلاصة المتون

في

أنباء ونبلأ اليمن الميمون

للسيد العلامة المؤرخ الشهير

محمد بن محمد بن يحيى نربأمة

الجزء الرابع

من سنة ١٠٠١ إلى ١٠٧٤هـ

أيام الإمام القاسم بن محمد وبنيه

تنويه:

جاء عنوان الكتاب في الأجزاء السابقة هكذا (خلاصة المتون في أنباء ونبلأ اليمن الميمون) وهو خطأ من المطابع وقع أثناء تصميم الغلاف، وقد تم تصحيحه في هذا الجزء.



مركز التراث والبحوث اليمنى

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م

المجلس



مركز التراث والبحوث اليمني

صنعاء — الجمهورية اليمنية

هاتف: ٢٠٥٤٧٠ فاكس: ٢٠٥٤٥١

البريد الإلكتروني: YemenHRC@y.net.ye

Yemen Heritage and Research Center

6918 Jones Branch Dr., Suite 600

McLean, VA 22102 USA

Fax (703) 918 4925 :Tel (703) 918 4924

البريد الإلكتروني:

YHRC@yemenhrc.org

WWW.YemenHRC.org

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب المؤلف - رحمه الله - في أول بعض مؤلفاته مؤرخاً سنة (١٣٧٦هـ) هذه الأبيات:

جُبلتُ على الصراحة في التواصي	بحق في النصيحة لا أباهي
وتذكيري لأولادي ونفسي	وإخرواني بآيات التناهي
وعزوي كل أنجاث حوقاً	بجامعي إلى الراوين ماهي
على أسلوب أسلاف حراس	على الإسناد تحتب المناهي
وأوجبت الحميّة طبع باقي	بجامعي وأنجاثي كما هي
وأرجو خالقي تحقيق سؤلي	وسؤلي العام (يغفر لي إلهي) (١)

(١٣٧٦هـ)

وكتب المؤلف - رحمه الله - مادة خامّة صحيحة على أسلوب الأوائل الموثقات بنصوصها، وأما كتابة بعض العصريين باعتبار أمويتهم وميولهم وفهمهم بنصوص أخرى فقد يخالفهم غيرهم، فيختلف التاريخ ويضطرب؛ لأن لكل كاتب فهمًا واتجاهًا، كما يقال (الأخبار شقوف)، فإبقاء عبارة الأولين أضمن لصحة التاريخ، فليس التاريخ مثل سائر الفنون كالعربية والأدب والفقه التي تكون صياغتها بعبارة عصرية أوضح، لا سيما التاريخ القديم قبل قرون مخالفة لمفاهيم عصرنا.

* * *

(١) لعل مجموع الملل الحساوي لحروف العبارة (يغفر لي إلهي) يساوي ١٣٧٦.

قراءة الإمام القاسم بصنعاء سنة ١٠٠١هـ

قال في الجامع الوجيز للمولى أحمد بن عبد الله الجنداري: في آخر يوم من شعبان سنة (١٠٠١ هـ) كسفت الشمس في برج الجوزاء، عم الكسوف صفحة الشمس، وأظلمت الدنيا، وظهرت الكواكب، وتجلّى بعد نصف ساعة، وكان توسطه ساعة أربع، فذكروا أنها تظهر فتن بعد أربع سنين.

وكان الإمام القاسم في صنعاء للقراءة على العلامة علي بن قاسم السنحاني، وكان هو وعمه السيد الشهيد عامر بن علي إذا عثرا على منكر يغيّرانه بالضرب، فنمّا خيرهما إلى الوزير حسن باشا، فخرجوا من صنعاء، فكتب الوزير حسن إلى الأمير أحمد بن محمد بن شمس الدين أمير كوكبان في أمرهما، فحبس السيد عامر، وترك الإمام القاسم، ثم تخلص السيد عامر من الحبس بعد مدة.

(سنة ١٠٠٢ هـ) فيها وصل وزير الهند المسمى (عزيز كوه) بهدايا نفيسة للباشا حسن، فتلقاه الباشا بالإكرام والإقبال التام، ثم توجه لسفر الحج.

وفيات

إبراهيم بن محمد الجملولي

في (سنة ١٠٠٢ هـ) توفي العارف مضي الحنفية للأتراك بصنعاء إبراهيم بن محمد الجملولي الأهنومي، وكان زيدي المذهب، ثم انتقل إلى مذهب الحنفية، وحصل كثيراً من كتبهم، ودفن في مقبرة خزيمة قريباً من قبة المطهر بن الشويع، وجُمُلول محل بالأهنوم. (سنة ١٠٠٣ هـ) فيها توفي السلطان مراد خان باستنبول وقام بعده السلطان محمد خان.

عبد الرحمن بن عبد الله العيمي

قال السيد الحافظ إبراهيم بن القاسم بن المؤيد بن القاسم في طبقات الزيدية: في (٣ شوال سنة ١٠٠٣ هـ) توفي بصنعاء، وقبر بجزيرة الروض القاضي العلامة الأصولي المحدث السائح المتأله، شيخ الشيوخ عبد الرحمن بن عبد الله بن داود بن إبراهيم بن أحمد

بن علي بن سليمان بن محمد بن عبد الله بن دُعَيْش بن غسان بن محمد الشعبي الخولاني، ثم الحراري المعروف بالحيمي. قرأ على الفقيه أحمد بن يحيى الضبياني الأهنومي، والسيد أحمد بن عبد الله الوزير والسيد علي بن الإمام.

ومن تلاميذه: الإمام القاسم، والسيد صلاح بن أحمد الوزير، وعبد الهادي الحُسوسة، وكان لا يُلْحَق في علم الكلام وإماماً في العربية ومفسراً للقرآن صنف تفسيراً وكتبه على هامش المصحف، وكان يسيح في البلاد في الهجر، ومواقف العلماء ويصحح النسخ، ويُحشِّي عليها، ويلبس الحشن، وكان إماماً جليلاً. وله رسالة في نظر الأجنبية ضَعَف الرواية بجوازه عن الحنفية والشافعية، ووصل إليه الإمام القاسم قبل دعوته إلى هجرة الحَذَب.

وقد يلتبس بعبد الرحمن بن محمد بن نهشل الحيمي، ويعبد الرحمن بن عبد الله الحيمي الذي تولى القضاء بالحيمة.

(سنة ١٠٠٤هـ) لم يبلغ فيها من الحوادث ما يوجب رقمه.

وفيات

المطهر بن صلاح بن شمس الدين

في (رمضان سنة ١٠٠٤هـ)، توفي بكوكبان السيد المطهر بن صلاح بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين، فعمر عليه قبة أمير كوكبان السيد أحمد بن محمد بن شمس الدين، ولما فرغ من عمارتها (سنة ١٠٠٥هـ) قال السيد محمد بن عبد الله شرف الدين قصيدة في ديوانه، منها:

يا لها قبة تلالاً نوراً	ما حكاها السماك والمريخ
من يسمي تاريخها في دعاء	فليؤمّن عليه وهو مصيخ
خلد الله وجه أحمد، أمين	(وسلطان ملكه) التاربخ

وهذا التاريخ غير موافق.

(سنة ١٠٠٥هـ) فيها تم للباشا حسن بناء قبة البكرية بصنعاء.

وفيهما ظهرت دلائل قيام الإمام القاسم، فمنها ما ظهر للناس بصنعاء من سماع المنادي

في الليل (يا إمام، يا قاسم)، استمر مدة شهرين، فيقصدون إلى موضع النداء، فلا يجدون شيئاً، وكان القاسم مقيماً في صنعاء للتدريس بمسجد داود بن المكين، وليس له التفات إلى القيام بالإمامة، فإن بعض تلاميذه عرض عليه هذا الشأن، فأنكر قوله واستبعده لقوة الترك باليمن، وما هو عليه من الضعف وقلة الناصر وميل الناس إلى الحطام، ويأبى الله إلا ما يريد، فإن الباشا حسن ومن يحضرته لما سمعوا بقضية المناذي أقامهم وأقعدهم وحاولوا يتوصلون إلى معرفة القاسم بكل ممكن حتى قيل إنهم طلبوا من بُنيان المنجم الدلالة على موضعه، فأخبرهم. فخرج القاسم من صنعاء خائفاً يترقب ومعه رجلان من تلاميذه حتى وصل شبام كوكبان، وتوجه إلى بلاد الشرف، فاستقر في بلده ومحل أهله بلدة القويعة بالشاهل، وكان والده وجده من أنصار المطهر بن شرف الدين، وقتل جده في بعض حروب المطهر مع الأتراك بخوشان.

قال السيد عبد الله بن علي الوزير في طبق الحلوى، والذي سمع النداء للإمام القاسم هو الفقيه الزاهد العابد التقي عبد الهادي القويعي الحضرمي الشافعي المتوفى (سنة ١٠٦٨هـ).

قال في الجامع الوجيز: وكان الإمام القاسم قد حج (سنة ١٠٠٤هـ)، ثم رجع يجول في البلدان، فوصل أولاً إلى بلاد خولان، فلم يجد مرامه، ورحل إلى المشرق ببلاد الرصاص، ثم يافع، ثم الحجرية والمعاfer، ثم سمع بشريف من ذرية الإمام يحيى بن حمزة يقال له (صاحب الجعدي) من الصوفية أهل الكشف، فقصدته فحال دخوله عليه قال له: مرحباً بالإمام القاسم، فأنكر، فقال له: لا، بل أنت الإمام الداعي، وستملك البلاد وأولادك، ثم رجع القاسم إلى بعدان، ثم رباب، ثم آنس والحيمة.

وقال السيد الأديب محمد بن عبد الله شرف الدين - مؤرخاً إكمال البكيرية - سنة (١٠٠٥هـ):

شاد الوزير جامعاً	يلوح نواً ساطعاً
وقد أتى تاريخه	(لكل خير جامعاً)

(سنة ١٠٠٥هـ)

ومن التاريخ المرسوم على محراب البكيرية:

بنى جامعاً للإله وطرزه عسجدا
وفي الفتح أرخ (ترا هم ركعاً سجداً)

(١٠٠٥هـ)

ثم لما كان استيلاء الأتراك على اليمن في (آخر القرن الثالث عشر) كان من بعض الولاة العثمانيين زخرفة البكيرية وتحسينها في سنة (١٢٩٨هـ)، وأرخ ذلك بعض الأدباء، قيل: إنه السيد الشاب عبد الله بن إبراهيم بأبيات مرسومة على بابها، منها:

ذا جامع تاريخه جامع للفتح والنصر لذاك النقيب
عبد الحميد النذب سلطاننا سيف رسول الله ذاك الحبيب
لذا أتى تاريخ إكماله (نصر من الله يفتح قريب)

(سنة ١٢٩٨هـ)

وكانت الأتراك تقيم صلاة الجمعة والعيدين بالبكيرية، وكان للنساء التركيات مقصورة في الجانب الشرقي الجنوبي، وكان إمامه خوجة علامة فاضلاً، وكان معموراً بالعبادة والدرس، لا سيما في رمضان، تقام فيه صلاة التراويح ويضيق بالأتراك وأعوانهم؛ وللوالي وكبار معاونيه مقصورة في جنوبيه بدرج، وفي المناسبات كالمولد النبوي وجلس السلطان، تقام فيه حفلات فيغص بصروحه وحماه وتوزع الحلوى ونحوها، وكان يبيت الخوجة قريباً منه جنوباً، وكان من مات من كبراء العثمانية يدفن بالقبعة غربي الجامع كالوالي إسماعيل حافظ، أما أكثر الأتراك فيقبرون في مقبرة كبيرة مفتوحة شمالي البكيرية، وكانت دوائر الحكومة غربي البكيرية، فيخرج بعضهم للصلاة بها.

ولما دخل الإمام يحيى صنعاء (سنة ١٣٣٧هـ) تردد للصلاة بالبكيرية، وأمر بإقامتها وتعيين السادن والمؤذن والإمام بعد ذهاب الأتراك، وأجرى المقررات لولائها كغيرها من المساجد، وأمر بتطهير صرحها، ومنع دخول الناس إليه بنعالهم، كما كان. وقد كان وقع الشروع في إهمالها آخر أيام الأتراك، وسرق بعض مفروشاتها، ومن تعين لإمامتها السيد الفاضل علي بن أحمد أبو طالب من الروضة، ثم خلفه إلى الآن.

علي بن قاسم السنعاني

وفي (سنة ١٠٠٥هـ) توفي بصنعاء شيخ القاسم وغيره من الأعلام، القاضي العلامة المحقق علي بن قاسم بن جابر السنعاني الصنعاني، وكان له شهرة عظيمة وحظ كبير بفصل الخصومات، ولا يرضى أكثر الناس بغير حكمه، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وما زال ملطوفاً به من ضرر الأتراك مدرساً بمسجد داود، والناس يسلمون إليه زكواتهم ليفرقها في مستحقيها، وقبره جنوبي قصر صنعاء، كان عليه لوح فيه إن وفاته (سنة ١٠٠٥هـ).

وترجمه أبو الرجال في مطالع البدور ترجمة ذكر فيها ما له من القضايا في إنكار المنكرات أيام الأروام، ونقل منها الشوكاني في البدر الطالع، فقال: كان هو القائم بمذهب الزيدية أيام ولاية الأتراك على صنعاء، وكانوا يجتمعون إليه إلى مسجد داود بصنعاء ويأخذون عنه فقه الزيدية ويقصده أهل الأموال بالنذور الواسعة، فيصرف ذلك في تلاميذه، وبالغ أمراء الأتراك في اتصاله بهم، فلم يفعل. واتفق في أيامه قضية: هي أن بعض أولاد الأشراف بصنعاء دخل يتوضأ في مطاهر مسجد داود، فلم يشعر إلا بتركي قد دخل عليه، وأراد به الفاحشة، فطعنه بسكين، فمات، وخرج من المطاهر إلى المسجد، وصاحب الترجمة يُقرئ الطلبة، فسارَ بما وقع، فطلب من السَّاني أن يكثر المَسْنَى إلى المطاهر، وأمر بتغليق أبواب المطاهر، فملأ الماء ساحة المطاهر، ثم أمر بتقطيع التركي قطعاً صغاراً، وأخرج إلى محل بعيد.

ومما يحكى عنه أنه بلغه أن رجلاً من أهل صنعاء له ولدان جميلان، وأن لهما دكانين يقعدان فيهما، ويصل إليهما أهل الفساد من الأتراك، فتقع المعاصي والمغاي ونحوها هنالك، فقال صاحب الترجمة لرجل من أهل الصلاح له علاقة: هل يمكنك أن تدعي أن الدكانين لك وأحكم لك بهما؟ فقال: ليس لي فيهما ملك، فقال: قد علمت ذلك، ولكن هذا مما يُسوَّغ الشرع، ففعل الرجل ذلك، وحكم له صاحب الترجمة، وكان له من إنكار المنكرات قضايا مستحسنة، وله تلامذة نبلاء، منهم القاضي يوسف الحماطي.

وكان اعتماد أهل صنعاء في الفتاوى عليه ولهم فيه اعتقاد عظيم.

الحاج علي بن عبد الله الأسطى

ومن ذريته الحاج العالم الفاضل علي بن عبد الله بن حسين بن قاسم بن قاسم بن محمد بن أحمد بن القاضي العلامة الشيخ علي بن قاسم بن جابر السنحاني. مولده في (آخر رمضان سنة ١٣٢٩هـ) بحجر والده الحاج الفاضل عبد الله المتوفى في (ربيع الأول سنة ١٣٧٢هـ)، وكان أسطاً نجاراً كبيراً كأبيه وأسرته، بأمانة وخبرة كبيرة.

وقد درس الحاج علي بن عبد الله في الفقه وعلوم العربية والحديث والتفسير وعلوم القراءات لدن مشائخه عبد الخالق الأمير وأحمد زبارة وحسين المغزلي ويحيى الإرياني، ومحمد عبد الله شرف الدين، وحسين الرقيحي، وحسين الغيثي، وأجازوه وجوّد القرآن غيباً، وهو من الذين يمشون على الأرض هوناً، ويطالع في الكتب المفيدة، وهو شيخ قرآن حافظ، ويعمل كأسرته في النجارة بأمانة وإتقان، وعمل محاسن نجارة في مساجد لله، وقد وهب الله له ولداً صالحاً.

الحاج علي بن علي الأسطى

فاضل حسن السلوك كوالده. مولده في (٢٢ رمضان سنة ١٣٦٤هـ) بحجر والده وجده، وقد أعان والده في أعماله المبرورة، وهو مثل والده في الأمانة والخبرة العظيمة والإتقان، وقد وهب الله له أولاداً صالحين عبد الله ويحيى ومحمداً وإبراهيم.

الحاج محمد بن عبد الله الأسطى

والولد الثاني للحاج عبد الله، هو الحاج العزي محمد بن عبد الله بن حسين الأسطى. مولده (سنة ١٣٣٣هـ) درس كثيراً في كل الفنون سنين كثيرة حتى استفاد واستمر على المطالعة والدراسة، ومن مشائخه أحمد زبارة، وعبد الخالق الأمير، ويحيى الإرياني، ومحمد الفران، وحمود المؤيد، وغيرهم، وهو مثل أسرته في الفاضل وحسن السلوك والعمل في النجارة بأمانة وإتقان، وقد وهب الله له أولاداً صالحين عبد الله ويحيى ومحمداً. ولعبد الله ولدان محمد وإبراهيم، ويدرس في مسجد الجلا في عدة فنون.

الحاج حسن قاسم الأسطى

ومنهج الحاج حسن بن قاسم بن حسين بن قاسم بن قاسم بن محمد بن أحمد بن القاضي العلامة علي بن قاسم بن جابر السنحاني. مولده (سنة ١٣٢٦هـ)، وقد فتح الله عليه برزق واسع وعمر مسجد الأسطى في طريق عصر وجامعاً واسعاً في بني قُشيب شرقي الجراف مثل جامع الروضة، ووقف على المسجدين ما يكفيهما. وسبق أن هاجر إلى الحبشة سنين كثيرة وتزوج بها، وقد وهب الله له أولاداً صالحين محمداً، وقاسماً، وتوفيقاً، وسامياً، وعبد الرزاق، ولهم أولاد. وأخوه الحاج الفاضل عبدالله بن قاسم الأسطى، فاضل، حسن السلوك، أمين، خبير في عمل التجارة كأسرته، وفعل منابر لمساجد، وله ولد واحد.

(سنة ١٠٠٦هـ) في شهر محرم وقعت آية سماوية في بيت الفقيه الزيدية، وهي حصول رعد عظيم وبرق خاطف من غير مطر ونزل حجران من السماء، فوقعتا في محلين متقابلين بينهما نحو ميلين إذا حُكَّ أحدهما ظهر منه شبه الذهب والآخر شبه الفضة فسبحان القادر على ما يشاء.

وفي (صفر سنة ١٠٠٦هـ) كانت دعوة الإمام القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد بن أحمد بن الأمير الحسين الأملحي بن علي بن يحيى بن محمد بن يوسف الأشل بن القاسم بن الداعي يوسف بن يحيى بن الناصر أحمد بن الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم الرسي بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. مولده في (١٠ رمضان سنة ٩٦٧هـ) ودعوته في محل من بلاد حجور، يعرف بخديد قارة قبلي الشرف، وأجابه بتلك الجهة الشيخ أبو زيد وأصحابه وجماعة من الأهنوم وبنو عباس وغيرهم حتى اجتمع عنده نحو أربعمئة نفر؛ وكان العامل للأتراك في الشرف الأمير حسين بن ناصر، كان في سفر الحج فتقدم نائبه لحرب الإمام فهزمه أصحاب الإمام، ثم تقدم لمحاصرة حصن وشحة؛ ونما خير قيام الإمام إلى الباشا حسن وهو بالروضة، فعلم أن حوادث الأيام قد نظرت إليه بطرف غير نائم فرجع إلى صنعاء وبرزت خيام (الكبخيا) سنان إلى البستان الغربي خارج صنعاء، ثم وجه الباشا حسن الأمير عبدالله المعافى في عساكر كثيرة إلى الأهنوم فاستقر في المحجر.

وكان الأمير عبد الرحيم بن عبدالرحمن بن المطهر عاملاً على حجة وبلادها للأتراك فتوجهت عساكره لمحاربة الإمام، وانضم إليهم جميع عساكر الأروام في الشرف فأمر الإمام أصحابه المحاصرين الحصن وشحة بالاجتماع في حديد قارة، فاجتمعوا، ودمتهم العساكر، ووقع الحربُ فحصلت جراحات خفيفة في بعض أصحاب الإمام: كالسيد عبدالله بن هادي الحيداني، والسيد ناصر بن داود الظاعني، والشيخ علي بن وهان العذري؛ وتأخر الإمام إلى بعض الأودية، فاجتمع إليه أصحابه، ثم توجه إلى عذر وأمر بمحاربة من في قرن الوعر، فخرج منه السيد عبدالرحمن المدايري، وكان الأمير عبدالله المعافى قد أمره بحفظه، ولما عرف الإمام أن العساكر قد توجهت إليه فرّق أصحابه في البلدان وسار إلى برط، فعلم به (قرى جُمعة) نائب الباشا بصعدة، فبذل للشيخ عُبيد البرطي وجماعته مالاً جزيلاً في قبض الإمام، فأحضره إلى الإمام وأخبره الخبر، وأرجع المال إلى قرى جُمعة، فشكره الإمام، وكان الأمير مطهر بن الشويح عاملاً للباشا على الظاهر، وعنده أمراء كالأمير عبدالله بن المطهر وغيره، فأمدّه الباشا بعسكر وأمره بتنفيذهم مع من عنده إلى الأهنوم، فلما وصلوا (أخرف) أقبل عليهم أصحاب الإمام مع الحاج أحمد الشاطبي والحاج أحمد بن علي دعيس، وهم ألف نفر، من غربان، والظاهر، وحاشد، وبكيل فقتلوا من أصحاب مطهر بن الشويح ستة عشر رجلاً، وانتهبوا سلاحهم وحصروهم إلى أن أغار عليهم مطهر بن الشويح بنفسه من خمر فاستنقذهم. وفي هذه السنة دخل أهل الحيمة في طاعة الإمام وقائدهم الفقيه المجاهد يوسف بن علي الحماطي.

أسر الفقيه يوسف الحماطي وقتله

فنهض (الكخيخيا سنان) إلى حضور. وكان الحماطي قد كتب إلى الإمام يُخبره بطاعة أهل الحيمة واستمد منه الإعانة، فبعث إليه عمه السيد عامر بن علي، والسيد محمد بن علي بن الحسين بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى، وهو المعروف بالقراع، فنوّض الفقيه يوسف الأمر إلى السيد عامر، واجتمع الناس إليه وأطاعوه واستقر في الحيمة، فقصده محطة الأروام خيلاً ورجلاً وقائدهم الأمير إبراهيم طويل، والشيخ عبدالله

الرَّمَّاح إلى محل يعرف بالسلف، وتلقاهم السيد عامرٌ وأهل الحيمة إلى جبل الثورين، ووقعت بينهم معركة عظيمة، واتصل السيد القراع ببعض أصحاب الرَّمَّاح، فمالوا إليه وحملوا على محطة الأروام، فقتلوا قائدَهم الأمير إبراهيم طويل، واستولوا على خزانة، وكانت وقر سبعين جَمَلًا، وطلب الشيخ عبدالله الرماح الأمان لنفسه ومن بقي معه فأمنهم السيد عامر، فخرج بمن عنده وكانوا زهاء ألف وخمسمائة راجل ونحو سبعين فارساً، ثم تقدم السيد عامر بمن معه إلى جبل بيت خولان، فقصده (الكيخيا سنان) ومن انضم إليه من قبائل سَنَحان، وخولان، وهمدان، ووقع حرب شديد، قتل فيه من أصحاب السيد عامر نحو (سبعين رجلاً)، واستولى سنان على قرية بيت خولان وبيت معدن.

ثم عطف السيد عامر وأصحابه في ذلك اليوم وأبلوا بلاءً حسناً وحمل الشيخ محمد بن ناصر صاحبُ الأُحُوب فقتل من أصحاب سنان عدة وكادوا يستولون على سنان، فوصلت إليه غارة كوكبان، فتأخر السيد عامر وأصحابه إلى عَرَبِ بني الأعطب، وتقدم سنان إلى جبل الثورين واشتدت وطأته على من ظفر به من أهل الحيمة، فجعل يقتل كلَّ أسير أُتِيَ به إليه، حتى لقد أتى بطفلة صغيرة فأمر بسلخها بعد أن استجارت بأهل كوكبان فلم يجيروها.

وتقدم الفقيه يوسف الحماطي إلى آنس ومنه إلى ذمار فجهَّز عليه الباشا عسكرياً مع رجل يعرف بالواعظ، وكان متنسكاً بجامع صنعاء مالت به الدنيا، فخرج الحماطي خارجَ ذمار فقصده الواعظ وحصره حتى خرج إليه فأرسله إلى صنعاء، فمات في السجن وقتل ممن كان معه الفقيه محمد بن عبدالله العياني النسري من العيانة بلاد الثلث حراز، وهو الذي ذكره الإمام القاسم في قصيدته التي أولها:

سَحَّتْ مَدَامُ مَقْلَةُ المَجْرُوحِ لَدِمَ لآلُ المِصْطَفَى مَسْفُوحِ

حتى قال فيه: ومن العيانة عابِدٌ مُتَبَتِّلٌ .. إلخ.

ولما وقع الحرب المتقدم ذكره في أخرف وقتل فيه من أصحاب أمير الأتراك مطهر بن الشويح (١٦ رجلاً)، كتب الحاج أحمد بن علي دعيس إلى الإمام القاسم يستدعيه من برط ويخبره بما وقع.

وكان الأروام الذين خرجوا مع الفقيه عبدالله المعافى من صنعاء إلى المهجر قد تقدموا إلى وادعة، وحشدوا قبائل الأهنوم وغيرهم حتى بلغوا (أربعة عشر ألفاً)، ودخلوا الحصن فانتهبوه وأخربوا بعض بيوته، وجعل الأمير حسن بن ناصر الغرباني يغير عليهم بمن اجتمع إليه من أهل وادعة وشطب وغيرهما.

وفي خلال ذلك وصل الإمام إلى شاطب، فرجع أهل الأهنوم الذين كانوا مع محطة الأتراك بوادعة إلى بلادهم وأظهروا الدعاء للإمام والميل إليه، وانضم إليهم أهل ظليمة وعذر، ثم تقدم الإمام إلى المحراب ودخل في طاعته أهل المهجر، وتقدم السيد العلامة إبراهيم بن المهدي جحاف، والفقيه علي بن محمد الشهاري عن رأي الإمام بقبائل الأهنوم وعذر وظليمة إلى شطب وجبل بني حجاج والموسم. وكان في السودة عسكر من الأروام قدر (أربعمئة نفر)، فوقع بينهم وبين أصحاب الإمام حرب في جبل بني حجاج، قُتل فيه من أصحاب الإمام (ثلاثة أنفار).

ولم يزل أصحاب الإمام يشنون عليهم الغارات حتى دخلوا في طاعة الإمام ولم يبق في السودة إلا الأمير عبدالله المعافى. ولما استقر الإمام في الأهنوم بعث السيد عبدالله بن هادي الحيداني والقاضي حسن بن علي البشاري وغيرهما بعسكر إلى بلاد الشرف، فأجابه أهل حجور وعاهم وظاعن، فوقع بينهم وبين عسكر الأروام وأصحاب عبد الرحيم حرب في بلاد الشرف انهزم فيه عسكر الأروام وأصحاب عبد الرحيم وانتهبت أوقالهم.

وفتح أصحاب الإمام حجة وطووا ما قابلهم من الجهة اليمانية إلى أن بلغوا جبل تيس، ومنهم من تقدم إلى غفار وبعضهم أقام الحصار على الأروام في نعمان حجة حتى خرجوا إليهم وبعثوا بهم إلى الإمام تحت الأسر.

وأقام السيد عبدالله الخيواني الحرب على الذنوب ومبين، وفيه عبد الرحيم، فخرج متجهاً إلى الإمام في (خمسمائة) من أهل الجبر وغيرهم، أكثرهم بينادق، فأكرمه الإمام ثم أخذ عليه العهد مع البيعة وأمره بالتقدم إلى جبل عيال يزيد؛ لمحاربة سنان في عمران، فأضمر في نفسه الخديعة للإمام وراسل سناناً سراً إلى أن يتنحى عن عمران، فمضى دخلها بمن معه من أصحاب الإمام رجع سنان للقبض عليهم، فعرف بمكيدته بعض أصحاب

الإمام فأشار إلى بقية أصحابه فتأخروا عن عبد الرحيم، وتقدم إلى عمران بخاصته فقط وفاته ما أراد.

وفي هذه السنة أخذ السيد شرف بن حسن الكحلاني من أصحاب الإمام حصن ثلا ومُدَع وبلادهما، فخشي سنان على أصحابه الذين في مته وجبل الثورين من السيد عامر بن علي، فرفعهم إلى صنعاء.

واستولى الإمام في هذا العام على كثير من المعاقل كشهارة والسودة وغيرهما. وخرج ابن المعافى إلى حضرة الإمام. ولم يبق في يد الأروام من المدن الكبار إلا صنعاء وصعدة، ومن البلاد اليمن الأسفل وقهامة. ولما استقر الإمام في حصن السودة أراد ناصر البهيلة صاحب حصن حقل أحد خواص عبد الرحيم المكر بالإمام، فاستدعاه ليسلم حصنه إليه، فسار إليه الإمام بنفسه، وكان أشار عليه بعض أصحابه أن لا يأمن مكره، فلم يُسعد، فلما وصل قُرب الحصن رماه البهيلة بثلاث رصاصات دفعة واحدة، فسلمه الله منها وعاد إلى السودة.

وفي هذه الأيام أمر الباشا حسن الواعظ ومعه الأمير أحمد الأدرن بالخروج إلى أسناف وما إليها ولم يكن للواعظ معرفة بالحرب ولا ثبات.

وكان الحاج أحمد بن عواض الأسدي قد جمع خولان وغيرهم بعد أن أحابوا الإمام، فلما استقروا في أسناف قصدهم الحاج أحمد الأسدي، فقتلوا الأدرن وعدة من العسكر، وانتهبوا المحطة وغنموا الزبارط والبنادق، وفرَّ الواعظ ومن بقي منهزمين، وبطلت رئاسة الواعظ وأهانوه وظهر للباشا عدم معرفته بالحرب، وأن فعلته مع الحماطي كانت اتفاقية فأودعه السجن في ذي مرمر وبعد مدة أمر سنان بضرب عنقه.

وفي شوال استقر السيد عامر في موضع يقال له معفور الحصان قرب كوكبان، فقصد السيد أحمد بن محمد بن شمس الدين ومن معه، فأنزل الله مطراً أطفأ فتيل البنادق، وعند السيد عامر جنود كثيرة، فخرجوا فيهم بالسيف، ورجع أحمد بن محمد إلى كوكبان. وقتل من أصحابه السيد لطف الباري بن محمد بن عبد الله شرف السدين والسيد الهادي بن رضي الدين، وأسِر السيد علي بن الحسن بن علي بن الإمام شرف الدين، وقصد السيد عامر أحمد بن محمد، وكاد أن يستأصله، فما خرج إلا من تحت

السيف، ودخل السيد عامر إلى جبل تيس بأهل الحيمة ومن معهم واستولى على تلك الأقطار، ولم يبق لأحمد بن محمد إلا حصن كوكبان والطويلة.

وفي هذه المدة ثار أهل يافع على عامل الباشا وهو الأمير أحمد، وكان مستقراً في الحلقة، فوجّه إليهم الباشا الأمير عبدالله بن المطهر وغيره من الأمراء في عسكر كبير، فلما قربوا من الحلقة، أقبلت عليهم قبائل يافع من كل مكان، ووقعت بينهم معركة عظيمة في نجد السلف، وهو الحد فيما بين بلاد الرصاص وقيفة وقُتل كثير من الأروام ونُهبت خزائنهم ورجع بقيتهم إلى رداغ، وقُتل الأمير أحمد الذي كان في حصن الحلقة. وفيها خرج (الكيخيا سنان) إلى هِزَم من أرحب فأخرب أهلها ونالتهم منه معرة، وكان أكثر الضرر عليهم من أهل همدان لعداوة بينهم وخرج من كان عندهم من أصحاب الإمام وجاءت الغارة من الحاج أحمد الأسدي بخولان فاشتد الحرب ونصب سنان المدافع.

الوفيات سنة ١٠٠٦هـ

في (سنة ١٠٠٦هـ) توفي بالشاهل السيد العلامة علي بن إبراهيم بن علي القاسمي الملقب العالم، عن (٧٦ سنة) من مولده (سنة ٩٣٠هـ) في ١٣ صفر كما في الطبقات، أخذ بصنعاء عن ابن رافع في الفقه والفرائض وغيرهما. وأخذ عنه الإمام القاسم ووفاته بعد دعوة الإمام بشهرين.

وقال في اللآلئ المضيئة: إن هذا السيد العالم الفاضل علي بن إبراهيم بن علي بن المهدي بن صلاح بن علي بن أحمد بن الإمام محمد بن جعفر بن الحسين بن فليته بن علي بن الحسين بن أبي البركات بن الحسين بن يحيى بن علي بن القاسم بن محمد بن القاسم الرسي بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب - وهو المعروف بالعالم - كان قيامه في (سنة ٩٨٠هـ) وكانت له وقعات مع المتوكلين للشرف من جهة الأتراك مرجان شاوش، وكان مع العالم أيضاً العابد، وهو الإمام علي بن إبراهيم بن علي بن محمد بن صلاح بن محمد بن أحمد بن القاسم بن يحيى بن الأمير داود بن يحيى بن عبدالله بن القاسم بن سليمان بن علي بن

محمد بن يحيى بن القاسم الحرازي بن محمد بن الإمام القاسم الرسي. ولما عاد أهل الشرف إلى مسالة مرجان سكن هذا السيد علي العالم بمحله في الشاهل، فاحتال في ضبطه أولاد المطهر وأطلعوه إلى حصن ذي مرمر ثم نقلوه إلى حصن مدوم الشرف على حالة جليلة يُقرئ العلوم وأطلقوه وسكن بيته بقرية الجاهلي من الشاهل، وعند دعوة الإمام القاسم أجابه ثم مات في ربيع الآخر (سنة ١٠٠٦ هـ) وقبره بقرية المذكورة وبجانبه ولده السيد العلامة محمد بن علي.

محمد بن علي الشكايزي

وفي (سنة ١٠٠٦ هـ) توفي بصنعاء القاضي العلامة محمد بن علي الشكايزي الذماري. وهو العالم الزاهد المتبتل، أخذ عن والده وغيره؛ وعنه إبراهيم بن يحيى بن محمد السحولي، وأحمد بن عبد الله الغشم وغيرهما.

ولما كانت دعوة الإمام القاسم خاف العجم من صاحب الترجمة فأطلعوه من دمار إلى صنعاء، وكان يبقى في مسجد أبي الروم بصنعاء، ولما ظهرت قصيدته المعروفة في تحريض المسلمين على الجهاد مع الإمام القاسم، اغتالته العجم بالسهم كما أخبر تلميذه أحمد الغشم، وقبر بجرة الروض، ثم قبر بجانبه تلميذه أحمد بن عبد الله الغشم، وقصيدته المشار إليها تلحق إن شاء الله.

حوادث سنة ١٠٠٧ هـ

في (محرم سنة ١٠٠٧ هـ) وجه الإمام القاسم السيد عبد الله بن محمد الحرازي في عسكر كثير إلى الجهة الصعدية لمحاربة السيد محمد بن عبد الله - المعروف بأبي علامة - وكان في ابتداء أمره من أعوان الإمام، فوقع بينه وبين عامل الإمام تفاوت على رازح آل إلى الحرب، وأسر عامل الإمام. ولما التقى أبو علامة والقائد الحرازي انهزم أبو علامة إلى قراض، ثم والى الأتراك الذين في صعدة وجعلوا إليه ولاية خولان صعدة، فرجع إلى قلعة فقصد أصحاب الإمام وأمدد الأروام من صعدة، فرجع أصحاب الإمام عن تلك الجهة، ولم يزل موالياً للأتراك إلى أن استفتحت صنعاء.

وفيهما غزا الحاج أحمد بن عواض الأسدي بخولان إلى محطة (الكينخيا سنان) في خزيمة

جنوبي صنعاء عند البستان، فحصلت معه ومع أهل صنعاء روعة عظيمة وضربوا بالزبارط، وخرج خواص الباشا حسن للغارة.

وفيها توجه (الكيخيا سنان) إلى ثلا لمحاصرة السيد الحسن بن شرف الدين الكحلاني عامل الإمام. وتقدم سنان لإعانة الأمير أحمد بن محمد واسترجاع بلاده، وحط بموضع يقال له: أننود غربي الضلع.

فتأخر أصحاب الإمام المحاصرون لحصن الطويلة، وتوجه سنان لمحاصرة من في حصن مدع، ولم يزل يستميل القبائل بالمال. ثم وجه عسكره إلى بيت عداقة فوقع بينهم وبين أصحاب الإمام حرب، هنالك قتل فيه من أعيان أصحاب الإمام السيدان المجاهدان الأخوان أحمد بن محمد المحراري، وأخوه علي بن محمد، وهما القائدان ودفنا في بيت ريب في جبل مسور وانهمز الباقون، وقتل قتلى من الفريقين، وخرج من مدع بأمان. وبعد أيام طلب السيد الحسن الكحلاني الخروج من ثلا على يد الأمير أحمد بن محمد، وكان سنان قد انتقل إلى حمر، فرجع إلى ثلا وخرج السيد الحسن إلى يده، فتقدم به سنان إلى كوكبان، ولبت تحت الأسر، وحضر سنان وليمة السيد محمد بن أحمد بن محمد بابنة عبد الرحيم بن عبد الرحمن ثم رجع حمر.

وفي هذه الأيام بعث الإمام ولده محمداً في جماعة من الأعيان والعساكر إلى ظفير حجة، فمر بصبرة ونيسا، وجعل في نيسا جماعة من العسكر، ثم تقدم إلى الظفير، فاستقر فيه والحرب قائمة على عبد الرحيم في مبين و(الكيخيا سنان) يمدد بالعساكر، فلما توافروا لديه تقدم على أصحاب الإمام في نيسا، فلم يظفر بهم، فرجع لمحاربة الظفير وشدد في حصاره وأصابته رصاصة في شذقه ذهبت منها أضراسه، ولما اشتد الحصار على أهل الظفير وعلموا أنهم إن خرجوا إلى يد عبد الرحيم لم يبق منهم أحداً لشدة غيظه عليهم كتبوا إلى سنان أن يرسل إليهم الأمير عبدالله بن المطهر، فتقدم بهم إلى سنان فأكرمهم في ذلك الأوان واستبقاهم حتى رجع صنعاء فأودعهم السجن ومات أكثرهم فيه، وبقي بقيتهم إلى الصلح الواقع بين الإمام وجعفر باشا بعد سنين.

وأما محمد بن الإمام فرجع سالماً إلى أبيه.

وفي هذه الأيام انتقل سنان إلى الصرارة وجعل يستميل مشائخ تلك الجهات بالذهب

الأحمر المغشوش حتى أفسدهم، ثم قدّم عسكره إلى السودة والإمام يومئذ بها متأهب للحرب، فأدرك من عبدالله المعافى الليل إلى سنان. وكان الإمام قد خرج من حصن السودة في بعض الأيام ثم رجع فمنعه المعافى عن الدخول، فتوجه إلى المحراب بالأهتوم، واستولى عسكر سنان على السودة وسار المعافى إلى سنان فأكرمه وضاعف له الإحسان.

وفي هذه الأيام وجّه الباشا حسن قدر (خمسمائة) من العساكر، فيهم الشيخ حميد صاحب ريمة حميد إلى وادي الفروات فأقبل عليهم الحاج أحمد الأسدي بخولان وغيرهم، فقتلهم عن آخرهم ومال الناس بعد هذه الفتكة إلى موالة الإمام. وفي هذه الأيام توجه السيد عامر إلى حضرة الإمام فأمره بالتقدم إلى خولان، فسار إليها عن طريق نهم ثم تقدم إلى أنس ثم الحيمة، وقصد بأهل الحيمة جبل تيس فاستفتحته تارة أخرى وضيق على الأمير أحمد بن محمد فنهض إلى الطويلة والسيد عامر يتردد في بلاده حتى وصل الحويت ولبت بها يومين، ورجع إلى محل بني حيش يُعرف بالغذية، فتزوج فيها وحاصر من في الأكمة من أصحاب الأمير أحمد حتى كاد أن يستولي على المحصورين، فوجّه الأمير أحمد الشيخ عبدالله الرواسي وبعض النقباء لتخليص المحصورين بالأكمة، فمروا بالغذية، ولا علم لهم أن السيد عامر فيها، فأحرقهم به امرأة، فمالوا عليه وأحاطوا به من كل جانب. وكان قد أشار عليه بعض أصحابه بالانتقال، فلم يسعد ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فقبضوه أسيراً ودخلوا به إلى الأكمة التي فيها المحصورون، وأشعروا أصحابه بأسره ففشلوا وهزموا وقُتل منهم قدر ستين أكثرهم من بني عمرو وأهل الحيمة، وتردّى بعضهم في الشواحق وأسر منهم سبعة، وتقدم الرواسي وأصحابه بالسيد عامر إلى الأمير أحمد فعاتبه وذكر له إحسانه إليه أيام إقامته بكوكبان، ثم بعث به وبالأسرى إلى سنان وهو في خمر فقتل الأسرى وسلخ جلد السيد عامر وأسيرين، ودفن جسده في خمر، وعليه الآن مشهد، وفَتَّ قتلَه في عَصُد الإمام، ورثاه بالقصيدة الطويلة: سحت مدامع مقلة المجروح.. إلخ.

وفي مطلع البدور لأبي الرجال والبدر الطالع للشوكاني أن سلخ السيد عامر في (١٥ رجب سنة ١٠٠٨ هـ) عن ٤٣ سنة وأشهر؛ لأن مولده (سنة ٩٦٥ هـ). وأنه قرأ على القاضي العلامة عبد الرحمن الرجعي، وقرأ الغريب والكشاف على السيد عثمان بن علي

بن الإمام شرف الدين بشبام وأن مشهد جسمه بمدينة خمر وقبر رأسه وجلده في باب اليمن بصنعاء شرقي الباب من خارجه، ومن المراثي فيه:

أزائر هذا القبر من جئت زائراً	ونلت به سهماً من الأجر قامراً
وأديت حق المصطفى ووصيه	وأهليه لما زرت والله عامراً
سليل الكرام الشم من آل أحمد	ومن كان للدين الحنفي عامراً
وعم الإمام القاسم بن محمد	إمام الهدى من قام للحق ناصراً
ومن شدّ أزراً منه حين دعا إلى	رضى ربه أكرم بذلك آزراً
فقلده المنصور سيفاً مهنداً	وكان له في وجهه أعداء شاهراً
فجاهد في الرحمن حق جهاده	وبأين من أضحي عن الحق سادراً

إلخ...

وفي هذه السنة وصل الباشا علي من الحبشة إلى اليمن، فوقف في القبتين وكتب إلى سنان أن يلقاه إلى بلاد خولان، فدخل سنان من قبلي بلاد خولان والباشا علي من جنوبها، واشتد غيظ سنان على أهل خولان خصوصاً الفقهاء؛ لأنهم الذين يخرضون القبائل على طاعة الإمام، فخرج الفقهاء إلى (بذيدة) واضطر بعضهم إلى تغيير زيّه، ثم رجع الباشا علي إلى دمار وبني بها الدار المعروفة، ورجع سنان إلى صنعاء ولبت بها أيام عيد النحر ثم توجه لاستفتاح الحيمة، فاستقر في جبل الثورين.

وفي هذه المدة وقع حرب بين أهل خبان وبين من لديهم من الأتراك وقتل من الفريقين نحو خمسين نفراً، وفيها تسلم عبد الرحيم حصن ذروان حجة وأخره.

وفيات سنة ١٠٠٧هـ

تقدم قريباً في حوادث السنة من ترجمة السيد الشهيد عامر بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد عم الإمام، ونأمل له ترجمة وافية.

أحمد بن محمد المحرابي

في (٩ ربيع الأول سنة ١٠٠٧هـ) استشهد السيد الإمام أحمد بن محمد بن علي

المحاربي مع جماعة من المجاهدين في بيت عذاقة من مَسَوْر، وكان هذا السيد علامةً كبيراً فاضلاً شهيراً.

يقال: إن الإمام القاسم لم يقم حتى عرض عليه الدعوة. وقال في اللآلئ المضيئة: إنه استشهد معه صنوه علي بن محمد بن علي وقطعت رأسهما وخمسة وأربعين نفرًا من أصحابه وأن قتله كان رزءًا في الإسلام جليلاً، فإنه كان قد جمع من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والكرم وحسن البشر والإيثار على النفس والتواضع والوفا بالحقوق ولين الجانب وسعة الصدر والهمة العالية والنفس الأبية؛ ما تكل الأعلام عن رقمه. وبلغ رتبة الاجتهاد في العلم، وقرأ في جميع الفنون وتجرّد للتدريس اثنتي عشرة سنة.

حوادث سنة ١٠٠٨هـ

فيها نهض الباشا علي الواصل من الحبشة لاستفتاح بلاد ريمة، فلما وصل نقيل بني الطليلي ثار عليه أهل تلك الجهة فقتلوه في آخر القوم، بحيث لم يعلم بقتله من تقدمه من أصحابه؛ لضيق المحل والتقاء أشجاره حتى خالطتهم القبائل وانتهبوا سلاحهم واستولوا على خزائن الباشا، وتوجه بعض أصحابه إلى رصاب بأمان من أهل البلاد. ولما بلغ الباشا سنان قتل الباشا علي رجع من عر الحيمة إلى صنعاء. وخرج الفقيه علي بن يوسف الحماطي في أهل الحيمة إلى أنس، فاستدعاه أهل حصن مسار حراز، فسار إليهم، فلما استقر في الحصن عظم الأمر على الأروام وما زالوا يبعثون العساكر لحربه حتى قُتل قائدهم النقيب سعدان وقتل معه من الأروام قدر ثمانمائة نفر في مدة المحاصرة.

وفيها اجتمع أصحاب الإمام في بلاد صعدة وقصدوا من فيها من الأروام وقائدهم يومئذ الأمير مصطفى، فخرج إليهم وناوشهم القتال فقتل من الفريقين جماعة، وانهمزم أصحاب الإمام إلى بعض الجبال، وانحصر بقيتهم في بيوت رحبان، ثم خرجوا إلى يد مصطفى بأمان، فمال عليهم بعد الأمان فقتلهم عن آخرهم، وهم زهاء ستمائة نفر، وأسر العالم علي بن محمد بن الهادي الجديري - نسبة إلى جذيرة قرية من بلاد خولان - وأودعهُ السجن، ثم قتله، فلم يمهلهُ الله بل مات بعد أسبوع ويُروى أنه كان يقول عند النزاع: (كان يا سيد علي).

وفيات سنة ١٠٠٨هـ

فيها مات السيد العلامة الأديب الكبير محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين في ذنوب حجة. وله الديوانان المشهوران الحكمي والحميني، وقيل: إن وفاته (سنة ١٠١٠هـ)، وأرخه السيد عيسى بن لطف الله بن المطهر (سنة ١٠١٦هـ) وسيأتي له ذكر (سنة ١٠٤٨هـ) عند ذكر وفاة السيد عيسى لمناسبة هناك، وهو الذي جرت بينه وبين الإمام القاسم قصائد المهاجاة.

إبراهيم بن محمد بن مسعود

وفي (ربيع الأول من سنة ١٠٠٨هـ) توفي بالظهاروين من حجة الشيخ العلامة إبراهيم بن محمد بن مسعود الحوالي، وهو شيخ الإمام القاسم، والسيد محمد بن عز الدين المفتي، والقاضي عامر الذماري وغيرهم. قال في الطبقات: كان من العلماء الأكابر في مغارب حجة ونواحيها، وسكن الظهاروين. وقبره بقرب قبر القاضي علي الحميري، ورثاه السيد محمد بن عبد الله بن شرف الدين بقصيدة أولها:

تَبَيَّنْتُ أَنَّ الْحَرِيرَ إِبْرَاهِيمًا أَزْكَى الْوَرَى سَمْنًا وَأَكْرَمَ سِيمَا
عَلِمَ الشَّرِيعَةَ خَيْرَ أَرْبَابِ الْحِجَى خَلَقًا وَخُلُقًا كَالرَّبِيعِ وَسِيمَا
إلخ..

الشيخ ياقوت الحنفي

وفيها توفي الشيخ ياقوت الحنفي. كان مملوكاً لعلي بن الإمام شرف الدين، ثم تفقه على مذهب الحنفية في الفروع. وفي الأصول على مذهب الأشعرية، وأعتقه سيده، وصنّف كتاباً في التصوّف، وإباحة السماع، وكان أولاً من عبيد الإمام شرف الدين ومن أدرك أيامه ومدته. ومات بخصن مَبِين حجة، وجرت بينه وبين محمد بن عبد الله بن الإمام قصائد في ذلك.

حوادث سنة ١٠٠٩هـ

فيها جمع الباشا حسن جميع الجيوش الجرارة لاستفتاح شهارة، وجعل قائدهم الأمير عبد الله المعافى وأولاده، فمرّ ببلاد غشم بني صريم فأخربها، ودخل ظليمة، وأخرب حبوراً، وتقدم إلى نجد بني حمزة وأقام الحصار على شهارة قدر (سنة وثلاثة أشهر) حتّى نفذ ما فيها من الطعام وغيره.

واضطّر محمد بن الإمام القاسم وأهل شهارة إلى المصالحة على يد أمراء كوكبان على أن ابن الإمام وخاصته ينتقلون إلى كوكبان: وبقيّة أهل شهارة ينتقلون إلى حيث يريدون. وكان الإمام القاسم قد اضطّر للخروج من شهارة وولده الحسنان والفقير علي بن محمد الشهاري والشيخ علي بن وهّان العذري إلى برط.

من رسالة أميرة المداح السعودية:

وقد لخصت الكاتبة القديرة (أميرة علي المداح) السعودية، في رسالتها الجامعية (العثمانيون والإمام القاسم) هذه الحوادث أحسن تلخيص من سيرة الجرُموزي واللالئي المضيفة وغيرهما. فقالت: إن العثمانيين أرسلوا على الإمام بشهارة (سنة ١٠٠٩هـ) الحملة تلو الحملة، وحاصروها من (٣ شوال) وجعلوا عليها الحراس من العثمانيين والعرب، فقائد العثمانيين ذو الفقار وعبد الله بن يحيى المعافى بعد أن والاه الأهنوم إلا شهرتين وجماعة من مشائخ الأهنوم انحازوا إلى الإمام، وجعل أميراً من العثمانيين يسمى رمضان فيما بين شهارة ونجد بني حمزة في عسكر كثير، ووجه الأمير ذو الفقار إلى جيمية شرق شهارة، ورتب جميع جوانب شهارة لكي يظفروا بالإمام، لكن دون طائل. خلال ذلك وقعت عدة وقعات منها وقعة (المخافر) (سنة ١٠١٠هـ) سنة ١٦٠٢م). فقد جهّز ابن المعافى جيشاً في مكان يسمى المخافر - عبارة عن أكمة - وبذل الأموال الطائلة للعسكر ليثبتوا، وعمرّوا أربعين موضعاً، وجلبوا أهل الأهنوم للعمارة وجلبوا الأخشاب والأبواب من كل مكان. ولما استقروا في المكان خرجت عليهم جماعة من شهارة وأصحاب الإمام نحو مائة نفر لتخريب المكان، ولكنهم لم يستطيعوا لقوة العثمانيين، ورغم ذلك فإنهم حاربوهم يوماً كاملاً، وكان سلاحهم الحجارة من فوق

المكان حتى انتهت المعركة بقتل رئيسهم الآغا محمد، فتركوا المكان وما به من خيام نحو تسع خيام أخذها أصحاب الإمام ونصبوها في شهارة عند الإمام في نفس (سنة ١٠١٠ هـ - سنة ١٦٠٢ م)، وعمل ذو الفقار على قطع طرق الاتصال بين شهارة الفيش وشهارة الأمير، ونصب مترساً مرتفعاً وحصنه، فلما علم الإمام بذلك اجتمع مع أهل الشهارتين وطلب منهم الاستعداد للقتال وأن يهبوا له أعمازهم ذلك اليوم، فكان له ما أراد واستعدوا لتخريب المترس هذا.

فزل الإمام معهم حتى ركزهم بالقرب من حصن المنصورة. فلما أكملوا التعبئة كبروا والتقى الفريقان فرماهم العثمانيون بالبنادق واختلط الرجال ودخان البنادق وشعاع النيران حتى صار الضوء كالشمس وخسفت القمر فأظلم المكان، ورجع أصحاب الإمام بعد أن هزموا العثمانيين وأخربوا المترس، ولم تكن خسائرهم كبيرة.

[نهاية النهضة الأولى للإمام القاسم]

استمرت الحروب المتتالية على شهارة طول مدة الحصار، فكان بعض أصحاب الإمام يتزلون على بعض مواقع العثمانيين فيأخذون ما فيها ويقتلون من يتعرض لهم، وكانت الحرب سجالاً.

ونظراً لطول مدة الحصار وقلة المؤن في شهارة اختفى الإمام في كهف بالقرب من المنصورة بشهارة، وكان الحاج أحمد بن علي بن دغيش الغشمي يرسل السعاة سراً في البلاد الخاضعة للإمام ليجمع المؤن والزاد للإمام ويعطيها للحاج سالم الحكمي والحاج محمد بن زياد - وهم من بلد قريب من شهارة الفيش - ليصلوا بهذه المؤن للإمام لمعرفة الطريق. وكان الإمام يتزل إليهم ليأخذ ما معهم بعد التأكد منهم.

ولما طالت مدة الحصار وعانت شهارة من قلة المؤن أكثر فأكثر يئس الإمام من التفريج على شهارة فوجد أن الحل الوحيد هو خروجه منها ليسهل رفع الحصار عنها ودخول المؤن لأهلها. وبعد أن شاور أصحابه في كيفية الخروج، واجتمع رأيهم خسرَج الإمام في يوم (٣ شوال سنة ١٠١٠ هـ - سنة ١٦٠٢ م)، وفرح أصحابه بذلك، وصحب معه الفقيه علي الشهاري والرئيس علي بن وهَّان العذري وترك أبناءه محمداً والحسن

والحسينَ وعلياً وأحمدَ وترك خطاباً عند الشيخ إبراهيم بن المهدي الجحافي ليحجب عن مطالب أهل شهارة وما يحتاجون إليه.

وجد الإمام وأصحابه الكثير من المشاق في الخروج من شهارة إلى جهات برط لشدة الحراسة على شهارة من قبل العثمانيين وصعوبة الهبوط في الليل لعسرها وطول مساحتها وعدم معرفة الطرق ليلاً إذ كانوا يسرون ليلاً ويخفون نهاراً. فلما وصلوا بلاد بني سفيان وبها أمير من العثمانيين اختبأوا في مغارة عظيمة. وكان هناك شيخان من نهم هما الشيخ سريع والشيخ سعيد عملاً على إخفاء الإمام في تلك المغارة وما جاء إليها أحدٌ إلا صرفاه، وكان العثمانيون كلما اختفى الإمام عن أعينهم شددوا في الحراسة، فكانوا يخرجون الخيل تطوف حول الأماكن لتستطلع أخبار الإمام.

ولما جاء الليل خرجوا إلى البطنة فسمعوا صوت الخيل فاخفوا حيث أمضوا ليلتهم. وكان نعل الإمام قد سقط فقطع الطريق وهو حافي القدمين فشق عليه المشي حتى أنه قطع من ثيابه على أقدامه وأكمل سيره في الليلة الثانية حتى وصلوا حوث وطلعوا الجبل الأسود من بلاد سفيان. وأشعلوا النار فوق الجبل لتدل من في شهارة أنهم وصلوا بأمان ففرح أهل شهارة بسلامة وصول الإمام. وفرح ولده محمد وأظهر البشرى. ثم ارتحل الإمام إلى برط (برط جبل متين واسع الأطراف في رأسه أودية زراعية وآبار جوفية يُزرع فيه العنب ومن الشمال يشرف على نجران) ولما وصل هناك احتفر بئراً وبني مسجداً جعله مقراً لدعوته وسمي الموضع (الهجرة) وهو قريب من ذي محمد بطن من بطون برط. والتفت حوله بعض أتباعه من العلماء والفقهاء وقصده مريدوه من كل أنحاء البلاد لتلقي تعاليمه أو لتسليمه الأموال والنذور التي يتبرع بها أتباعه.

بقي الإمام في برط بعض الوقت بعيداً عن متناول العثمانيين حتى أتيت له الفرصة لإعلان الحرب ثانية. غير أن إقامته هناك لم تكن آمنة تماماً. فقد تبرم بعض أهالي برط من إقامته بينهم خوفاً من بطش العثمانيين بهم إذا امتدت أيديهم إلى بلادهم، كما لم تكن إقامته آمنة كذلك؛ لأن حاكم صعدة المسمى (قرأ جمعة) وصل إلى الهجرة التي بناها الإمام مما اضطر الإمام إلى الخروج منها في القفار البعيدة. ولما وصل العثمانيون خربوا الهجرة وهدموا المسجد، وأتجهوا إلى جهات برط للقبض على الإمام لكن لم يتم

لهم ذلك فهم يذلون الأموال الكثيرة للقبض عليه وجعلوه همهم وموضع قصدهم لظنهم أنهم إذا عمكئوا منه أطفأت نار الفتنة. وقد بعثوا الجواسيس وأكثروا من الجند للبحث عنه؛ لما ذاقوه من مرارة حربه منذ ظهور دعوتيه، ولما عرفوا عنه من الهمة والصبر وإقبال الرعية إليه.

وقد حاول الإمام الارتحال إلى نجران في الشمال أثناء وجوده في برط بعد أن والاه بعض أهلها، لكن عند وصوله إليها حدثت حروب استشهد فيها بعض أصحابه؛ لأن أهلها من الباطنية. فلم يستقر بها لخوفه من خبث أهلها ومعارضتهم للأئمة فعاد إلى جهات برط ثانية.

خرج الإمام من شهارة كما ذكرنا وترك أمر الدفاع عن الحصن لابنه محمد الذي واصل الحرب والصبر في وجه العثمانيين. لكن الإمام أثناء وجوده في برط عمل على إخراج أولاده علي والحسين والحسين من شهارة. فقد ارتدى بعض أصحابه ملابس الخطابين ليحتالوا على حُرَّاس العثمانيين ويستطيعوا دخول شهارة وإخراج أولاد الإمام. وبالفعل تم لهم ذلك. وقد حاولوا إخراج ابنه أحمد ومحمد في المرة الثانية لكن محمد أبى ذلك، وقال: (لقد وهبت نفسي لله سبحانه ولمن في شهارة المحروسة بالله مع المسلمين والعلماء والمستضعفين. وأن الإمام لم يأمرني بذلك وفي بقائي سلامة لمن في شهارة).

لما علم العثمانيون بخروج الإمام وأولاده من شهارة اضطربت أحوالهم وهاجوا وصبوا غضبهم على القبائل. وأخذوا منهم الرهائن وهدموا بيوتهم وخاصة قبائل حاشد وبكيل. وأما أهل شهارة فقد صبروا بعد خروج الإمام وخاضوا عدة حروب كاد يذهب فيها ابن الإمام لكن العثمانيين وأعوانهم من آل شرف الدين كانوا ما زالوا محاصرين لشهارة. وقلت المون أكثر وأكثر. وأهل شهارة يعانون من التعب، فاضطر محمد بن الإمام إلى الموافقة على تسليم نفسه للعثمانيين. فأرسل الفقيه صلاح بن عبد الله الشظي إلى ابن المعافى بخطاب. فما كان من ابن المعافى إلا أن أرسل يستدعيه لتمام تسليم شهارة إلى أيدي أحمد بن محمد بن شمس الدين حاكم كوكبان. وكان هو من جملة المحاصرين لشهارة. وشرطوا أن تخرج القوات الإمامية من الحصن بأمان ومعها أسلحتها. وأن يذهب الجنود إلى حيث يشاءون.

وهكذا تم تسليم الحصن للعثمانيين على هذه الشروط في (أول شهر محرم ١٠١١هـ - سنة ١٦٠٢م)، وإن كان قد ذكر في بعض المخطوطات أن خروج ولد الإمام في (٢٧ ذي الحجة سنة ١٠١٠هـ)، وعلى أي حال فإن التاريخين متقاربان. فيكون بذلك حصار شهره حتى خرج الإمام منها أحد عشر شهراً وسبعة وعشرين يوماً، ثم حفظها محمد بن الإمام سنة كاملة. وقد وافق العثمانيون على هذه الشروط خوفاً من انتقام الإمام رغم ضعف قوته حينذاك وحتى لا يثيروا الأهالي ضدهم إذا قتلوا محمد بن الإمام أو نكلوا به.

بذلك انتهت النهضة الأولى من دعوة الإمام القاسم والتي دامت خمس سنوات، استطاع الإمام خلالها أن يسطر سيطرته على أغلب الأقاليم الشمالية وحصونها، ثم عاد فخنس كل هذه الممتلكات ولجأ إلى برط. واستعمل العثمانيون القسوة البالغة في مناهضة الإمام، فقد طاردوا رسله في البلاد ونكلوا بهم وجعلوهم عيرة لغيرهم وقتلوا عمه عامراً، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، واشتدوا في معاملة أتباعه وجيوشه عندما بدأت سيطرته في الانكماش. فقد أخذوا ينكلون بالأسرى ويقتلون بعضهم يأخذون من بين قبائلهم الرهائن الكثيرة. وقد آتت هذه السياسة أكلها في مناهضة الإمام حيث تقاعست بعض القبائل عن مناصرته، عندما قرأ إعلان الحرب من جديد على العثمانيين من برط، وذلك كما فعلت قبائل وادعة الشام فقد رفضت الاستجابة لدعوته بل واستعدت لمحاربته، وذلك رغم أن هذه القبائل كانت من أهل السبق والمحبة له.

هذا بالإضافة إلى تعاون أمراء آل شرف الدين وغيرهم من الأمراء الزيديين المواليين للعثمانيين. هذا التعاون القائم على المصلحة. ومع ذلك فإن الإمام استعد من جديد ليخوض غمار الدعوة والحرب من برط. وبدأت بذلك النهضة الثانية.

انتهى ما نقله أحمد بن المؤلف زبارة من كلام أميرة التاريخ الواضح، وقد لذي لي نقله وسأقل منه في أبحاثه، فقد كفتنا مؤنة التلخيص الأمين العصري كفاهها الله مهمات الدارين آمين. وعند نشر هذا (خلاصة المتون) في أجزائه نحو العشرة ونزهة النظر الجديد أربعة أجزاء في الأنساب ومشجراتها في أجزاء سأهدي منها إلى الأميرة علي المداح

تقديراً لعلمها وتعبها وأمانتها وإحاطتها بتاريخ اليمن وكتبه.

حوادث سنة ١٠١٠هـ

في (آخر سنة ١٠١٠هـ) كان خروج محمد بن الإمام ومن يلوذ به من شهارة إلى كوكبان، فلم يزل فيه إلى أن تم الصلح بين الإمام القاسم والباشا جعفر (سنة ١٠١٦هـ)، وفي خلال الست السنوات التفت إلى الدرس والتدريس مع آل شرف الدين وخاصته مجللاً محترماً وبعد الصلح عاد ومعه خاصته إلى أبيه الإمام كما سيأتي.

وفيات سنة ١٠١٠هـ

لطف الله بن المطهر

في (صفر سنة ١٠١٠هـ) توفي مسجوناً بالقسطنطينية، السيد الأمير لطف الله بن المطهر بن الإمام شرف الدين ولم يخلف هناك إلا ولداً اسمه محمد على جارية رومية. وفي الجزء الذي قبل هذا ذكر أسره وإرساله إلى استنبول ومكاتبته المؤثرة إلى زوجته وأهله باليمن وبعض أحواله وغدر الأتراك به وبذويه في (سنة ٩٩٤هـ).

مهدي بن أحمد الرُّجُمي

في (سنة ١٠١٠هـ) توفي بالأهجر القاضي العلامة عمدة أهل زمانه مهدي بن أحمد بن داود الرُّجُمي، وهو أحد العلماء المشهورين، وهو من مشايخ الإمام القاسم. قال في الطبقات: وجاهد مع الإمام القاسم ثم اعتقله الأمير أحمد بن محمد بن شمس الدين الكوكباني، وبقي مسجوناً حتى مات، وقبره بموضع يُسمى حصن صالح من جهة الأهجر بكوكبان.

سعيد بن داود الأنسي

في (١٥ جمادى الآخرة سنة ١٠١٠هـ)، توفي الفقيه العلامة النحوي الزاهد المقرئ سعيد بن داود اليمني الأنسي، وكان منقطعاً في مسجد النور بصعدة وأشعاره كثيرة منها خميس لامية ابن بهران:

الجُدُّ في الجَدِّ والحرمانُ في الكسل
فانصبَّ نُصبٌ عن قريبٍ غايةَ الأملِ
وله قصيدة جواباً على مُتعصّب منها:
قال الخبيثُ تعصباً وجهالة
لمقالبة عدلية مستطرفة

عبد العزيز بن محمد بهران

وفي (رجب سنة ١٠١٠هـ) تُوفِّي بصعدة الشيخ الحافظ عبد العزيز بن الشيخ الحافظ محمد بن يحيى بهران، وكان صدرًا في العلماء الأعلام وشيخ أهل عصره في الحديث وجميع علوم الاجتهاد، قرأ على والده وعلى العلامة الضمدي، وأجاز للإمام القاسم، وعنه أخذ السيد داود بن الهادي المؤيدي والإمام القاسم. قال في الطبقات: ووفاته عن (٧٨ سنة) وإن مولده (سنة ٩٤٨هـ) فعلى هذا وفاته عن (٦٢ سنة) فقط، وفي خلاصة الأثر إن وفاته (سنة ١٠١٦هـ).

لم يتفق في سنة (١٠١١هـ) من الحوادث ما يوجب ذكره.

حوادث سنة ١٠١٢هـ

فيها توفي السلطان محمد خان بن مراد وقام بعده ولده السلطان أحمد.

وفيهما وصل طلاب من السلطان للبasha حسن ليتولى مصر، وكانت مدته في اليمن قد طال (٢٥ سنة من سنة ٩٨٨هـ إلى سنة ١٠١٣هـ)، وهيبته عظمت وقوته ظهرت حتى بلغت (سناجقه) أربعين سنجقاً.

ومن مآثره قبة البكيرية، نسبة إلى متولي بنائها، وهو بكير آغا، ولما مات أراد البasha حسن دفنه فيها، وكان يحبه، فأشار عليه بعض أصحابه أن يتركها مسجداً، ويدفن بكيراً خارجها، فبنى عليه القبة الصغيرة إلى جانب الكبيرة. وقبة البكيرية من أعجب ما بناه الأتراك في اليمن. ومن مآثر البasha حسن عمارة حَمَّام الميدان بصنعاء، ووقفه على قبة البكيرية، وتجديد عمارة مسجد فروة بن مسيك.

وذكر الفقيه عبدالله بن صلاح داعر في تاريخه الذي وضعه للبasha جعفر أن السلطان جعل للبasha حسن ولاية مصر بعد اليمن، ولما توجه للزم في أول (سنة ١٠١٣هـ) استخلف في اليمن (الكيخيا سنان) وجعله باشا.

وبعد استقرار الإمام في برط سعى الأمير أحمد بن محمد بن شمس الدين بالصلح، فأمر السيد العلامة الحسن بن شرف الدين الكحلاني من أصحاب الإمام، وكان معتقلاً بكوكان بعد تسلّمه من ثلا كما سبق، فقال له: اكتب إلى الإمام القاسم بتسكين الفتنة وتُجعل له قطعةً بلاد أو كفايته هو وأولاده، وذلك عن مواطاة بينه وبين الباشا سنان. فكتب السيد الحسن إلى الإمام، وأنه يسكن حيث أحب من الهجر ويُجرى له ما يريد، فكان جواب الإمام إلى السيد الحسن بعدم الإسعاد إلى ذلك إلا أن يكون على جهة الصلح مدة يراها بعد أن أثنى على الأمير أحمد بن محمد في كتابكم تحقيق أحوالكم وتحقيق أحوال أولادنا السادة مع أنه نُقل إلينا حُسن صنيع الأمير صفى الدين أحمد بن محمد بن شمس الدين بن شرف الدين من فعل المعروف، وقد جاء شكره على كل لسان وورد به الرجال والركبان، فالله تعالى يحسن إليه ويمده بألطافه الخفية ويأخذ بناصيته إلى الخير ويدفع عنه كل مكروه وضير، فتلك شنشنة أخزمية بل شيمة هاشمية توارثها آباؤه من قبل وما أحقه بقول الشاعر:

وينشأ ناشئ الوردان فينا على ما كان عوده أبوه

وإن ذلك عند الله لا يضيع إن شاء الله ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى/٢٣] وقال - صلى عليه وآله وسلم - : ((من كفارات الذنوب العظام إغاثة الملهوف والتنفيس على المكروب))، وأنا أقول كما قال بعض أئمتنا عليهم السلام شعراً:

فلتشكروه فإني اليوم شاكره

سراً وجهراً وهذا بعض ما يجب

إلى قوله في آخر الجواب: وأما ما ذكرتم من إقطاع بلاد فإني أحق بها بلى أن يتركوا شهارة وبلادها ووادة وبلاد خولان وجبل رازح مع برط ويُعقد الصلح مدة معروفة طولها وقصرها إليهم، فإن ذلك مشروع، فإن يرضوا به فقد رضينا ولا ننقض إن شاء الله عهداً، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] والأمير صفى الدين يضمن لنا وعلينا. إلى آخر كتابه. فلما وصل لم يوافق قصدهم، فلم يتم شيء.

وفيات سنة ١٠١٢هـ

عبد القادر حمزة

في (جمادى الآخرة سنة ١٠١٢هـ) توفي القاضي العلامة الحافظ عبد القادر بن حمزة التهامي حافظ الفروع العالم الزاهد. وهو من أنصار الإمام الحسن بن علي بن داود والإمام القاسم.

إبراهيم بن علي بن إبراهيم

وفيها توفي نحو السيد العالم الفاضل إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن علي بن صلاح بن أحمد بن الإمام محمد بن جعفر القاسمي المعروف بالعالم الشرفي.

حوادث سنة ١٠١٣هـ

فيها جواب الإمام القاسم على السيد الحسن بن شرف الدين الكحلاني بإيعاز الأمير أحمد للصلح، ولم يتم، وقد ذكرناه في (سنة ١٠١٢هـ). فيها كانت أهل الحيمة لا تزال على طاعة الإمام. فتوجه الباشا سنان ولقيه الأمير أحمد بن محمد، ودخلوا الحيمة عنوة، وقتل من أهلها عدة، وامتدت أيدي العساكر في البلاد، وأكثروا فيها الفساد، وأسروا كثيراً من النساء من المركز عر الحيمة، فتشفع فيهن الأمير أحمد فأرجع أكثرهن، وذهب البعض منهن مع العسكر قسراً.

ثم توجه سنان إلى حراز، فتسلم حصن مسار بعد طول الحصار، ثم لم يبق للأتراك مخالف، فأرسلوا إلى أمير صعدة (قرى جمعة) أن يتقدم على الإمام إلى برط، كما سبق في المنقول من الرسالة الجامعية للكاتبة القديرة (الأميرة علي المداح) ثم عدت إلى رسالتها، فوجدتها فيما كتبه تغني عن غيرها بتحليلها الصحيح الأمين الذكي.

[بداية النهضة الثانية]

قالت في الفصل الثاني:

ظل الإمام القاسم في برط لمدة سنتين يجمع الأعوان حوله ويتأهب لبدء الحرب على

العثمانيين من جديد. ومن هنا تبدأ النهضة الثانية من دعوته لكن أهل برط كانوا يكرهون بقاءه في بلادهم خوفاً من سنان الذي أصبح والياً على اليمن بدلاً من حسن باشا في (سنة ١٠١٣هـ - سنة ١٦٠٥م).

وَجَدَ سنان أنه من الأفضل بعد هذه الحرب المضنية بالإضافة إلى تألب الأهالي عليه أنه يعقد صلحاً مع الإمام، ومن ثمة اتفق مع الأمير أحمد إلى آخر ما سبق، وقالت: إن سناناً والأمير أحمد تواطئا لكي يُغرّوا الإمام بإقطاعه أرضاً حتى يترك هذا الأمر ظناً منهم أن هدفه من وراء تلك الدعوة والحروب المعينة هو السيادة والحكم، لكن الإمام رفض؛ لأن ذلك لم يكن هدفه من وراء هذه الحروب.

فرفض سنان شروط الإمام؛ لأنه كان مراده أن يمنح الإمام أرضاً باسم إمارة ويُخضعه كباقي أمراء آل شرف الدين، ولكن الإمام لم يرض بذلك، فما كان من سنان إلا أن أرسل للإمام مرة أخرى بواسطة أحمد بن محمد بن شمس الدين يهدده بأن يقبل ذلك ويتخلى عن هذا الأمر وإلا فسوف يعذب أولاده ويقتلهم. فلم يكن من الإمام إلا أن رد عليه بقوله (أمّا من عندكم من المأسورين، فافعلوا بهم ما بدالكُم، وأقسمُ بالله لأبلغنَّ في حربكم ونكالكم كلَّ مبلغ ولأروغنَّ لكم روغانَ الثعلب ولأنسينَّ عليكم وثوبَ الأسد).

فقد وقع هذا الخطاب في قلوب العثمانيين موقعاً عظيماً هدّ من قواعدهم وأيقنوا أن الإمام ليس بالشيء السهل الذي يستهان به أو تُغريه مباحجُ الحياة الدنيا، فقد قدّم أولاده فداءً لدعوته وتحقيق هدفه وغايته.

وهنا نلاحظ أن الإمام هو الذي أملّى شروط الصلح على سنان مما يظهر لنا مدى تخوُّف العثمانيين منه ومدى ما وصل إليه من مكانة خلال خمس سنوات خاض فيها غمارَ الحرب. ورغم ما كان الإمام يعانيه من شدة من أهل البلاد، ومن التنقل من مكان لآخر، لم يقبل هذا العرض المغربي، ففي أيام بقاءه في برط ومعه أولاده وأصغرهم الحسين كانوا يعانون من شدة الجوع حتى أن الإمام كان يبكي وولده الحسين قد سقط من شدة الجوع، فلو كان هدفه السيادة أو الإمارة لقبل بعرض سنان فوراً.

وانتقاماً لرفض الإمام عرض سنان باشا توجه سنان إلى الحيمة، وكان أهل الحيمة قد

طلبوا من الفقيه علي بن يوسف الحماطي التقدم إلى بلادهم والجهاد معهم فوصل إليهم، واستخلف على مسار بعض أصحابه.

فلما وصل الحماطي إلى موضع يُسمى (حد بني التَّمري) بقي به، وتوجه إليه من صنعاء النقيب سعدان بن عبيد أمير كبير في عسكر العثمانيين، وأرسل ابن شمس السدين بعض أمرائه في جمع كبير من الشاحذية ليدخلوا الحيمة من أسفلها. وكل هذه الجموع التقت بالحماطي ووقع القتال، فلما رأى أهل الحيمة تلك الجموع انكسرت عزائمهم وخافوا على حريمهم وبيوتهم ورجع الحماطي مسار وقتل العثمانيون أكثر من ثمانية وعشرين رجلاً وتشفع الأمير أحمد للنساء عند النقيب سعدان، وبعد أن أعطوه العهود والمواثيق على سلامة من في الحصن من الرجال والنساء والأطفال، وكانوا زهاء سبعمائة شخص ولكن النقيب سعدان نكث العهد وأباح من في الحصن للعثمانيين، فأسروا النساء والأطفال وهرب الرجال، ثم سعى ابن شمس الدين في إطلاق بعض المأسورين، واختير منهم أربعون شخصاً كرهائن، كل رهينة امرأة وطفل وطفلة وأطلق الباقيون. هذه المعاملة القاسية التي عاملوا بها أهل البلاد زادت من كراهية أهل اليمن لحكم العثمانيين، فكانوا ينضمون إلى أي حركة مضادة، لهذا الحكم، لكن هدف العثمانيين كان الإرهاب لكي لا ينضموا إلى الإمام القاسم. وقد آتت هذه السياسة أكلها في أول الأمر، ولكن بعد انتهاء المعارك كانوا ما يلبثون أن يرجعوا للانضمام إلى الإمام وتشجيع دعوته والنصرة له للتخلص من الحكم العثماني، وقد اتخذ الإمام الجانبَ الديني، والاختلافَ المذهبي بين الأهالي والعثمانيين سبباً لجذب هذه القبائل إليه مرة ثانية. ثم توجه سنان إلى حراز لحصار حصن مسار لوجود الحماطي به، وبعد حصار دام ثلاثة أعوام وأربعة أشهر تسلّم سنان الحصن.

ووجه سنان أمير صعدة (قرى جمعة) لحرب الإمام إلى برط، وكان الإمام قد تحوّل، فلم يجده فرجعوا إلى صعدة مدة، ثم عادوا إلى برط، وشدة خوف أهل برط تغيروا على الإمام؛ لأن العثمانيين كانوا يأخذون الرهائن منهم ويكتبونهم في ديوان عساكرهم ويوجهونهم إلى اليمن الأسفل مع أمير لهم يُسمى أحمد الأخرم. وكذلك كانوا يفعلون مع باقي قبائل حاشد وبكيل؛ لأن الأمير سعدان العبدلي، قال لسنان: (كل من كان في دفتر الإمام فأنا زعيم بإدخاله في دفتر) وقرب الجند العثماني من محل الإمام، لكن

التراع بينهم دب فترقت كلمتهم وعادوا صعدة.

ورأى الإمام أن الأرجح خروجه إلى بلاد سفيان، فطلع الجبل الأسود أعلى من عيان لكن العثمانيين كانوا حريصين كل الحرص على توزيع الجنود على المحطات المختلفة للانقضاض على الإمام خاصة بعد تفرق أهل البلاد عنه لخوفهم من العثمانيين ولكثرة هزائمهم في هذه الفترة، ووضعوا في بلاد حاشد وبكيل فرقة من الجند، وكذلك في حمر، والصرارة، وعمران، وذيبن، ووادة، والمجر، والسودة، وذيان. وتفرق العلماء والفضلاء في أطراف البلاد في غاية من التخفي، فلما وصل الإمام إلى عيان رفض أهله نصرته، فخرج إلى الشرف ثم وصل إلى خيار بني صريم. يسس الإمام لتفرق الأهالي عنه ومنعه من دخول بلادهم لتخوفهم من العثمانيين. وتوالت على الإمام الهزائم، وتربص العثمانيون به من كل الجهات، وشددوا في التجسس عليه، وأرسلوا ضده الحملات من صعدة، وكوكبان وغيرهما، واشتد الأمر على الإمام. وكان يعتقد أن ما أصابه سيبه عدم الجهاد، وعدم الاستعداد لمنايذة العثمانيين، وبقاؤه في برط مدة دون حرب العثمانيين. لكن ما الحيلة، وقد تفرقت عنه جميع القبائل والعلماء؟ ففكر في أن يرحل إلى البصرة (سنة ١٠١٣هـ - سنة ١٦٠٦م)، حتى يأتيه الفرج والنصر من الله. ولا ندري لماذا وقع اختياره على البصرة بالذات؟ ولكننا نرجح أن يكون هذا الاختيار راجعاً إلى أن العراق هو مهد الشيعة حيث أقام به الخليفة علي بن أبي طالب مدة خلافته، وحيث كثرت زيارات مؤسس المذهب الزيدي الإمام زيد إلى العراق. وقد يكون تفكيره هداه إلى الذهاب للعراق لطلب العون من الدولة الفارسية الشيعية، حيث كان التراع قائماً ومستمراً بين الشيعة في العراق والدولة العثمانية السنية للسيطرة على العراق، وكانت كل منهما تسعى لفرض زعامتها على العالم الإسلامي حينذاك. ونحن نعرف تأريخياً أنه من ضمن الأسباب غير المباشرة لدخول العثمانيين اليمن هو مهاجمة الشيعة الصفويين من الجنوب حين عجزوا عن حسم الموقف معهم في العراق، ومن محاربتهم من الشمال حيث الجليلد وصعوبة الجبال. وبعد خروج الإمام من برط إلى بلاد خيار بني صريم ذهب إلى شاطب، ومنها إلى وادة.

ولما وصل الإمام أطراف البلاد اضطربوا وخافوا العواقب لما قد أصابهم أيام استحابتهم له في أول الدعوة، ومن أسر مشائخهم الذين لهم الرئاسة، وحبسهم في الدار

الحمرأ بقصر صنعاء، وتنكيل العثمانيين بهم، ورغم أن أهل وادعة قد وعدوا الإمام بالنصر والقيام معه إلا أنهم بعد وصوله إلى المصنعة رموه بالبنادق ومنعوه من دخول بلادهم، فأرسل الإمام الشيخ عبد الله بن سعيد الطير ليشعل النيران في بلده العفيرة، وهي أعلى من وادعة، وقد أعطى الإمام الشيخ عبد الله الطير نقوداً فضية ليؤلف بها قلوب أهل العفيرة، فتم له الأمر، وكانت تلك الوسيلة لتأليف قلوب القبائل التي كانت تعاني من الفقر وقلة المال بسبب الإغيار الاقتصادي للبلاد في تلك الفترة وكثرة الضرائب والأموال المفروضة عليهم من قبل العثمانيين، فكان المال يغريهم للانضمام إلى أي فريق.

لما رأى الإمام النيران قال لأهل وادعة: (هؤلاء أهل العفيرة أقرب منكم إلى العدو وقد والونا) فكان ذلك من أسباب صلاحهم ونصرهم للإمام. وكانت تلك طريقة (تكتيكية) من طرق الإمام القاسم في جذب القبائل، فأجاب الإمام بعضهم على خوف وخطر. وبعضهم امتنع عن إجابته لشدة الحذر، واستجاب للإمام ما يقرب من الألف وبايعوه، وقد جمع الإمام أهل وادعة في قرية الصبيحات وتكلم فيهم وهذا من روعهم، وقال: (إن كان لكم رهائن فأولادي وأصحابي أكثر رهائن في كوكبان وها أنا وأولادي بينكم - وأشار إلى أولاده الثلاثة - رهائن عندكم ولا فارقت وادعة إلا منصوراً أو مقتولاً). فقام أهل وادعة وتشاوروا في الأمر، وتم الرأي على نصرة الإمام وعاهدوه على ذلك؛ وكان ذلك في شهر جمادى الثانية (سنة ١٠١٣هـ - سنة ١٦٠٦م)، ثم كتب الإمام بعد ذلك إلى بني جبر، فأجابوه فوجه إليهم ولده الحسن والسيد علي بن صلاح العبالي. وكانت هذه أول مرة يخرج فيها الحسن وهو يومئذ ابن خمس عشرة سنة.

ولما وصل إلى ذيبين، وبلغ سنناً بقاء الإمام في وادعة وجه الأمير عبد الله بن المعافى إلى خمر، والأمير درويشاً إلى الصرارة، والأمير عبد الله بن المطهر إلى بلاد عبد الرحيم والأمير أحمد الأخرم إلى ذيبين، فلما رأى الحسن بن القاسم تلك الجموع رجع إلى مرهبة مخفياً وبقي فيها عشرين يوماً، ثم رجع إلى وادعة عند والده، ودخل الأمير أحمد الأخرم ذيبين وخرها وأخذ ما فيها، فهربت قبائل بني جبر وتركوا بلادهم خالية.

وأما ابن المعافى فقصده وادعة فلقاه الشيخ عبد الله بن سعيد الطير وقبائل وادعة

فهزموه أقبَحَ عزيمة وقُتِلَ من أصحابه عدَّةٌ وقطعت رؤوسهم، كان لهذه الوقعة أهمية عظيمة في نفس الإمام، إذ بعد انتصار أصحابه فيها تقوَّتْ عزمته وعدل عن فكرة الرحيل إلى البصرة وانضمَّ إليه بعض القبائل ونصروه.

كانت هذه الهزيمة قاطعة لطمع العثمانيين، فلم يعودوا لمحاربة وادعة بعد ذلك، وكان عبد الرحيم قد أرسل إلى الإمام في برط يعتذر ويتوب عمَّا حدث منه بعد نكته العهد والتغير بأصحاب الإمام. وإن مراده القيام مع الإمام ونصرته والنهوض بدعوته واحترام المواثيق والعهود. ومع هذا فقد تمهَّل عبد الرحيم في إعلان انضمامه إلى الإمام خوفاً من أن ينقلب عليه سنان عند ما تستتب له الأمور نظراً لقوة العثمانيين وكثرة جنودهم وأموالهم وخيلهم بالنسبة لعبد الرحيم.

فلما بلغه قيام أهل وادعة مع الإمام وانتصار أصحاب الإمام في ذيبين ووادعة تقوى في إعلان انضمامه إلى الإمام. وفرحت القبائل والإمام بذلك رغم ما كان يشتهر به عبد الرحيم من سوء الخلق، لكن انضمامه قوى من شوكة الإمام لما لعبد الرحيم من قوة وشدة، بالإضافة إلى أن الإمام يكون قد كسب أميراً زدياً تابعاً لأعدائه العثمانيين؛ خاصة وأن نفوذ عبد الرحيم قد تقوى واتسع في البلاد أثناء انشغال العثمانيين بمناهضة الإمام في النهضة الأولى، فالعثمانيون كانوا يعتمدون عليه إلى حد كبير، وكان سنان باشا معروفاً بأنه لا يرضى بوجود شخصية قوية إلى جواره.

وكانت الوحشة بين عبد الرحيم وسنان سببها أن الشيخ حسن بن عاطف الأهنومي كان في شهارة عندما تسلَّمها العثمانيون في النهضة الأولى. وذهب هذا إلى محمد بن عبد الرحمن، ثم إلى أخيه عبد الرحيم هرباً من سنان، لما كان بينهما من ضغائن فأمنه عبد الرحيم عنده في حجة لكن سناناً أرسل في طلبه، فخاف عليه عبد الرحيم من سنان، فأرسل له سنان عهداً أنه إذا وصل إليه سوف يعود سالماً فأرسله عبد الرحيم فقتله سنان. فعظم ذلك على عبد الرحيم وتيقن من غدر سنان به أو بغيره إذا تمكن منه، فأضمر عبد الرحيم في نفسه الخلاف.

ومما أشعل نار هذا الخلاف والفتنة أكثر، أن الشيخ ناصر البهيلة كان منحرفاً عن الباشا سنان فرفع إلى مسامع عبد الرحيم أقوالاً ملفقة ووشايات زادت من تلك

الوحشة. وقيل: إن سبب الوحشة بين عبد الرحيم و سنان أنه بعد استيلاء عبد الرحيم على بلاد الشرف وحجة من الإمام في النهضة الأولى قد جعل العثمانيون إقليم الشرف وحجة له وكتبوا له عهداً بذلك، وكان للشرف مكانة عظيمة عند العثمانيين لما يتحصل لهم منه من أموال طائلة من الخراج، فخاف عبد الرحيم أن يترغ العثمانيون هذا الإقليم من يده، فهم لا تطيب أنفسهم بتركه، وأنه لا بد أن يأتي اليوم الذي يقاتلونه من أحله ويخرجونه منه وذلك عظيم على نفسه، فهو لا يستطيع مقاومة العثمانيين لما لهم من رجال وخيل. وكان عبد الرحيم يعلم بمحبة الرعايا للإمام وميلهم إليه وإسراعهم إلى جانبه؛ لذلك لم يتردد في إعلان نصرتة للإمام وخلافه مع سنان.

لما علم سنان بخروج عبد الرحيم عليه أظهر عدم الاهتمام، لكنه هدد قائلاً: (ما غير عبد الرحيم إلا على نفسه ولا أزال إلا نعمته وسوف أملاها عليه خيلاً وأوسع أصحابه أسراً وقتلاً).

وسرعان ما تحول التقارب بين الإمام وعبد الرحيم إلى خطوات عملية فقد أمر عبد الرحيم بالدعاء للإمام القاسم في الأقاليم التابعة له.

وفي مقابل ذلك طالب الإمام أتباعه المنتشرين في تلك الأقاليم بالوقوف إلى جانب عبد الرحيم الذي كان يمثل سلطة العثمانية في أقاليمه، فتشجع هؤلاء على الإعلان عن أنفسهم دون خوف من العثمانيين أو دون خوف من عبد الرحيم نفسه - وهو الذي كان يشتهر بالغلظة والشدة - وتشجع الإمام بدوره كذلك على إعلان الحرب ثانية على العثمانيين والانتقال إلى منطقة الظاهر التي تقع إلى الجنوب من صعدة لإثارة قبائلها ضد العثمانيين وذلك بعد أن ضاقت به بلاد برط وضاق به الحال من القبائل وفكر في الرحيل إلى البصرة، كما سبق، فكان انضمام عبد الرحيم وأصحابه هو الذي أحدث هذا التغيير في الموقف.

وأرسل عبد الرحيم أخاه أحمد بن عبد الرحمن إلى بلاد قراضة ولاعة فاستفتحها وجرد عسكرياً إلى جزع وبلاد عفار وجهز أخاه مطهر بن عبد الرحمن إلى ظليمة والأهنوم، وما والاها فاستفتحها. وبعد أن انتهى أحمد بن عبد الرحمن من فتح قراضة ولاعة تقدم إلى بلاد كوكبان فاستفتح أكثرها. فخرج الأمير محمد بن أحمد إلى الطويلة

وجهاز النقيب سنبلًا بعسكر كوكبان إلى بني الذوَاد وانضم إليهم الأميرُ عبد الله بن المطهر بجماعة من العثمانيين، فجهز إليهم عبد الرحيم طائفة من عسكره، وانضمت إليهم قبائلُ تلك الجهة فحاصروهم حتى سلّموا وخرجوا إليهم، ولما وصلوا إلى عبد الرحيم أخذ ما معهم من السلاح الكامل والعدة الوفرة وملأ بهم السجونَ وافتتح الحرب على العثمانيين من جميع الجهات.

بعد هذه الانتصارات التي أحرزها عبد الرحيم وهو في جانب الإمام تشجع كثير من مشايخ القبائل ممن يسيطرون على قبائل وبلاد واسعة بالخروج على العثمانيين مثل: الشيخ علي بن فلاح صاحب قبيلة الحدا، كذلك الحماطي - صاحب أنس - لما علم بخروج الإمام من برط إلى وادعة جمع مشايخ الحيمة وعسكرها وطلع جبل تيس في جمع كبير، فوصل إلى رئيسهم فاطاع، وخرج الأمير أحمد محمد بن شمس الدين من كوكبان إلى الطويلة، ثم جهز عسكرًا إلى الشاحذية وأمرهم بحرب من في شمسان من أصحاب الحماطي، فانهزم من في شمسان من أصحاب الحماطي، ودخل ابن شمس الدين شمسانَ والشاحذية، ثم ذهب الفقيه علي بن يوسف الحماطي ومن معه إلى الشاحذية لحرب أصحاب ابن شمس الدين، فلجأوا إلى شمسان وحوصروا فيه.

في ذلك الوقت وصلت نجدة من سنان إلى ابن شمس الدين حوالي ثلاثمائة مقاتل رئيسهم الشريف صلاح الوزلي وضم إليهم ما أمكنه من القبائل لاستخلاص أصحابه في الشاحذية، فلما رأى الحماطي هذه الغارة تأخر إلى الحيمة وأخذ بذلك ابن شمس الدين جبل تيس من أصحاب الإمام، لم يستسلم الحماطي للهزيمة، بل رجع إلى الحيمة ليجمع الجنودَ والقبائل حوله ويستعد للقاء ابن شمس الدين ثانية، فبقي في الحيمة خمسة عشر يومًا، ثم خرج إلى أصحاب ابن شمس الدين في شمسان، ف وقعت الحرب بينهم، وكان النصر فيها للحماطي.

وفي اليوم الثاني أرسل بن شمس الدين من الطويلة بفرقة قاتل بها الحماطي فقتل من أصحابه اثنان وعاد بمن معه إلى الحيمة مرة ثانية دون أن يحصل على شيء، في نفس الوقت تجهز الهادي بن غوث الدين أحد قادة الإمام لقتال من في الأحجر، فانتصر عليهم واستقر في الأحجر ثلاثة أيام، ثم عاد إلى الحيمة هو ومن معه إلى الحماطي ليعادوا القتالَ

على ابن شمس الدين من جديد.

وبعد شهر مالوا إلى الشاحذية، وكان في شمسان أصحاب ابن شمس الدين مع فرقة قدرها ألف، رئيسهم النقيب ياقوت والنقيب سنبل أشول والشريف صلاح الوزلي، ووقعت الحرب فانهزم أصحاب ابن شمس الدين وقُتل النقيب ياقوت وعشرة من رجاله، بعد هذه الهزيمة خرج أصحاب ابن شمس الدين لمقاتلة الحماطي والهادي بن غوث الدين في نواحي الأهجر ولكنهم عادوا منهزمين وقُتل النقيب سنبل وسبعة عشر من رجاله. بعد هذه الانتصارات التي أحرزها الحماطي ورفع بها من شأن الإمام وأصحابه رجع الحماطي إلى الحيمة.

في نفس الوقت الذي كان أحمد بن عبد الرحمن قد استولى على حصن الجميمة بالقرب من كوكبان استولى عبد الرحيم على بلاد مسور وملك حصونها كلها وتقدمت عساكره إلى بيت عذاقة، فاستقرت فيه، وبقي أحمد بن عبد الرحمن محاصراً ل حصن غولي مدة سنة، ثم تسلمه بعد موت أحمد بن محمد بن شمس الدين في أول شهر ربيع (سنة ١٠١٥ هـ سنة ١٦٠٨ م)، كذلك استولى مطهر بن عبد الرحمن على بلاد شظب وغريان ودخل مدينة السودة قهراً، وقتل جماعة وحاصر حصن قرن الناعي وفيه حسين بن المعافى حصاراً شديداً حتى أشرف على الهلاك لكن حدث خلاف بين مطهر وأخيه عبد الرحيم جعله يترك حصار السودة.

فخرج ابن المعافى من السودة وفتح بلاد شظب وسلم هو وأولاده من الوقوع في يد عبد الرحيم فتقدم عبد الرحيم بعساكره إلى السودة واستدعى أصحاب الإمام منهم الفقيه علي بن محمد الشهاري، فتقدموا جميعاً إلى السودة وقصدوا ابن المعافى الذي لاقى هزيمة منكرة هو وأصحابه واستولى عبد الرحيم على السودة. بعد ذلك استطاع الإمام أن يمد نفوذه على بلاد الظاهر جميعها وبلاد ذيبان وبني علي وعيال عبد الله وبعض بلاد نهم القرية من صنعاء ولم يبق في يد العثمانيين إلا الرجوة وهزم وما حولها. وكانت جنود العثمانيين في هذه الأماكن وأصحاب الإمام في أطراف البلاد ووقعت بين الطوائفتين حروب كثيرة وبقي الأمر كذلك مدة، وصبرت القبائل الذين في جانب الإمام صبراً عظيماً حتى ملوا لما أصابهم من تخريب بيوتهم ووصل جنود العثمانيين إلى قرية مدر

وحاصروا أصحاب الإمام فيها وانتهى أمرهم بأخذ تلك القرية وما حولها، فرجع أصحاب الإمام إلى الظاهر، واستولى العثمانيون على أكثر البلاد وظلت الحال على ذلك إلى (سنة ١٠١٦هـ - سنة ١٦٠٩م).

أوضحنا أن الإمام استطاع أن يمد نفوذه على أكثر البلاد الشمالية بمساعدة عبد الرحيم وأصحابه مما أقلق سناً وأرهبه، فاشتد غضبه على من في السجون من الرهائن والأسرى من الرجال والنساء والصبيان، فضيق عليهم أشد التضيق حتى هلك أكثرهم. في ذلك الوقت كانت شهارة في يد عبد الله بن المعافى بعد أن خرج الإمام منها، فتركها له العثمانيون على أن يكون تابعاً لهم مع تعيين فرقة من الجيش عليها آغا من العثمانيين وشيخ من العرب، هو الشيخ ناصر بن الأبيض، وآخران من مشايخ حاشد وبكيل، وضموا إليهم نخوة من مائتي نفر لحفظها، وبدأوا في تعميرها وأصلحوا مدرجها الكبير وأكثروا فيها المؤمن. وعيّن عبد الله بن المعافى أخاه إبراهيم في الهجر مع فرقة من الهجر ليحفظوها وبقي هو في السودة، وكان عبد الرحيم بعد انضمامه إلى الإمام قد أخذ يفتح البلاد طولاً وعرضاً باسم الإمام ويدعو له على المنابر والإمام يكتب الناس بإجابته ويأمرهم بمواصلته ومناصرته.

أرسل أخاه المطهر بن عبد الرحمن إلى أبرق ظليمة فافتتحها، وكذلك بيت ابن علا، ثم أرسل من حاصر شهارة بمن معه من عسكر عبد الرحيم، وكذلك السودة، وطال الحصار عليهما، ولم يستطع تخليصها من مطهر بن عبد الرحمن فأرسل ابن المعافى سراً إلى الإمام أنه يريد تسليم شهارة له لتخوفه من عبد الرحيم، فإن عبد الرحيم كان يقول: لئن ظفر به ليكون عليه من المثلة ما لا يفعلها إلا هو.

وكذلك أهل الأهنوم كانوا لا يحبون عبد الرحيم، لما يتميز به من الغلظة والقسوة، فقد وصفه الشرفي في مخطوطته بقوله: (كان عبد الرحيم سيء الطبع سريع البادرة، ملولاً عظيم السطوة لا يراعي حقاً في الأغلب وأن الصديق والعدو كانا بمثلثة واحدة في الخوف منه مع عدم وفائه بالعهود)، لذلك خافت قبائل الأهنوم أن تسلم عبد الرحيم شهارة خوفاً من انتقامه منهم وإذلالهم، فلما طلب عبد الله بن المعافى من الإمام الحضور لتسليمه شهارة، كان يضم في نفسه شيئاً لكي يخلص شهارة من وقوعها في يد عبد

الرحيم، فكان يرى أن حضور الإمام سوف يستغرق وقتاً، وفي هذا الوقت تكون قد وصلتة نجدة من سنان باشا تساعد على رفع الحصار. ولكن الإمام كان أسرع مما تصور ابن المعافى فأرسل في الحال جماعة من الأعيان لمعاونة مطهر بن عبد الرحمن وأرسل أحد أصحابه إلى عذر والياً.

كما أرسل ولده الحسن وتقدم الإمام إلى شهارة، فلما علم ابن المعافى بمقدمه دخل شهارة بمن معه من عسكر العثمانيين، وكانت شهارة تعاني من قلة المؤن لطول الحصار عليها وبدخول ابن المعافى بمن معه من العسكر زاد من هذه الشدة وقلة المؤن أكثر فأكثر حتى قيل عنهم: أنهم أكلوا الكلاب ولحوم الدواب، وبلغت الوقية الملح ثلاث كيار، وكان من أهم الأسباب التي أدت إلى تسليم شهارة للإمام.

ولما وصل الإمام إليها خرج إليه جميع العسكر، فأمنهم وجمع سلاحهم وأخذ عليهم عهداً ألا يعودوا إلى حربه مرة ثانية فعاهدوه على ذلك، وكان تسليم شهارة إلى الإمام في شعبان (سنة ١٠١٥ هـ سنة ١٦٠٧م)، حيث استمر حصارها أكثر من سنة.

كان تسليم شهارة للإمام نصراً عظيماً لما لها من منزلة عند الإمام، فهو محبب لها ولأهلها، وقد فتحها الله عليه دون قتال. وكانت فرحة الإمام وأصحابه بذلك عظيمة واجتمع أهل شهارة على الولايم تعبيراً عن فرحتهم بمقدم الإمام إليهم بدلاً من عبد الرحيم، وقد قيل الكثير من الشعر تعبيراً عن هذا النصر العظيم، ومما قيل (قصيدة للسيد علي بن صلاح العبالي منها):

هنيئاً بهذا الفتح يا ابن محمد	وحمداً لمن أولاك سؤلي ومقصدي
على بُعد عهد في الزمان وموعدي	وبعد أيام من ولي ومعتدي
وثبت إلى العليا بصدق عزيمتي	فقلت الثنا والنصر والفتح عن يد

خرج الجميع إلى الإمام فأطلق سراحهم وأمنهم إلا إبراهيم بن المعافى، فقد اعتقله الإمام في شهارة وشدد عليه الحراسة لأنه كان يريد رهينة عنده ليستطيع أن يفدي به ولديه المأسورين في كوكبان محمداً وأحمد منذ حصار شهارة (سنة ١٠٠٩ هـ)، لكن إبراهيم بن المعافى استطاع الفرار من شهارة بمساعدة بعض أهلها وأخفوه في بعض الأودية فعلم الإمام، فأغار على ما يجاور شهارة ووصل إلى صور من أعمال شهارة

الفيش وأمر الناس بالتفتيش عنه في تلك الأودية وتظاهر أن المعافى هو الذي هرب بنفسه كي لا يُربّي العداوات بينه وبين أحد في شهارة، وكان هذا من حسن صنيع الإمام وإحسانه معاملة أهالي البلاد التي يفتحها. وعهد إلى المفتشين بأنهم إذا وجدوه عظموه وعاملوه معاملة حسنة، فلما وجدوه طلعوا به إلى الإمام فأحسن معاملته.

أما شهارة فكانت تعاني من قلة المؤن وارتفاع الأسعار لطول مدة الحصار، وكان أصحاب الإمام لا يأكلون إلا العنب أو من النذور والعطايا من الأهالي. وجمع الإمام مشائخ الأهنوم وطلب منهم طعاماً لمن يحفظ شهارة، فأرسل المشائخ نحو ثلاثين زبيدياً يطوفون في البلاد لجمع الإمداد، حتى اجتمع قدر عظيم من الأقوات جعلت لمن يحفظ حصن شهارة.

لما علم عبد الرحيم بتسليم شهارة للإمام اشتد غضبه على أخيه المطهر وعزله عما كان تحت يده، فلما تيقن المطهر بعزله رفع الحصار عن السودة التي كان بها عبد الله بن المعافى، وكان ذلك سبباً في انحلال قوة عبد الرحيم، خاف المطهر سوء المصير الذي سوف يلقيه من أخيه جزاء عمله. فكتاب العثمانيين سراً بأنهم إذا جعلوه أميراً على شهارة وبلاد الشرف كان تابعاً لهم، ويدخل في خدمتهم فوعده بذلك، وأرسل جنوده إلى بيت ابن علا. كما أرسل فرقة من جنوده لحراسة طريق حجة خوفاً من أن يغزوه أخوه منها، فقلت بذلك جنوده المحاصرة لشهارة. فكان ذلك من أسباب تمكن الإمام من شهارة بدون عناء، لكن مطهراً تيقن عدم مساعدة العثمانيين له، وأنهم لا يوفون بعهدهم وهو خائف من أخيه، فأرسل إلى جنوده بترك ساحة القتال ليصلوا إليه ليحتمي بهم من العثمانيين ومن أخيه، ووقف الجند ومطهر بمكان يُسمى (المسارحة)، ووقف العثمانيون في الجهة الأخرى من نفس المكان. بينما كان عبد الله بن المعافى في السودة، وكانت أصواتهم المرتفعة تُسمع بوضوح من شدة الاختلاط والكثرة. فخاف أصحاب الإمام من هجومهم على شهارة وهم قلة، وقد تفرقت أكثر القبائل عنهم لعدم توفر ما يأكلونه بشهارة، لكن النزاع حدث فيما بينهم وتفرق شملهم وبقيت شهارة بيد الإمام.

وخرج منها الإمام بعد أن ولّى عليها من يحفظها وأقام الجنود ليحفظوا أطراف البلاد ممن في السودة - أعني من عبد الله بن المعافى والعثمانيين - ووصل الإمام إلى ظليمة

وولى عليها ابنه الحسن ثم عاد هو إلى وادعة لتجهيز السرايا إلى الشمال والشرق وبلاد الحيمة وجهات اليمن.

لما علم عبد الرحيم بتسليم شهارة إلى الإمام ورأى ما أحرزه الإمام من انتصارات وقعت في قلبه الغيرة والتكبر، وأصبح ينشر بين الناس أن الإمام لا رأي له، وأنه لولا قيامه معه لما فتح الإمام أي بلد وأنه كان يُبَيِّت النية للغدر بالإمام بعد أن يفتح البلاد باسمه. وكان عبد الرحيم يطمع في أن يأخذ شهارة ثم كوكبان، ثم الحيمة، ثم يغدر بالإمام وبأخوته الذين ساعدوه في الفتح.

فلما علم بتسليم شهارة اضطربت أحواله، فكان تارة يخطب للإمام وتارة يثور ويغضب، فأرسل له الإمام حاجبه المسمى البواب ليبشره بما فتح الله عليه من البلاد طمعاً في أن يُهدئ من غضبه ويكسبه إلى جانبه، فلما وصل إليه الحاجب حاول عبد الرحيم أن يقتله. وبذلك تيقن الإمام سوء نية عبد الرحيم.

في هذه الأثناء علم الباشا سنان بعزله عن اليمن فخاف أن يخرج والفتنة في أثره وأنه يخشى وثوب الإمام أو عبد الرحيم على صنعاء في أثناء تغير الولاة؛ لذلك أرسل سنان باشا الحاج التاجر أحمد الوادي للوساطة عند الإمام لطلب الصلح لمدة سنة أو أكثر لكن الإمام استغرب طلب سنان لما له من السطوة والقوة والبغض للإمام، فظن الإمام الظنون في سنان والحاج أحمد الوادي، وخاف أن تكون خدعة، فأرسل إلى القاضي علي بن سنان أحمد بن أبي الرجال يستشيره في الأمر ويطلب منه تيقن الخبر من الأمير علي بن المطهر بن الشويخ، وكتب إليه (وصل الحاج أحمد الوادي من عند هذا الطاغية العظيم يطلب صلحاً ولا عرفت السبب الموجب لطلبه مع ضعفنا عندهم وقوتهم واستظهارهم علينا، فهل يريدون معرفة حالنا؟ أو هو حق وصدق فهو المحبوب المطلوب) وتمهل الإمام حتى علم أن طلب الصلح صحيح، فرح بذلك وعقد الصلح لمدة سنة بينه وبين سنان بواسطة الحاج أحمد الوادي (سنة ١٠١٥ هـ).

أراد الإمام أن يشمل هذا الصلح عبد الرحيم، لكن عبد الرحيم رفض واقم الإمام بالعجز لقبوله الصلح فتركه الإمام وشأنه مع العثمانيين وعقد هو الصلح وحده على أن يكون للإمام ما تحت يده من البلاد المفتوحة. ومعنى عقد الصلح هذا أنه اعتراف

من الدولة العثمانية بالإمام القاسم بعد أن أضنتها الحروب معه.

ولا ننسى ما قد عرضه سنان على الإمام من صلح قبل توليه ولاية اليمن رغم ما يتمتع به سنان من القوة والإمام من الضعف بالنسبة لقوة الدولة العثمانية في ذلك الوقت.

فلما علم العثمانيون بترك عبد الرحيم للإمام جمعوا جنودهم للحرب ضد عبد الرحيم، واستمرت الحروب أربع سنوات حتى هلك معظم جند عبد الرحيم، وقد قيل: (ما من موضع إلا وسال عليه الدم في بلاده) وقتل عبد الرحيم أصحابه الذين اشتركوا مع أخيه مطهر في رفع حصار السودة ورفعوا الجهاد ومكّنوا ابن المعافى من دخولها سلماً، وكان عبد الرحيم كارهاً له.

وأما مطهر فإنه استجار بالإمام وترك أخاه يتجرع من حرب العثمانيين، وضعف عبد الرحيم بعد تفرق إخوانه عنه بسبب سوء معاملته وقسوته عليهم، ومن ثمة كان هلاكه كما سيأتي في الفصل الثالث.

انتهى الفصل الثاني من رسالة (أميرة) التاريخ وأمينته، وهو مضمون ما في خلاصة المتون، إلا أنه بعبارة أنسب للعصر وتحليلات معقولة. ونعود الآن إلى خلاصة المتون: في (سنة ١٠١٣ هـ) وصل إلى اليمن شجر الطنباق الذي اتهمك الناس في شرب دخانه وأول من وصل به الشيخ على المغربي، قيل: من أرض الغرب، وقيل: من الهند، جاء بشيء من بذره، فنبت باليمن، وكان أول وصوله بيعت الوقية بقرش فضة (ريال) ولما كثر في اليمن بيعت الوقية ببقشة، وغلب عليه اسم (التن) - وهي كلمة تركية معناها الدخان -.

وقيل: إن فيه منافع يدفع الريح عن البطن ويهضم الطعام ويقطع البلغم، وهو مذكور في كتب المفردات في الطب مثل: مفردات ما لا يسع الطبيب جهله ومفردات ابن البيطار في حرف الطاء، واتخذ الناس لشربه آلات و اخترعوا لذلك هيئات، فمنهم من يشربه مجرداً عن الماء، ومنهم من يشربه بالماء، ولكن الهيئة المجردة أنفع وهي التي كان يستعملها الحكيم الذي جاء به واستعمله سنان باشا وغيره.

وللسيد محمد بن عبد الله الخوئي أبيات ذكر فيها الدخان من التن وهي:

ركبتُ الحيوْلَ وشُهبَ البغالِ ومركوبي اليوم غيرُ الأثرِ
وبالندل الرطب كان البخورُ فصار بخوري بخارَ الستن
ومن عاش مثلي رأى كلما تقضى وكان كأن لم يكن

ولعله أشار إلى ما كان عليه أولاً مع السيد أحمد بن الحسين صاحب صعدة؛ لأنه كان كاتبه تلك المدة حتى قُتل السيد أحمد بن الحسين، وصار بصنعاء ساكناً من جملة غيره من أهل وقته، وفيه إشارة إلى أنه كان يشرب التن كغيره، وقد غضب سنان عليه بسبب القصيدة الميمية التي أنشأها في مدح الإمام القاسم ومكاتبته إليه، ولكن لم يتمر غضبه شيئاً لصالح السيد المذكور، وأما ظهور التن في غير اليمن فهو في (سنة ٩٩٩هـ)، كما أرخه بعضهم:

فائل لي عن الدخان أجني هل له في كتابكم إيماء
قلتُ ما فرط الكتابُ بشيءٍ ثم أرختُ (يوم تأتي السماء)
(٩٩٩هـ)

وفيات سنة ١٠١٣هـ

عبد القادر حمزة

في جمادى الآخرة (سنة ١٠١٣هـ)، توفي العلامة الحافظ العارف عبد القادر بن حمزة التهامي. وقيل: إن وفاته (سنة ١٠١٢هـ)، كما سبق فيها باختصار وهو العالم الزاهد حافظ الفروع ناصر الإمام الحسن بن علي بن داود والإمام القاسم، وأخذ عنه خلق وعمر طويلاً، وكان يقول: احمولي على القعادة إلى المجاهدين، وقبره في بلد عاشر جنب قبر شيخه رافع، وقيل: إن وفاته (سنة ١٠١٢هـ).

وقال في الطبقات: إنه من حُلِّي بن يعقوب بتهامة انقطع إلى اليمن وسكن عاشر من بلاد خولان العالية، وله حاشية على الأزهار مفيدة وفتاوى مدونة على أبواب الفقه، وكان من عباد الله الصالحين، وأصابه طرش في آخر أيامه، وأول هجرته إلى اليمن في أيام الإمام شرف الدين، وكان محبباً للناس لا يكاد يخالفه أحد من مشائخ خولان العالية.

وتوفي بعاشر من خولان، ودفن جنب شيخه بها علي بن راوع دفنه تلميذه القاضي عامر بن محمد الذماري الصباحي. ومن تلاميذه القاضي سعيد بن صلاح الهبل.

أحمد بن محمد بن شمس الدين

في غرة شوال (سنة ١٠١٣هـ) توفي أمير بلاد كوكبان الأمير الشهير أحمد بن محمد بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين وخلفه ابنه محمد.

الأمير مطهر بن الشويع

وفي (سنة ١٠١٣هـ) توفي الأمير مطهر بن الشويع بن عبد الله بن حسين بن علي بن قاسم بن الهادي بن محمد بن أحمد بن المنصور عبد الله بن حمزة، أحد أمراء الأتراك. ودفن بيفرس.

ومن ذريته بيت الشويع، وبيت الفران، وبيت أبو منصور.

حوادث سنة ١٠١٤هـ

فيها ظهر رجل في بلاد العدين يُسمَّى الشيخ عبد الرحمن، كان أول أمره متنسكاً بظهور العبادة، فمال إليه كثير من أهل تلك الجهات، ووقعت منه تمويهات منها إخبار الواصلين إليه بما في نفوسهم. ومنها أنه كان يأمر جماعة ممن قد استغفواهم بقبض الأفاعي، وأكلها ولا يضرهم، وكانوا يأكلون الزجاج كالبقل، وقصده الرجال والنساء، ووقع اختلاط ومفاسد وبعث إليه سنان طائفة من العسكر فبطلت أحواله وظهر محالة ثم قبضوه وأتوا به إلى سنان فسلخه.

حوادث سنة ١٠١٥هـ

وقع فيها حرب بين قائد الإمام القاضي هادي بن عبد الله بن أبي الرجال وبين الأروام في ظفار وكانت الدائرة على الأروام.

وفيهما غدر الشيخ الجرّمي بالفقيه علي بن يوسف الحماطي قتله غدراً في بيته بالحيمة؛

فأرسل الإمام إلى الحيمة الفقيه عز الدين بن علي بن صالح الأكوع، فبقي يتردد في جهات الحيمة ويقوم بأمرها.

وفيهما أمر سنان بالقبض على الفقيه الصالح العارف الصديق بن محمد الخاص الحنفي الزبيدي الساكن صنعاء لما أنكر عليه عمله، ثم بعث به إلى ذي مرمر، وبعد مدة يسيرة أمر بقتله بإسقاطه من الحيد، فمات - رحمه الله - فعاجل الله سناناً بالعزل والموت سريعاً.

وفيهما توفي الأمير محمد بن أحمد بن محمد بن شمس الدين بالطويلة وحمل إلى كوكبان ودفن به، ويقال: إن سناناً دسَّ له سماً لما خشي منه الميل إلى الإمام، وقام بعده ابنه إسماعيل بن محمد، وكانت به علة الحصار، فكان ضعيف الأمر بسببه، غير أن سناناً أمده وأمره أن يجعل في الطويلة من يحفظها مع ميل أهل جبل تيس إلى الإمام، فبعث إليها صلاح بن مطهر بن صلاح بن شمس الدين، وكان من أعيانه، فلما وصل الطويلة همَّ بالميل إلى عبد الرحيم، وكتب إليه وإلى القبائل. فأرسل إليه سنان بعبد الله بن المطهر، ولما وصل إليه لامه وأنكر عليه، وبلغ القبائل القريبة من الطويلة وصول عبد الله بن المطهر، فشنوا الغارة، وامتنع السيد صلاح بن المطهر في البيت الذي هو فيه، فأحاطت به عساكر الأمير عبد الله، ودخل عليه بعضهم فقتل رجلاً منهم، وخرج من بعض طاقات البيت فأمسكوه وضربوا عنقه قبل وصول القبائل، فلما بلغهم قتله (تفرقوا أيدي سباً).

وفيات سنة ١٠١٥هـ

ففيها توفي بكوكبان القاضي العلامة صلاح بن عبد الله بن داود بن أحمد الشَّظي. وهو من مشائخ الإمام المؤيد محمد بن الإمام القاسم ومؤديه بكوكبان، وكان من الذين أسروا من شهارة وحُبسوا بكوكبان مع محمد وأحمد ابني الإمام القاسم.

قال في (مطلع البدور) لأبي الرجال: كان من علماء وحُكماء وقته، وله صناعة في تدبير العامة ومعرفة الموارد والمصادر على قانون العقل، وقبره بجنب قبر السيد العلامة إبراهيم بن المهدي بن علي بن المهدي جحاف المتوفى (سنة ١٠١١هـ) وهو أيضاً من الأسرى بكوكبان مع المؤيد محمد بن الإمام.

حوادث سنة ١٠١٦هـ فما بعدها

ننقل الفصل الثالث من رسالة (أميرة) التاريخ بنت علي المداح.

في (١٩ جمادى الأولى سنة ١٠١٦هـ - سنة ١٦٠٧م)، وصل جعفر باشا والياً على اليمن بعد عزل سنان باشا الذي كان قد قرر الصلح مع الإمام القاسم قبل رحيله، مع أنه كان قد اتصف بالقسوة والشدة والجور حتى قيل: ((كان اليمن مع سنان وعبد الرحيم كالنار))، وفي ذلك قال الفقيه عبد الله بن داعر: إن الباشا سنان أساء السيرة في اليمن وعامل أهله بالإحـن ورماهم بالـحن، وتوصل لأخذ أموالهم الجليلة بكل حيلة، حتى لقد بلغ أهل الأموال في كتم ما بأيديهم منها بكل حال.

وكان سنان قبل خروجه قد قتل الأمير حسين الدفتردار في ديوان القصر حتى لا يُفشي المظالم التي ارتكبها في حق أهل اليمن فيرفعها إلى السلطان أو الوالي الجديد جعفر، وقيل: إن سبب عزل سنان وقدم جعفر أن أهل اليمن قد شكوا مراراً إلى مسامع السلطان ما يفعله سنان، ولكن وزير السلطان الأمير درويشاً كانت بينه وبين سنان مودة، فكتم عن السلطان هذه الشكاوى، ثم حدثت بين السلطان ووزيره درويش مخالفة فقتله فوجدوا هذه الشكاوى، فبادر السلطان بإرسال جعفر باشا بدلاً عن سنان.

ويرجع السبب في عدم معرفة السلطان بأمر اليمن وما يحدث فيه من الظلم والجور إلى بعد اليمن عن مركز الدولة العثمانية في الأستانة، وكان من الصعب معرفة أهله ومشاكلهم، وكان سنان قد نجح في إخضاع اليمن للسيطرة العثمانية بالقوة، غير أن هذا النجاح كان مؤقتاً وسرعان ما انقلب إلى اضطراب وفوضى، لذلك ترك سنان اليمن وهو ملتهب بالحروب والاضطرابات، فكان على الوالي الجديد جعفر مواجهة ذلك عند بداية ولايته، فكان من الحكمة أن يغير سياسة سلفه سنان ليستطيع أن يمسك بزمام الأمور، ولذلك أظهر العدل لتهدئة الأحوال باليمن من ذلك أن أهل زبيد شكوا إليه ما نالهم من الجور الشديد والظلم من سنان، وأنه جعل أموالهم أوقافاً فرد جعفر تلك المظالم وأمر بقتل القاضي عمر أفندي صاحب المخا؛ لتواطئه مع سنان ضد أهل البلاد. وكان الحباة يَحْصِلُون الأموال المقررة في سجلات الدولة من أصحاب النخيل أو من ذريتهم كما هي، بغض النظر عما إذا كان هذا النخيل ما زال قائماً أم لا، مثمراً أم غير مثمر،

فأمر جعفر باشا بإحصاء النخيل المثمر سنوياً لتكون الضرائب مطابقةً للواقع، كما أنه وجد ظاهرة تجميد الضرائب على البقر في وادي زبيد، كما كانت مجمدة على النخيل، فكانت الضرائب تؤخذ على عدد رؤوس الأبقار سواء الحية منها أو الميتة، أي على ما كانت عليها وقت إحصائها، وكان بعض الأهالي أو ورثتهم قد اضطروا إلى احتراف المهن المختلفة لتسديد الأموال المقررة عليهم حسبما هو مسجل في دفاتر الدولة، فأذهب جعفر عنهم هذه المظلمة ولم يبق عليهم الطلب إلا فيما هو موجود.

كانت إزالة هذه المظالم عن الأهالي ذات وقع كبير لما كانوا يعانون من الفقر الاقتصادي للبلاد من جهة بالإضافة إلى الخسائر التي كانوا يتعرضون لها بسبب الآفات الزراعية كالجراد مثلاً، أو انقطاع الأمطار، أو بسبب قطع الأشجار لاستعمالها في البناء، أو أن تبيس الأشجار ذات النفع الاقتصادي كأشجار البن مثلاً، ففي جبل صبر بتعز، كانت أشجار البن قد ييست وقطعها أصحابها لعدم نفعها، فقلَّ بذلك المحصول، وقد تعرضت الأراضي الزراعية في نفس هذه المنطقة للحروب المتتالية في (سنة ١٠٠٦هـ) بسبب هجوم أهل الحجرية المتكرر عليها لمناهضة العثمانيين ففي أثناء هذه الحرب أخذ أهل الحجرية في قطع أشجار البن وحرَّقوا جذوعها، فتلفت بذلك الأراضي الزراعية، وقل نفعها الاقتصادي وتعرض أهلها للفقر والتشرُّد؛ لأن الدولة كانت تأخذ منهم خراجاً ثابتاً بصرف النظر عن جودة المحصول أو خرابه.

فلما جاء جعفر باشا أزال عنهم هذه الغمة وأمر بأن يمر وقت ثمره البن في جبل صبر مباشرة عارفون بغلَّة البن لتقديره مع كاتب من قِبل الكاشف ومندوب شرعي من قِبل قاضي تعز يكون محل الثقة عارفاً بحق الدولة وحق الرعية معاً ويقدرُون ما هو موجود من البن، ويأخذون ما للدولة ويقررون ذلك في سجلات ودفاتر خُصِّصت لذلك واستمر الحال على هذا المنوال.

وقد أدرك جعفر أن رضا اليمنيين على الوالي أو سخطهم إنما يتوقف أساساً على نجاحه أو فشله في النواحي الإدارية والمالية، فعمل على كسب الأهالي إلى جانبه بالقضاء على المظالم المالية السائدة قبيل ولايته، وذلك بأن ربط الضرائب بالثروة الحقيقية للأفراد ومنع من تجميدها رغم تغيُّر الظروف المالية.

وقد عمد جعفر إلى تقريب الفقهاء والعلماء على اختلاف مذاهبهم إليه وإجراء المناقشات الطويلة معهم لإذابة الفوارق المذهبية ولتقريب وجهات النظر في المسائل السياسية والدينية، فقد اشتهر بعلمه وتفقهه في الدين وتعظيمه للعلماء والأشراف ومعرفته بحقوقهم، لأنه كان على قدر كبير من المعرفة بالعلوم الشرعية والعقلية وكان شاعراً مجيداً.

وقد ذكر المحي في كتابه (خلاصة الأثر)، وقال: سمعت من لفظ والدي، قال: تابحت أنا وجعفر في خمسة علوم: التفسير، والحديث، والمعاني، والبيان، والقراءات فوجدته في كل منها كاملاً. كما ذكره محمد بن كابي الرومي في تأريخه. كان جامعاً بين محاسن الخصال ومراتب الكمال، وكان عالماً عاملاً، وفيه من الديانة والتهجد ما هو كثير على أمثاله، وكان خليقاً بكل وصف حسن، إلا أنه كان يحب الفخر وفيه تيه.

ولو أنه سلم من سفك الدماء في آخر مجيئه إلى اليمن لكان ممن ملك القلوب، لذا نجده قد قرب بعض الفقهاء الزيدين المعتدلين وأحسن إليهم مثل السيد صلاح الحاضري والسيد محمد بن عز الدين المؤيدي المغني والسيد محمد بن عبد الله الحوثي والسيد الحسن بن شمس الدين جحّاف وغيرهم، وقد ناقشهم في أمور فقهية عديدة حتى أظهر لهم أن الخلاف إنما هو لفظي فيما بينهم، وذلك يرجع لقدرته على المناقشة وغزارة علمه، إذا يُعتبر ممن يهتمون بنشر العلم حتى قيل عنه إنه هو الذي أخرج تفسير أبي السعود، فُسخ منه عدة نسخ وانتشر في اليمن (وتفسير أبي السعود نسبة إلى أبي السعود بن محمد بن العماد الحنفي ٨٩٨ — ٩٨٢هـ) من علماء العثمانيين المستعربين، كان مفسراً وشاعراً تقلد القضاء وأضيف إليه الإفتاء)، وكان هذا التفسير لم يعرف باليمن، فكان جعفر يورد على علمائه مباحث من أبي السعود لم يعرفوها حتى حملهم ذلك على تحصيله وكتابته، وبهذه الطريقة جذب نحوه العلماء والفقهاء؛ ليكونوا بجانبه بدلاً من أن يكونوا ضده، لما للعلماء من تأثير على الأهالي وخاصة أهل الجبال الشماليين، لما لهذا الجانب من أعظم الأثر في نفس الجبلي أو الصحراوي، لذا كانت خطة جعفر ذكية في مس هذا الجانب الحساس.

لكل هذا كانت الفترة التي تولاها فترة هادئة بفضل سياسته هذه وخاصة أنه عقد مع

الإمام القاسم صلحاً لمدة عشر سنوات، وقضى على عبد الرحيم بن عبد الرحمن كما سيأتي.

وقد وصف الموزعي في كتابه الإحسان، في دخول اليمن تحت عدالة آل عثمان بقوله: في جعفر (انقادت له الأرض، بالطول والعرض، وكان في أيامه اليمن كله جنّة عدن لما حل في قلوب أهله من الأمان والأمن).

ونحن نرى هنا أن سياسة جعفر باشا متمثلة في جانبين:

الأول: رفع المظالم المالية عن الأهالي.

والثاني: الجانب العلمي لفئة واحدة فقط دون سائر الأهالي، وهي فئة العلماء والفقهاء ولم ينظر ولا غيره من الولاة في اليمن إلى جوانب أخرى كتطوير الزراعة مثلاً أو الصناعة، أو التجارة، أو تقديم الخدمات العامة للأهالي مثل: تسهيل طرق المواصلات، والبريد، أو بناء المدارس، والمستشفيات وغيرها، إذ أن هذه الأعمال تركت على أنها من مهمة الأهالي وفقاً لتقاليدهم وأوضاعهم، إنما اهتمام الولاة العثمانيين لهذه الأمور إن اهتموا بها، فإثماً يكون من أجل زيادة موارد الأهالي في البلاد لزيادة موارد الدولة، أو من أجل رغبة بعض الحكام في تخليد ذكراهم بإقامة المنشآت الدينية كالمساجد، أو بناء القلاع أو الحصون، وكذلك اهتمامهم بمظاهر الحياة الدينية والاجتماعية العامة، كذلك لم نجد أي تغير في الأوضاع القبلية في اليمن التي تحتاج إلى تغيير حضاري كبير؛ لأن قدرة الولاة وإمكانيتهم محدودة إذ لا يمكن تحقيق هذا التغير في أثناء حكم معين أو خلال مرحلة تاريخية معينة؛ وذلك لأنه يحتاج إلى إمكانيات كبيرة، وفترات طويلة، فتغير هذه النظم أو الأوضاع لا يتحقق إلا إذا تغيرت ظروف معيشة القبائل، ولا يتأتى هذا إلا عن طريق نشر التعليم مثلاً بين الأهالي أو عن طريق امتصاص طاقتهم وجهودهم في القيام بأعمال إنشائية وعمرانية كبيرة، زراعية كانت أم صناعية، خاصة أن أرض اليمن خصبة وغنية بالثروات المعدنية، وتنفيذ هذه الخطوة الحضارية لا يتم إلا عن طريق حكومة قوية مستقرة ووال قوي يستطيع أن يتعاون مع هذه القبائل ليتغلب على ظروف بيئتها الطبيعية الصعبة التي يغلب عليها الطابع الجبلي أو الصحراوي.

وبطبيعة الحال لم يكن في مقدور الدولة في ذلك الوقت القيام بمثل هذه الأعمال؛ لأن

هءف العثمانيين من وراء حكمهم في اليمء في ذلك الوقت لم يكن لإحداث تغيير حقيقي في أوضاع البلاد الاجتماعية؛ ولذلك لم تمتد جهود جعفر باشا لإحداث مثل هذه التغييرات، وإنما اكتفى بهذا القدر الذي أشرنا إليه.

أما عن صلح (سنة ١٠١٦هـ)، واستقرار الإمام في شهارة، فقد اتسعت هوة الخلاف بين الإمام وعبد الرحيم وخاصة بعد أن عقد الإمام مع سنان باشا الصلح قبل رحيله. وقد رغب الإمام في أن يشمل صلحه مع العثمانيين عبد الرحيم، لكن الأخير رفض وأثم الإمام بالضعف والعجز، وكان الوحشة بين عبد الرحيم وسنان؛ لذلك نجد أنه بعد تولي جعفر ولاية اليمء سارع عبد الرحيم بالاتصال به لإقامة علاقات ودية معه تتمثل في صلح يُعقد بينهما وأظهر له أن خلافه مع سنان كان بسبب عداوة بينهما بسبب الوُشاة، وأظهر منابذته ومخالفته للإمام، وأنه راغب في عقد صلح مع جعفر؛ سرَّ جعفر لهذه المبادرة من عبد الرحيم، لكن الأخير أرسل أخاه إلى كوكبان للقيام ببعض أعمال عسكرية لتوسيع مناطق سيطرته أثناء مفاوضات الصلح، وكان ذلك سبباً في شك جعفر في صدق نية عبد الرحيم، وزاد من هذا الشك أن جعفرأ أرسل إليه أحد الفقهاء ليعرض عليه الصلح على أن يترك له ما تحت يده من البلاد وهو حين ذلك في كوكبان حجة، فلما وصل الفقيه إليه أحسن إليه وأظهر سروره بوصوله لما كان بين الفقيه وعبد الرحيم من مودة.

فلما علم أنه وصل لعقد الصلح وإغماء سيف الفتنة اشتد غضبه وخرج إلى مكان يسمى (حورة) وأركب الفقيه معه ثم صلبه على شجرة هناك، فاستشاط جعفر غضباً.

قال الشرقي في مخطوطته: كان عبد الرحيم كَتَبَ إلى الباشا جعفر يريد منه أن يكون من جملتهم ويعطوه من البلاد ما يرزاه، فوقع الخوض في ذلك مدة، فلم يتهياً بينهما اتفاق لحث عقيدة الأمير عبد الرحيم وسوء أفعاله، ولم يتم عقد الصلح، ولذلك رأى جعفر أن فتح الحرب في جهتين صعب، وأن الأولى أن يعقد صلحاً مع الإمام القاسم، إذ كان اشتعال الحرب ضد العثمانيين من جهتين، الإمام وعبد الرحيم يغري جعفرأ على الصلح مع أحدهما ليتفرغ للآخر، أو حتى مع كليهما لإطفاء نار الحروب التي واجهته عند ابتداء ولايته، وما دام جعفر قد فشل في عقد صلح مع عبد الرحيم فقد كان ذلك

دافعاً قوياً إلى تقربه من الإمام وعقد الصلح معه.

وقيل: إن سناناً قبل رحيله أشار على جعفر بالصلح مع الإمام ومحاربة عبد الرحيم، وقد أجاب الإمام على جعفر بالموافقة على الصلح؛ وذلك لأن القبائل ملوا الفتنة وطول الحروب، كما أنه رأى أن كثيراً من رجال القبائل كانوا يميلون لمن يدفع لهم أكثر من المال.

ونظراً لقوة الدولة العثمانية بالنظر إلى قوة الإمام فقد مالت قبائل إليها لحاجتهم إلى الأموال بسبب فقرهم بالإضافة إلى ميل أمراء آل شرف الدين للدولة العثمانية وتعاونهم معها ضد الإمام، فكان الإمام يحارب في جهتين، آل شرف الدين والعثمانيين.

وكذلك ما ظهر من عبد الرحيم من كره للإمام والغدر به وخاصةً عندما أرسل حاجبه شمس الدين البواب فأشعل عبد الرحيم النار لإحراقه. كما رأى الإمام أن في الصلح مصلحةً كبيرة لإخراج أولاده ومن معهم من الأسر بكوكبان والرهائن بغيره، فكل ذلك جعل الإمام يبادر بالموافقة على الصلح، فأرسل إلى صنعاء القاضي سعد الدين بن الحسين المسوري ليعقد الصلح مع جعفر باشا وعمل من جهة الدولة العثمانية في الصلح الأمير عبد الله بن المعافى والحاج أحمد الوادي فعقد الصلح في يوم الاثنين ١١ ذي الحجة (سنة ١٠١٦ هـ سنة ١٦٠٨ م) لمدة (عشر سنين)، كانت شروط الصلح على:

(١) أن يبقى للإمام ما تحت يده من المنطقة الشمالية الأهنوم وعذر ووادة وظليمة والعصيقات وشهارة وبرط والحيمة.

(٢) ورد له جعفر باشا حصن جيمة السعدا وبلادها - وكانت تحت سيطرة العثمانيين -.

(٣) وأن يؤمن سكان المناطق من الجهتين ويسمح لهم بحرية التنقل في أي البلاد، وإن كان لأحد حق في أحد الجانبين سمح له بالاتصال به ليأخذ كل ذي حق حقه.

(٤) كما وافق جعفر باشا أيضاً على فك أسر أولاد الإمام محمد وأحمد من كوكبان وجميع أهلهم وأصحابهم، وإطلاق من في سجن صنعاء من الرهائن، وإطلاق رهائن الحيمة - وكان قد قبضهم سنان في حروب الحيمة كما سبق -.

٥) واشترط الإمام أن يبقى سلاح أهل الحيمة معهم لمناصرتهم الإمام، وقد وافق جعفر على ذلك لاسترضاء الإمام ولتهذئة الأوضاع.

وبادر جعفر بتنفيذ الشروط وبدأ بإطلاق سراح أولاد الإمام وأهلهم وأصحابهم من كوكبان فيما بين رجب وآخر رمضان (سنة ١٠١٧هـ سنة ١٦٠٩م)، وقد خرج الجميع إلى شهارة مستقر حكمهم واستقرت بذلك أحوال الإمام وأولاده، وكانت الأمور خلال الصلح على أحسن حال، ولم تحصل أي منافرة بين الجانبين حتى نقض الصلح (سنة ١٠٢١هـ) في النهضة الثالثة كما سيأتي.

والواقع أن هذا الصلح كان تنويعاً لانتصارات الإمام عند نهاية النهضة الثانية وتثبيتاً لأقدامه في المنطقة الشمالية، وذلك على عكس ما حدث له عند نهاية النهضة الأولى التي انتهت بسلب جميع ما استولى عليه من البلاد، فقد استطاع في نهاية النهضة الثانية أن يفرض وجوده على العثمانيين وأن يُجبرهم على الاعتراف به.

واعترفهم به وموافقتهم على شروط الصلح يُعتبر مظهراً من مظاهر ضعف الحكم العثماني في اليمن وخلخلة نظمه، إذ يُعتبر ذلك بداية نهاية الحكم العثماني في اليمن؛ لأن العثمانيين كانوا يحرصون على بقاء هذا الصلح لحاجتهم إليه فيعملون بدورهم على تهدئة الأحوال مع الأئمة سادة الجبال في الشمال للتفرغ لحل مشاكلهم في باقي أقاليم اليمن.

والحقيقة أن كلاً من جعفر والإمام كان في حاجة إلى هذا الصلح لتنظيم شئونهما داخل أقاليمهما.

فالإمام قد أحرز عدة انتصارات لكنها لم تكن تعني السيطرة الكاملة على تلك المناطق نظراً لموقف القبائل منه، كما أنها لم تكن تعني انتشار دعوته في المناطق الشمالية جميعها، فقد ظلت القبائل تخاف بطش العثمانيين بها وتتردد في مناصرة الإمام، بالإضافة إلى أن بعض القبائل وقفت في جانبه طمعاً في الغنائم وليس لنصرته التي كانت تعتمد على التعاليم الدينية، تلك التعاليم التي كانت تمثل الفكر السياسي الذي تقوم عليه سيطرته ونفوذه في الأقاليم الخاضعة له، فقد كانت هناك الكثير من البدع والخرافات منتشرة بين أهل اليمن ولم يستطع الإمام القضاء عليها أو إقامة الحدود لانشغاله بالحروب المستمرة وتنقله من بلد إلى آخر، فكان في حاجة لهذا الصلح ليدعم نفوذه في

البلاد وقيم الحدود الشرعية ويقضي على البدع والخرافات ويؤسس البذرة الأولى لتأسيس دولته القاسمية.

أما جعفر باشا فقد كان في حاجة ماسة كذلك لهذا الصلح؛ لأن سنناً قد ترك له اليمن وهو ملتهب بالحروب والاضطرابات، وتعثره موجات الغضب والتذمر من الأهالي، بالإضافة إلى تمرد عبد الرحيم بعد قتله الفقيه القادم إليه للتفاهم معه لحل المنازعات مع العثمانيين وإغمد سيف الفتنة، كذلك الاضطرابات السائدة في صعدة من قبل متوليها العثماني الذي اتخذ موقفاً استقلالياً متمرداً على الدولة مستغلاً في ذلك بُعد إقليم صعدة عن مركز حكم العثمانيين في اليمن صنعاء، مما شجعه على التثبيت به، فقد كان لهذا الأمير حكم صعدة منذ ولاية حسن باشا وطول ولاية سنان الذي قد كان عزم على إقالته عند ما لمس ميوله الاستقلالية لولا انشغاله بحروبه مع عبد الرحيم، فكان على جعفر التصدي له والقضاء عليه.

وكذلك دارت الحرب بين جعفر والكتخدا عبدالله شلي الذي أعلن تمرده عليه كما سيأتي، بالإضافة إلى تعدد الاضطرابات في باقي إقليم اليمن مما كان يضعف من جانب العثمانيين.

وهكذا يمكن القول بأن هذا الصلح كان توطيداً وتدعيماً لأقدام الإمام في المنطقة الشمالية، وقد شبه الجرُموزي هذا الصلح بصلح الحديبية.

كذلك كانت الاضطرابات على جعفر سواء من حاكم صعدة أو من عبد الرحيم بداية لامتداد سيطرة الإمام على الأقاليم الشمالية، ثم على باقي أقاليم اليمن في عهد أولاده من بعده، كما كان هذا الصلح فاتحة خير للإمام فقد اتصل به كثير من الناس وناصروا دعوته وانضموا إليه بالآلاف؛ لأنهم آمنوا واطمأنوا بهذا الصلح.

وبعد الصلح ركز جعفر جهوده ضد عبد الرحيم بعد ما تيقن من سوء نيته - كما سبق - وكان أمير كوكبان وهو إسماعيل بن محمد بن أحمد بن محمد بن شمس الدين يرسل لجعفر باستمرار عن جميع الأعمال الجزئية لعبد الرحيم وتعيده على بلاده، فكانت تلك الشرارة التي أشعلت النار في الهشيم، فاهارت أمور عبد الرحيم وتضعفت أحواله.

عبد الرحيم إلى حصن كحلان الشرف.

فلما بلغ جعفر أن عبد الرحيم ينتقل من حصنٍ لآخر أرسل له الأمير محمد بك الكرديّ السردار بعساكر كثيرة لمحاربه وأرسل أخوه محمد بن عبد الرحمن إلى عمر كيخيا يطلب الأمان وسلم له حصن المفتاح. وسلم الشيخ ناصر الحبشي وقبائله بلادهم، وسار عمر كيخيا بمحمد بن عبد الرحمن إلى صنعاء، ثم حاصروا عبد الرحيم في حصن كحلان الشرف، فخرج طالباً الأمان من الأمير محمد الكردي ومن جعفر باشا (سنة ١٠١٨ هـ سنة ١٦٠٩ م)، فأخرج له الأمير محمد مرسوماً بالأمان من جعفر. ثم اتجهوا إلى صنعاء، فلما قربوا منها كان في استقباله الأمير عبد الله بن المعافى اختاره الباشا بالذات لما بينهما من العداوة وللشماتة بعبد الرحيم، فلما رآه عرف أن الشر ينتظره، فلما وصل صنعاء كان في استقباله إخوته والأمراء والآغاوات، ولما قابله جعفر باشا وبَّخه على أعماله القبيحة وأمر أن يضعوه في الدار الحمراء بقصر صنعاء لحبسه بها.

استمرت الحرب بين جعفر وعبد الرحيم سنتين بعد الصلح مع الإمام، كان مصير عبد الرحيم إلى الهلاك. كان دخوله الدار الحمراء يوم الأحد ٦ ربيع الآخر (سنة ١٠١٨ هـ سنة ١٦٠٩ م)، بقي بها سنتين واستولى العثمانيون على جميع ما بيده، أما أخواه أحمد ومحمد فقد جعل لهما العثمانيون مرتبة الإمارة اسماً فقط دون فعل إلى أن مات محمد في شوال (سنة ١٠٢٧ هـ)، وكذلك أخوه أحمد.

وفي شعبان (سنة ١٠٢٠ هـ) أرسل جعفر بعبد الرحيم إلى استانبول مع آغا من آغاواته، فحبس هناك في القلعة المشهورة في وسط استانبول المسماة (يُذِي قَلَّة)، فاجتمع هناك بأعمامه وأولادهم وأولاد المطهر بن شرف الدين؛ بذلك زالت دولة عبد الرحيم ودولة الإمام شرف الدين ولم يبق منها إلا بنو شمس الدين.

وكانت سيرة عبد الرحيم غير مرضية وأعماله قبيحة، اشتهر بقسوته حتى على إخوته وأقرب الناس إليه، مما جعل أخاه محمداً والشيخ ناصر الحبشي يدبران له الحيلة حتى أدخلاه حصن كحلان الشرف، فتمكن منه العثمانيون، كما أن له أخباراً شنيعة في مخالفة الشريعة الإسلامية، منها شربه للخمر، وقتله النفوس بغير حق، فقد ضرب مرة عتق عبد له، فقيل له: ما السبب؟ فقال: لأن عنقه طويل يصلح لضربه. ومن يقتل والده

فيمكن أن يفعل كل مشين، فقد قتله وادّعى أن عبداً قتله فقتل العبد. وما فعله في أولاد القحطاني وأهمهم فقد علقها في شجرة مع أولادها بخورة مكشوفة بسبب مسيرة القحطاني إلى جعفر باشا في أول الحرب بينهما.

وكذلك عُرف بالغدر، ودلينا ما فعله مع الإمام القاسم، فتارة يدعو له على المنابر، وتارة يخرج عليه ويحاول قتل رسله، فتميزت شخصيته بالصفات القبيحة، فهي شخصية غريبة جلبت على نفسها المحن. وحتى في استانبول، فقد جهّزه السلطان في بعض العساكر لقتال الفرنج، ففعل مكيدة للعسكر، فتلّف أكثرهم، فأمر السلطان بقتله، وقال: من يفعل هذه المكيدة العظيمة لا تؤمن مكايده، فسلطه الله عليه تعجلاً لعقوبته (هذا من أنباء الزمن مع غرائب لعبد الرحيم فعلها في ولايته التي دامت (٢٦ سنة غرائب يستنكرها العقل والشرع).

رجعنا إلى خلاصة المتون عن أنباء الزمن في (سنة ١٠١٦م) لما بلغ سناناً، توجه جعفر باشا ظهر عليه الغضب، واستوحش خيفة مما قدمت يداه من الجرأة، وما اجتناه من تحصيل المال والحطام ورام إقامته بصنعاء حتى يصل إليها جعفر باشا، فرأى جعفر أن الاجتماع لهما لا يكون إلا بتعز، فأعد سنان جميع أثقاله للارتحال، وعباً جنوده بين يديه، تعبأة المحارب، ولم يزل في منازل ارتحاله يضرب الأعناق بموجب توهمه وتخيله وما برح كذلك حتى بلغ تعز. ولما بلغ الباشا جعفرأ وشاهده من أحوال سنان، كره النظر إليه واحتال عن الاجتماع به لئلا تحصل منه خديعة مع توفر الجند لديه، فلم يجتمع به وكره القبض عليه صيانة للعسكر وللمسلمين من الفتنة وأمره بالانصراف إلى المخا وسنان متوقد بغيظه وسعير قلبه حتى مات في المخا.

ومما جرى من سنان في اليمن تغيير السكة حتى أضر بالناس ضرراً عظيماً، فإن السكك لا ينبغي تغييرها، وكذلك تغيير المكايل والموازين يحصل به الخلل على الناس، وكان سنان يبحث عن خفيات الأمور والجرائم، ومتى لاح له أدنى ذنب بأدنى قرينة عاقب عليه أشد العقاب والأخذ الويل.

ومن مآثره إصلاح مدرّج نقيل شهارة من وادي رجم إلى الباب الغربي بشهارة ورصّه بالحجارة المحكمة، وأخرب حصن براش بصنعاء، وجعل عوضه البناء الذي في

رأس نقم، وسببه أن الحرب لما اشتعل كانت قبائل خولان يصلون إلى جبل نقم ويتعرضون إلى أطراف القاع من غير شعور رتبة حصن براش فأخبره وعوضه بحصن نقم لقربه وانتباهه، فكانت الرتبة به إذا أحست بقبائل خولان رموا بالزبارط من نقم فينتبه من في محطة سنان ببستان خزيمة. وهو الذي رصَّ صرح الجامع الكبير بصنعاء بالحجارة الحبش وبنى القبة وسط الصرح، وبنى منارة مسجد الإمام صلاح الدين، وكانت أعلى منارة بصنعاء، وبنى مسجد جناح وبنى المطاهر الجامع صنعاء، وأسس البركة الكبيرة في القبتين واعتنى برسم دفتر كبير للأوقاف وأمر الأفندية بالحكم بصحته (مسودة سنان المعروفة إلى الآن في مجلدين ضخمين بخط جميل صحيح) وكان الناظر على الوقف محمد بن أحمد البوني، ووضع على الدفتر شهادة العلماء، كالسيد محمد بن عز الدين المؤيدي المفتي، وكان سنان يحترم الوقف، ولا يأخذ منه شيئاً، بل يصير في مصارفه حتى أنه خرج من صنعاء وفي القبة التي بناها بصرح الجامع لحفظ خزانة الوقف بقية دراهم تسعة آلاف قرش (ريال) فأودعها مشائخ صنعاء آل عطية، وقال: «هذه أمانتكم حق المسجد الجامع وغيره من المساجد»، وكان سنان فتاكاً أهلك كثيرين فهابه الناس، وكان في أيامه الحاج أحمد الوادي التاجر يتفادى كثيرين ممن قد رسم عليهم القتل بمال يبدله، وكان الحاج الوادي قد سلم من مصادرة سنان، ووقاه الله منه، وكان سنان قد هم بقتله، فصرأى في منامه ما صده عن قتله والإيقاع به لحسن نيته.

قال الأمير كافي شليبي: «(ووجد في دولة سنان الموميا في جبل نقم وهو عظيم النفع خير من الذي يخرج من مصر يشبه الدم الأحمر يميل إلى السواد، وأهل صنعاء غافلون عن ذلك ولم ينتبه له إلا الوزير سنان، ولما مات سنان بالمخا أمر جعفر باشا بإرجاع عساكره وخزائنه وابنه محمد)».

قال عبد الله داعر في تاريخه: «(لجعفر باشا في آخر (سنة ١٠١٦هـ) أمر جعفر بصنعاء بعد وصوله بشنق محمد بن أحمد البوني الناظر على الوقف بصنعاء لما كثر شكوى الناس من ظلمه بأنه جعل من أموالهم للوقف كرهاً، وكان قد أمر بحبسه أولاً، وقال: يرد المظالم، فلم يمتثل، فقتله، كما فعل وهو بزييد بقاضي المخا الذي تظلم الناس منه كذلك كما سبق)».

وفى (سنة ١٠١٧هـ) بلغ موت على بن يحيى بن المطهر بن شرف الدين فى الروم وهو آخر من مات من أولاد المطهر هناك.

وفىها مات بكوكبان الأمير إسماعيل بن أحمد بن محمد بن شمس الدين وأقاموا بعده عم أبيه الأمير على بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين، وكان مُهملاً بشبام وولسوه أمرهم وكان ابنه الأمير عبد الرب بن على، هو القائم بالأمر، وكان جماعة من النقباء تواطئوا هم ومحمد بن الإمام القاسم وهو معتقل بكوكبان على أنه يقوم بالأمر وينصرونه، فلم يتم ذلك وكانت الغلبة لعلى بن شمس الدين.

وفىها مات السيد عبد الله بن على المؤيدى الذى كان دعا بعد أسر الإمام الحسن بن على بن داود المؤيدى وإدخاله الروم.

وفى (سنة ١٠١٨هـ)، سقط عُمر كىخيا من حصانه، فمات وعيّن بدله جعفر باشا عبدالله شلى وجهزه بعساكر كثيرة إلى ريمة وبرع، وكانت فى أيام سنان مخالفة مانعة من مدة قيام الإمام القاسم، وقتلوا الباشا على كما سبق لما أراد دخول بلادهم ولا قدر سنان لفتحها لعرها واشتغالهم بغيرها، فاجتمعت العساكر التى كانت مشاغرة لعبد الرحيم فتلقاتهم أهل ريمة وبرع بالطاعة واستقر عبد الله شلى بكسمة.

وفى هذه السنة وقع الغلاء فى الأسعار فقحطت بلاد صنعاء وغيرها وهلك كثير من الناس جوعاً، وفى (سنة ١٠١٩هـ) توجه جعفر باشا إلى كوكبان أمسى ليلة فقط، ثم طاف إلى عمران ورجع صنعاء، ووجه عساكر على الأمير محمد إلى صعدة وبلادها للقبض عليه بعد مراجعة طويلة، وكان مراد الأمير محمد الاستقلال ببلاد صعدة؛ لأنها طالت ولايته كما سبق وجمع أموالاً كثيرة وعساكر عديدة، فلما قربت منه عساكر جعفر باشا من صعدة عرف أنه لا طاقة له بهم، فحمل ما خف من الذهب الأحمر وركب جواده وسار هو وخاصته جهة الشام عن طريق الحرجة.

وفىها جعل جعفر باشا عبد الله شلى كىخيا، وعزل صفر آغا وجعل كاني شلى دفتر دار.

وفيات سنة ١٠١٦هـ

أحمد بن معوضة الجربي

فيها توفي بصنعاء الفقيه العلامة المذاكر أحمد بن معوضة الجربي. وكان عالماً كبيراً محققاً للفقهاء ملازماً لمسجد داود بصنعاء مع زهد وصلاح أخذ عليه جماعة، وقبره بجزيرة الروض.

قال أبو الرجال في مطالع البدور: ((هو من الجريتين بالقرب من بلاد آل عباس إلى شرقي دمار. وكان عالماً عابداً في الغاية من الورع، واستقر أولاً بسدمار، ثم انتقل إلى صنعاء، واشتهر بصنعاء وسلم إليه الناس واجباهم ليصرفها في مستحقها، فكان لا يرضى بقبضها بل يبقها عند صاحبها ويعول للمستحقين من المزكّي)). وأصيب بنظره في آخر عمره، فعكف على العبادة بمسجد داود بصنعاء وهو خليفة علي بن قاسم السحاني بداود، وله ولدان:-

محمد بن أحمد بن معوضة

سلك مسلك والده في العلم والورع والتقشف، وكان إمام مسجد داود لا يفارق المسجد إلا عند مبيته متواضعاً لا يسأل أحداً شيئاً، والولد الثاني:-

عبد الله بن أحمد بن معوضة

ترجمه في الطبقات، فقال: ((كان يتوقد ذكاءً وفطنة، وله في علم الكلام اليد الطولى، وله ترجيحات في الفقه، وموته وصنوه محمد بالروضة)). وقد استفاد عن كثير رؤية النور عند قبريهما.

أحمد بن محمد بن المنتصر

وفي (سنة ١٠١٦هـ) توفي بالظفير السيد العلامة أحمد بن محمد بن المنتصر بن نمشل، وكان علامة محققاً.

رضي الدين العيزري

وفي (سنة ١٠١٧هـ) توفي بشهارة مهاجراً الشيخ الأديب الزيدي رضي الدين أبو بكر بن أبي القاسم بن أحمد بن أبي بكر العيزري.

أحمد بن حسن الدواري

وفي ٢٣ شوال (سنة ١٠١٨هـ)، توفي بصعدة الشيخ العلامة المفتي الصمصامة أحمد بن الحسن بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن حسن بن عطية بن محمد بن المؤيد الدواري - المعروف بالقصة-.

كان من أكابر العلماء الأخيار زاهداً في هذه الدار، كثير الإحسان إلى الفقراء وغرباء الديار.

قال في (مطالع البدور): «وكان يسمَّى المُقَشِّش؛ لأنه كان إذا حضره طعامه بصعدة أمر بإيصال من في الجامع من الغرباء للأكل معه، وكان يجرأ لا يُجَارَى في العلوم وصنف كتاباً في أنواع الحديث وجرت له أمور بسبب محبته الصادقة لأهل البيت ومباينة من تولى صعدة بزمنه من الظلمة، ومن مشائخه السيد محمد بن عز الدين المفتي وعلي بن الإمام شرف الدين وغيرهما».

علي بن صلاح العبالي

وفي (سنة ١٠١٩هـ) توفي بشهارة السيد العلامة علي بن صلاح بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن بن يحيى بن علي بن الحسن بن عبد الله بن إسماعيل بن عيسى بن عبد الله بن عيسى بن إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن القاسم الرسي بن إبراهيم... إلخ - المعروف بالعبالي-. سقط من طاقة داره شهارة.

قال في (البدر الطالع): «(أصله من الحَرَجَة ما بين صعدة والحجاز، وهو من أكابر العلماء ومن أنصار الإمام القاسم، كان يبعثه في مهماته، وأرسله لأخذ بيعة القاضي يوسف الحماطي، وقال الإمام القاسم فيه: لست أخاف على أهل اليمن وفيهم هذا السيد العبالي)».

ومن شعره كما في مطالع البدور قصيدة هنأ بها الإمام القاسم بفتح شهارة (سنة

١٠١٠هـ) أولها:

هنيئاً بهذا الفتح يا ابن محمد وحمداً لمن أولاك سؤلي ومقصدي
تقدم منها ثلاثة أبيات.

أحمد بن يحيى الذؤيد

وفي ١٥ جمادى الأولى (سنة ١٠٢٠هـ)، توفي إمام المعقول والمنقول المحدث الفاضل أحمد بن يحيى بن سالم الذؤيد الصعدي، وكان علامة إماماً له شرح على تلخيص المفتاح، وقرأ الرمل وحل السحر وقرأ التوراة وحفظ الكشاف، وقرأ الأمهات الست، وهو شيخ العلامة محمد بن عز الدين المفتي، قال في الطبقات: ((الفقيه أحمد بن يحيى بن سالم بن الذؤيد بن علي بن محمد بن موسى الصعدي، قرأ على عبد العزيز بمران وغيره، وكان عديم النظر في المعقولات وغريب الصفات، وكان آية من آيات الله مع مكارم أخلاق تفضح النسيم، وكان من أهل الثروة والمال، واجتمع له من الكتب خزانة ملوكية، ثم تفرقت بعد موته؛ لأنه أوقفها. ودفن بصعدة بقبة له قبلي القرضيين)).

نعود إلى الفصل الرابع من الرسالة الجامعية للكاتبة (أميرة علي المداح) فقد تضمن ما في خلاصة المتنون بحسن أسلوب.

قالت: سبقت الإشارة إلى أمير صعدة ونزعاته الاستقلالية وتصدي الباشا جعفر له، وانحزاه بعد صدام قصير، وما كان منه إلا أن جمع أمواله وغادر اليمن مع بعض أتباعه إلى بلاد الشام، ويبدو أنه كان ذا صلة وثيقة ببعض رجالات الدولة في الأستانة، إذ قيل: إنه كان أحد أسباب عزل جعفر باشا عن اليمن.

فقد عزل في (سنة ١٠٢١هـ - ١٦١٢م) وعُين بدلاً منه إبراهيم باشا الذي وصل اليمن في أول ربيع الأول (سنة ١٠٢٢هـ - ١٦١٣م)، وقد زادت الاضطرابات في صنعاء بين صفوف العثمانيين عند عزل جعفر باشا، فقد سارع عبد الله شليي كتحدا جعفر بالانضمام إلى الوالي الجديد إبراهيم، ولم يرحل مع جعفر كما هي العادة ونادى في العسكر يطلب منهم الانضمام معه إلى إبراهيم باشا، فلم يقبل أحد منهم ذلك، فلما علم جعفر بأمر عبد الله شليي غضب وتعجب لحسن ظنه به، فعين جعفر كتحدا له آخر الأمير حيدر.

أما إبراهيم باشا فقد انشرح صدره بانضمام عبدالله شلي إليهِ نظراً لمعرفته باليمن فيستفيد من معرفته، فعينه والياً على صنعاء لتمهيد الأمور بها إلى وصوله، وأخذ شلي يجهز جيشاً لحرب الإمام وطوائف الزيدية خوفاً من اغتنامهم فرصة تغيير الوالي والاستيلاء على البلاد. لكن إبراهيم باشا أصيب بالحمى وهو بدمار، وما لبث أن وافته المنية في يوم الاثنين ٢٨ جمادى الأولى (سنة ١٠٢٢هـ - سنة ١٦١٣م)، وقيل: إنه مات مسموماً، وكانت مدة ولايته حوالي شهرين فقط. أدت وفاته إلى انفجار الأزمة بين جعفر وشلي، فقد عاد جعفر من زبيد قاصداً صنعاء بناءً على طلب الإصباحية (هي طائفة من الحند العثماني يبدو أنه تحريف الإصباحية أو السباهية، وهي طائفة الفرسان الذين خرجوا مع إبراهيم باشا، وكان قائدهم أحمد آغا وسليمان آغا، فلما علم شلي بعود جعفر خاف لما سلف منه، فهاج وماج وأخذ ينشر بين الأمراء والعسكر أن جعفرأ قد عزل ولا ولاية له على اليمن. والباشا إبراهيم قد جعله خليفته، وأن مراده حفظ البلاد إلى أن يأتي وال جديد من الأستانة، فخاف العسكر منه ووافقوه في الظاهر، بعد أن أخذ منهم العهد على امتثال أوامره، ومنع جعفرأ عن دخول صنعاء وتجهز لحربه، وأرسل إلى الإمام يعرض عقد صلح معه على ألا يتعدى أصحاب الإمام الموضع التي هم فيها، وذلك ليضمن جانب الإمام. والواقع أن أكثر العسكر كانوا يميلون إلى جانب جعفر باشا لكونه أعلى مرتبة من شلي، ورغم أن جعفرأ كان أرسل إلى شلي بموافقته على إبقائه في منصبه حاكماً لصنعاء، فقد خاف من انتقام جعفر ورفض الاعتراف بولايته.

وقد اتخذ شلي موقفاً معارضاً صريحاً لجعفر أدى إلى انقسام صفوف العثمانيين إذ اقترح تقسيم اليمن بينهما على أن يكون له صنعاء وما يليها شمالاً، وأن تكون الأقاليم من دمار إلى عدن لجعفر، ولما لم يوافق جعفرأ على هذا التقسيم اتسعت هوة الخلاف بين الطرفين؛ فأرسل جعفرأ الأمير حيدراً إلى صنعاء، فاجتمع بعكسر شلي سرأ وأظهر لهم أماناً من جعفر وأنه أولى بالولاية والطاعة.

فمال إليه أكثر العكسر ودارت بينهم الحرب فانهزم أصحاب شلي، فانحاز باقي العسكر إلى جعفر وساروا إليه بدمار، فقتل من الرؤساء جماعة منهم الفقيه علي الشهاري الذي نكث العهد مع الإمام القاسم وسلم البعض الآخر من القتل.

ثم تقدم الأمير حيدر إلى صنعاء لحرب شلي، ولما قرب منها وصلت إليه كتب الأمراء والجند بالموالة لجعفر، والتبرؤ من شلي، ثم خرجوا من الخندق الذي اختبأوا فيه، وهم عبد الله بن المطهر، وأخوه إبراهيم، وعبد الله بن المعافى، وصلاح المؤيدي، ومحمد المؤيدي والأمير درويش، وعلي بن الشويح، والأمير أحمد الأخرم، فأخذوا الأمان من حيدر لأنفسهم، ولأهل صنعاء وفتحوا له الخندق على شرط عدم تخريب صنعاء، أو الإضرار بأهلها.

فدخل أصحاب حيدر من الخندق فالتجأ شلي وجماعة من أصحابه إلى قصر صنعاء، ولم تنتهب صنعاء أو تخرب حسب الاتفاق، بل حاصر أصحاب حيدر القصر الذي فيه شلي، فلما وجد أن الأمر خرج من يده، ولا مفر له استسلم وطلب الأمان من حيدر، فأمنه وكتب إلى جعفر بأمانه فلم يجبه إلى ذلك، بل أمره أن يقتله ويأتيه برأسه، وتقدم جعفر إلى صنعاء فاستقر بها.

هذه الاضطرابات، جعلت الإمام يفكر في نقض الصلح؛ لأنه كما أن يرى في الصلح مصلحة لأهل اليمن من أجل تسكين الفتنة ما دام جعفر باقياً، أما وقد عُرِل فقد خاف الإمام من استيلاء الوالي الجديد على ما تحت يده من البلاد وعدم الاعتراف بحق الإمامة، فاستشار أصحابه، فاجتمع الرأي على نقض الصلح والحرب، فانتظر الإمام إلى أول ربيع الأول (سنة ١٠٢٢ هـ - سنة ١٦١٣ م) بعد خروج الباشا جعفر من صنعاء بأيام.

وبذلك بدأ الإمام النهضة الثالثة من دعوته، فقد كان ينتظر وصول موافقة إبراهيم باشا لتجديد الصلح معه غير أنها وافته المنية بدمار، كما أن الإمام لم يثق بما أرسله إليه عبد الله شلي من تجديد الصلح، ورأى الإمام أن الفرصة مواتية لتوسيع نفوذه في البلاد خاصة وأن شلي قد سحب أكثر الجنود إلى صنعاء لمساعدته في الوقوف أمام قوات جعفر، فأصبحت أغلب المناطق الشمالية خالية من الجند العثماني.

ودفع هذا بالتالي قبائل هذه المناطق على إعلان انضمامهم للإمام ومتابعته؛ ولهذا بدأ الإمام في إرسال قواته إلى المناطق المختلفة فور ذلك، فوجه ولده علياً إلى بلاد الشرف وولده الحسن إلى بلاد شطب والسودة وعفار، والقاضي هادي بن عبد الله بن أبي الرجال والحاج أحمد بن عواض الأسدي، والشيخ سعيد الطير إلى بلاد الظاهر، فأما عليُّ

فاستولى على بلاد الشرف، ثم تقدم إلى بلاد عفار فاستفتحها بعد حروب شديدة. وأما الحسن فإنه فتح شطب والسودة وارتفع إلى جبل بني حجاج، فالتجأ أصحاب الأمير عبد الله بن المعافى إلى قرن الناعي أحد حصون السودة.

أما الظاهر فدخلوا في طاعة الإمام طوعاً، كما أخضع علي الشهاري بلاد عيال يزيد للإمام، بذلك نجح الإمام في السيطرة على أكثر المناطق الشمالية، وكانت كل هذه الفتوحات أثناء خروج إبراهيم باشا ورحيل جعفر باشا، وفتنة عبد الله شليبي. وفي المناطق الجنوبية تمرد بعض حامية تعز على أميرها وعاثوا في المدينة فساداً حتى تم تعيين أمير جديد لها من قبل إبراهيم باشا فعمل على إعادة الهدوء إليها بعد أن قبض على زعيم المتمردين.

وقد استغل بعض أهالي ولايتي تعز والحجرية، هذا الاضطراب فخلعوا طاعة العثمانيين، مما أجبر جعفرًا على إرسال بعض قواته إلى هذه الجهات لإعادتها إلى الطاعة، وذلك بعد أن استقرت أحواله بصنعاء ثانية.

هكذا أصبحت اليمن في حالة من الفوضى والاضطرابات في شمالها وجنوبها بسبب عزل جعفر باشا وفتنة شليبي، لكن عودة جعفر إلى الولاية ثانية أعطت العثمانيين قوة جديدة ردت لها بعض ما ضاع منها من أقاليم، فجهز جعفر قواته لحرب الإمام بقيادة الأمير حيدر الذي خرج من صنعاء في تسعة آلاف، وقيل: عشرة آلاف مقاتل، فوصل عمران وأرسل بعض الجند إلى جبل عيال يزيد، وكان الحسن إذ ذاك في موضع يسمى بيت علمان، فلما علم بوجود حيدر انتقل إلى الأشور ولم يكن معه غير مائتي نفر، أما بقية جنوده فتركهم في جبل تيس.

فلما وصل قرب عمران ورأى جنود الأمير حيدر رجع إلى موضع بالقرب من بلاد المصانع، فخرجت عليه فرقة من جند حيدر من مدع فحدثت مناوشة أثناء مسروره، ثم أقبل عليُّ بن الإمام من حضور الشيخ لنجدة أخيه الحسن، وكذلك أقبل أحمد بن الإمام الحسن بن علي المؤيدي من حجة والحاج أحمد الأسدي بجموع غفيرة فاشتدت الحرب سبعة أيام، حتى كاد أصحاب الإمام يتغلبون إلا أن حامل الراية من أصحاب أحمد بن الإمام الحسن الهزم، ومعه أهل حجة، فتوضع بقية الجيش، ووقع فيهم الرعب فتتابعت

الهزيمة على أصحاب الإمام.

فخاف الحسن إن طال عليه الحصار وعلى أهل العِرة، أن يأخذهم العثمانيون قهراً، ففضل أن يُسلم نفسه ويطلب الأمان لأهل العِرة، فخرج إلى الأمير حيدر فأرسله إلى جعفر فسجنه بالدار الحمراء بقصر صنعاء في رمضان (سنة ١٠٢٢ هـ سنة ١٦١٣م)، ولما علم الإمام بأسر ولده خاف على بلاده، فأرسل للبasha جعفر يطلب إعادة الصلح على الشروط الأولى، فلم يجبه جعفر إلى طلبه.

هذه المحنة كان لها أثر عظيم في قلوب الناس، فقد أصابهم الرعبُ والفشلُ حتى أن بعضَ خواص الإمام وملازميه طلبوا الإذن لهم بمفارقتهم، منهم الفقيه أحمد بن يحيى الحداد الصعدي، فقال له الإمام: الخيارُ لك إما أن تكون من جملتنا في الشدة والرخاء وترضى بما جاء من عاقبة وبلاء وإما أن تفارقنا ولا أجبرك بشيء، فقال: أمهلني ساعة، ثم قال: قد رضيت أن أبقى من جملتكم.

ومكن ذلك الأميرَ حيدرًا كلما قصد مكاناً من بلاد الإمام فتحه دون مشقة وتعب ولم يبق في يد الإمام غير وادعة والأهتوم، وما لبث أن ضاعت منه وادعة.

خرج الإمام من شهارة وهو في أشد المحنة، حتى أنه كان يدعو الله ويتضرعُ ويكي بكاء شديداً حتى يخرج الله من هذه المحنة فانتقل بعد ذلك إلى صعدة، فأقبل عليه أهلها واستبشروا بقدمه إليهم.

لما علم الأمير حيدر بوجود الإمام بصعدة توجه بجيوشه وأمرائه إليها منهم الأمير حسين، والأمير رستم، والأمير أحمد الأخرم، والأمير مطهر بن الشويع، والأمير عبد الله بن المعافى، فلما وصل إلى الهجر ترك الأمير عبد الله المعافى هناك ومعه كثير من الجند، ثم توجه هو وبقية الأمراء إلى صعدة، فلما علم الإمام بالخبر أمر ولديه الحسين وعلياً والسيد أحمد بن الإمام الحسن بالتقدم لمحاربة حيدر، لكنه كان أسرع منهم، ودخل صعدة بدون قتال، فرأى الحسين بن الإمام أن يتفرق الجند في طريق صعدة حتى يقطعوا المؤن على حيدر، فمّا كان من حيدر إلا أن أرسل إلى السيد يحيى المؤيدي والي العثمانيين على أبي عريش أن يتقدم إلى رازح.

فلما علم الإمام بذلك أرسل ولده الحسين لحرب السيد يحيى المؤيدي، فحاربه

وانتصر عليه وأرجعه إلى أبي عريش واستولى على جميع أمواله، فلما رأى حيدر ذلك وجه الأمير رستمًا إلى بعض بلاد صعدة، ولكن القبائل هاجمته، فلما علم حيدر بذلك أرسل الأمير أحمد الأخرم لنجدته، وكان بينهما عداوة قديمة فتمهل الأخرم في المسير إليه، فلما وصل إليه كان الأمير علي بن الإمام قد قتل رستمًا واستولى على جميع ما معه، فتقدم حيدر إلى أولاد الإمام فوقع الحرب بينهم، فانهزم حيدر، وقُتل من أصحابه جماعة.

فلما رأى ذلك الأمير أحمد الأخرم أراد الالتجاء إلى الإمام خوفاً من ملامة الأمير حيدر؛ لأنه لم يصل إلى رستم في الوقت المناسب، لكن أصحاب الإمام قتلوه وأرسلوا برأسه إلى الإمام فبعث به إلى ولده محمد إلى شهارة، فأمر أن يعلق خارج بلاد الأمير عبد الله المعافى في الليل ليثير الرعب والفشل في قلوب العثمانيين، فلما رآه المعافى انزعج ودخله الخوف الشديد، وانحصر المعافى في الهجر، أما حيدر فقد دبر الحيلة للخروج من صعدة، فخرج منها إلى حمر.

يقول الجرموزي في مخطوطته: ((كان جعفر باشا قد ندم على نقض الصلح، فأمر الشيخ ناصر بن علي الحبشي أن يستوقف الإمام في الشام، ويسعى في الصلح الأول، فلم يجبه الإمام، ولم يوافق الإمام على الصلح رغم ما كان فيه من الحنة؛ لأنه كان قد عاهد أهل حولان على عدم تسليمهم للعثمانيين، وكانت رغبة جعفر باشا العودة إلى صلح (سنة ١٠١٦هـ) لذلك لم يقبل الإمام)).

قويت عزيمة أصحاب الإمام بعد حروب صعدة، وخرجت بعض القبائل عن طاعة العثمانيين وخاصةً عندما خرج محمد بن الإمام إلى بني سعد وحارب حسين بن المعافى الذي فر إلى السودة فقتل محمد من أصحابه عدداً كبيراً، وأخذ ما معهم من سلاح، ثم توجه إلى الهجر وأقام الحصار على عبد الله بن المعافى، فلما طال عليه الحصار وليس لديه طعام فكر في طلب الأمان من الإمام وتسليم نفسه إليه، على أن يخرج عسكر العثمانيين ويسلموا سلاحهم كذلك.

ولما علم حيدر بحصار المعافى دبر الحيلة لإخراجه فأرسل الأمير درويشاً وغيره من الأمراء في جيش وافر إلى الهجر، ولكن المعافى كان في حالة سيئة من شدة الحصار وقلة

الطعام، كما أن درويشاً لم يستصحب معه شيئاً من الطعام والمؤن؛ لأنه لم يأت إلا لإنقاذه، فعظم الأمر على المعافى وأشار على أصحابه بالخروج من الحجر فوراً قبل اجتماع أصحاب الإمام، وكان الإمام قد وصل من جهة صعدة إلى حبور وترك ولده علياً لحفظ صعدة، ولم يكن معه غير ولده الحسين، فلما استقر في حبور بلغه مسير درويش لتخليص المعافى. فأمر ولده الحسين بالتأهب لقتال درويش وجنوده وهم عائدون من الحجر.

فلما عاد درويش ومعه المعافى وبقيّة الأمراء إلى المكان المعروف بغارب أثلة - وهو موضع ضيق - الجوانب هجم عليهم الحسين وأصحابه، وكان أخوه محمد قد أتى لمساعدته بمن معه من القبائل وقد أهمل المعافى ودرويش تحصين قرن الوعر واغتروا بكرثهم وحيولهم، وقال المعافى لدرويش: نحن في هذه الكثرة والخيّل والجمع ما عسى أن تفعل بنا ألفاف القبائل، فكان ذلك مما يسّر للحسين الهجوم عليهم ولم يشعروا إلا وقد هاجمهم عسكر الحسين فقتل درويش والمعافى وغيرهما من الأمراء، ومن معهم من العسكر ولم ينج منهم غير جماعة قليلة لجأت إلى حصن قرن الوعر، فحاصروهم الحسين بن الإمام حتى سلموا أنفسهم، فأخذ الحسين سلاحهم وعُدّدهم وتقدم بهم إلى أبيه، فأودع جماعة منهم السجن وفرّق بقيّتهم في القبائل ينتفعون بهم في أعمال الزراعة، وكانت هذه الواقعة يوم الأحد (١٣ جمادى الثانية سنة ١٠٢٣هـ، سنة ١٦١٤م)، وبعدها استرجع الإمام أكثر البلاد، وكان لها أثر عظيم في نفوس أصحاب الإمام إذ قوّت من عزائمهم، وكان لها وقع سيء على العثمانيين؛ مما جعل كثيراً من جنودهم يلجأون إلى الإمام، وهم حيدر بالإسراع إلى صنعاء، واضطربت أحواله، فأشار عليه عبد الله بن المطهر بالثبات في حمر، وقوّى عزيمته، فرجع مرة ثانية إلى حمر.

[مقتل علي بن الإمام]

لما بلغ علياً بن الإمام انتصار أبيه في غارب أثلة، وكان هو محاصراً لصعدة، أراد أن يهجم على من فيها من العثمانيين عله يظفر بهم، فجمع أصحابه وأتباعه وقصدهم في موضع يُسمّى الشَّقَبَات بالقرب من صعدة، - وهو مكان سهل مكشوف - لذا أشار عليه بعض أصحابه بالبعد عن هذا المكان، لكنه صمّم على نزال العثمانيين فيه فوقعت

حرب عظيمة كانت خيل العثمانيين فيها كثيرة العدد بالنسبة لما لعللي بن الإمام، وانتهت المعركة بقتل علي وقطع رأسه وحمله إلى صنعاء، وقُتل معه جماعة من مشائخ خولان، وكان ذلك يوم السبت ١٩ جمادى الثانية (سنة ١٠٢٣هـ - سنة ١٦١٤م)، وقد حزن الإمام كثيراً على مقتل ولده.

بعد وقعة الشَّقَبَات، وقتل علي بن الإمام، أخذ العثمانيون يعملون على إفساد القبائل بشنن الطرق ليقضوا على الروح المعنوية المرتفعة عند أصحاب الإمام بعد انتصارهم في غارب أثلة، وتم لهم ذلك، وفي أول ذي الحجة (سنة ١٠٢٣هـ - ١٦١٤م)، تمردت قبائل عفار، وكحلان، وبلاد مسور، وحجة على الإمام، فدخلها العثمانيون وأخذ حيدر يُعمل فيها السيف، كما استولى على عزان قهرا وأسر جماعة منهم وقتلهم وأرسل برؤوسهم إلى صنعاء، ثم وقعت موقعة الفائش التي انتصر فيها أصحاب الإمام وغنموا غنائم كثيرة من سلاح وآلات حربية، وكانت الحروب أيضاً قائمة في الظفير والموسم وخلالها وقعت موقعة غربان المشهورة التي انتصر فيها أيضاً أصحاب الإمام، وولى حيدرُ منهزماً هو وجميع جنوده إلى خمر.

بعد موقعة غربان ملَّ العثمانيون القتال وفتل شوكتهم وأهكتهم الحروب المتتالية، وكلما راموا سد ثغرٍ انفتح عليهم آخر. وظلوا هكذا حتى وصل الخبر إلى صنعاء بعزل جعفر باشا وتعيين محمد باشا بدلاً منه وذلك (سنة ١٠٢٥هـ - سنة ١٦١٦م)، فسعى جعفر حينذاك إلى عقد صلح مع الإمام لمدة عام؛ لأنه كما قيل خاف أن يسير والفتنة على أثره.

وقد أشار على جعفر بعضُ أصحابه أن يوسط الحسن بن الإمام المأسور في صنعاء بطلب الصلح من والده على أن يترك الإمامُ الأميرَ صفراً يخرج من صعدة سالماً، وإلاً فسوف يأخذ الحسن معه إلى الأستانة، ولكن الحسن اعتذر بحُجة أن هذا الأمر ليس في يده، ولكن جعفرأرغمه على إرسال خطابٍ لوالده، فأرسل هذا الخطاب على هيئة أبيات من الشعر دون أن يذكر اسمه قائلاً:

مولاي إن الصلح أعذب مورداً فاسلك له نهجاً سوياً أجردا
أرسل معين الحلم في حزمٍ لكى يُروى ظمأ المسلمين عن الصدا

فقرأ الإمام الخطاب ولم يعرف أنه من ولده بل ظن أنه من أحد المتوودين إليه، فأجاب:

يا مانحاً محضَ النصيحة مرشداً إن الهدى عندي لمن يبغى الهدى
والحلم فيه سعادة يروى بها ضامي الحشا ويصير حقاً سيدا

.. إلخ

ووافق الإمام على عقد الصلح وتمت المكتابة به سراً وأرسل الإمام الفقيه جمال الدين عامر بن محمد الذماري إلى صنعاء لعقد الصلح، كانت شروطه كالتالي:

• أن يُترك للإمام ما كان تحت يده في الصلح الأول وهي بلاد الحيمة وحضور وجبل مسور وبلاد صعدة.

• وأن الأسرى في صنعاء مثل الحسن بن الإمام يبقون في صنعاء ولا يتقلون منها إلى مكان آخر.

لأن الإمام خاف أن جعفر باشا يأخذ معه الحسن إلى الأستانة، ثم أرسل الإمام من أخرج الأمير صفراً من صعدة، وجعلت ولاية صعدة للأمير صلاح بن أحمد بن الحسين المؤيدي ومدة الصلح سنة واحدة، تبدأ من أول رجب (سنة ١٠٢٥هـ) إلى (سنة ١٠٢٦هـ) وتم الصلح على هذا.

إن الإمام بذلك أحرز نجاحاً باهراً في توسيع حدود ممتلكاته، إذ سقطت أغلب المناطق الشمالية في يده، ولم يبق للعثمانيين بها إلا بعض المراكز الرئيسية، مثل صعدة التي ما لبثت هي الأخرى أن سقطت في يد القبائل الموالية للإمام ولم يبق للعثمانيين غير خمر وكوكبان فقط في المناطق الشمالية. لكن هذه الانتصارات التي أحرزها الإمام لم تكن تخفي حقيقة هامة، وهي أن العثمانيين ما زالوا أكثر عدداً وأحسن تسليحاً بالنسبة لقوات الإمام بالإضافة إلى أن الأرض التي أخذها الإمام كانت أرضاً فقيرة جبلية يكلف الاحتفاظ بها الشيء الكثير، لذا كان على الإمام أن يسعى في استمرار الصلح بينه وبين الوالي الجديد محمد باشا.

قبل أن نبدأ في المفاوضات بين الإمام ومحمد باشا لا بد أن نتعرض لهذا الوالي الجديد

وسياسته في اليمن إذ يُعتَبَر ضمنَ الولاة الذين حاولوا تثبيت أقدامهم داخل ولايتهم بطريقة سلمية، كما فعل جعفر باشا من قبلُ فقد أدخل محمد باشا بعض الإصلاحات التي حاول بها أن يُهدئ من الأحوال في اليمن؛ لأنه دخل اليمن وأحواله مضطربة بسبب كثرة الحروب بين الدولة والإمام، وقد صوّر لنا عيسى بن لطف الله حالة اليمن قبيل وصول محمد باشا، فقال: «كان وصوله واليمن قد عمته الخطوبُ والفِتنُ، وشَمِلَه النَّصبُ والحزنُ. وتفرقت قبائله».

لذا كان عليه أن يسير وفق خطة معينة ليستطيع أن يجذب إليه قلوب اليمنيين، وإلا فسوف تزداد الحروب وتشتعل نيرانها، وقد تميز محمد باشا بصفات أهلتَه؛ لأن يقوم بتلك الإصلاحات. ووصفه كثير من معاصريه، مثل المحي بقوله: «(كان رجلاً حليماً حازماً في جمع الأموال صبوراً على الشدائد)»، كما وصفه الكبسي، كذلك بقوله: «(كان هذا الباشا من أعقل العقلاء الوافر الذهن الحاضر التدبير النافع)».

كما أنه استطاع أن يجذب قلوب اليمنيين إليه وخاصةً الزيديين منهم فقد أحسن إلى الأسرى في سجن صنعاء ومنهم الحسن بن الإمام، فقد فك عنه القيود ورخص للعلماء بالدخول إليه وأعطاه سريةً وهي أم ولده أحمد، وكان يأذن له بالخروج، لكن بصحبة الحرس مما كان له أعظم الأثر في نفس الإمام ونفس الحسن فحصلت بينهما المودة وتبادلا الهدايا، وأنشأ الحسن قصيدة يمتدح بها محمد باشا نظير إحسانه إليه.

وعندما وصل إلى تعز أطلق جميع الأسرى من قلعة القاهرة، ففرحوا بخروجهم أشدَّ الفرح، مما كان له أثر عظيم في نفوس أهل اليمن ورضاهم عن ولايته لهم مما جعل أحد المؤرخين يصفه بقوله: «(إنه أَلِينُ من وطئ اليمنَ قدمه)» إلا أن محمد باشا قد أخذ عليه أنه يخيّل حريص على جمع المال حتى قيل: إنه جمع كثيراً من الأموال عند دخوله تعز؛ لأنه خرج من الروم وهو فقير.

وصل محمد باشا إلى اليمن في شعبان (سنة ١٠٢٥ هـ - سنة ١٦١٦ م)، قادماً من مصر، ولا غرابة في ذلك، فإن السلطنة كانت في أغلب الأحيان تختار ولاة اليمن من بين من تولوا نيابة عزة أو مصر أو ممن تقلدوا وظائف هامة بها؛ وذلك حتى يكون على دراية بأحوال اليمن، وعلى علم بأخباره.

فقد كان محمد باشا كاتب الديوان بمصر للوزير حسن باشا قبل توليته اليمن، لذا نجده يقول: ((إنه أدري الناس بأحوال أهل اليمن)).

كما أن محمد باشا قد نهج نهج جعفر باشا في تقريب العلماء والفقهاء إليه ومناقشتهم، ومنهم السيد عبد الرحمن بن الصديق الطباطبي، والسيد عيسى بن لطف الله، والفتية حسن أفندي. كما كان كثير القراءة في جميع الفنون، ولديه مكتبة غاصة بالكتب، واهتم محمد باشا بإقامة العدل في اليمن، وأقام الديوان في صنعاء عقب وصوله للنظر في مظالم الأهالي (فأنصف المظلوم من الظالم وسأوى بطريق الحق بين المالك والمملوك والغني والصعلوك، فقطع الضعيف في إنصافه وخاف القوي من انحرافه، فحصل له في القلوب هبة ومحبة) كما صرف بعض جهوده للقيام ببعض المنشآت العمرانية، فاهتم بتجديد سور صنعاء وبتعمير مسجد طلحة الصحابي بها، وإقامة منارته العظيمة، وشيد مسجداً كبيراً في يريم، وعمر المدينة نفسها بعد تدميرها أثناء الحرب مع الإمام القاسم وأقام حولها سوراً يحفظها. وفي نفس الوقت اهتم ببناء القلاع والحصون، وخاصة قلاع حجة، ورمم ما تهدم منها وحفر بئراً في صنعاء، وهي المعروفة ببئر الباشا، وأكملها من بعده فضلي باشا وأمر بعمارة البركة التي بجوار ضريح الشيخ أحمد بن علوان بيفرس، وزاد في المصلى وفرش جامع صنعاء وتنبه إلى شيء هام عند زيارته لجبل الكبريت بدمار، حيث وجد الكبريت فيه بكثرة، وهذه المادة تُستعمل في صناعة البارود، فأمر بتحصينه، وجعل الجند حوله، والسبب أنه علم أن أصحاب الإمام أصبحوا يجيدون استعمال البنادق، لكثرة ما اغتنموه من عسكر العثمانيين خلال حروبهم، وبما أن البنادق تحتاج إلى البارود الذي يُصنع من هذا الكبريت، فلا بد من استغلاله وحراسته؛ فارتفعت أسعاره حتى بلغ رطل البارود بثلاثة أحرف وقرش.

كما اهتم محمد باشا بالبحث عن السجلات والدفاتر ورواتب الجند ومحصول البلاد، وكانت وظيفته في مصر قد أكسبته الاهتمام بمثل هذه الأمور، وكذلك اشتهر العثمانيون بدقة التسجيل واهتمامهم بالسجلات والدفاتر الحكومية، وذلك منذ قيام دولتهم لذا نجده عند وصوله يخاسب الباشا جعفر على ما في خزانته من أموال وطالبه بمال إبراهيم باشا وعبدالله شلي، واهتم كذلك بتجهيز قافلة المحمل اليمني كعمل دعائي هام، وذلك ليكسب جانب اليمنيين إليه بالإضافة إلى رضا السلاطين العثمانيين في الأستانة خاصة

وأنة وصل اليمن وهو في حالة سيئة من الحروب والفتن.

وقد وصف الموزعيُّ هذا الاهتمام بقوله: (ومن المآثر العديدة الزيادة العظيمة التي زادها في المحمل الشريف اليمني في زيادة الجمال والرواحل، لركوب الضعفاء والفقراء والأرامل، وزيادة البقسماط والبر والأرز والسمن والعسل وغير ذلك مما يحتاج إليه المحتاج من المسافرين والحجاج حتى الكعبة، وجعل جميع ذلك كافياً زائداً بحيث يحصل فيه المدد للحاج ذاهباً وآيأاً، وقد يرجع اهتمامه بالمحمل اليمني محاكاة لاهتمام مصر بالمحمل المصري).

لما استقر بصنعاء اتصل الإمام به وطلب منه إطالة مدة الصلح^(١) الذي عقده مع جعفر باشا قبيل رحيله (سنة ١٠٢٥هـ - سنة ١٦١٦م) إلى عشر سنوات بدلاً من سنة واحدة؛ وذلك بحجة عدم أهمية المناطق الشمالية الجبلية وفقر سكّانها، وقلة خراجها، ولكنه رفض هذا الاقتراح؛ لأنه لم يتعرف على أوضاع اليمن بعد لقرب وصوله إليه؛ ولذلك فلا ينبغي المبادرة إلى الهدنة إلا بعد معرفة أحوال البلاد، أما صلح جعفر، فهو كما هو لا ينقضه ناقض.

وكان رفضه هذا بداية النهضة الرابعة الأخيرة للإمام القاسم، فقد انتهت مدة الصلح في جمادى الأولى (سنة ١٠٢٦هـ - سنة ١٦١٧م)، واستمرت الحروب بين الإمام والباشا، وكان أولها في بلاد حضور، فوجه محمد باشا الأمير تكريماً بجنده إلى هناك، وكان قائد الإمام الشيخ عبد الله بن سعيد الطير قائد أهل الحيمة، وقتل جماعة من الفريقين، ثم حروب كثيرة في مسور وبي مطر ومنطقة القذف، انجلت تلك المعارك عن قتل الشيخ عبد الله الطير واستطاع الباشا أن يأخذ تلك الجهات من الإمام.

وفي (١٣ شعبان سنة ١٠٢٦هـ) وقعت حروب في بني حبش وقدم وجنب استطاع أصحاب الإمام الانتصار على العثمانيين، ثم استطاعوا دخول حجة، ثم فتحوا بلاد قراضة، ولاعة، ومسور في (٢٨ ذي القعدة سنة ١٠٢٦هـ).

(١) في خلاصة المتون أن الإمام كتب إلى الباشا محمد حال وصوله إلى تعز قبل صنعاء على يد الأمير محمد بن إدريس الحبشي بهنئة بقدومه اليمن وإطالة الصلح... إلخ.

وفي جمادى الثانية (سنة ١٠٢٧هـ)، وقعت موقعة بني علي انتصر أصحاب الإمام فيها بعد أن قتل منهم ستة رجال، ووقعت غيرها من الحروب التي أفحكت الفريقين، فما كان من الباشا محمد، إلا أنه استدعى الأمير صفراً من الأستانة لمعاونته في تلك الحروب، فوصل في ذي الحجة (سنة ١٠٢٧هـ سنة ١٦١٧م).

والحقيقة أن الحروب كانت سجلاً، وكان أمل الباشا أن يحرز انتصاراً حاسماً ليرفع من شأنه لدى السلطان، وخاصة أنه كان يقول: ((إنه أدرى الناس بأحوال اليمن))؛ لأنه كان على اطلاع مستمر بأحواله من تقارير ورسائل ولاته السابقين، وقد اغتر بمعلوماته النظرية عن أوضاع اليمن، وأصرَّ على شن الحرب على الإمام، إلا أن واقع اليمن خيب آماله. فقد خاض غمار الحرب ثلاث سنوات متواصلة لم يستطع أن يحرز انتصاراً يُذكر، بل على العكس تمكن الإمام خلالها أن يوسّع ممتلكاته في المنطقة الشمالية على حساب العثمانيين، لذا عاد ووافق على الصلح الذي طلبه الإمام قبل. أرسل الأمير مصطفى عامل محمد باشا على خمر إليه يبلغه بأن الإمام يطلب الصلح؛ لأن الفتنة، قد طالّت. فجمع محمد باشا الأمراء والأعيان وطلب منهم المشورة، وشرح لهم وضع البلاد وحال العسكر وتمردهم رغم كثرتهم وزيادة العطاء لهم، فردوا عليه بقولهم: ((الحركة ضد الإمام هذا الوقت ليس فيها صلاح ولا استمرار غير بذل الأموال وذهاب الأرواح وترك كل شيء هو الرأي الصائب؛ لأن الإمام ليس كما كان في السابق، وكذلك القبائل قد عظمت شوكتهم - وظهرت قوتهم - وكثر معهم السلاح مع إقبال القبائل على الإمام؛ لأن الإمام لا يأخذ منهم مالاً ولا يُعرض عن سؤال، ولا يقبض منهم إلا الذي يطابق هواهم والعسكر الموجودون ليس فيهم من عساكر الأروام الذين عُرفوا بالإقدام ومارسوا الحروب غير شرذمة يسيرة)) ووافقوا جميعاً على عقد الصلح، فظهرت الأمور واضحة أمام الباشا. فأجاب الأمير مصطفى إلى ذلك، كما وصل إلى الباشا الأمير علي بن الشويح يطلب الأمان للسيد عبد الله بن شمس الدين جحاف^(١) للوصول لعقد الصلح، فأعطاه الأمان وقابله بالإكرام، وتم إبرام الصلح في جمادى الأولى (سنة ١٠٢٨هـ سنة ١٦١٩م) لمدة عشر سنين، على أن يكون للإمام جميع ما تحت يده من البلاد، وإخراج

(١) هو حال المتوكل إسماعيل.

الأسرى من الجانبيين، ما عدا الحسن بن الإمام. فقد اعتذر الباشا عن إطلاقه؛ لأن جعفر باشا رفع أمره إلى السلطان، فلا يمكن إطلاقه إلا بإذن منه، لكن محمد باشا أبدى استعداداً لإطلاقه إذا ترك الإمام البلاد التي كانت تحت يده أيام صلح جعفر ويقصد بها بلاد القذف من بني شهاب غرب صنعاء؛ نظراً لقربها من صنعاء وكثرة خيراتهما بالنسبة للباشا، فلم يرض الإمام بذلك لما في ذلك من المصلحة لأهل البلاد، وفضل بقاء ولده أسيراً على تسليم تلك البلاد للعثمانيين، فلم^(١) يكن من الباشا إلا أن فك قيود الحسن وأخلّى له الطبقة العليا من الدار الحمراء ولم يمنع من أراد الدخول إليه لاسترضاء الإمام. أما البلاد التي وقع عليها الصلح فهي بلاد غربان، وغشم، وبني مالك وادعة، وبني غشيمة وادعة أيضاً وبني قيس، وبني صريم، ومرهبة، وبني جبر، وبلاد بني زهير، إلى حدود بني جرموز وإلى حدود بلاد نعم وما والاها إلى جهة الشمال وجهات شطب، والموسم وبلاد عفار، وجبل نيسا، والظفير، والشرفين، وجزء من بلاد الحيمة، وحراز وبلاد الظاهر، وذيان، وعيال عبد الله، وعيال أسد ظليمة، والأهنوم وعذر، والعصيمات، وبني سفيان وخيوان، وعيان، وجهات صعدة، وجبل رازح، فهي كلها للإمام. أما بلاد الكلبيين وحمير فهي للعثمانيين.

وبعد تمام الصلح شرع كلا الفريقين في تنفيذ شروطه، فانتقل الإمام من وادعة إلى شهارة، ووصل الأسرى من صنعاء وكوكبان من أصحاب الإمام إلى شهارة، وهم أكثر من مائتين وأربعين رجلاً، كما أطلق الإمام من عنده من الأسرى بعد أن كساهم كلهم وزودهم بالمال والزاد، وكانوا أكثر من الأربعمائة، فيهم أمراء مثل (قرى جمعة) الذي كان قائداً بصعدة وأسر من غارب أثلة، ثم انسحب جميع جنود العثمانيين من بلاد الإمام إلى صنعاء، وبذلك تم الصلح على أحسن حال، ووقف القتال بين الفريقين، وهدأت الأحوال.

والحقيقة أن عقد الصلح كان في مصلحة الطرفين ليستطيع كل منهما تنظيم شؤونه داخل أقاليمه، فالإمام كان في أمس الحاجة إلى هذا الصلح لتعرض بلاده للقحط

(١) وشرى الحسن داراً بخارة الخزاز يخرج إليها لدن جارته أم ابنه أحمد وتارة ببقيان لديه في الدار الحمراء وشرى أيضاً بيتاً وبستاناً في بئر العزب يخرج إليه مع أهله للتزه، انتهى من خلاصة المتون.

وانقطاع الأمطار مدة طويلة وتعرض البلاد إلى شدائد الجوع والغلاء، مما كان سبباً في اضطراب أهل البلاد وهجرتهم من بلادهم حتى أن البعض منهم هاجر إلى الحبشة سعياً وراء الرزق، وكان البعض يموت جوعاً واشتد عليهم الضرر وعظم ثم عقبه الموت العام فيهم حتى تعطلت القرى من سكّانها، وخلت المساكن عن قُطّانها، فكان يموت أهل القرية جميعهم، فلا يجدون من يتولى دفنهم وهرب أكثرهم من الموت من بلد إلى بلد، فأدركهم الموت إلى حيث هم.

هذا من جانب، ومن جانب آخر كانت أكثر البلاد التي عمها القحط مثل خولان العالية تنقض عهد الإمام؛ لأن العثمانيين كانوا يذلون لهم الأموال الكثيرة مقابل تخليصهم عن الإمام، وهم في ذلك الوقت في أشد الحاجة إلى تلك الأموال نظراً لظروف البلاد التي تعانيها من الجذب والقحط والغلاء، وكان أول من نقض عهد الإمام وطاعته بنو سحام، ثم بنو شدّاد.

وحاول العثمانيون إشعال الفتنة بين القبائل بإثارة النعرة القبلية بينهم، فاضطربت البلاد على الإمام بالإضافة إلى أن العثمانيين لما اشتدت عليهم الحروب واضطربت الأحوال حاولوا قتل الإمام ليستريحوا من هذه الفتنة بأن وضعوا له البارود تحت وسادته، لكنه نجح من القتل، واكتشف هذه المؤامرة.

كما أن الإمام خاف على بلاده وأولاده بعد موته، فإن ترك البلاد على هذه الحالة وهي مشتعلة بالحروب، وقد عمها القحط ووَهَن أتباعه وضعفوا لا يستطيعون مقاومة العثمانيين، ويُقضى عليهم كما فعل بأولاد المطهر.

وقد نقل الجرُموزي حديثاً عن الإمام مما يبين أسباب موافقته على الصلح، وطلبه قائلاً: «قلت للإمام: أراك تبذل الرغائب في الصلح وقد عاجوك فلم ترض والآن تطلبه فقال الإمام: الأولى أني رأيت أن أختم عمري بالجهاد وبتنغيص دنيا الظالمين - يقصد العثمانيين - ورأيت الأمر تفاقم وظننت قرب أجلي فخفت أن يحدث الموت بي وأمور الإسلام على ما ترى فلا يتمكن أهلُه من النصر ويحصل في الإسلام ما يحصل، فرأيت المسارعة حتى ينتزع الأتراك عنا ويفرّج الله».

أما من ناحية محمد باشا، فقد كان في حاجة أيضاً للصلح إذ أن جنوده قد ضحروا

وطلبوا رفع مرتبائهم، وحدث بينهم اضطراب، حتى أنهم هموا بقتله وأخذوا منه أموالاً كثيرة، فإن أكثرهم ليسوا من فرق الإنكشارية الذين عرفوا بالإقدام ومارسوا الحروب، بل كان أكثرهم من أهالي مصر الذين يجمعهم واليها من الفلاحين وقطاع الطرق عند ما تطلب منه النجدة بالإضافة إلى اضطراب الأحوال في المنطقة الجنوبية مثل ريمة ووصاب وغنمة، فهي جبلية وعرة تقوم فيها كثيراً الاضطرابات التي تُقلق الدولة، وكذلك الحُجْرية، إذ تمرّد حاكمها اليمني الأميرُ عليُّ الشرجيُّ على طاعة الوالي العثماني - وكان أحد شيوخ هذه المنطقة - وكان جعفر باشا قد قرّبه إليه ومنحه لقب آغا، ثم رقاه بعد قليل إلى رتبة السنجق.

وقد اتسعت، هذه الاضطرابات في إقليم الحُجْرية إلى حد كبير خاصة أن الشرجي قطع طريق عدن إلى تعز وطريق المخا من طريق موزع وعظم أمره، وقد وجهوا إليه كثيراً من الأمراء لحربه فهزّمهم وقتلهم، واستفحل أمره حتى قتل المؤن على العثمانيين، واضطربت أحوال عسكرهم، وقد فشل محمد باشا في حل النزاع بين الأمير علي الشرجي، وأحد حيرانه، واستمرت الحروب بإقليم الحُجْرية حوالي عامين لم يستطع محمد باشا إخمادها إلا بعد وصول الأمير صفر مدداً له في (سنة ١٠٢٨هـ - سنة ١٦١٩م)، فذهب الأمير صفر إلى إقليم الحُجْرية على رأس قوة من الجند قدرها أربعمئة جندي. كما وجد محمد باشا أن الأقاليم التي تحت يد الإمام جبلية وفقيرة وخراجها قليل والاحتفاظ بها يكلف الكثير، فلا يتحصل منها نصف المنفق عليها، لكل هذه الأسباب من الجهتين حبذا الصلح ووافقاً عليه وحرصاً على بقائه، لكن الصلح لم يكن يُخفي حقيقة هامة هي ظهور ضعف الحكم العثماني في اليمن وخلخلة نُظُمه بالإضافة إلى أنه أخفى الفشل العسكري الذي مُنيت به القوات العثمانية أمام المقاومة اليمنية. كما أنه يرمز إلى ظهور قوة الإمام رغم شدة ظروف البلاد في الأيام الأخيرة، ويظهر ذلك من قول أصحاب محمد باشا عند ما استشارهم في عقد الصلح (إن الإمام القاسم ليس كما كان في السابق، وكذلك أصحابه لم يكونوا، كما كانوا سابقاً بل صاروا أهل سلاح وعدة)، لذا نجدهم عند لقاء الإمام خاصة في الأيام الأخيرة يحسبون له حساباً.

ومما يُظهر ضعف نُظُم الدولة وخلخلة أوضاعها في اليمن، قول محمد باشا عند رحيله من اليمن: (كنت أعتد على دفاتري وحفظي عن أخبار اليمن وأقول ليس أحد أعرف

مني بأحوال اليمن وأُعترف الآن أبي دخلت اليمن وخرجت منه ولا حققت قدرَ أُملة). وهكذا انتهت المراحل الأربع من نهضات الإمام القاسم والتي وضعت الأسس الأولى للدولة القاسمية الزيدية في اليمن على يده، ثم أيدي أولاده الذين استطاعوا إخراج العثمانيين للمرة الأولى من اليمن في العشر الأوائل من جمادى الأولى (سنة ١٠٤٥هـ — سنة ١٦٣٥م).

بعد عقد الصلح بسنة توفي الإمام القاسم (ليلة الثلاثاء ١٢ ربيع الأول سنة ١٠٢٩هـ سنة ١٦٢٠م) في حصن شهارة، ولم يُكتم أمر موته بل عرفه العامة والخاصة، وكان سبب وفاته الحمى الحارة، وكان قبل وفاته يشتد به ألم في بطنه، فكان يقعه عن الخروج من بيته، حتى أنه ترك صلاة الجمعة أحياناً وطال به المرض (١٣ يوماً)، وقبل وفاته أرسل إلى الفقهاء من خارج شهارة ومن داخلها، بعد وفاته اجتمع الأعيان والفقهاء الزيدية وتشاوروا لمبايعة إمام جديد يجمعون عليه، فاتفقوا على مبايعة محمد ولد الإمام، وكان محمد ولده في ذلك الوقت مشغولاً بتجهيز والده، فطلبوه وأخاه الحسين، وأعلموهما بأمر اجتماعهم (فقال محمد: يختار الفقهاء والسادة من يصلح من آل الرسول، وأنا أول من يبايع، وأقوم بمعاونته وأسلم ما لدي من بيوت الأموال إليه وأن يده مع أيديهم) ولكنهم أبوا إلا قيامه بأمر الإمامة من بعد والده، وأنه لا يجوز له رفضها، فقبلها مظهرًا أنه كاره لها، وقام السادة العلماء والفقهاء بمبايعته في تلك اللحظة ولُقّب بالمؤيد بالله، وبايعه أكثر من في شهارة بيعه رضًى ورغبة، وكان الاتفاق، ثم الإجماع على مبايعة الإمام المؤيد من العوامل الهامة التي أدت إلى استمرار وحدة القوى الزيدية وتماسكها أثناء حروبها فيما بعد مع العثمانيين، مما حقق لها في النهاية الانتصار عليهم، وذلك على عكس ما حدث بعد وفاة الإمام المطهر؛ إذ تنازع أبناؤه فيما بينهم على السلطة، وكان مصيرهم الهزيمة والضعف ثم نفيهم إلى الأستانة.

وفي أثناء مبايعة الإمام المؤيد أمر المؤيد القاضي يحيى بن محمد بن صلاح الأهنومي، ويحيى بن صلاح الثلاثي وغيرهما بغسل والده وتجهيزه، ثم دفنه ولده المؤيد قبيل الفجر في مسجد شهارة، وأمّ المؤيد الناس للصلاة عليه، وقد أجمع الفقهاء الزيدية على إقامة قبة فوق قبره، رغم أن الإمام القاسم يكره ذلك وأمر الناس ألا يعمرُوا القباب فوق موتاهم؛

لأنه يرى أن هذه العادة بدعة. وكان يقول لأصحابه: لا بارك الله لمن عمّر عليه أو عين لنفسه مشهداً.

وقد نُحِرَت العقائر وتُصَدَّقُ بها في جميع البلاد، وعلى أهل العلم وحفظة القرآن، وقُرِئَ القرآن على قبره عدة أشهر، وحزن عليه الجميع، وقيل في رثائه الكثير، ومن ذلك ما قاله القاضي علي بن الحسين المسوري، وستأتي كاملة (سنة ١٠٣٥ هـ):

من الآن فلتُبِكَ العُلَا والفضائلُ ويُهْمَلُ إِلَّا ذَكَرْهُنَ الفواضِلُ
سلام على الدنيا سلامٌ مُودَّعٌ فقد أُوْحِشَتْ فيها علينا المنازلُ
وأظلمت الآفاق طرّاً وأكدرت علينا لِداهي الخطبِ فيها المناهلُ

وبعد أن تمت البيعة للمؤيد أرسل بكتاب إلى محمد باشا في صنعاء أخبره بوفاة والده، وأنه القائم بأمر الإمامة من بعده، وأنه باق على الصلح الذي عقده مع والده لا ينقضه ناقض، وأهدى إليه نسخة من كتاب الكشف لجار الله الزمخشري المتوفى (سنة ٥٢٨ هـ)، وكانت نسخة عظيمة، وردَّ محمد باشا على المؤيد بالموافقة على استمرار الصلح بكتاب هذا نصه:

((بسم الله الرحمن الرحيم، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة وقدوة مستحسنة طريق سلكه سيد المرسلين وحبيب رب العالمين، لله الحمد على ما قضى، وقدر وأمضى، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [العنكبوت/٥٧]، وكل إنسان وإن طال عمره إلى الفوت، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة/١٥٦]، وصائرون ومنقلبون، فنعزي ولدنا المقام الأكمل الأعلّم الأفضّل منبع الفضائل عمدة الأفاضل، مالك أزمة المفاسخ والمعارف الجسيمة، محمد بن القاسم بن محمد منحه الله صبراً، وكتب له أجراً بوالده الإمام العالم الأطول الأعلّم الأفضّل تغشاه الله برحمته ورضوانه، وأسكنه بجنّته بإحسانه، وجعل نزله في عليين والحمد لله الذي جعلكم القائمين من بعده، والشاّدين شدة، لما اختاره الله من الخير من عنده، وقيامكم بالأمر بعد استخارة الله سبحانه ومواطاة من العلماء الأخيار والقضاة الأطهار، فأنتم إن شاء الله لذلك أهل، ولما وقع من اختياركم موضع ومحل، تولى الله عونكم ورزقكم الصبر، وكتب لكم على فراقه الأجر، وأنتم

بمقامه أحق، وإليه أسبق، وذكرتم أن الذي بيننا وبين والدكم رحمه الله من العهود والمواثيق ثابت أساسها، محكمة أمراسها، زاد الله أساسها ومراسها قوة، كما هي الإرادة المرجوة، ونحن إن شاء الله على ذلك ما يبدو منا أمر يظهر منه اختلال، ولا يكون منا للموضوعات بقوا عدها وعقودها انحلال، بل إننا لكم كما أنتم لنا، وما هو الموجود عندكم هو كذلك عندنا والألفة الخالصة الوافية الصافية، كما هي ما يغير تلك القواعد مُعَيَّر ولا يكدرها مُكَدَّر، ونحن لكم في أمر الخير مساعدون، وطرق مرضاة الله معاضدون، والله يختار لنا ولكم الخير يأخذ بنواصينا إليه، ويرشدنا ونحن دلائلنا عليه، وحسي الله وكفى، تاريخ (١٧ شهر ربيع الأول سنة ١٠٢٩هـ). محروس صنعاء.

ومن هذا الخطاب يتضح لنا مدى محاولة الباشا محمد استمالة الإمام المؤيد، ومدى تمسكه بالصلح معه؛ مما يوضح اضطراب الأحوال، وخلخلة الأوضاع بالنسبة للعثمانيين، ومدى قوة الدولة الزيدية وتماسكها، وتميزت بداية عهد الإمام المؤيد بالهدوء والاستقرار لاتفاقه مع محمد باشا، وأدّى هذا إلى استمرار الهدوء النسبي في اليمن حوالي ثمان سنوات؛ إذ لم تتجدد الحروب إلا في محرم (سنة ١٠٣٦هـ - سنة ١٦٢٦م)، حيث نُقض الصلح قبل استكمال مدته بستين، وكان السبب المباشر لنقضه وإعلان الحرب ضد العثمانيين هو أن حيدر باشا، كان قد قتل في رمضان (سنة ١٠٣٥هـ) أحد الفقهاء من كبار أتباع الإمام المؤيد أثناء زيارته لصنعاء لقضاء بعض حاجياته؛ وذلك لاثامه بأنه كان يدعو الأهالي إلى مبايعة الإمام. وقد طالت المكاتبات بين الإمام المؤيد وحيدر باشا حول تسليم قاتل الفقيه إلى الإمام لمعاقبته أو دفع دية القتل، لكن هذه المكاتبات لم تنته إلى شيء، وكان يُشجّع الإمام المؤيد على إعلان الحرب على العثمانيين، أن كثيراً من رؤساء وشيوخ المناطق الشمالية وغيرها، كانوا يرسلون الإمام سراً لتأييده ولطالبته بالهجوم على العثمانيين، بل وكانوا يرسلون أبناءهم إليه رهينةً لديه لتأكيد الولاء له، وقد أدّى هذا إلى إشعال نار الحرب، وخلال الفترة ما بين عقد الصلح ونقضه تحقق تغير واضح في ميزان القوى بين الزيديين والعثمانيين.

نعود إلى خلاصة المتون.

وفيات سنة ١٠٢٢هـ

أحمد بن عامر بن علي

في (سنة ١٠٢٢هـ) توفي بشهارة السيد العلامة أحمد بن عامر بن علي بن محمد، وكان عالماً فاضلاً، وكانت زوجته الشريفة الفاضلة تُقا بنت الإمام القاسم، وكان ملازماً للإمام المؤيد بالله محمد بن الإمام القاسم، وقبره عدي القبة، وله مقام مع أهل مكة يقضي بشرفه في العلم، وسيأتي ذكر ولده العلامة إبراهيم بن أحمد بن عامر الشهيد.

وفي حوادث (سنة ١٠٢٣هـ) عن اللآلئ المضئية أن القتلى في غارب أثلة من الأتراك ثمانمائة نفر، وأن استشهاد المولى علي بن الإمام القاسم بالشَّقَبَات من بلاد صعدة يوم (١٩ جمادى الآخرة سنة ١٠٢٣هـ) وعمره (٢٨ سنة)، فإن مولده في رمضان (سنة ٩٩٤هـ)، وأن قبر جثته في علاف، وقبره من قبره قبر السيد علي بن صلاح العبالي المتوفى (سنة ١٠١٩هـ) السابق ذكره، وأنه مرسوم على ضريح جثة علي بن الإمام رحمه الله هذه الأبيات:

هذا الضريح ضريح السيد البطل	نجل الإمام الولي بن الإمام علي
العابد الزاهد الميمون طائره	وقارن العلم بالإخلاص والعمل
الباذل المال لا من يكدره	والثابت الجأش يوم الروع والوهل
الطاهر القلب من عجب ومن صلف	ومن رياء ومن غش ومن دغل
يا سيدي يا علي بن الإمام لقد	أدركت منزلة في الفضل لم تُنل
ما زلت في طلب العلياء مجتهداً	من يوم أدركت حتى انتهى الأجل
هبطت تبغي جهاد الترك محتسباً	لله من غير ما رعب ولا فشل
وحين أبصرك الأعداء منفرداً	مالوا إليك فلم تجزع ولم تمل
وحين وافوك راموا أن تطاوعهم	على الإسار فقلست القتل أشرف لي
فاستشهدوك حميداً يا أبسا حسن	ومزقوك ببيض الهند والأسل

لم يرقبوا فيك إلا يا ابن فاطمة ولم يخافوا غداً من خاتم الرسل
ففاحت الأرض طيباً إذ ثوبت بها وررع أهل التقى والفضل عن كمل
عليك أركى صلاة الله دائمة تغشى ضربحك في صبح وفي أصل

الإمام الحسن بن علي بن داود

تقدم ذكره في الجزء الذي قبل هذا، وفي (سنة ١٠٢٤ هـ) وصل الخبر بوفاته في قلعة استانبول.

سعيد بن عطاء القداري

قال في الطبقات: وفي (محرم سنة ١٠٢٣ هـ) توفي بيت القداري الفقيه العلامة سعيد بن عطاء بن قحليل القداري الدولاني. كان علامة فاضلاً كاملاً، أخذ عن السيد قاسم بن محمد العلوي ويحيى حميد وغيرهما، وأجاز للإمام القاسم وأولاده صحيح البخاري، وكان من أهل الزهد والورع ترجمه في مطالع البدور.

صلاح بن أحمد الوزير

في (سنة ١٠٢٤ هـ)، توفي بصنعاء السيد العلامة المحقق الذي لا ينازعه في معرفة منازع، صلاح بن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن الهادي بن إبراهيم بن علي بن المرتضى الوزير عن (٧٩ سنة)، فإن مولده كما في بغية المريد والطبقات ليلة الجمعة (٢٧ شعبان سنة ٩٤٥ هـ). وأخذ عن والده وعن غيره، وأجل تلامذته الكثيرون الإمام القاسم بن محمد، فقد أخذ عنه كثيراً، وأجازه إجازة عامة، وكذلك ولده الإمام المؤيد بالله، والسيد محمد بن عز الدين المفتي، وكان مقيماً بصنعاء عن أذن الإمام القاسم، وكان شاعراً مجيداً وعلامة محدثاً صادقاً بالحق، وقبره بجزيرة الروض، قال له يوماً الباشا جعفر في التوجيه بالمذاهب:

حدك ذا الأشعري حنفي وصار من أحمد المذهب لي
حك ما زال شافعي أبداً يا مالكي كيف صرت معتزلي؟

ثم قال الباشا جعفر للسيد صلاح مداعباً، أين ذكر المذهب الزيدي؟ فقال ارتجالاً:

زاد غرامي به فزئدي بعداً عن المكثرين في عذلي

وسأله الباشا جعفر: مَنْ أفضل الصحابة؟ فقال: أبو بكر، فقال الباشا: أتفضله على علي؟ فقال: أنت سألتني عن الصحابة، وعليٌّ في القرابة وأمرهم آخر.

ومن شعر السيد صلاح:

لا يكن ظنك إلا حسناً إن سوء الظن من طبع اللئام

وكفى في ذمه لو عقلوا أنه نقص وإثم وحرام

كل من كان له معتمداً عَدَمِ النفع بأنواع الأنام

حسن الظن بمولاك تُقِرْ إن حسن الظن برء وسلام

الهادي بن عبد الله أبو الرجال

وفي (١٤ ربيع الآخر سنة ١٠٢٥هـ) أو في (سنة ١٠٢٧هـ) استشهد ودفن بحوث القاضي العلامة الهادي بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن أبي الرجال، وكان إليه ولاية حاشد وبكيل من وادعة إلى ثم، فعزم لزيارة الإمام ومعه ثمانمائة من وادعة، فمر بعصافر، وكان قوم من العصيمات يفسدون في طريق الفقع وغيره، فأراد ضبط هؤلاء الأشرار على طريقه، فركز رايته في جبل أعلى من حوث، وأمر بالغارة على الصروم، فتفرق أصحابه بعدهم في الشعاب فقتلوا منهم وضبطوهم، فجاء منهم جماعة أخرى اسمهم ذو الفصل، حالوا بينه وبين أصحابه، وهو يضرب المدفع لعود أصحابه، فاستشهد وثمانية معه، فخرج سادة حوث احتملوه إلى حوث ودفنوه بها، وحزنه الإمام وعزاه ورثاه ابن عمه أحمد بن علي بن أحمد أبو الرجال بقصيدة طويلة منها:

أبكى مصابك والعلياء والرحما وأصبح الدين مثلوماً ومنهدماً

من للمساكين كهف يوم مسغبة ومن لهم ذخيرة إن أملقوا عدما

وللمجالس ناعج راق منظره وللمدارس نور زحرج الظلما

أما الجهاد فلا تحصى وقائعه فيه ومن يحصر الأمزان والديما

وما أصبنا خصوصاً في قضيته بل تلك بلوى أتنا عمت الأمما

إن العصيمات أخلى الله أرضهم
دحوا مشيداً على الإسلام واعتمدوا
ما يظفرون وملحاناً أبو حسن
بقي لنا فهو نعم المستغاث به
مضى النصيف أمير المؤمنين مئى
وتعت أمرك أملاك عطارفة
عن كل حي ولا آتاهم النعما
قتل الهمام سليل القادة العلما
حامي حمى الدين بل من شاده وحمى
سيفاً لمن بعراه لأذ والتزما
يكون ممن لهذا الدين قد ثلما
من هاشم يضربون الهمام والقمما
.. إلخ وهي طويلة.

وفي (٤ صفر سنة ١٠٢٧هـ) توفي السيد العلامة الحسن بن محمد بن ناصر العلوي
المأخذى، سكن عمران، وقرأ بشهارة وغيرها، وله حاشية عظيمة على شرح الأزهار في
مجلدين.

وفي (سنة ١٠٢٧هـ) توفي القاضي العلامة صالح بن عبد الله حنش، وكان عالماً
فاضلاً.

وفي شوال (سنة ١٠٢٨هـ) توفي بشهارة الفقيه العلامة يحيى بن محمد بن يحيى بن
صالح بن محمد بن صالح بن محمد بن محمد بن يحيى بن أحمد بن حنش عن (٦٦ سنة)،
فإن مولده (سنة ٩٦٦هـ).

الحسن بن شرف الدين الكحلاني

قال في الطبقات: ((وفي ذي القعدة سنة ١٠٢٨هـ) توفي بشهارة السيد العلامة
المجاهد الحسن بن شرف الدين بن صلاح بن يحيى، ويلقب الهادي بن الحسين بن المهدي
بن محمد بن إدريس بن علي بن محمد)). وهو الملقب تاج الدين بن أحمد بن يحيى بن
حمزة بن سليمان بن حمزة بن علي بن الإمام حمزة بن أبي هاشم النفس الزكية الحسن بن
عبد الرحمن بن يحيى بن عبد الله بن الحسين بن القاسم الرسي بن إبراهيم.. إلخ.
الكحلاني توفي عن عمر نحو ثمانين سنة. قرأ على خاله أحمد بن محمد بن المنتصر
الظفيري وغيره، وعنه أخذ السيد حسين بن صلاح الشرفي، والقاضي سعد الدين بن
حسين المسوري وولده أحمد، وكان المترجم له إمام الزاهدين وقدره العابدين، وقبره

يحب قبر الأمير ذي الشرفين بشهارة، وله مواقف المشهورة في الجهاد، وأسرته الأتراك من ثلاث وحسوه بكوكبان، وأطلق في صلح (سنة ١٠١٦هـ) مع أبي القاسم محمد وأحمد وغيرهم.

عبد الله بن المهلأ

وفي ذي الحجة (سنة ١٠٢٨هـ)، توفي بالشمعة من الشرف القاضي العلامة عبد الله بن المهلأ بن سعيد بن علي النيسائي الشرفي عن (٧٨ سنة)، فإن مولده (سنة ٩٥٠هـ)، وكان عالماً كبيراً متبحراً نويماً لغوياً محدثاً مفسراً، رحل إليه الناس وانتفعوا به، وكان نظير سعد الدين في تحقيقه. وسكن بباب الأحمر وتشوق الباشا جعفر للقائه، فلم يتم له ذلك حتى أصابت القاضي نكبة أوجبت وصوله إلى الباشا فعدها الباشا من السعادة وأجله وأعظم محله وأغناه وأقناه وجالسه. وامتنح الباشا جعفر العلماء بحديث احتلقه ونمق ألفاظه وأملأه عليهم فابتدر الحاضرون لكتابته، ولم يتحرك المترجم له لشيء من ذلك، فسأله الباشا لم لا يكتب؟ فقال: يا مولانا: قد أفدتم والجماعة كتبوا ونحن حفظنا، فقال الباشا: هذا والله العالم، ثم أخرجهم أنه هو الذي وضع الحديث لامتحنهم، وأخذ المترجم له عن والده وغيره، وعنه أخذ الإمام القاسم بن محمد وغيره، وليس هو شارح البوسية فذاك هو الحسين بن ناصر المهلا الشهيد في (سنة ١١١١هـ) وأبوه المهلا بن سعيد ترجمته في الطبقات.

وفي ذي الحجة (سنة ١٠٢٨هـ) توفي بمعمرة الأهنوم الفقيه الفاضل الزاهد محمد بن علي البعقوي.

كارثة زلازل

قال في اللآلئ المضيئة: وفي يوم الأربعاء ١٩ شعبان (سنة ١٠٢٨هـ) وقعت زلزلة شديدة اهتزت لها الأرض وخربت منها بيوت كثيرة سيما في بلاد صعدة وهلك منها جماعة في بلاد عذر وغيرها، وانشقت دار مطهر بصعدة وانصدع عقد من عقود مسجد الهادي وغارت بعض الأنهار، وكانت ثلاث زلازل: إحداها نصف اليوم المذكور، والثانية ليلته، والثالثة ليلة اليوم الثالث.

وفي (سنة ١٠٢٨هـ) وصل رسول يعرف بالطواشي من سلطان الهند بمهدية عظيمة

للباشا محمد وفيل عظيم، ولبت الطواشي بصنعاء أياماً وبني في أيام إقامته بصنعاء مسجده المعروف بمسجد الطواشي نسبة إليه، وكان يجنبه مسجد عياش الصغير القدم، وبني الطواشي حماماً بجانب المسجد وهو حمام الطواشي، ووقفه على المسجد.

وفي (سنة ١٠٢٨هـ) جهز الباشا محمد الأمير (قرى جمعة) في مائة نفر إلى بلاد ريمة ووصاب لاختلالهما، فلما وصل إلى بيت الشيخ ناصر بن داود اجتمعت القبائل وحاصروا قرى جمعة، فأراد عبد الله آغا تخليصه، فلم يتمكن ووقع قتال شديد وخالف أهل وصاب، فأرسل الباشا إلى الأمير علي بن شمس الدين صاحب كوكبان، وإلى النقيب محمد سعدان بأن يتجهزا بعساكر، فتقدموا، فلما وصلوا طلب القبائل الأمان، ووصل كتاب إلى الباشا من الأمير محمد بن سنان يذكر أن بلاد ريمة ووصاب وعتمة اتفقوا على الخلاف، وأن الأمراء فيها صاروا في حصار شديد، فأمر الباشا إلى الأمير محمد الزوم وكتاب اليمن الأسفل فتقدموا ووقع حرب عظيم في بني سعد، ثم أن عبد الله آغا قبض على الشيخ ناصر بن داود في سوق من أطراف البلاد، فبلغ مشائخ شمل أن شيخهم في الأسر، فوصلوا إلى عند عبد الله آغا لفك شيخهم من الأسر وعليهم خلاص قرى جمعة.

وما زالت الحروب في بلاد ريمة وغيرها سجالاً.

وفيها ضرب الباشا محمد سكة جديدة بصنعاء كل ستة وخمسين كبيراً أوقية، وكانت الأوقية من السكة الأولى ستين وخمسة وستين والقرش الفضة المسمى أبو مشط سبعون كبيراً من السكة الأولى، فجعل الباشا صرف القرش من السكة الجديدة ستة وخمسين كبيراً، وأمر بإبطال السكة الأولى، لكن الناس تعاملوا فيما بينهم بما حتى كان يشترط أهل البوادي السكة القديمة فيما باعوه؛ لأنها أكثر في العدد، فيكون عليهم الخسران بالجديدة.

الإمام القاسم

في ليلة الثلاثاء (١٤ ربيع الأول سنة ١٠٢٩هـ) كانت وفاة الإمام الأعظم القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد بن أحمد بن الحسين بن علي بن يحيى بن محمد بن يوسف الأشل بن القاسم بن يوسف الداعي بن المنصور يحيى بن الناصر أحمد

بن الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، عن اثنتين وستين سنة إلا شهراً وأياماً. فإن مولده (١٠ رمضان سنة ٩٦٧هـ) ودفن بمشهده المعروف بشهارة، عرض له مرض في باطنه وخُمّي حارة في جسده وخرج في أول مرضه لصلاة الجمعة، ومراً من السوق فرأى الجزارين يُشرّقون اللحم بين الشمس فنهاهم وقال: إن اللحم إذا بقي في الشمس وأكل أحدث الجذام.

وخرج في بعض الأيام للوضوء في برك الجامع وسلك طريقاً لا يسلكها بعض الفقهاء المتحرزين لمظنة نجاستها فعجبوا من ذلك، فقال لهم: الأصل طهارتها، وكان في غاية من الزهد في مأكله وملبسه وسائر أحواله.

كان يلبس القميص الشقة السوداء واللباس الأسود، وأما قيامه في أمر الجهاد، وتجهيز الأجناد والحرص على تخليص البلاد والعباد من الظلم والفساد، فلا يخفى على ذي لب صحيح ولا يفتقر إلى تصريح؛ لأنه كالشمس أو أشهر، فجزاه الله عن الإسلام وأهله خيراً، وقد تقدم الكثير من أحواله ودراسته ومشائخه وتلاميذه.

وله من المصنفات في أصول الدين: الأساس لعقائد الأكياس، وإرشاد العباد إلى محجة الرشاد، وفي أصول الفقه: مرقاة الوصول إلى علم الأصول، وله في الحديث: الاعتصام بلغ فيه إلى كتاب الصيام، ثم أكمله على النمط الذي شرع فيه الإمام، السيد العلامة الحافظ أحمد بن يوسف بن الحسين بن أحمد زيارة المتوفى (سنة ١٢٥٢هـ) وسماها أنوار التمام، ولالإمام القاسم كتاب التحذير من الفتنة، وله عدة رسائل ومسائل وأجوبة وقصائد تضمنتها الكتب الخاصة بسيرته وغيرها، قال الشوكاني: ومن مصنفات الإمام القاسم الجليلة في الحديث، كتاب الاعتصام، جمع فيه كتب أئمة الآل والأمهات وغيرها من كتب الحديث، ورجح في كل مسألة ما يقتضيه اجتهاده، ولكنها احترمت المنية قبل تمامه.

قال في اللآلئ المضيئة: وكان الإمام تام الخلق طويل القامة عريض الصدر شديد الأدمة عريض اللحية طويلها غشيه الشيب من وقت الشباب، ومن آثاره الحسنة الجامع المقدس بشهارة والجامع المبارك بمعمور الحجر والبركة التي حوله والسقاية والسمررة التي

في سوق المحجر والطريق المدرج على الساحل من بلاد بني حمزة إلى شهارة والطريق التي فوق المعمر غربي المدان من جبل الأهنوم وغير ذلك من الآثار الحسنة.

وقال الشوكاني في البدر الطالع: أن له كرامات قد اشتملت عليها الكتب المطولات، وجهادات لا تتسع لها إلا مجلدات، وإقدمات يحجم عنها الأبطال، وفتكات تتقاصر عن نيلها هم الرجال، وفي أولاده من أئمة العلم المصنفين، وأئمة الجهاد المناغرين والشعراء المجيدين والخلفاء الراشدين والفرسان المعترين والشجعان الفائقين، وكان سريع الاستحضار للأدلة كثير الحلم بليغ النثر والنظم له اليد الطولى في إنكار المنكر.

وللسيد العلامة أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي ذيل للبياسة، في ذكر الإمام القاسم منه، قوله:

ثم ابتدا الدعوة الغراء من قمر	إمامنا القاسم المنصور في صفر
من قام لله لا يلوي على أحد	وباع مهجته من ربه فيري
والأرض ترفض بالفجار قد ملئت	بالظلم والجور والعدوان والنكر
وكان أول نشر الحق رايته	من قارة وبدا نوراً لذي بصر
فسل سيفاً على الأتراك قاطبة	وصب عزمًا على الفجار كالقدر
وكان منه عليهم كل ملحمة	يشيب من هولها الأطفال في الصغر
منها نغاش وأسناف وريشتهم	أضحوا بها فوق ظهر الأرض كالجزر
وكان منه بنجد السلف ملحمة	أفنت صناديد أهل البغي والأشر
ومن يحدثك عما كان في مدع	وفي ثلا قلت ماذا الفعل من بشر
أما مواطن سافون وفي هزم	فكالجبال صدام البعض في الآخر
وفي المرازم من خولان ملحمة	لكنها بين آل الطهر كالغمر
وحاز عم الإمام الفضل واشتهرت	له المناقب مثل الشمس والقمر
وحجة النصب والفجار كان بها	وقائع ومصاب السادة الطهر
وكان في الفايشي ما كان من خير	وبعده يوم غربان على الأثر

أفتت خلائق وانهدت على الأثر
وجاء بالنصر من عرو ومنتصر
فجاز فيه جنود الحق بالظفر
حصد الأعاجم مثل اليانع الثمر
والموت يحدهم من عرصة الحجر
بالظالمين أولي الفحشاء والنكر
يشبها لهم ماضيه كالشرر
لأهلها بعظيم الشأن والخطر
وآل عنها إلى الأثراب والسرر
ونوعة وسنيع مقتضى العبر
لنناظرين ذوي الألباب والفكر
أتت لتكريم مولانا على قدر
والأسد مذعورة ولت من البقر
ولا رنى للورى من بعد فاعتبر

وسودة ابن المعافى كم بها عبر
ونكس الله رايات الضلال معاً
وقبل عرو تلاقى القوم في حمد
وفي الحضائر في واديه كان به
ويوم أثلة يوم هال مشهده
وكم أعد وأحصي من وقائعه
نيفاً وعشرين عاماً لم يزل نَقماً
وفي مواطن للتمحيص قد شهدت
نال الشهادة فيها من له كُتبت
كيوم رحبان والشقبات لا سُقيا
وكان فيها وفيما بعدها عجب
كم من خوارق للعوادات ظاهرة
كالجمع ولّى بلا حرب تفرقهم
هذا ولم يولد الدهر الخثوون صفاً

وقال السيد العلامة الأديب عبد الله بن علي الوزير، وأشار إلى دعوة السيد ناصر محمد صبح، ثم اعتقاله، كما سيأتي.

هذا بذاك فثق بالله واعتبر
على الثريا وحفتهم على السرر
بالله مستظهر بالله مقتدر
من العلوم برأي منه مبتكر
بمسك دارين في تابوته العطر
إذ فرقت منه بين الجلد والبشر
في ربة الأسر مصروفاً عن السرر

وشيعت دعوة المنصور قائله
وأوطأت لبني المختار بيت علأ
بظاهر أمره بالله معتصم
علامة علم في صدره حكّم
سقى شهارة أعنى تربة خلطت
وبشرت عامراً بالفوز يوم غد
وصبحت صبحاً ذا الباس معتقلاً

ومن شعر الإمام القاسم قصيدته التي وسمها (بافتتاح الفرج) قالها أيام اختفائه وتخوفه من الأتراك:

يا ملجأ للخائف المختار ^(١)	يا من يغيث مشرداً قد طارا
يا حي يا قيوم يا غوث الذي	يشكو إليك من الذي قد جارا
يا من يجير بفضلِه مستضعفاً	مستصرخاً متضرعاً لك جارا
يا من يجير ولا يجار عليه في	سلطانه يا قاصماً جبارا
يا من هو الله الشديد محاله	يا قادراً يا عالماً قهارا
يا من تتره أن نراه بناظر	يا من يحيط ويدرك الأبصارا
يا أولاً يا آخرأ يا ظاهراً	يا باطناً يا عالماً أسرارا
يا واحداً يا دائماً يا باقياً	يا من أبان عجائباً وأثارا
يا بارئ الصنع العجيب بحكمة	حيأ يحسُّ وجامداً وبحاراً
يا نافخ الأرواح في أشباحها	ومقدراً لبقائهما مقداراً
يا مُحيي الأموات بعد فنائهم	لجزائهم نعم الجنان ونارا
يا من بنى السبع الشداد ومن دحى الأرض المهاد ونور الأنوارا	يا من أدار بأمره في ملكه
يا مرسياً شم الجبال بأرضه	فلكاً مطيعاً مظلماً وغمارا
يا مرسلاً ذلّل الرياح لواقحاً	ومُسَيِّراً في غورها الزخاراً
يا منشئاً جوف السحاب عجائباً برقاً يلوح ووابلاً مغزاراً	فتثير من موج السحاب غزارا
يا منزل الغيث الهنيء تفضلاً	لعباده يا مجرباً أنفكاراً
يا مُنبت الأصناف من شجر ومن نجم ويا من أثمر الأممارا	
يا من حوَّاج خلقه من عنده	تُقضى ويغني البائس المعساراً

(١) منصوب على الاختصاص.

يا من تغفرت الجباه تواضعاً
يا من إذا وقف الطريقُ ببابه
يا من إذا المضطرُّ أجهدَه البلاء
يا رب يا حنان يا منان يا
يشكو عُيْبُكَ بعد أن نزلت به
يشكو إليك من الذين تجبَّروا
يشكو شكايه محرق مستضعف كثرَتْ
كراؤهم مُتَجَبِّرون فأشبهوا
يشكو إليك جميعهم أمراءهم
ومُحيطهم أهل الغواية إنهم
يغفروهم بقرابةٍ لحمد
لا يرتجون لحل ما نزلت بهم
وقفوا ببابك طالبين لنفحةٍ
فبحق ذاتك يا مُغيثَ عُيْبِكَ المضطر ممَّن قد أراد ضراراً
ونحق حقك يا رحيم برحمةٍ
بجلالك الأعلى بما يختص من
وبكلما سميت نفسك طيباً
بكتابك الهادي بما أظهرته
وبحرمة السبع المثاني إنما
وبحرمة السُّور التي ضمنتها
وبكل حرمة آية أنزلتها
بملائك لا يفترون عبادة
وبجبرئيل أمين وحيك والذي

لجلاله صار العظامُ حقاراً
يشكو يفرج كَرْبَه الكُّبارا
فدعاه يكشف فادحاً ضراراً
رحمان يا ديان يا جبارا
دماءً سَعَر حرُّها إسعارا
يغيثون فجعة مؤمن ودماراً
كثرتْ جنودُ عدوِّه فتجارى
فرعونَ أوهامائنه الكُفَّارا
وجنودهم والظالم الجوارا
قد زوروا من إفكهم أخبارا
حتى أخافوا صبيةً وكبارا
أحدأ سواك أتوا إليك فرارا
تُطْفِئُ حرارةَ مُحَرِّقٍ محراراً
المضطر ممَّن قد أراد ضراراً
رادفتها بتفضلٍ مسدداراً
كرمٍ أضاءَ بهاؤها وأناراً
بعظيمها أدعو خفاً وجهاراً
من نوره هدايةً إظهاراً
نوراً أضاءَ لنا ولن يتوارى
أعلى الكلام فحير الأفكارا
أدعوها الإعلان والإساراً
عَدُّوا زمانَ طِوالِ ذاك قصاراً
اخترته ليدمرَّ الكفاراً

وبحق ميكائيل صاحب قسمة الأرزاق والمستغفر استغفارا
وبحق إسرافيل ذي الصور الذي أقدرته من قدرة إقدارا
ببديع فطرتك الذي أكرمته بسجود من لا يكسب الأوزارا
وبحق إدريس الذي أوليته أسنى مكان رفعة وقرارا
وبنوح الناجي على ألواحهم لما رأى تُنورهم قد فارا
وهود المختار والنصاح بالـ أحقاف ينذر قومه إنذارا
وبحق صالح الذي أرسلته هُدى ثمود فأنكروا إنكارا
بخليلك الباني لبיתك والذي كسر الصليب بفأسه كسارا
وبلوط الساري بليلة أمطرت شرّ القرى بعد السرى أحجارا
وبحق إسماعيل صادق وعده الـ معطي لذبح نفسه مختارا
وبحق إسحاق ويعقوب ابنه الـ مجري بحزن دمه المطارا
بجماعة الأسباط يوسف والألى تابوا فحطوا عنهم الأصارا
بشعب والأواب أيوب الذي فيما ابتليت وجدته صبارا
بكليمك المختار موسى والذي لمحيثه أنشأته أنوارا
بأخيه هارون الزكي يوشع بغزير أسأل جهرة وسرارا
وبحق داود الذي آتينه فصل الخطاب وحكمة ووقرارا
بسليhle أعني سليمان الذي ملكته الثقلين والأقطارا
وبارميا وباشعيا بكرامة الـ خضر الذي عمرته أعمارا
وبحق إلياس ويونس بعده واليسع حيث جعلتهم أخيارا
وبحق يحيى بالزكي أبيه من وضع الطفأة برأسه المنتشارا
وبروحك الزاكي المسيح بأمه الآيتين لمن يشاء نظارا
وبحق لقمان الحكيم وفتية بالكهف نالوا من لدنك جوارا
ونخاتم الرسل الكرام محمد ساد الهداة الرسل والأخيارا

أكرم بخير المرسلين محمد
أكرم به من مرسل أكرم به
أكرم به من طاهر أكرم به
جدي الذي أرسلته والناس في
فاتاهم بالمعجزات شواهداً
ودعا لدينك ناصحاً حتى أتى
حتى أمات الشرك بعد حياته
وأقام دينك قيماً بعزيمة
فأشاد أركان الشريعة بالذي
بأخيه حامل علمه ووصيه
جدي علياً خير من وطئ الثرى
بالتطاهر الحسن الكريم وصنوه
وبفاطم الزهراء بنت محمد
وبحق حمزة الشهيد وجعفر
وبحق عباس وحق سليله
يجماعة آل الكرام جميعهم
قرناء وحيك يا إلهي والألى
بصحابة صحبوا النبي ووفروا
وبكل عبد في البرية صالح
بالكعبة البيت الحرام وركنه
وبزمزم والمروتين ومشعر

أكرم به في المرسلين خيارا
من طيب فرعاً له ونجارا
من صادق أكرم به مختارا
قفر الضلالة تائهون حيارى
أعطى الملا برهانك النوارا
بالسيف يضرب من بقى الإديارا
وأثار من سبل النجاة منارا
لو سلها لأذابت الأحجارا
إخترته ليدمر الكفارا
أعني الشجاع الصائل الكرارا
بعد النبيين الفتي المغوارا
أعني الحسين السبط والميرارا
خير النساء كرامة وطهارا
أكرم به في جنة طيارا
بحر العلوم الزاخر التيارا
سفن النجاة القادة الأطهارا^(١)
صاروا للملة جدهم أنصارا
أجر النبي محمد وفارار
خضعوا لجاهك خفية وجهار
ومقام من عمر العتيق وزارا
ومواقف أكرم بمن مزارا

(١) نصبت على الاختصاص.

أن تكشف سوء الذي قد حل بي وبصبيتي والمؤمنين وثارا
 أربي قريباً ما وعدت عبيدك الـ مضطر غوثاً مسرعاً نظارا
 نحن الذين إليك يا رب التجوا ممن طغى أو من بغى الإضرارا
 اجعل دعائي موصلاً بإجابة وانظر إلينا واكفنا الأضرارا
 فرق جموع المبتلين وحوّلن إقبالهم يا سيدي إدبارا
 أسرع ولا تقطع رجائي إنني لما أزل لك راجياً نظارا
 وعلى الملائك كلهم والأنبياء أبداً صلاتك مكثراً إكثارا
 واخصص محمداً الأمين بخير ما آتيت رسلك طيباً مكثارا
 وعلى كرام الآل آل فرعووا من خير من ركب المطي وسارا
 واغفر لنا والمؤمنين ذنوبنا إننا طلبنا راحماً غفارا

ومن شعر الإمام القاسم هذه الأبيات كتبها على سيفه:

ألا ذا قاسمُ الهامات يدعو بلسن الحال يا مولاي قاسم
 إذا كان السيوف لها حقوق فما حقي سوى ضرب الجماحم
 جماحم كل جبار عنيد وميَّال إلى الطغيان ظالم

وأشعاره ورسائله ومصنفاته كثيرة.

بعد أن نقلت من الرسالة الجامعية لأميرة علي المداح من (سنة ١٠٠٩ هـ) عدت إلى تأمل الرسالة من أولها، فاستحسننت النقل من أولها لإحاطتها بكتب التاريخ اليمنية، فقد تيسرت لها حتى الخطيئة أجمع ولخصتها أحسن تلخيص بعد تعبها في قراءة الخطوط السقيمة.

مما قالته:

كان والد الإمام القاسم يعمل في عسكر المطهر بن شرف الدين، خاض معه حروباً كثيرة ضد الباشا سنان وغيره، فرأى القاسم منذ صغره هذه الحروب ورأى في أبيه المجاهد الشجاع الذي وقف يقاتل للدفاع عن مذهبه الزيدي وأرضه اليمنية.

ولما بلغ القاسمُ سن العاشرة قرأ القرآن الكريم، وكانت فيه فطنة وفصاحة، وقد أخذ العلم عن كبار علماء المذهب، كما اتصل بالإمام الحسن بن علي بن داود وظل ملازماً له حتى نفى إلى الأستانة، ومن أشياخه أيضاً السيد أمير الدين بن عبد الله بن هُشَل بن المطهر.

ومن علماء عصره عمُّه السيد عامر بن علي الذي أجاب دعوته وخاض معه معارك كثيرة وبذل ماله وروحه في سبيل نصرته. ومنهم السيد إبراهيم بن المهدي بن علي جحاف ووالده المهدي وهو أحد شيوخ الإمام المؤيد. والسيد محمد بن عبد الله عُشيش، والسيد الحسين بن علي بن إبراهيم الجحافي وغيرهم كثير.

أما نشأته فقد نشأ معروفاً بالطهارة وقوة القلب والبطش، ويقال عنه: «إنه كان لا يروعه شيء مما يروع الصبيان» وقد توسمت فيه عمته أم الغيث بنت علي: النبوغ والفطنة والفهم، فخافت عليه وأرسلت في طلبه إلى الرُّغِيل غربي مسور، وكانت متزوجةً بالسيد أحمد بن الحسن الخطيب، وكان من أهل الجاه واليسار، مع العلم الكثير، فأتم الإمام قراءة القرآن وتعلم أصول الدين، وكان يقرأ معه عمه عامر بن علي، فنشأ في بيئة كلها تُقَيِّ وصلاح مما انعكس على شخصيته. فقد ذكر الشرفي في مخطوطته اللآلئ المضئية عن نشأته قوله: «نشأ نشأة السَّابِقين من سلفه عليهم السلام في الحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

وبالفعل عندما أصبح إماماً أبطل كثيراً من البدع السائدة كالترك بالأشجار وغيرها وأقام الحدود، ففي (سنة ١٠١٧هـ) كانت هناك شجرة بالقرب من شام مور يقصدها البدو من شمال اليمن للزيارة والتبرك وتقديم الذبائح، ويعتقدون فيها، فجمع الإمام العسكر، ثم قصدها فقطعها بعد الإقامة عندها ثلاثة أيام وجمع حطباً وأحرقها.

وسنرى في الخطابات الموجهة لأولاده الكثير من الوصايا التي تدل على تمسكه بأهداب الدين، فقد أورد الجرُمُوزي مؤلف سيرته الكثير منها، ففي رسالة وجهها لولده محمد وهو في شهارة قوله: «إني أوصيك ألا تترك الدرس للقرآن يوماً واحداً ولو في كل يوم جزأين أو جزءاً واحداً لا تترك ذلك أبداً، وعليك بصلاة الجماعة فإنها من الواجبات ولا يغرك قول من يقول: إنها سنة، وعليك بملازمة العلم وطلبه؛ فإنه من أكبر الفرائض،

واستعن على ذلك بتقوى الله سبحانه؛ لأن الله يقول: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] والفرقان هو الفهم والفطنة... إلى آخر هذه الوصية التي يظهر فيها أثر النشأة الصالحة وانعكاسها على المجتمع وتربية الجيل في المستقبل، وهناك الكثير من الأمثلة التي تعكس شخصية الإمام وأثر التربية الإسلامية فيه، وَرَدَتْ في الخاتمة عند التعرض لشخصية الإمام.

أما صفاته فكان وسيط القامة معتدلاً، إلى السمن أقرب، واسع الجبهة، عظيم العينين، أسمر اللون، واسع الفم، أشم الأنف، طويل اللحية عظيمها، ضخم الذراعين أشعرهما، فصيح العبارة، سريع استحضار الأدلة، كثير الحلم، يصبر على المكاراة ويتحمل العظيم، كثير الورع.

أما علمه فمما لا يفتقر إلى بيان، والدليل على ذلك كثرة مؤلفاته؛ إذ يعتبره بعض المؤرخين أنه مجددٌ في المذهب الزيدي، وصاحب المذهب المختار، وستعرض لهذه المؤلفات لنعرف مناسباتها ونظرياته في المذهب الزيدي.

أشرنا إلى أنه بعد أسر الإمام الحسن بن علي بن داود ونفيه إلى الأستانة، أصبح مكان الإمامة خالياً، ولم تكن هناك شخصية تناهض العثمانيين، فأخذ أصحاب الرأي من الزيدية في التفكير فيمن يتولى هذا الأمر الشاق نظراً لوجود والٍ عثماني قوي، هو الباشا حسن وكتخده سنان. وتعاليم المذهب الزيدي هي التي ساعدت هؤلاء على التفكير في اختيار شخصية قوية للخروج على العثمانيين، فإن المذهب يبيح الخروج على السلطة القائمة إذا كان هناك ما يبرر ذلك كالفساد أو الاضطراب، وأن يخرج أحد هؤلاء الأشراف جاهراً بإمامته حاملاً سيفه مدافعاً عن هذه الإمامة، ومن ثمة وقع اختيارهم على الإمام القاسم لتقديره للمسئولية التي ألقوها على عاتقه، وقد أظهر تردده في قبولها.

وينقل لنا معاصره الجرُموزي قول القاسم: ((كانت الإمامة لا تعرض في فكري لما أرى من شرارة الخلق وقوة سلطان الترك على الأرض)).

وكان ممن أشار عليه بالقيام السيد علي بن إبراهيم صاحب الشاهل، والسيد صالح بن عبد الله بن داود الغرباني القاسمي، وأنشأ قصيدة حث فيها الإمام على القيام مطلعها:

ضاع الوفاء وضاعت بعده المهمم والدين ضاع وضاع المجد والكرم
أحكامهم في أمور الدين منبعضها آراؤهم وكتاب الله بينهم

وبعد هذا الإلحاح منهم قبل الإمام هذا الأمر، فأخذ ينتقل من مكان إلى آخر، من بلاد الشرف، ثم دخل صنعاء متخفياً يقرأ ويدعو الأعوان في مسجد داود، وكان العثمانيون قد شعروا بظهوره قبل ظهور إمامته، فأخذوا يجتهدون في التجسس عليه ومطاردته، وبذل المال الكثير في سبيل ذلك، وقد استعملوا التنجيم للدلالة على معرفة مكانه.

وقد ظل الإمام سنوات متخفياً يطوف الأقاليم حائثاً الأهالي على الانضمام إليه، عاكفاً على العلم والتدريس والتأليف. وكان تارة يختفي عند ما يشتد به الخوف مع جماعة من خالصي أصحابه الذي يأخذون عنه العلم إلى فلاة من الأرض بحيث ينقطع خبرهم عن الناس ولا يدرون أين هم، فتمضي أيام على ذلك ولا يشعر العثمانيون إلا وقد استولى على مواضع، وما زال هكذا مع الإقدام والصبر الذي لا يقدر عليه أحد، حتى إنه في بعض الأوقات لا يجد هو وأصحابه ما يأكلون عند اختفائهم، فيأكلون من نبات الأرض، وقد يكابد الشدائد حتى يُظن أنه لا يعود لمناجزة العثمانيين وإذا هو قد وثب على بعض المواضع.

وكان أول ظهور دعوته من جبل حديد قارة، وسانده أحد مشايخ المنطقة وهو أبو زيد بن سراح شيخ بني سنحان، وكان أشار عليه بعض أصحابه في الدعوة من هنالك لأهمية الموقع ونصرة القبائل، ولحصانته وبعده عن مركز العثمانيين، فاستصوبه، فوصل إليه ومعه ستة من الرجال في ضيافة أبي زيد، ولكن أبا زيد رجح للإمام الطلوع إلى جبل قارة، وأول من بايعه رجل من مشايخها يسمى الشيخ عبد الله بن مسعود، وكان باسم الوجه وافر اللحية، فتيمن الإمام به وتبعه بقية الناس الذين حضروا الجمع وكانوا حوالي أربعين رجلاً، وقد أمد الشيخ أبو زيد الإمام ببندقين وبارود ورصاص، ولم تكن البنادق متوفرة إلا مع أرباب الدولة وقرَّب إليه فرساً ليركبه، فسأل عن اسمه، فقيل له: الفتح، فانشرح فؤاده بهذا الاسم.

وقد اعتمد الإمام في بث دعوته على الخطابات والرسائل المطوَّلة والكتب المثيرة التي

كان يرسلها إلى الأفراد والجماعات، وكانت تحمل المبادئ التي يدعو إليها والتي كانت تتلخص في عدم الخضوع للعثمانيين؛ نظراً لفساد حكمهم وخروجهم على مبادئ الدين، فقد جاء في إحداها:

((أما بعد، فإننا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، وإنا ندعوكم إلى جهاد أعداء الله الذين ظلموا العباد وأظهروا فيها الفساد وشربوا الخمر، ونكحوا الذكور، واستباحوا دماء المسلمين المحترمين من المؤمنين وقتلوا الأطفال والنساء ومن لا يحمل سلاحاً من الضعفاء والمساكين وأنتم تعلمون ذلك ولا تجهلون)).

ومن خطاب آخر: ((ولا ترخصوا لأنفسكم في مداراتكم فإننا نعلم أنه لو لا مداراتكم بالمال لما استقامت لهم راية أبداً، فذلك منكم معاونة على إثمهم)).

وقد وجدت دعوة الإمام القاسم استجابة كبيرة لدى الكثيرين من أهل اليمن، رأوا فيها تعبيراً عن تدميرهم من سياسة العثمانيين وتصرفاتهم، وذلك رغم تقاعس أغلب هؤلاء الأهالي عن الوقوف إلى جانبه خوفاً من بطش العثمانيين بهم، فمما لا شك فيه أن دعوة الإمام القاسم قد لاقت نجاحاً عظيماً وأنصاراً انضموا إليها، وذلك يرجع إلى سوء تصرف بعض الولاة والجند العثمانيين، مما كان يثير في نفوس اليمنيين الضيق والتذمر ببعض التصرفات التي تسيء إلى سمعتهم الدينية رغم أنهم أتوا لحماية الأراضي المقدسة من البرتغاليين، وقد حقق بعضهم استقراراً كحسن باشا بالقوة والشدة.

كما أنهم لم يقوموا بإصلاحات شاملة تجذب اليمنيين إلى حكمهم، وكان الأجدر بهم أن يعملوا على كسب اليمنيين بأن يفهموا ما تميزوا به من ظروف طبيعية وبشرية خاصة، وكذلك الظروف الاقتصادية التي نتجت عن حصار البرتغاليين، ولو تفهّم العثمانيون تلك الظروف وعاملوهم على ضوءها لتغير تاريخ اليمن، لكنهم بالعكس أهرقوا دمهم بدفع أموال أدت إلى تدمير اليمنيين منهم؛ إذ أنهم تحملوا الخراج الذي كان يرسل إلى إستانبول سنوياً، وكان الوالي العثماني يستعمل القسوة في جمع الأموال المقررة على الأهالي.

وقد أشار الجرهمزي إلى ذلك بقوله: ((أما المال فلهم في أخذه سطوة، فقد يعذبون أهله العذاب العظيم، مثل ضرب السياط قليلاً أو كثيراً، وقد يجلدون بعضهم حتى يموت

مع المساهرة والكي بالنار وغير ذلك)).

وهكذا يتضح أن هذه الأسباب كلها أدت إلى تذرُّر اليمينيين من العثمانيين واستجابوا لأي دعوة معارضة لحكمهم، وقد عبر عيسى بن لطف الله عن أسباب استجابة الأهالي للإمام القاسم بوضوح، رغم انخيازه للعثمانيين حينذاك، ومعارضته للإمام القاسم؛ لأنه من آل شرف الدين، فقد قال: ((وقد كان قبل الفتنة أطبق على العباد الجور، وضعفت البرية، واستهلك العمالُ أموال الرعية، وقاست القبائل من الظلم أشد التعب والهول والنصب، فمن أجل ذلك أشعلت القبائل نارها وحملت على جنوبها أكفانها وأصدقت مع الإمام الحروب))، وقد ساعد على نجاح دعوة الإمام طبيعة اليمينيين أنفسهم وطبيعة مذهبهم الزيدي بالإضافة إلى قوة شخصية الإمام القاسم بوجه خاص وإصراره على مواصلة الجهاد وصبره على تحمل المشاق.

وكان عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن المطهر حاكم حجة وأقاليمها هو أول من حارب الإمام القاسم إذ قام بمهاجمته هو وجماعته عند ما علم بتجمعهم لأول مرة في جبل القارة، وكان عبد الرحيم أول من أبلغ حسن باشا بقيام الإمام، وذلك عندما فشل هجومه على الإمام للقبض عليه، وهذه البداية من عبد الرحيم هي التي أشعلت الحرب ضد الإمام، فقد اتخذ حسن باشا الاستعدادات اللازمة للقضاء على دعوة الإمام في بدايتها، فأرسل الجيوش والمعدات الوفيرة إلى المناطق الشمالية قبل أن تسقط في يد الإمام، غير أن استجابة القبائل للإمام، كانت أسرع، فقد هاجمت قادة العثمانيين، ومن معهم من اليمينيين، مثل مطهر بن الشويح وعبد الله المعافى الذي حاصره أصحاب الإمام في السودة سبعة أشهر حتى اضطر إلى تسليم نفسه للإمام. ونستغني من رسالة (أميرة المداح) بهذا والبقية قد سبق مضمونها في خلاصة المتون، فلا نكرر، ولو تأملتُ الرسالة من قبل لاستغنيتُ بها لما فيها من تحليل وأسلوب حسن مقبول في العصر فعلى الراغب أن يقرأ رسالتها من أولها إلى آخرها.

وأما سيرة الإمام القاسم بشعرها ونثرها وعجائبها فهي في مجلدات كاللآلئ المضئية، وسيرة الجرموزي، وأنباء الزمن... و... ومما قصّر الأولون في نشرها، إلا ما نَشَر منها والذي العلامة المؤرخ محمد بن محمد زبارة رحمه الله بجهد طويل عمره، ومنها هذا

(خلاصة المتون)، وكان يقول لهم: اطيعوا كتي وإلا فسيكتب لكم من بعدنا تاريخاً أسود، فاستجاب سيف الإسلام محمد بن الإمام يحيى، وأعان على طبع بعض الكتب في فترة قصيرة، انتهت باستشهاده غريقاً في بحر الحديدة، ثم أعان الإمام أحمد والدي على طبع جزئين من نشر العرف وبعض أئمة اليمن، ولو تمكن والدي من نشر هذا (خلاصة المتون) لسدّ فراغاً كبيراً؛ لأنه كان سيُهدّبه ويحقّقه ويشرف على طبعه) والآن نعود إلى خلاصة المتون.

لما مات الإمام القاسم عليه السلام قام بأمر الإمامة والرئاسة العامة الإمام المؤيد بالله حليف العبادة وقرين الزهادة قاموس العلم وطود الحلم محمد بن أمير المؤمنين عليهما السلام، وبث دعوته في الجهات الإمامية، وقال بإمامته أهل الديانة المرضية، وسارع برفع خير وفاة والده إلى الباشا محمد وعرفه بما تحمّله من أمر القيام بالدعوة، وأنه باق على الصلح الموضوع والحكم المشروع، وأهدى إليه نسخة كتاب الكشاف، وكانت نسخة عظيمة بالخط الرائق والصحة الكاملة، وطلب منه إطلاق رجل من الرهائن، فأجاب عليه الباشا محمد بنجواب عظيم شامل للمقاصد وأطلق الرجل المطلوب إطلاقه^(١).

وفي هذه السنة وصل الأمير حسين الكتخداة إلى بعض جزائر بحر اليمن مغاضباً لباشة مصر، فاغتصب ثلاثة مراكب شحنها بالمدافع وغيرها، فأمر الباشا محمد بحفظ البنادر منه، ولما وصل باب المندب مال عليه أصحابه فقتلوه.

وفيها وصل إلى الإمام المؤيد بالله وهو في الهجر جماعة من أصحاب أبيه، كان الأروام أسروهم وسجنوهم في بعض الجزائر وصاروا يستعملونهم في أعمال المراكب، فاجتمعوا وهم قدر مائة نفر، وقتلوا أمير المركب، وحملوا ما قدروا عليه من السلاح وغيره، وخرجوا من جهة أحور وكبيرهم رجل من سحار.

وفي هذه السنة وقع اضطراب في سحار فقصدهم أمير الشام أحمد بن الإمام القاسم، فصلحوا واستقاموا، وكان الإمام القاسم، قد ولّى ابنه أحمد بلاد الشام (سنة ١٠٢٧ هـ)، فكانت طريقه إلى حيدان، ثم إلى ساقين، ثم دخل صعدة، ونظّم أمورها

(١) سبقت المكاتب بين المؤيد والباشا قبل نحو كرّاس نقلاً من رسالة أميرة المداح.

وتولأها واستمر بها إلى أن خرج صنوه الحسن من الحبس من الدار الحمراء بقصر صنعاء، فولأه الإمام المؤيدُ بلاد الشام خلفاً لأخيه أحمد كما سيأتى.

وفيات سنة ١٠٣٠هـ

صالح بن عبد الله حنش

فى (محرم سنة ١٠٣٠هـ) توفى بشهارة الفقيه العالم الفاضل صالح بن عبد الله حنش. وكان يسكن ذيبين، وهو بقية العلماء الأعلام بها، ثم وصل لزيارة الإمام المؤيد إلى شهارة وبها توفى.

جابر بن محمد الغشمى

وفىها توفى بشهارة الفقيه العالم جابر بن محمد الغشمى. وكان مهاجراً بأهله فى شهارة عالماً فاضلاً.

وفيات سنة ١٠٣١هـ

سعد الدين المسورى

وفى (٢١ هـ ذى القعدة سنة ١٠٣١هـ) توفى بالهجر الأهنوم القاضي العلامة سعد الدين بن الحسين بن محمد المسورى، نسبة إلى مسور المتأب ببلاد حجة. وكان مشاركاً فى علوم الأدب وغيرها، شاعراً فصيحاً من أعيان أصحاب الإمام القاسم، وكان والده الحسين بن محمد من أصحاب الإمام شرف الدين، قال فى الطبقات وبغية المريد: ((إن القاضي سعد الدين رحل إلى صنعاء لطلب العلم، وكان رسولاً بين الإمام القاسم والباشا محمد فى الصلح، وكان زاهداً ومن المؤثرين على أنفسهم فى الشدة، ومن مشائخه السيد شرف الدين الحمزى، والقاضى المهلا بن سعيد، ومن تلامذته ابنه العلامة شيخ الإسلام أحمد بن سعد الدين المسورى، والمولى محمد بن الحسن بن القاسم وغيرهما)).

عبد الرحمن الطباطبي

وفيها مات بصنعاء السيد العلامة عبد الرحمن الطباطبي الحنفي الحاكم بصنعاء من جهة السلطان، وكان فيصلاً في الحكومات، انتقل من زبيد (سنة ١٠١٢ هـ)، والصحيح أن وفاته (سلخ ذي القعدة سنة ١٠٢٩ هـ)، وهو السيد عبد الرحمن بن الصديق بن محمد بن أحمد بن علي بن عبد الله بن أبي الغيث بن أحمد بن إبراهيم بن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن علي بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن علي بن الحسن بن أحمد بن علي بن إبراهيم بن الحسن بن الإمام محمد بن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وقد سكن ذريته بالروضة إلى الآن. وكان يُدرّس لا سيما في الحديث.

أحمد بن محمد الخزرجي

وفيها توفي الفقيه أحمد بن محمد الخزرجي مُوقَّع الديوان وكاتب الإنشاء للبasha محمد.

حوادث

في (سنة ١٠٣١ هـ) عُزل البasha محمد بالبasha أحمد فضلي؛ فخرج من صنعاء في (ربيع الآخر سنة ١٠٣١ هـ)، وتوجّه إلى مكة، فمات فيها هو وأحد ولديه، والثاني قُتل بينع، فأخذ شريف مكة جميع أثقاله وانتهب الباقي. وكان البasha محمد يغلب عليه البخل والشح، ومنع أرزاق كثير من الناس، وقصّر العطاء على من نفع مع التقدير ووقع القحط في زمانه، وقد ورد في الحديث لعائشة: (لا تُوكي فيوكي عليك)، رواه البخاري والترمذي عن أبي سعيد الخدري، والبخل والجور سبب قلة الأمطار في الأغلب.

وكان البasha محمد يميل إلى مذهب الإمامية. وله من المآثر - غير ما سبق - المشهد الذي على السيد عبد الله بن علي بالرهط وجامع يريم والقبة التي على الشيخ العلامة حسن الحافظ يريم.

وكان بإقبال البasha أحمد فضلي إقبال الخيرات العميمة، والنعم العظيمة كما قال

الشاعر:

إغما الدنيا هباتٌ وِعَوَارٌ مستردَّةٌ
شدة بعد رخاءٍ ورخاءٌ بعد شدة

فمنَّ الله سبحانه بالمطر وأحضرت الأرض وصلحت الثمار.

وفيهما تيسر خروج الحسن بن الإمام القاسم من الحبس بالدار الحمراء بقصر صنعاء، وكان قد أرسل بعض ما معه من الخوائج والكتب مع رسل وجمَّالين كانوا يأتون إليه بطعام وغيره، حتى لم يبق ما يعوّل عليه، وكان مثل ذلك غير مستنكر منه؛ لأجل البيت الذي معه بصنعاء وبئر العزْب؛ إذ كان أهله يختلفون إليه وأخذ حصاناً عظيماً أظهر أنه يريد أن يُقدِّمه للبasha أحمد فضلي الواصل، وأخذ في إعمال الحيلة، فنقب سقف المكان الذي هو فيه إلى تحت، ثم نزل إلى المتزل الذي تحته فنقبه، ثم كذلك الثالث، ولما بلغ أسفل الدار عاجل قلع حجر في الجدار إلى خارج الدار، فما زال به حتى أخرجه، وتركه على حاله كل هذا في النهار، وقد أعدَّ مُفْلَقاً للحطب له بباب الدار ليغالط صوت نقبه للثلاثة السقوف والجدار، ثم عاد بالحبل إلى مكانه وغطّى على محل النقب إلى الليل، وكانت صنعاء خالية من الباشتين، ففضلي لا يزال يتعز، ومحمد قد سافر إلى تهامة، وأمر الحسن بفرسه أن يُسرَّج ويلجم، وكان في بئر العزْب، وكان يجنب داره حرس من الترك لا ينامون وعرف عدم نومهم بهر كان قريب النقب فكانوا يرمونه بحصا. فلما كان آخر الليل هبت ريح شديدة وجاء حارس آخر نام بسرعة، وسكن ذلك الهر، فاستخرج الحسن ذلك الحجر في الجدار وخرج، وكان معه حبال لأجل نزوله بها من الدائر إلى خارج صنعاء ومعه الشيخ علي شمسان، فتفاءل الحسن بصوت سان شرع في المسنا في آخر الليل يدلي حباله في البئر، ويصيح (دندل حبالك واستعين بالله)، ثم ارتقى إلى الدائر ونزل وركب حصانه الذي كان قد أمر خادمه أن يوصله إلى ذلك المحل، فما أصبح عليه الصباح، إلّا وهو وأهله في زيلة الخارد، وكان قد واعد أهله بالخروج إلى هنالك.

ولقي جماعة من القبائل فأمرهم أن يصرخوا للقبائل الذين حولهم للقباه خشيةً من أن يلحقه أحد من صنعاء، فاجتمع إليه عيال عبد الله وغيرهم إلى موضع من بلادهم يسمّى زندان، وكلما مرَّ بقبيلة ساروا معه، ثم سار مسرعاً، وأهدى له القبائل غنماً كثيرة، ثم طلع بمن معه شهارة، فأمر الإمام المؤيد أخاه الحسين أن يلقاه، وكان وصوله أعزّ

وصول، ونزوله أكرم نزول، واستبشر الناس بوصوله الميمون وقرت به العيون. ولما وصل الباشا أحمد فضلي إلى صنعاء طلب الأمراء إلى ديوان القصر وعاتبهم في خروج الحسن من بينهم وكيف خفي ذلك مع خروج أهله وجميع ما معه؟ فأجابوا بأنهم في المدينة ولا عهدة عليهم في القصر، ولا يدرون ما هنالك وأن العهدة على آغا القصر المسمى علي آغا فضرب عنقه.

وأمر بالتحريج على اليهود في بيعهم الخمر من المسلمين، وتوعدهم بالنكال إن باعوا للمسلمين، وقتل محاسبياً، والنقيب علي سعدان لما سكر من شرب الخمر. وبعد دخوله صنعاء كتب إلى الإمام المؤيد محمد بن القاسم يطلب أن يبقى الصلح الذي عقده محمد باشا على حاله، فأجابه بالإسعاد، وفي عيد الأضحى (سنة ١٠٣١هـ) وقعت فتنة بين عساكر الشام وعساكر سحار بصعدة، ومدّت آل عمار يدها للانتهاك في الطرق، فأمر أحمد بن الإمام القاسم بقتل جماعة من مشائخهم بعد أن قبض عليهم، فحصل من أهل الشام انحراف، وخرج أحمد بن الإمام إلى بلاد آل عمار، وأخرب بعض ديارهم، فشكا أهل الشام ذلك إلى الإمام، وذكروا كثرة الاحتجاج والخراب الواقع في ديارهم، فكتب الإمام إلى صنوه أحمد بأن لأهل الشام من السوابق ما لا يخفى فيرعى حقهم ويطيّب نفوسهم.

وفي (سنة ١٠٣٢هـ)، اضطربت خولان صعدة، ومن إليهم، ومنعوا عن تسليم المطالب إلى أحمد بن الإمام، فجهز الإمام المؤيد أخاه الحسن بنحو ألف راجل وثلاثين فارساً، وكانت طريقه حيدان فأقبل إليه أهل تلك الجهات، ولم يصل أهل شعب حياً بعد أن كاتبهم ووعظهم وخوّفهم، فلم يقبلوا فسار إليهم السيد يحيى بن لطف الباري، والسيد علي بن حسن بن شرف الدين، فدخلوا بلادهم وانتهبوا.

وفي هذه السنة قتل سلطان الروم عثمان بن أحمد خان، وقام بالأمر بعده أخوه مراد بن أحمد خان.

عبد الله بن المطهر

وفيها أو في التي بعدها مات الأمير عبد الله بن المطهر بن شرف الدين، وكان أميراً كبيراً مع عساكر السلطنة. وفي هذه المدة رُخصت الأسعار وصلحت الثمار في جميع

البلاد حتى بلغ القدح إلى ثلاثة كبار بعد أن بلغ في أيام الباشا محمد القدح إلى خمسين بقشة - وكان القدح نصف قدح اليوم -.

قال الأمير (كاني شلي): ((كان الباشا أحمد فضل الله رجلاً يغلب على ظاهر أحواله الحذب، وكان يخاف من الله ويلوذ بال صالحين، وكان كثير الصدقات إلى العلماء والأشراف، وأزال دنان الخمر، من بيوت الذميين، وقال: لم يتوقفوا على ما قرر عليهم، وشتق يهودياً باع الخمر بعد نفيه. وقيل: إنه بعد نفيه لهم خرج في الليل إلى شارع اليهود متغراً، فطلب بيع الخمر ليعرف هل نفذ أمره أم لا؟ فقال صاحب البيت: الباشا قد منع وخاف منه، فقال: هذا جوف ليل وهو لا يعرف، فباع منه، فلما أصبح الصباح شنته تحت طاقة بيته، وطهر المدينة. فكان يدور في الليل بنفسه على بيوت الأشراف للصدقة. وكان كثير الصلاة والجمعة والجماعة، ومن تأخر عن ذلك عاقبه أشد العقاب، وبرزت أوامره إلى سائر الولاية بإقامة الجمعة والجماعة حتى عُمرت المساجد في زمنه، وكان يسير على قدميه إلى الجوامع للصلاة، من جملة الناس، وكان زمانه زمان خصب ورخاء وبمن وأمن في جميع الطرقات.

وفيها حصل تغيير من الفرنج في البحر، فقصدهم فركب في عسكره، وهو يبحث السير، فوصل المخا وقد سدوا بابه وأرادوا دخوله فاستأصلهم في البحر، ومنعهم عن دخول البر، واستولى على مراكبهم وعاد إلى صنعاء، وقد أسر كثيراً منهم، وأمر بعمارة قلعة في ساحل المخا من خارجه، وجعل فيها رتبة من أعيانه)).

محمد بن علي عيش

قال في الجامع الوجيز: وفي (١٤ صفر سنة ١٠٣٢هـ) توفي بجمرة حوث السيد العلامة محمد بن علي بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن علي بن عبد الله بن محمد بن الإمام يحيى بن حمزة الملقب عيش، وكان عالماً فاضلاً زاهداً.

وفي (سنة ١٠٣٣هـ) بلغ أحمد فضلي باشا قدوم حيدر باشا بولاية اليمن، وهو الذي كان الكيخيا في أيام الباشا جعفر، وكان على يده قبض الحسن بن الإمام في عرة الأشمور، كما سبق فتجهز أحمد فضلي للمسير، فلما وصل إلى أبي عريش مات به، وكان قد استخلف على صنعاء الأمير كاني شلي، ولما مات فضلي أرسل كاني شلي

الأمير خضر في مائتي نفر لإرجاع خزانة فضلي إلى صنعاء، فمنع عليها عسكر فضلي، فأرسل الأمير محمد بن سنان لقبض الخزانة، فسار عن طريق حجة حتى بلغ الصلبة، وسار إلى أبي عريش فقبض خزانة فضلي وحملها إلى زبيد؛ وسبب المسارعة بعزل فضلي تجدد قيام السلطان مراد أحمد؛ إذ كان توليته من السلطان عثمان أحمد، ولما دخل حيدر باشا إلى أطراف اليمن، كتب إلى الإمام المؤيد في صفر (سنة ١٠٣٣هـ) بتقرير الصلح، فرأى الإمام المصلحة في تقريره.

ولما وصل حيدر إلى المخا قتل الأمير محمد بن سنان؛ لأن العسكر كانوا يحبونه، فخاف منه ومنهم، وقبض خزانة الباشا، فضلي، ومن مآثر الأمير محمد بن سنان في تعز حال ولايته لها مدة الباشا جعفر إجرء الساقية من جبل صير إلى تعز بحافة المربع، وجعل هنالك سبيلاً لاستقاء الناس، ووقف على ذلك أوقافاً كثيرة لإصلاح ذلك المنهل وانتفع به أهل المدينة.

وكان محمد بن سنان مقداماً مهيباً، ولما قتل قال كثير من الكبار العارفين: «(الآن ذهب ملك اليمن)»، لما عرفوا من رئاسة محمد بن سنان وتخليط حيدر، ولما وصل حيدر إلى تعز قتل علي عابدين وغيره من أمراء الجند خشية من أخذهم بثأر محمد بن سنان؛ لأنهم كانوا من خواصه.

وفي (سنة ١٠٣٣هـ) توجه للحج المولى العلامة الحسين بن الإمام القاسم وصحبه الشيخ العلامة لطف بن محمد الغياث، وجماعة من السادة والعلماء.

في (سنة ١٠٢٩هـ) في المحرم منها ظهر السيد ناصر محمد صبح من أشرف غربان. كان في ابتداء أمره من أعوان الإمام القاسم، وقد أخذ قليلاً من العلم فسوات له نفسه الدعوة إلى الإمامة، وخرج من شهارة إلى الحيمة، وأظهر الدعوة وزعم أنه المهدي المنتظر وغرّ العوام بلمعة بيضاء كانت في رأسه أشبهت رقم الجلالة. فعظم على الإمام فعله خشية من اضطراب أهل الحيمة وغيرهم؛ فيكون سبباً لنقض الصلح بينه وبين الباشا محمد، فكتب إلى السيد المذكور: «(إنك من أولاد الحسن بن علي والمهدي المنتظر إنما يكون من أولاد الحسين، وهو لا يظهر إلا من مكة في آخر الزمان)».

ثم بعث رُسلاً إلى الحيمة وأمرهم بالقبض عليه وإيداعه الحبس في حصن يناع ففعلوا،

فأخذ في التفرير على أهل الحصن، وذكر لهم أن مدة الإمام القاسم قد انقضت وقربت وفاته، فأطلقوه فما برح يتنقل في الحيمة وصادف وفاة الإمام عقيب ذلك، فآل إليه جماعة وصدقوا قوله وفشا أمره في بني مطر وبقلان فجهَّز الباشا محمد عسكرياً إلى تلك الجهة، فاستولوا عليها وأسروا من أهلها ما يزيد على مائة نفر.

فأمر الباشا محمد بضرب أعناق مشائخهم وفرَّ السيد ناصر محمد صَبَحَ إلى بلاد العصيمات، ثم قُبِضَ عليه وأُتِيَ به إلى الإمام المؤيد محمد بن القاسم، فأودعه سجن شهارة، ثم توفي بشهارة وسيأتي إن شاء الله أنه بقي للتدريس بشهارة مُطلقاً محترماً.

وفيات

(أمير الدين بن عبد الله بن نهشل)

في (١٩ جمادى الآخرة سنة ١٠٢٩هـ) توفي بحوث السيد الإمام شيخ آل محمد الكرام أمير الدين بن عبد الله بن نهشل بن المطهر بن أحمد بن عبد الله بن عز الدين محمد بن إبراهيم بن الإمام المتوكل المظلل بالعمام المطهر بن يحيى بن المرتضى بن المطهر بن القاسم بن المطهر بن محمد بن علي بن الناصر أحمد بن الإمام الهادي يحيى. قرأ على الإمام شرف الدين، وعنه أخذ الإمام القاسم وغيره، وكان الإمام القاسم قد ولاه بلاد حجة. وتوفي بعده ولده أحمد بن أمير الدين في (٦ رجب سنة ١٠٢٩هـ).

وفي (رجب سنة ١٠٢٩هـ) توفي السيد العلامة علي بن صلاح القاسمي.

محمد بن عبد الله العياني

وفي (٢٥ شوال سنة ١٠٢٩هـ) توفي بشهارة السيد العالم المجاهد محمد بن عبد الله بن علي بن داود بن علي الحكيم بن عبد الله بن عسكر بن مُهَنَّأ بن داود بن مُهَنَّأ بن داود بن القاسم بن إبراهيم بن محمد بن جعفر بن الإمام المنصور القاسم بن علي العياني بن عبد الله بن محمد بن الإمام القاسم الرسي.

عبد الله بن قاسم العياني

وفي (ذي القعدة سنة ١٠٢٩هـ) توفي بسيران الأهنوم السيد العلامة عبد الله بن

قاسم بن يعجب بن محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن محمد بن علي بن نشوان بن علي بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن نشوان بن علي بن الأمير ذي الشرفين محمد بن جعفر بن الإمام القاسم العياني. ثم توفي بعده ولده محمد بن عبدالله.

محمد بن علي حمزة

وفي مطلع البدور أنه توفي باللحية في (ذي القعدة سنة ١٠٢٩ هـ) السيد محمد بن علي بن عبد الله بن الهادي بن يحيى بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن محمد بن الإمام يحيى بن حمزة. وكان عالماً كبيراً استأجره المؤيد لتأدية ما أوصى به أبوه الإمام القاسم من الحج، فلما وصل إلى اللحية توفي.

ومن الخاتمة، النتائج والتحليل للكاتبة (أميرة علي المداح) قولها:

بفضل ما تميزت به شخصية الإمام القاسم جعلت له القدرة على إقامة هذه الدولة الرسية الزيدية. فقد كان شديد العزيمة قوي الإرادة صبوراً على المكاره قائماً بالعظام، وليس أدل على ذلك، مما تحمله من الأذى والمشاق في سبيل نشر دعوته؛ لأن ذلك لم يكن بالأمر السهل كما أوضحنا من قبل، وقد رأينا كم من العقبات والانتكاسات صادفته.

فكان ينتقل من مكان إلى آخر يلتمس الأعوان والأنصار، وكان العثمانيون يضيّقون عليه الخناق ليستسلم دون جدوى، كما أن سنان باشا عرض عليه بعض البلاد ليحكمها مع كفايته هو وأولاده لكي يكف عن دعوته، فلم يرض الإمام بذلك؛ لأن هدفه كما قال هو لم يكن امتلاك الأراضي أو الحكم، كما أن القبائل كثيراً ما كانت ترفض إقامته لديها خوفاً من بطش العثمانيين، وكان الإمام يتقبل هذه الأمور بتجلد وصبر ويدعو الله محتسباً، ومثال ذلك حين دبّ الرعب في قلوب القبائل بعد أسر ولده الحسن في بلاد عذر وظليمة والأهنوم وبلاد صعدة. وفي هذا يروي لنا السيد عبد الله الغرباني قوله: «كنا مع الإمام في نواحي حور فاتخذ موضعاً خالياً وتوارى في بعض الشعاب ثم كشف رأسه ودعا الله سبحانه بدعاء وبكى كثيراً»، وهناك الأمثلة العديدة الدالة على تحمله المشاق، فقد فقد نعاله أثناء خروجه من شهارة (سنة ١٠٠٩ هـ) متخفياً من العثمانيين، فكان يربط بعض ثيابه على أقدامه ليتابع سيره في المناطق الجبلية الوعرة إلى برط.

هذا بالإضافة إلى إيمانه الشديد بالله الذي تميزت به شخصيته، وذلك يرجع إلى النشأة الدينية التي نشأها، ويظهر ذلك جلياً في خطاباته التي كان يرسلها إلى الناس كافة، أو إلى أولاده وولاته في البلاد، فكثيراً ما كان يبدأها بآيات قرآنية مطابقة للغرض من هذه الخطابات.

فمن كتبه إلى أهل وادعة حاثاً على الجهاد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١١، ١٠].

ومن كتبه لأصحابه: ((إذا عزمتم فتوكلوا على الله وآتقوه وحافظوا على الصلاة ولا ترضوا منكراً ينصركم الله وتواضعوا لله وتيقنوا أن ليس النصر إلا من عند الله)). كما يظهر تمسكه بالدين وإيمانه بالله في توجيه أبنائه، فقد أوصى ولده محمداً بقوله: ((إني أوصيك ألا تترك القرآن يوماً واحداً، ولو في كل يوم جزئين أو جزءاً واحداً، ولا تترك ذلك أبداً، وعليك بصلاة الجماعة، فإنها من الواجبات ولا يغرك قول من يقول: إنها سنة، وعليك بملازمة العلم وطلبه، فإنه من أكبر الفرائض)).

وهناك العبارات الدالة على شدة إيمانه بالله، فعندما سُجِنَ ابنه الحسن قال: ((أنا قد أودعت ولدي الله سبحانه وتعالى، وهو لن تخيب لديه الودائع، وإني أتركه وديعة حتى يفرج الله عنه))؛ وذلك لأن العثمانيين منعوا إطلاقه من السجن ورضوا بإخراج سائر المسجونين في صلح (سنة ١٠٢٨هـ) كما سبق.

كذلك كان إذا هزم أو تعرض لأذى ينسب ذلك إلى تقصيره في حق الله، فقد قال لأصحابه أثناء حروبه مع جعفر باشا: ((أترون هذه الشدائد؟ إنما أئتنا من قبل تقصيرنا في حق الله، فهلموا نستغفر الله العظيم)).

وكان محارباً وسياسياً محنكاً، فكان يقاتل بالبندقية وهذا شيء عظيم بالنسبة لذلك الوقت؛ لأنه كان شيئاً حديثاً، وكان استعمالها مقصوراً على أرباب الدولة العثمانية. كما تظهر قدرته الحربية في مهاجمة قوات العثمانيين ومناوشتها دون التصادم معها، وهو ما يعرف الآن بحرب العصابات التي تعتمد على الكر والفر السريع، وعلى عدم الصدام

الجماعى بالجوش النظامية، بل تعتمد على الجهود الفردية وتكبيد العدو أكبر قدر ممكن من الخسائر، وقد استغل هذه الطريقة لمعرفة أصحابه بطبيعة أقاليمهم، وعلى خفة حركتهم ومرونتهم التى تمكنهم من الاختفاء السريع بعد إلحاق الضرر بعدوهم.

وكان الإمام كثيراً ما يلجأ إلى جبال حصينة، مثل شهارة وبرط التى يصعب على العثمانيين نقل عُددهم الثقيلة إليها، كما يصعب على خيولهم صعودها، كما تظهر حنكته السياسية حين هرب إبراهيم بن المعافى بمعاونة بعض رجال أهل شهارة، وكان الإمام قد احتجزه بعد إعادة فتحه لها (سنة ١٠١٥هـ) ليُخرج به ولده محمداً من أسر كوكبان فتظاهر الإمام أنه هرب بنفسه من غير إعانة أحد، وتظاهر بالتفتيش عنه رغم معرفته بمكانه؛ وذلك لكي لا يثير القلاقل بشهارة بعد أن تسلمها، ولكي يتمكن على قبض المعافى وتحقيق غرضه.

ومن حسن سياسته تعظيمه لعبد الرحيم رغم معرفته بخداعه وشراسة أخلاقه أن يكسبه أمام السامعين إلى جانبه، لتخلص موالئهم وتحقق ما رمى إليه؛ إذ تشجعت القبائل على الإعلان عن أنفسهم دون خوف من عبد الرحيم الشديد ومن العثمانيين، كذلك استخدم المال في تقريب بعض القبائل، كما كان يذكر القبائل بما ارتكبه العثمانيون من أخطاء ومظالم، وكانت كتبه إلى القبائل تمتلئ بذلك، فقد وجدها مادة غزيرة لتقوية مركزه، وكان كثيراً ما يلجأ إلى رفع الروح المعنوية لدى أتباعه بإشعال النيران في الجبال؛ لإعلان انتصاره وإرهاب العثمانيين؛ إذ كانت العادة أن القبيلة المنتصرة تشعل النار لإعلان فرحها وسرورها بالنصر، ففعل ذلك عندما تمكن من الخروج من شهارة إلى برط (سنة ١٠٠٩هـ).

كما تحلى القاسم بصفة الشفقة والرحمة، فكان يتفقد المساكين من حين لآخر، كما شملت رأفته الحيوانات، فقد قال لأحد أصحابه عندما دخل شهارة في (سنة ١٠١٥هـ): يا قوم هاهنا بقية هرر من سناجيب العجم قد بلغت من الجوع ولا تأكل العنب تأذنوا بتفريق هذا لها، يعنى قطعاً من اللحم.

هذه أبرز سماته التى مكنته من وضع أسس الدولة القاسمية التى استمر نغوها في عهد أبنائه من بعده إذ استطاعوا إخراج العثمانيين (سنة ١٠٤٥هـ سنة ١٦٣٥م) وكانت

أسس هذه الدولة مبنيةً على تعاليم الدين الإسلامي الخفيف والسنة النبوية الشريفة، فقد أقام الإمام الحدودَ على السارق والزاني وشارب الخمر وغيرهم، وقضى على البدع والخرافات التي انتشرت، وطلب من الأهالي التمسك بأهداب الدين ومحاربة العادات المنتشرة بينهم، فقد أمر بقطع شجرة كان الأهالي يتقربون إليها بالذبائح، كما كان يمنع الناس من إقامة القباب على الأضرحة؛ لأن ذلك من البدع التي ابتدعتها الأهالي لتعظيم الموتى، وكان إذا فتح بلدة أراق ما بها من أدنان الخمر، ففي فتحه الثاني لشهارة (سنة ١٠١٥هـ) وجد بها الخمر باقية، فأمر بإزالتها، وقد نشر العدل وحرص على إقامة الجماعة.

وكان يشاور أصحابه في جميع الأمور في الحرب والسلم، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينصر المظلوم من الظالم، ويرعى الفقير والغني على السواء، ولا يأخذ من الرعية من الخراج إلا ما يوافق هواهم كل على حسب قدرته.

بهذه الدعائم بنى دولته التي قويت في أيام ابنه المؤيد الذي تسلم الحكم عن طريق الاختيار، وليس بالنص؛ لأن التوريث ليس من مذهب الزيدية، وذلك يدل على خلوص اليمن من إمام قوي ينافس المؤيد وإلا لانضم إليه البعض.

وتميز حكم المؤيد بالاستقرار، فأخذ يقوي قبضته داخل ممتلكاته، ثم بدأ خطوته التالية لإخراج العثمانيين من اليمن بمعاونة إخوته أحمد والحسن والحسين، واستولى على المناطق الشمالية بعد نقض الصلح، ولم يبق بيد العثمانيين إلا حصنا ثلاً وعمران، كما لم يبق بأيدي حلفائهم آل شرف الدين غير حصني كوكبان والطويلة، حتى هذه الحصون لم تمكث طويلاً فتساقطت. وكان الأمير عبد الرب بن علي بن شمس الدين أمير كوكبان الباقي مع العثمانيين قد اضطر أخيراً إلى التسليم للإمام المؤيد في (٢٥ رجب سنة ١٠٣٦هـ) فأبقاه الإمام على ولايته بكوكبان، وأصبح مع أسرته من أكبر أعوان الإمام المؤيد وحاربوا الأتراك إلى جانبه.

وبعد ذلك أخذت الأقاليم اليمنية تخلع طاعة العثمانيين وتطيع الإمام، ودان أشراف صبيا وجيزان والجوف للإمام مقابل إبقائهم في مراكزهم، وصاروا من أعوان الإمام لا سيما شريف الجوف، الذي استولى على تعز بمعاونة الحسن بن الإمام، كما لجأ أمير ذمار

التركي إلى الحسن لاختلافه مع حيدر باشا، فبقاه الحسن في ولايته، واستعان به في قيادة بعض قواته، ثم اتجه الحسن إلى تشديد الحصار على صنعاء (سنة ١٠٣٦هـ) مدة سنتين حتى اضطر حيدر باشا إلى الاستسلام في (رجب سنة ١٠٣٨هـ سنة ١٦٢٩م).

وبعد سقوط صنعاء اتجه الحسن والأمير عبد الرب بن علي بن شمس الدين لإخضاع المنطقة الجنوبية حتى عدن فبسط يده على تعز، ثم سارع أمير عدن إلى الدخول في طاعة الإمام المؤيد. ولم يبق في يد العثمانيين سوى زبيد والأقاليم التهامية المحيطة بها مما أثار الرعب في قلوب العثمانيين، فأرسل والي مصر إلى والي الحبشة بالتوجه إلى اليمن لنجدة العثمانيين، فوصل عابدين باشا إلى ميناء المخا على رأس ألف جندي (سنة ١٠٣٧هـ سنة ١٦٢٧هـ)، ولكن عابدين باشا، فشل في إنقاذ موقف العثمانيين، فظل في المخا حتى تقدم الحسن إليه فحاصره، فما كان من ولاية مصر إلا أن أرسلوا قانصوه باشا ففشل ولقيت جنوده هزيمة في آخر رمضان (سنة ١٠٣٩هـ سنة ١٦٣٠م)، وهرب قائد جيشه مذعوراً قبل بدء القتال، مما اضطر قانصوه إلى طلب الصلح لمدة سنة، وتم ذلك (سنة ١٠٤٠هـ سنة ١٦٣١م).

وقد رأى المؤيد وإخوته أن في عقد الصلح فرصة لتنظيم شؤون البلاد للاستعداد للضربة الأخيرة للعثمانيين، فقد قام الحسن بتفقد البلاد وإصلاح الحصون والقلاع وتوفير ما يلزم من السلاح والعتاد لجميع الجيوش في الأقاليم المختلفة، ثم قضى الحسن على الاضطرابات حول عدن حتى لا ينتهز العثمانيون الفرصة لاسترجاعها، هذا في الوقت الذي كانت قوات العثمانيين تتمزق من الاضطراب وقلة النفقات.

[أول خروج للعثمانيين من اليمن]

ثم تجدد الحرب ثانية (سنة ١٠٤٣هـ)، ولم يحرز قانصوه، أي انتصار مما اضطره إلى طلب الصلح سنة ثانية، فوافق المؤيد بالرغم من معارضة أخيه الحسن؛ فعقد الصلح في (٢٠ محرم سنة ١٠٤٥هـ سنة ١٦٣٥م)، إلا أنه بعد عقد الصلح بشهر تحايل قانصوه وهرب من زبيد إلى الحسن وسلم نفسه له لتمرده جنده وتعتديهم عليه، فأكرم الحسن وفادته حتى غادر اليمن بجرأاً إلى مصر، فتم خروج العثمانيين من اليمن في العشر الأوائل من جمادى الأولى (سنة ١٠٤٥هـ — سنة ١٦٣٥م).

وهكذا تم إجلاؤهم عن اليمن، وأصبح أول ولاية عربية تنفصل عن السيادة العثمانية التي امتدت إلى كافة الوطن العربي ما عدا المغرب، خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، وقد ظل حكم الأئمة الزيديين من أبناء القاسم ما يزيد على المائتي عام حتى عاد العثمانيون ثانية (سنة ١٨٧٢م).

وكان إخراج العثمانيين على يد أولاد القاسم يرجع إلى حسن تربيته لهم على تعاليم الدين الحنيف والتعاون ووحدة الصف وحسن تدريبهم عسكرياً، فقد كان يشركهم في المعارك منذ نعومة أظفارهم، إذ خرج الحسن للقتال وهو في الخامسة عشرة، وكذلك أخوه محمد تعرض لأشد الأزمات أثناء حصار شهارة (سنة ١٠٠٩هـ - سنة ١٦٠٤م)، ولم يرض بخروجه رغم أن أصحاب والده جاءوا لإخراجه هو وإخوته حرصاً منه على أرواح أهل شهارة، حيث قال: ((لقد وهبتُ نفسي لله سبحانه ولمن في شهارة المحروسة بالله مع المسلمين والعلماء والمستضعفين، وأن الإمام لم يأمرني بالخروج، وفي بقائي سلامة لمن في شهارة))، هذه الكلمة تظهر أثر التربية الصحيحة وحرص الولد على تنفيذ أوامر والده الذي هو بمثابة قائده العسكري.

وقد أرسل الإمام لابنه أحمد خطاباً حين ولاه صعدة في (رجب سنة ١٠٢٧هـ - سنة ١٦١٧م)، منه قوله: ((استخرتُ الله سبحانه وتعالى وجعلتُ للولد صفي الدين أحمد ولاية صعدة وبلادها وما والاها من البلاد يُقيم فيها الجمعيات، وَيَقْبِضُ الحقوقَ والواجبات، وَيُقيمُ الشريعةَ المحمديةَ، ويقسم في الناس بالسوية، وَيُنصفُ المظلومَ من الظالم، وَيُؤدب أهل الجرائم، ويأمر بالمعروف وَيَنْهى عن المنكر، وَيُوفِّرُ الحقوقَ وَيَجْعَلُها حيث نأمره به، والامتثال لما قلنا والاستفهام لنا فيما التبس عليه من الأمور وعلى إزالة البدع والمنكرات، وعليه العمل بتقوى الله والتواضع وتقريب أهل الفضل والحث على طلب العلم، واقتاد المساجد والمصالح والطرق وإقامة الشريعة وتنفيذها وتعهدنا، وإبطال الأحكام الخارجة عن الشريعة)).

هذه كلها وصايا ثمينة، فلم يترك جانباً إلا وأوصاه به حتى طلب العلم.

ومن وصاياه لأولاده: ((اتقوا الله يكرمكم الله وصلوا أرحامكم يُطِلَّ الله أعماركم وبارك في أموالكم، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، إياكم ودماء المسلمين، فإن

تبعاً في الدارين عظيمة، وأصلحوا المآل، وأكرموا الضيف بما تجدون، ولا يكن لكم عن طلب العلم مانعٌ يستغرق أوقاتكم، ولكن قسموا أوقاتكم واجعلوا خيرها وأكثرها في طلب العلم إلا ما كان لا بد منه في إصلاح حالكم».

فعلهم الحنكة السياسية، مثلما فعل محمد مع الباشا محمد بعد وفاة والده لاستمرار الصلح لاستقرار حكمه في بدنه، وأهدى للباشا كتاب الكشف كما تعلموا من والدهم طريقة التخفي في الخروج من بلد لآخر، وفي إرسال الخطابات بأسماء تعطي المعنى دون التعرف عليهم لحماية أنفسهم وهي طريقة الشفرة المعروفة حديثاً، فقد أرسل الإمام ليطمئن على ولده الحسن عندما أسر في الدار الحمراء أحد رسله متخفياً في زي قهوجي، حيث وضع في إناء القهوة ورقة لمعرفة أحوال الحسن فقرأ الحسن الورقة ورد عليها بتوقيع موسى بن علي قائلاً: إن لكل فرعون موسى فأنا موسى الترك وابن علي يريد جده علياً رضي الله عنه.

[موحد الدولة اليمنية إسماعيل بن القاسم]

وقد اتسعت دولتهم خاصة في عهد المتوكل على الله إسماعيل، إذ امتدت حتى عُمان، وفي (سنة ١٦٤٤م) امتدت حتى شملت الحج وعدن وحضرموت والشحر، وكان عهده أزهى عهد الإمامة الزيدية، فقد كثرت الخيرات وازداد عدد العلماء والمتعلمين، فحكم الإمام المتوكل إسماعيل ٣٣ سنة لم يحدث خلالها أي اضطرابات، وكانت تصرفاته يغلب عليها العدل والسخاء والحكمة والدهاء والبراعة في الإدارة وحسن اختيار الولاة، وقواد الجيوش وحماة الأطراف وسن الأنظمة، ومع هذا فقد كان أستاذاً في فنون العلم كرأس أوقاته اليومية وقصرها على أمور ثلاثة إدارة شؤون البلاد، وتدريس العلم لتلاميذه الذين يغدون إليه من الآفاق حتى أصبح معظم علماء عصره من خريجي مدرسته، بالإضافة إلى العبادة والذكر، كما أنصف الحسن بالشجاعة والإقدام، وقيل عنه: إنه نظير المطهر بن شرف الدين أو أرفع منه في الشجاعة والرياسة.

وقد أقامت الدولة علاقات ودية مع الدول المجاورة لها، مثلاً بلاد الحبشة، فقد أرسل الإمبراطور فاسيلاداس Fasladas إمبراطور الحبشة، بعد قطع علاقته مع أوروبا وبعد أن أخذ يتلمس طريقاً للاتصال بالمسلمين ليقم معهم علاقات سياسية وتجارية، فأرسل

للإمام المؤيد (سنة ١٠٥١هـ ، ١٦٤١م) وفداً محملاً بالهدايا الثمينة ليعقد معه معاهدة ودية تسمح للحبشة باستعمال موانئ اليمن بعيداً عن الموانئ التي تقع تحت سيطرة الدولة العثمانية، وقد أعاد الإمبراطور الكرة مرة ثانية في عهد الإمام المتوكل على الله إسماعيل (سنة ١٠٥٧هـ سنة ١٦٤٧م)، ولكن لم تذكر المصادر هل تمت هذه المعاهدة أم لا؟

هذا وقد ظهرت نهضة علمية في عهد الدولة القاسمية بدأت في عهد الإمام القاسم وحمل لواءها بعده أولاده الذين أكثروا التأليف، إذ كان القاسم كثير التأليف حتى في أثناء خوض المعارك، ففي أثناء احتفائه في برط ألف كتابه (الأساس) في أصول الدين في مجلد ضخيم، وقد قال فيه هذين البيتين:

هذا الأساس كرامة فلقه يا صاحبي بكرامة الإنصاف
واحرز نفيساً من نفائس ذره جمعت بغوصي في خضم صافي

وقد شرحه جماعة واعترضه الكردي المكي (بالنيراس) فأجابه إسحاق العبدى (بالاحتراس) فكانه أوجد حركة فكرية، وكان الأساس مرجع الزيدية، كما ألف في النحو (التحفة) وله (الإرشاد في معرفة أعمال العباد) وبعدها استقر بشهارة ألف (الاعتصام) في فقه السنة، جمع فيه بين كتب أئمة آل البيت وكتب المحدثين كالأهميات الست وغيرها، ورجح في كل مسألة بما يقتضيه اجتهاده، ولكنه توفي قبل إكماله، فوصل إلى آخر كتاب الصيام، فأكماله من كتاب الحج إلى آخره السيد أحمد بن يوسف بن الحسين بن أحمد زبارة، المتوفى (سنة ١٢٥٢هـ)، وسلك في تتمته مسلك الإمام القاسم، فجاء كتاباً نفيساً سماه (أنوار التمام المشرقة بضوء الاعتصام) في مجلد ضخيم، وقد بلغ من أهمية الاعتصام والأساس أنهما أصبحا من أهم مصادر الفقه والأصول حديثاً، وله (التحذير من المعاونة على الفتنة) الذي رد فيه على علماء أصدرت فتوى بجواز مداراة الظلمة، وله (الجواب المختار على مسائل عبد الجبار).

وقد برع الإمام القاسم في إنشاء القصائد الشعرية، فله قصيدته المشهورة في الإنكار على الصوفية، وأعمالهم القبيحة سماها (الكامل المتدارك في بيان مذهب المتصوف الهالك) منها:

قد أفسد الأقوام نمة أحدثوا بدعاً تخالف آل أحمد عن يد

وَيَرى المساجدَ لا يقوم برُكعة
إلا لشخصٍ قاعدٍ منتهَد
يا رب الحَقني غداً لمسيرتي
إن كان إغراق الزنادق في غد .. إلخ.

ولما ظهرت قصيدته شكاً الصوفية إلى سنان باشا، فأمر الشريف محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين أن يجيب عليها، فأجاب القاسم على الجواب بقصيدة سماها (حتف أنف الآفك) منها:

الحق أبْلج واضحٌ للمهتدي
يَهدي إلى سِنن السبيل الأَقصد
والدين قد وضحت معالمه وضو
ح الشمس لا تخفى على المسترشد .. إلخ.

ومن قصيدته والرد عليها ثم رده على الرد نستنتج بأن هناك انتعاشاً في حركة التأليف في عهده، وله أشعار في مناسبات أخرى منها:

بتضييع حق الآل في الناس أجمعاً
تضعُض دِينُ الله حتى تَضِيْعاً
وأضحى كتابُ الله فيهم مُهَجَّراً
وبدَّله الغاؤون شعراً مُصَرَّعاً
وسنة خير الرسل في الناس أُهْمِلت
وأضحت صنوفُ اللهو مُجْجاً مُشِيْعاً .. إلخ.

ومما قاله في إحدى مرات اختفائه:

ألا يا إلهي إني لك خاضع
وإنك رحمن رحيم وواهب .. إلخ.
وإني في الإحسان منك لطامع
لخلقك آلاءَ ففضلك جامع

وفي أثناء تخوفه بمرط قال قصيدته (استفتاح الفرج) منها:

يا حيّ يا قيوم يا غوث الذي
يا من يجير بفضلِه مستضعفاً
يشكو إليك من الذي قد جارا
مستصرخاً متضرعاً لك جارا^(١)

(١) سبقت كاملة.

وله نظم في المواعظ والزجر والعلوم، منه:

يا ذا المريد لنفسه تبيتاً ولدينه عند الإله ثبوتاً
اسلك طريقة آل أحمد واسألن سفن النجا أن يسألوا ياقوتاً
لا تعدلن بآل أحمد غيرهم وهل التراب يشاكل الياقوتاً

وله إلى السيد عبد الله بن علي المؤيدي لما عارضه منها:

إن كنت تبغي هدم دين محمد فأنا المريد أقيم به بدعائم
أو كنت تخطط في غيابة باطل فأنا المزيل ظلامها بعزائم
لولا اشتغالي بالحروب وأهلها لو جدت نفسك لقمة للأقم

وقد رثى عمه عامراً وغيره بقصيدة ورثى ابنه علياً لما قُتل في موقعة الشَّقَبَات.

وبذلك نرى الإمام القاسم قد حمل لواء النهضة العلمية في عصره، وأكملها أولاده، فقد أخذوا العلم عنه وعن كبار العلماء كالشيخ لطف الله بن محمد الغياث وغيره، وفي أثناء أسر ولديه محمد وأحمد وغيرهما بكوكبان أحرزوا ينابيع العلوم؛ لأنهم حبسوا مع أعيان العلماء ست سنوات، فاشتغلوا بالدرس، وقد نبغ أولاده في العربية والفقه. والحديث والتفسير ولهم مؤلفات.

ألف الحسين (الغاية) في أصول الفقه. وصفه الشوكاني قائلاً: «هذا الكتاب أصبح مدرّس الطلبة وعليه المعول، وهو كتاب نفيس يدل على طول باع مؤلفه، فقد ساق فيه الأدلة سَوْقاً حسناً».

وقد ألفه أثناء خوضه المعارك ضد العثمانيين مع إخوته، وألف إسماعيل بن القاسم (الدين النصيحة في العقيدة الصحيحة) وشرحها و (المسائل المرتضاة إلى جميع القضايا) ووضع حاشية على (المنهاج) للإمام المهدي في أصول الفقه، وجمع أربعين حديثاً تتعلق بمذهب الزيدية وشرحها، وله رسالة في التحسين والتقبيح.

ولا ننكر أن للعثمانيين باليمن أثراً في انتعاش الفكر والتأليف لسهولة اتصال اليمنيين بالخارج، ولقيام النزاع بين علماء السنة والشيعة؛ إذ كان كل من المتنازعين ينحسب إلى جانب، وكان العثمانيون يمنحون المنحازين إليهم الهبات، أو يولونهم المناصب لإغرائهم

على الوقوف لجانبهم فمهد الوعي وأدّى لأن تُظهر الإمامة الزيدية قوتها على العثمانيين حتى الصلح ثم إخراجهم من اليمن (سنة ١٠٤٥هـ، ١٦٣٥م).

هذه الحضارة ظهرت في مثل مخطوطات الجرموزي النبذة المشيرة، والشرفي اللآسئ المضئية، ولو نظرنا إلى نظم الدولة القاسمية لوجدنا أنها وصلت إلى مستوى جيد بالنسبة لمستوى عصرها، وقد وجد اليمينون أن آلات الحرب التي في حوزتهم غير كافية لملاقاة جيوش العثمانيين الجرّارة بأحدث أسلحتها، بالرغم أن المماليك عند دخولهم اليمن كانوا يعملون من هذه الأسلحة إلا أنها كانت قليلة لقصر مدة حكمهم الذي لم يتعد في أغلب الأحيان منطقة زيد، ولكن اليمينيين حصلوا على كثير من أسلحة العثمانيين النارية، فكانوا ينقلونها إلى حصونهم وخاصة المدافع الكبيرة فتشجعوا على الوقوف في وجه العثمانيين بعد أن كانوا يخشون مواجهتهم في بداية الأمر.

واستخدموا في تلك المدافع الجنود العثمانيين المتمردين والفارين إلى الأئمة، خاصة في عهد المؤيد. وقد أجاد اليمينيون التحصن في الجبال وتحت الصخور والحجارة، كما استخدموا الزبارط وهي آلة حربية ضخمة تستخدم في رمي النفط وغيره من القذائف، وبعد أن تعلموا استعمال البنادق أخذوا يصنعون البارود والرصاص، ففي (سنة ١٠١١هـ) أثناء وجود الإمام في برط، استخرج الرصاص من خمسة معادن فكثرت خزائنه بالبارود، كما أن محمد باشا في (سنة ١٠٢٥هـ) وضع حراسة مشددة على جبل الكبريت؛ لأن أصحاب الإمام كانوا يصنعون البارود منه، مما جعله غالي الثمن.

ومن طرقهم في الحرب طرق التسلل والتخفي، ففي أثناء خروج الإمام من شهارة (سنة ١٠٠٩هـ) خرجوا دفعات مُتخفين، فخرج الإمام والفقير علي الشهاري، ثم أتباعه على دفعات، ثم أبناه الحسنان.

أما تموينهم فأكثره العنب أو من النذور، فكانت القبائل تقدمها إلى الإمام وأصحابه مع اللحوم. أو يأكلون الأرز حيث كان الإمام يقيم مخازن لها.

أما أسرى الحرب، فكان الإمام يوزعهم على القبائل لينتفعوا بهم في أعمال الزراعة، وعند المصالحة يفتديهم أسرى اليمينيين بعد أن يكسوهم ويزودهم بالطعام والزاد، كما فعل في صلح (سنة ١٠٢٨هـ).

أما الإدارة فقد كان يولي أصحابه، فقد وُلّي بالأهْنوم السيد عبد الله بن محمد بن علي المحرّابي، وبلاد شظب وظليمة السيد إبراهيم بن جحاف، وبلاد الظاهر السيد صالح بن عبد الله الغرباني، وبلاد ثلا وما يليها كبني قنيل وبني حيش، وبلاد عفار وكحلان، وبلاد مدع واليون عين السيد شرف الدين الحسن بن شرف الدين الحمزي الكحلاني، وولى بلاد الحيمة وما والاها وجبل تيس عمه السيد عامر بن علي، وعلى بلاد مسور وقراضة ولاعة وما يليها السيد أحمد بن محمد المحرّابي، وولى حجة وما يليها السيد أمير الدين بن عبد الله بن نمشل، وبلاد الشرف وجهات الحُقار السيد أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي، وولى بعض جهات خولان صعدة السيد محمد بن صلاح القطابري، وبلاد خولان صنعاء وما يليها الحاج أحمد عواض الأسدي، ولما شب أولاده كان يعين منهم كذلك، فقد عين ولده أحمد على صعدة (سنة ١٠٢٨هـ).

بعد عقد صلح (سنة ١٠١٦هـ) أخذ الإمام في تعمير الأراضي الزراعية، فبنى وادي صومل - وهو واد معروف في جانب عذر الغربي - حيث استقر فيه مدة، وأمر بزراعته وغرس البن والعنب فيه، وكذلك الأرز والذرة، وكذلك في وادي وعر، وأعمال بطنة حجور فكثّر إنتاجه وظهر انتعاش الزراعة في تلك الفترة، حتى أصبح دخل الدولة القاسمية منه أكثر من دخل بيت المال من المواد الأخرى، كما أن الوافدين للدراسة في المدرسة المنصورية كانوا يأكلون من ثمار هذه المزروعات مثل الآرز.

أما بالنسبة للنظم العمرانية فإن أول ما عمر الإمام قرية الهجرة في بمرط (سنة ١٠١٠هـ) وحفر بئراً وبني مسجداً، كما أسّس جامع شهارة في (٤ محرم سنة ١٠١٥هـ)، وانتهى من إنشائه في العشر الأواخر من محرم (سنة ١٠١٨هـ)، وكان الإنفاق على بنائه من النذور التي تقدم للإمام، وقد ساق حجّارته من خارج شهارة، وبه منهل ومنازل للقراء.

وبعد استقرار الإمام في شهارة كان يُدرّس فيه طلبة العلم، فأصبح مركزاً علمياً شهيراً، كما أسّس السمسرة في مدينة الهجر وهي عظمة البناء، فإن أهل النظر في الحائر يقولون: إن هذه السمسرة وأساطين جامع شهارة الكبير وعقودهما من عجائب اليمن، وقد وقف الإمام دخل هذه السمسرة على مسجد شهارة ومسجد الهجر الذي أسسه

بعد ذلك، وقد عمر الإمام طريق المدرج إلى شهارة الفيش للجمال والخييل إلى قمة الجبال وأقام الخوانيت والبيوت والسوق وأنشأ السمسرة التي في سوق الثلوث والمسارحة، فإنه أبدع في بنائها، وتمت عمارتها على أحسن حال مع سعة فيها وإحكام، وقد أسس المسجد المعروف بمسجد علي بن الإمام في مدينة صعدة.

لم تقف الأعمال العمرانية على عصر الإمام القاسم، فقد شارك أولاده في هذه النهضة العمرانية في حياة والدهم وبعده، فقد عمر الحسن بن القاسم بعض الحصون التي خربها سنان باشا، وعمر الحسين السمسرة في شهارة الفيش والأسواق حولها، وقد اختط الحسن مدينة ضوران، فبنى بها حصوناً وأقام الأحواض حولها، وأصلح الأراضي وغرس الفواكه، فأصبحت مدينة عظيمة بأسواقها وحماماتها ومساجدها، وأمر كل أمير من أمرائه أن يبني بها بيتاً، وعمر ما حولها من القرى، وقد دفن الحسن بمدينة ضوران إلى جانب مسجده (سنة ١٠٤٨ هـ)، كما عمر أحمد بن الإمام جامع الروضة المشهور. وقد اختط الحسين مدينة الحصين التي عمرها تحت حصن الدامغ (سنة ١٠٤١ هـ)، وأقام بها عمارة عظيمة وأجرى الماء وغرس الأشجار.

أما الإمام المؤيد فقد عمر المسجد الجامع في مدينة أقرم جامعاً كبيراً وأجرى السقاية تحته وأنشأ البركة، وبنى السوق في مدينة أقرم وحفر بئراً كان عليها مدار الناس كلهم حيث كان ماؤها غزيراً، وكان هذا الموضع قليل الماء، كما مهد الطريق بين أقرم وشهارة وسهلها للجمال والخييل.

أما بالنسبة للجانب العلمي فقد كانت المساجد والجوامع هي المدارس لقراءة القرآن والحديث والتفسير والفقه، وكان القاسم وأولاده يقومون بالتدريس إلى جانب مهام الحكم، وخاصة المتوكل إسماعيل حتى وصلت الدولة في عهده إلى ذروة العظمة والتنظيم، فلم يكن له هم إلا الاشتغال بالعلم والتفكير في أمور الرعايا، فأمنت السبل في أيامه ورخصت الأسعار ولم يتمكن أحد من ظلم آخر في ولايته، ولم يجسر أحد من عماله على الظلم، وتردد التجار لسائر الأقطار، فانشرح الناس لحكمه خاصة وأنهم كانوا قريبي عهد بالاضطرابات والحروب في عهد العثمانيين.

من هذا العرض نصل إلى أن حكومتهم كانت شيئاً إيجابياً على جانب من التنظيم

الذي أساسه طاعة الأفراد وصلاح الإمام، وهذا ما يجعلنا ننفي الفكرة الشائعة بأن الإمامة عبارة عن سلب ونهب أو كما صورها بعض الكتاب على أنها مجرد صراعات.

انتهى النقل باختصار من رسالة (أميرة على المداح).

(سنة ١٠٣٤هـ) فيها ظهرت جراد كثيرة في جهات اليمن، وروي أنها أكلت طفلاً ورجلاً مريضاً في بلاد أملح لم يستطيعا أن يذبا عن نفسيهما، ودخل الدبا مدينة صعدة وملاً طرقاتها ودخل الخوانيت والبيوت.

وبعد سفر الباشا أحمد فضلي وصل إلى صنعاء الباشا حيدر فأقبل على اللهو والشراب، وفتح للناس هذا الباب حتى لقد بيع الخمر جهاراً في الأسواق، وكان لليهود سوق بالروضة يبيعون فيه الخمر، وكان حيدر باشا وجنوده قد انهكموا في اللذات، وكان يخرج إلى وادي ظهر فيشرب الخمر هناك جهراً ويعود على العربة تجرها البقر، وهو سكران ومعه عيال الخزانة، وتارة يخرج إلى حدة بني شهاب ويقعد في المفرج الذي بناه فوق ماجل حدة، ويأمر عيال الخزانة يلعبون في سنبوق فوق ظهر الماء وهم عراة وهو يتفرج عليهم، واقتدى به كثير من الأمراء والناس، وكان سبب زوال دولته.

واتفق أن دخل مرة من حدة فرمى بدبوسة على ناس في المحوكة في باب اليمن.

وفيه خالف أهل حفاش وملحان على عاملهم الأمير محمد الملقب (مقلع الأسنان)، فقتلوه وسبب ذلك أنه كان يشرب الخمر، فدخل المشايخ للسلام عليه يوم الجمعة، فقال: ما موجب وصولكم؟ فقالوا: للسلام، فقال: نطبيكم فحل (تكّة) سرواله وبال عليهم، فأجمعوا عليه وقتلوه.

وفي (سنة ١٠٣٥هـ) غزا الحسن بن القاسم إلى جهات فيفا، فاستفتحها وتلك الجهات من بلاد المرقبان.

وفاة علي بن الحسين المسوري

في (سنة ١٠٣٥هـ في ١٠ ذي القعدة)، توفي بصيبا القاضي العلامة الأديب علي بن الحسين بن محمد المسوري متوجهاً إلى الحج - حكاة في مطالع البدور - وكان قد أخذ العلم بصنعاء وغيرها وسكن الشرف، ومن شعره ما كتبه على كرسي مصحفه

على لسان الكرسي:

صرتُ على شقي بنشرٍ وإن لي
فحوزيَ جنات النعيم بصره
وصرتُ خليل الأتقياءِ ولم أزل
ورثي الإمام القاسم بقصيدة أكثر من سبعين بيتاً منها:

ولكن رزء القاسم بن محمد
إمام بني الزهراء درة تساجهم
خضم العلوم الزاخرات وشمسها
هو العلم الهادي إلى الحق والذي
هو الغيث غيث المرملين ومن له
أقام قناة الدين بعد اعوجاجها
وأطفأ نار الظلم بعد التهاجم
وقاد لحرب المبطلين كتاباً
وأعمل في حرب البغاة نوافذاً
وقام بأمر الله جل جلاله
ولا راعه ملك العدو وقهره
أباً كان للأيتام يحنو عليهم
يفيض عليهم سحب فيض نواله
وإن نزل العافون سُدة بابيه
وإن أبصروا يوماً بياض جبينه
فمن علمه تُملسى عليهم مسائل
فيشفي سقيم الجهل ترياق علمه
ويحتقر الدنيا احتقار مُحربٍ

هو الرزء لا ما تدعيه التواكلُ
وحاميهم إن حُوربوا والمناضل
إذا أشكلت يوماً علينا المسائل
به يهتدي مَنْ حيرته المجهل
أناملُ غرٍّ سحْبهن هواطل
وشيد من بنيانه وهو مائل
وأهلك أسد الكفر وهي صوائِل
تغطي شعاع الشمس منها القساطل
من الرأي لا تُبلي بلاها الجحافل
ولم يثنه عن نصرة الدين عاذل
ولا صدّه عنه خوؤنٌ وعاذل
فما لهم إلاه كافرٍ وكافِل
إذا أخلفتهم عن نداها المخايل
تلقّتهم قبل التُزول الفضائل
تجلست غمومٌ عنهم وبلايل
ومن جوده تحري عليهم جداول
وتُحيي قتيلاً الفقر منه النوافل
يرى أن ما فيها - وحاشاه - باطل

ولا الملبس الباهي تراه يحاول
يقول أما غيري له اليوم أكل
سروراً به أدت له الخرج بابل
يُهيّب بهم داعٍ إلى الحق حافل
ومن قادمٍ قد أنصبت المجاهل
وذا باسمه يحدو بها وهو قافل
تحلّى بها ذا الخلق لم يلقَ حامل
(فعند التناهي يقصر المتناول)
بك انزاح عنا منه تلك الشمائل
أيقوى بتقليب الشوامخ غاسل
أيا عجباً يمشي بشهلان حامل
وقد كان بحراً ماله الدهر ساحل
ومن ذا بنور الحق عنها يجادل
عراها وخان الدين لصّ مختال
كواكبها وانهدّ منها المعامل
وبالمشرفيات الرقاق يقاتل
إلى أن يهيل التربّ فوقها هائل
وبيني وبين الصير عنك مراحل
ولي من ندى كفيك طلّ ووابل
عليك ودمعي من عيوني سائل
بكم يقتدي في النائبات الأمائل
لقد أشرقت منكم شمس كواامل
ضليع بحق الله في الخلق عادل

فلا لشهي الزاد تطلب نفسه
إذا قدّموا يوماً إليه طعامه
وإن قيل هذا سائل فكأنما
ترى الوفد أفواجاً إليه كأنما
فمن آيب يثني عليه بفعله
فذا باسمه يزجي المطي مؤملاً
صفات له لو أن معشار عُشرها
فدع عنك تعداداً لذكر صفاته
فيا يومه ماذا هدمت من العُلا
ويا غاسليه كيف قمتم بغسله؟
ويا حامله كيف سرتم بنعشه؟
ويا قبره كيف اتسعت لشخصه؟
أبا حسنٍ من للعلوم ونشرها
أبا حسنٍ من للشرعة إذ وهت
أبا حسنٍ من للمعالي قد هوت
أبا حسنٍ من ذا عن الدين يتقي
أنساك - لا والله - يا ابن محمد
أصبر نفسي أن تفيض دموعها
أما كان لي من غير عطفك حافظ
ففارقتني والقلب مني ذائب
وصيراً بني المنصور صيراً فإنما
لئن رُفعت شمس إلى الله منكم
وقام بأمر الله منكم مؤيد

وترجوه أيتام السورى والأراملُ
 وأسمعهم إن ضن بالمال باخلُ
 ولا الطود يحكيه إذا خفَّ جاهلُ
 تحسرك عنه كتبه والرسائلُ
 سيفٌ على أعدائه وذوابلُ
 بعثا إليها عزمه فتساهلُ
 أكابرُ أنباء الرسول الأفاضلُ
 ولبتنه لما دعاها القبائلُ
 وذا صادر يثني الدعا ويواصل
 وحطه فلا تسطو عليه الغوائلُ
 حقيق بما قد قال - من قبل - قائلُ:
 لآت بما لم تستطعه الأوائلُ
 أدافع عنه جاهداً وأنازلُ
 إلههم ما حنَّ عودَ مطافِلُ
 على عنقي قيد المذلة جاعلُ
 لعزتك القعساء يعنو المطاولُ
 غطارفة غرَّ حماة مقاولُ
 بذكر المعالي عنهم من يناضلُ
 وإن بذلوا يوماً فمن ذا يساجلُ
 ولاغروا إن حلوا وأعيت فساكلُ
 يذاد بهم بئس ويخصب ما حل

إمام يهاب الناس سطوة بأسه
 أعزُّ السورى قدراً وأرفعهم علأ
 فلا البحر يحكيه إذا جاء سائل
 وعن علمه فاسأل إذا كنت جاهلاً
 ومن رأيه - والله يكلأ ذائمه -
 إذا امتنعت يوماً علينا مطالبُ
 أهاب إلى نصر الهدى فأجابه
 وأشياعهم أرباب كل فضيلة
 فذا وارد منهم إليه مبيعُ
 فيارب بلغه الذي هو آملُ
 وألبسه تاج المكرمات فإنه
 (وإني وإن كنت الأخير زمائمه
 حماية دين الله جل جلاله
 ونشر علوم الآل صلى عليهم
 وإني لعبد خاضع لجلاله
 ودم يا أبا يحيى مدا الدهر سالماً
 ودائم لنا من إخوة لك سادة
 إذا ما انتدوا يوم المفاخر أحرصوا
 وإن ركبوا يوماً فمن ذا يضاوِلُ
 هم السابقون الخلق في كل غاية
 ودمت لهم كترأ وداموا لنا غنى

وله مناصحاً^(١):

على رغم أهل البغي أيديك الله
وأولاك ما أولاك من أمر دينه
عليك أمير المؤمنين بكل ذي
فشرد بهم من خلفهم وأذقهم
تصفح أمير المؤمنين أمورهم
وجرحهم واسبر بعقلك حالهم
كذا قال مولانا الوصي ومن به اقـ
فإن الذي أخفى العداوة قلبه
فليس كمون النار في الزند مؤمناً
وهاك أمير المؤمنين نصيحة
وإني في هذا كهـد أداة
ودم وابق واسلم وانصر الحق واخذل الـ
وهي طويلة وأشعاره بليغة كثيرة.

داود بن الهادي المؤيدي:

وفي (٢٦ ربيع الأول) توفي بشهارة السيد العلامة الكبير الأديب داود بن الهادي بن أحمد بن المهدي بن عز الدين بن الحسن المؤيدي عن (٥٥ سنة)، فإن مولده كما في البدر الطالع (سنة ٩٨٠هـ) وقبره في (أقمر) من أعمال شهارة عليه قبة، وهو بقية أكابر العلماء الفضلاء الأخيار. له مؤلفات منها (شرح على الأساس) وهو أحسن شروح الأساس، وعليه حاشية للسيد محمد بن عز الدين المفتي، ومن مؤلفاته (شرح الفصول اللؤلؤية) وغيره، وكان شاعراً، وكان قد وصل لزيارة الإمام المؤيد بالله، فكان

(١) أي للمؤيد.

حمامه عند إمامه، ومن شعره:

إلى الله أشكو عالم السر والنحوى	تخيل هم لا يطيق له رضوى
وجور زمان دأبه خفضُ كامل	ورفع الذي لا خير فيه ولا جدوى
عتبتُ على دهري فقلت إلى متى	تعاملني بالضد من كل ما أهوى
فقال مجيأً لي بعنفٍ وغلظة	وأي كريم قد أجبت له شكوى

لطف الله بن محمد الغياث

وفي (رجب سنة ١٠٣٥هـ) توفي بظفير حجة العلامة شيخ الشيوخ المحقق الأصولي النحوي لطف الله بن محمد الغياث ابن الشجاع بن الكمال بن داود الظفيري. كان من مفاخر اليمن، جمع العلوم الإسلامية والحكمة وحققها وعارض أهلها، فاستدرك على الأوائل وصنّف الجوامع الحوافل ورحل إليه الناس من كل أوب.

فمن مصنفاته: (المناهل الصافية يغني عن الرضى والجار بردي من شروح الشافية)، وله (شرح على الكافية) لم يتم، ومنها (الإيجاز في علم المعاني وشرحه)، وله حاشية على الشرح الصغير وشرح على الفصول اللؤلؤية، ولم يتم، وشرح لخطبة الأساس وشرح في حاشية على الأزهار، وله أنظار وحواشٍ مفيدة، وله في علم الطب ملكة قوية، وكان يعرف علم الجفر والزيرجة. وقبره خارج قبة الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى، وكتب إليه الشريف جعفر صاحب مكة يلتمس منه أن يصنف كتاباً في الفقه والفرائض:

أيا شيخ لطف الله إني لقائلٌ	بلا شك من سَمَّاكَ فهو مُصيب
فإني رأيتُ اللطف منك سحياً	ولله في كل الأمور حبيب
سألتك سفرأ نستعين به على	عبادة ربي لا برحمتَ تجيب
وأنت لنا في الدين عونٌ وقُدوةٌ	بقيتَ على مر الزمان تصيب
فنظم له أرجوزة في الفقه، وأجاب:	
أمولاي يا من فاق مجداً وسودداً	وما إن له في الخافقين ضرب
أتاني عقد يخل الدرّ نظمه	ويعجز عنه أحمد وحبيب

معانٍ وألفاظٌ زكت وتنافست
وما كان قدرِي يقتضي أن أُجيبه
وقلتم بأن اسمي يشير بأن لي
أتحسب ما أعطيت من لطف شيمة
ولكن حويت اللطف أنت جميعه
وأمركم ماضي وحظي قبوله
فكلُّ لكلٍ في البيان نسيب
فمثلي لذاك السمط ليس يجيب
نصيّاً وكلاً ليس فيه نصيب
تقصّر عنها شمأل وجَنُوب
فقلت على ذا الناس أنت عجيب
وإني على قدر القصور مجيب

حوادث سنة ١٠٣٦ هـ

في (المحرم سنة ١٠٣٦ هـ)، انتقض الصلح بين الإمام المؤيد والباشا حيدر؛ بسبب أن فقيهاً من أهل عُلمان القريب من وادي ظهر يُسمّى الفقيه حسن بن علي العلُماني، كان مهاجراً في شهارة، فاستأذن الإمام في زيارة أهله بعُلمان، فأذن له، فلما وصل علمان دعتة حاجة لدخوله صنعاء، فأمسكه جماعة من أصحاب حيدر، ثم قتلوه ظلماً وعدواناً، فكتب الإمام من أجله إلى حيدر، فأجاب بالمغالطة والإنكار، وكان له أعوان سوء لم يشيروا عليه بالصواب، فما زال الإمام يكرر عليه في المراسلة وهو مصمم على المغالطة في جواباته.

قال بعضهم: إن السبب في قتله أن مملوكين لحيدر هربا من صنعاء، فاقم حيدر أنهما دخلا بلاد الإمام، فلما دخل الفقيه إلى صنعاء وشئ به جماعة حاسدون لغناه ولكسبه أموالاً إلى نقيب باب حيدر وأوهموه أنه هو السبب في إباق العبدین حسداً منهم للفقيه، فأمر بقتله (ليقضي الله أمراً كان مفعولاً)، فشاور الإمام أصحابه، فاتفقت الآراء على محاربة الأروام، وكان كثير من المشائخ وأعيان القبائل، قد كتبوا إلى الإمام أنهم أعوان له على محاربتهم واستئصال شأفتهم، ووصل إليه بعض مشائخ الحدا برهائهم، فلما بلغ حيدر باشا خرج على أهل الحدا، فكان ذلك من جملة الأسباب الموجبة لمحاربتة، فبعث الإمام أخاه الحسين إلى بلاد الحيمة؛ فخرج من بلاد الشرف بعد صلاة الجمعة لتسع بقين من شهر محرم (سنة ١٠٣٦ هـ) وكانت طريقه ما بين حفاش وجبل تيس إلى أن وصل حراز، فأقبل إليه عامة تلك الجهات، ثم تقدم إلى عر الحيمة، وكان الإمام قد أمره

ألاً يفتح الحرب حتى يعود جواب حيدر، وكان الإمام قد طلب محاكمة القاتل إما بالقصاص أو الدية فعاد جوابه الأخير بغير الصواب، فكتب الإمام إلى أخيه الحسين بفتح الحرب، وبعث أخاه أحمد إلى بلاد خمر، فأجابوه طوعاً، وتقدم إلى المضلعة المصنعة من جبل عيال يزيد وحاصر عمران الحصار الشديد، وواجه إلى الإمام أهل السودة، وخرج منها أولاد الفقيه أحمد المعافى إلى شظب.

وأما أولاد الأمير عبد الله المعافى فانحصروا في الحصن إلى أن دخلت عموم البلاد في طاعة الإمام، فخرجوا إليه فقرر أمورهم وقرر لهم ما يحتاجون إليه، وكان أمر الأبحارهم أحد، ثم انضم ابن علا بقومه إلى أحمد بن الإمام لمحاصرة عمران، ثم إن السيد الهادي بن الحسن صاحب كحلان تاج الدين أطاع الإمام فولاه إلى عفار، ثم تقدم أصحاب الإمام إلى حجة، تقدم بهم السيد علي بن عبد الله العُبالي والفقيه يحيى بن صلاح الثلاثي والفقيه عبد الرحمن بن المنتصر العشبي، فدخلوا بلاد حجة ولاعة ومسور. وأمر الإمام بمحاصرة الآغا الذي في ميين ومن عنده من عسكر الجبر، حتى خرجوا إلى الإمام بعد حروب، واجتمع عسكر كوكبان في غولي فحاصره أصحاب الإمام حتى طلبوا الأمان فأمنهم الإمام وأذن لهم بالعود إلى ولي أمرهم وهو الأمير عبد الرب بن علي بن شمس السدين، وكان يومئذ في أنود أطرف محل من جبل الضلع وجعل ولاية للحسين بن علي جحاف على بلاد حجة.

وفي هذه المدة قصّد القاضي أحمد بن علي بن أبي الرجال والقاضي أحمد بن عامر بن اجتماع معهما من القبائل إلى جبل اللوز، ودخلا سوق الحضارم فقرأوا على الناس رسائل الإمام فأجابهم أهل تلك الجهة، وخرج القاضيان المذكوران إلى مسور خولان؛ فظفر بالعامل هنالك ثم غزيا إلى الأعماس، وواجه إلى الإمام بنو بملول وأساف وجميع البلاد الشرقية.

وأما الحسين بن الإمام فإنه بعث السيد حفظ الدين بن علي سحلة، والشيخ ابن عبد الله الطير لاستفتاح حضور وبني مطر، فسارا إليها وفتحتا تلك الجهات طوعاً. وكذلك السيد مطهر بن ناصر الدين، والقاضي محمد بن ناصر السلفي إلى بلاد ريمة وآنس وبرع، فواجهت تلك الأقطار جميعها وأرسل القاضي يحيى المخلافي لمحاصرة حصن الطويلة.

وأمر الإمام إلى أخيه الحسن بالتقدم من صعدة، فخرج منها بعساكر وافرة وأناب عليها وعلى بلادها ولده السيد المقام محمد بن الحسن بن الإمام، وكانت طريقه الجوف إلى بلاد نهم، ووصل إليه عاملها السيد الهادي بن مطهر الشويح موجهاً، ثم تقدم إلى جبل اللوز، ثم الحصن الأبيض شرقي الذراع لقصد قطع طريق اليمن إلى صنعاء، وحاصر من عند الأمير سنبل بقلعة الذراع وقطع عليهم المواد. وكان الحسين بن الإمام قد سار إلى الأهجر، فسار إلى أخيه الحسن لقصد المفاوضة في ترتيب الحروب، وكانت طريقه حدة بني شهاب وبلاد سنحان، واتفقا على بقاء الحسن في محله ورجوع الحسين إلى الأهجر لمحاصرة كوكبان، وتعقب فرار الأمير سنبل من قلعة الذراع إلى ذمار، وارتفاع عسكر الأروام من القبتين إلى ريمة ابن حميد، فغزاهم الحسن وأوقع بهم وقعة مهيلة، ثم انتقل إلى بلاد حضور، فاستقر في مَسَيْب، ووصل إليه أخوه الحسين. فأجمع رأيهما على قصد الأمير عبد الرب بن علي بن شمس الدين، ومن عنده من عسكر الأروام إلى أنود، ثم رجع الحسين إلى الأهجر والحسن إلى قريب حدة، ولبثا قدر أسبوع، ثم أرسل الحسن جماعة إلى أخيه الحسين، فوصلوا الأهجر عقيب صلاة الجمعة، ثم وصل الحسن عقيبهم عند غروب الشمس، ثم نكضا من فورهما بعساكرهما قاصدين إلى أنود، وكانت طريقهما شمات، فوافيا أنود عند شروق شمس يوم (السبت ١٧ رجب سنة ١٠٣٦هـ) فافتشل عبد الرب ومُزاحم، ومن معهما من العسكر، وكانوا قدر خمسمائة أو يزيدون، فكان الاستيلاء عليهم، فقتل من قُتل وأسر من أُسر وتردَّى البعض من الشواحق وحصل الفراغ من تلك المحطة في ساعة من أول نهار السبت وقتل من أعيان الأمير عبد الرب السيد محمد بن المهدي بن حفظ الله بن عز الدين بن الإمام شرف الدين والسيد عبد الله بن أحمد الحمزي، والسيد الحسين بن صلاح بن الهادي بن الحسين بن شمس البدين، والقيب ربحان حُشيري، وبشير مبارك وغيرهم، وأما الأمير عبد الرب فإنه انهزم إلى حصن بكر الغرائق بطائفة من أصحابه، وتقدم الحسن إلى بركة الخُلب وحاصر بيت عز، وبات الحسن تلك الليلة في بيت غزوان، ووصلت كتب الأمير عبد الرب يئذ الطاعة للإمام واستقر الكلام على خروجه من بكر إلى كوكبان، ثم دخل هو والحسن والحسين والجميع كوكبان في عصر يوم الاثنين (٢٠ رجب سنة ١٠٣٦هـ)، وصلحت الأمور بفضل الله الملك المنان.

وفي خلال ذلك وقع حرب بين السيد أحمد المُحَنِّكي وبين الأمير صفَر عامل الأروام بعمران، فانهزم صفَر إلى ثُلا، فتوجه إليه الحسين بن الإمام من كوكبان وأخوه أحمد بن الإمام من المضلعة، فطلب منهما الأمان، وخرج إليهما؛ فأرسل به وبسلاح أصحابه إلى الإمام، وجعل في ثُلا من يحفظه من أعيان العكسر، وتوجه الحسين إلى (الْمُنْقَب) ومنه إلى (لولوه)، فأقبل إليه الأمير إبراهيم الداعي بأعيان همدان، فأحسن إليهم، وانتقل إلى طيبة، فلبث فيها إلى أن وافاه أخوه الحسن وتبعهما الأمير عبد الرب بأعيان أهل كوكبان يوم (السبت ٩ شعبان سنة ١٠٣٦هـ) ونهض الجميع لمحاصرة صنعاء، فوصل أوائل عسكرهم إلى بئر العزْب، واستقر أولاد الإمام والأعيان في حدة بني شهاب، وجعلوا في الروضة الفقيه هادي بن عبد الله الحبشي وأصحابه بني الحارث. وما زالت الغارات على صنعاء من جميع الجهات، واستولى أصحاب الإمام على حصن نقم وأمروا من يحفظه بالترقب لعسكر حيدر باشا، فإن رأوهم قصدوا الروضة رموا بالزبارط ثلاث دفعات، وإن قصدوا حدة رموا دفعتين وامتدت أيدي أصحاب الإمام إلى سنحان وما إليها.

قال في ذيل روح الروح: (وفي شعبان سنة ١٠٣٦هـ) قتل السيد صلاح بن عبد الله بن أحمد بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى الكوكباني، وكان قد عزم من لدن الحسن بن الإمام من حدة يريد الدخول إلى صنعاء فالتقاه محمد الكوكباني من أصحاب حيدر باشا إلى ماجل الحفا فطعنه وحرَّ رأسه وأوصله إلى حيدر وفي شعبان تقدمت العساكر التركية من تعز إلى الأمير الشريف الحسين بن محمد بن ناصر الجوفي إلى مدينة جبلة على حين غفلة، فلم يشعر الشريف الحسين إلا والسيوف فيهم عاملة، فخرج من جبلة هارباً وأسر الأتراك من سادات كوكبان السيد إلياس بن إسماعيل بن لطف الله بن المطهر، والسيد محمد بن شمس الدين بن لطف الله بن المطهر الشمسي، والسيد الهادي الوزير الجوفي وقادوهم إلى تعز في الزنجير وأودعوهم السجن بالقاهرة بتعز وقطعوا عنهم الشراب والطعام حتى ماتوا شهداء.

وفي (سنة ١٠٣٦هـ) توفي السيد صلاح بن محمد بن لطف الله بن رضي الدين الكوكباني من جراحة أصابته في حرب الطويلة وقبر بكوكبان.

ووصل كتاب الأمير سنبل من ذمار بطلب الأمان من الحسن بن الإمام فأمنه وجعل

له ولاية ذمار، واشتدت الطرق على صنعاء وضاق من فيها ذرعاً، فقال حيدر لمن عنده: «إذا وفّت المدة لم تنفع العدة»، ثم كتب إلى الإمام يطلب الصلح على أن ينتقل من صنعاء بجميع من عنده وما عنده إلى اليمن الأسفل، فلما وقف الحسنُ على كتابه استحسَنَ عدم إبلاغه إلى الإمام، وقال: «لا سبيل إلى خروجه على هذا الوجه»، فلما عرف حيدر جواب الحسن جمع من عنده من العساكر وحرصهم على الثبات وإصداق العزيمة وعرفهم بما لديه من الأموال العظيمة، وإن غارة السلطان إليهم واصله، وكتائبه مقبلة، فشجعهم وأثار حفائظهم، ثم فرق فيهم الأموال وعملهم بالنوال وأمرهم بالخروج إلى ظاهر المدينة متظاهرين بالزينة، فكان شاهد حاله:

وتجلدي للشامتين أريهمُ أي لريب الدهر لا أتضعع

ولما عرف أصحابُ الإمام خروجهم أقبلوا إليهم من حدة كالسيل المنحدر حتى بلغ أولهم ساقية غيل آلاف، من غير تعبئة ولا ائتلاف، فحمل عليهم أصحاب الخيل من الأروام، ووقع الصدام، فانهزم أصحاب الإمام إلى الحفا وظفرت الخيلُ بجماعة من أصحاب الإمام تأخروا عن أصحابهم، فقتلوهم وعادوا إلى صنعاء.

قد اشتدَّ أمرهم بذلك الحرب، وزال بعض ما نالهم من الكرب ولبثوا في صنعاء أياماً، ثم خرج بعض الخيالة من صنعاء إلى قريب حدة لفتح الحرب، وخرج أصحابُ الإمام من حدة، فعرجوا عن القاع خوفاً من الخيل وملكوا سفوح الجبال إلى أن وصلوا الحفا، وبعضهم تقدم إلى سفح نقم فخرج إليهم عسكر صنعاء بعد أن جعلوا طائفةً في شعوب تمنع عنهم من في الروضة من أصحاب الإمام، وثبت حيدر باشا في (باب ستران)، فاستمر القتال إلى أوان الزوال، وثبت أصحاب الإمام ثباتاً يقصر عنه يللم وشام، حتى تكاثرت عليهم عسكر الأروام، فانضم إلى أصحاب الإمام من معهم بالحفا وحمي الوطيس، واصطدم الخميس بالخميس، ثم انكشفت المعركة عن قتل الشيخ علي بن عبد الله الطير رحمه الله وجماعة من أصحابه، واجتمع الأروام إلى ماجل الدمة، فقصدتهم الحسان ولدا الإمام ببقية من معهما من العسكر، فوقعت بينهم حرب عظيمة لا يكاد يصفها الواصف، وأحاطت خيل الأروام بولدي الإمام، ثم أنهما خلصا بعد جهد جهيد، (وبعد اللبثا والي) وبعد قتل عدة من الطرفين ورجعاً إلى حدة.

ثم التفت حيدر باشا على من في الروضة وشنوا عليهم الغارات ورموهم بالزبارط والمدافع واستمرت المعارك، فثبت السيد محمد بن أحمد بن الإمام الحسن بن علي ومن معه من بني الحارث وسائر العكسر، فلم يغمضوا تلك الأيام نوماً، واستمر القتال حول صنعاء ليلاً ونهاراً، وغلت الأسعار وفنيت الذخائر وبلغت القلوب الحناجر، وكثر من حيدر على أهل صنعاء الطلب، ورسوموا عليهم في كل يوم شيئاً من الحب، وأخذ ما بأيديهم من الفضة والذهب، وبلغ قدح الخنطة بستة ذهب وقدح الملسح إلى عشرين حرفاً، وكان يدخل كثير من القبائل بشيء من المصالح، ثم أن أهل صنعاء شكوا إلى الباشا نفاق كل شيء وما بقي إلا الموت، فأذن لهم بالخروج ليتفرقوا في الأرض للمعاش، واستراحوا من ذلك الامتحان بأهلهم وأولادهم.

وأما أحمد بن الإمام فلم يزل محاصراً لمن في عمران حتى خرج إليه الكيخيا عمّر والشيخ ناصر الحبشي ومن عندهما بأمان، وقبض ابن الإمام الخزانة وأرسلها إلى أخيه المؤيد، ثم جعل في عمران عصابة نافعة، ونهض إلى الروضة محاصراً لصنعاء، وبعث الحسين بن الإمام السيد أحمد بن علي الشامي إلى طيبة، فاستولى على ما فيها.

وأرسل الإمام المؤيد الشريف هاشم بن حازم المكي والسيد التقي بن إبراهيم إلى قحمة، فواجه إليهما أكثر أهل قحمة، ووصلا إلى قرب زبيد، وأرادوا دخولها بالسلام، فخرج إليهم الأروام ووقع حرب.

عاد الشريفان إلى بيت الفقيه بن عجيل، ودخل أشراف صبيا وأبي عريش وجازان في طاعة الإمام.

وواجه الأمير الحسين بن ناصر الجوفي إلى الحسن بن الإمام، فأمره بالمسير بأهل الحدا وقيفة إلى اليمن الأسفل، وضم إليه السيد محمد بن أحمد بن الإمام الحسن بن علي، فاستفتحوا تلك الجهات جميعاً، ولما مال الأمير الحسين بن ناصر إلى أولاد الإمام أمر حيدر بإخراجه داره بصنعاء، وبعث الحسين بن الإمام السيد علي بن إبراهيم بن علي جحاف عاملاً على ريمة، ووجه السيد محمد بن علي القراع إلى حفاش وملحان فاستفتحهما وقبض العامل عليهما وهو الآغا عسلان وأرسل به إلى الحسين. وأوقع الباشا بوزيره المحرقى وعذبه بأنواع العذاب وأخذ جميع ما في يده وتركه فقيراً، فكان

يطلب الصدقة من المارين تحت طاقة مكانه المسجون به، فأمر الباشا بسمر كفيه في تلك الطاقة وجعل ذنبه عدم إبلاغه استفتاح أولاد الإمام للبلاذ، وسجن الأمير كاني شلي في الدار الحمراء ثم قتله بسبب أن حيدراً كان يريد الخروج إلى الرحبة قبل وصول الحسن بن الإمام إلى هم فأشار عليه بعدم الخروج ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وفي هذه السنة وصل الخبر أن الشاة عباس استفتح كثيراً من بلاد السلطان العثماني كبغداد ونواحيها، فجهز السلطان الباشا حافظ أحمد بستة لكوك، فوقع بينه وبين الشاة حروب وخطوب، ثم خرج الشاة بنفسه من أصفهان، فهزم جند السلطان واتصلت عساكر الشاة إلى ديار بكر والموصل حتى آمد، واشتغل السلطان عن التجهيز إلى اليمن لما يريده الله سبحانه من ارتفاع يده عن اليمن.

وفي (سنة ١٠٣٧ هـ) استفتح الحسن بن الإمام ذي مرمر، وفيها خرج من تعز الأروام لمحاربة الأمير حسين بن ناصر الجوفي، ولما بلغ الحسن بن الإمام فُض من عنده من الكماة إلى تلك الجهات، وثبت أخوه أحمد بالروضة والحسين في أرتل من سَنحان والسيد صلاح بن أحمد المؤيدي بالجراف.

واستفتح الحسنُ اليمن الأسفل إلى أن قرب من تعز، وجرت بينه وبين الأروام بحبيش حروب قتل فيها منهم بمحل يعرف بالرأس أكثر من ألف نفر وحاصر تعز، ولما استقر كتب إلى الأمير عبد القادر صاحب عدن، فأجاب أنه داخل في طاعة الإمام، فأقره على ولايته.

وفيها بلغ الخبر أن صاحب مصر من قبل السلطان جهز إلى اليمن الباشا أحمد في ألف وخمسمائة فغرقوا في البحر لم يبق إلا باشتهم في أربعين نفراً، فمات بمجدة. وفيها طلب الباشا حيدر من الإمام المؤيد هُدنة فتمت لخمسة أشهر وأطلق الرهائن الذين كانوا بصنعاء.

وفيها خرج الباشا عابدين في ألف نفر من بندر سواكن إلى بندر المخا، فاستقر فيه وبني دائره، وقصده عامل حيدر بزبيد فلم يظفر به.

وفيات

الحسن بن حميد الدين

قال في ذيل روح الروح: في أربعة وعشرين صفر (سنة ١٠٣٦هـ) قتل في رأس القرنين من بلاد كوكبان السيد الحسن بن حميد الدين بن المطهر بن الإمام شرف الدين. رماه بعض عسكر الحسين بن القاسم وهو فوق جواده، فتفرق أصحابه بعد قتله خوفاً من أصحاب الإمام، وكان السيد الحسن حميد الدين عالماً نجيباً عارفاً نبيلاً متفتناً في النحو والمعاني والبيان وغيرها، ومولده (سنة ١٠٠٦هـ).

الحسين بن محمد زُغَيْب

في جمادى الآخرة (سنة ١٠٣٧هـ) توفي بحدة بني شهاب أيام حصار صنعاء السيد العلامة الحسين بن محمد بن يحيى بن أحمد بن عجلان بن سليمان بن الحسن بن القاسم بن أحمد بن الحسن الملقب زُغَيْب الأصغر بن علي بن عبد الله الملقب زُغَيْب الأكبر بن أحمد بن يحيى بن القاسم بن يوسف الداعي.

قال في الطبقات: هو من تلامذة السيد العلامة الحسن بن شرف الدين ومن مشائخ القاضي العلامة أحمد بن سعد الدين المسوري، وكان عالماً فاضلاً عارفاً.

علي بن شمس الدين

وفي ٢ جمادى الآخرة (سنة ١٠٣٧هـ) توفي الأمير الشهير الخطير علي بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين بكوكبان. وكان ماجداً كريماً سعيداً، ورثاه السيد عيسى بن لطف الله:

يا كوكبانَ العُلا قد صرتَ كالطَّلَل	وربعك المشرق الأنوار كيف بلسي
أين الصباحةُ والزمرُ الذي رقصت	له القنا كارتقاص الشارب الثمل
فقال لي كل ذاك الحال فارقي	حين استوى في الثرى خيرُ الملوك علي

وكانت وفاته وولده الأمير الكبير عبد الرب قائد الجيش مع الحسن بن الإمام في حصار تعز.

التناول وعنده المخالف مصيب. انتهى.

وفي الجامع الوجيز أنه من المصالح المرسلة وشرطها ألا تصادم نصاً، وقد انفتحت من بعد الخمسمائة انفتاحاً كلياً. انتهى.

عابدين بن المطهر الشويح

وفيها توفي بتعز الأمير الشهير عابدين بن مطهر بن الشويح الحمزي من أكابر أصحاب الحسن بن القاسم.

قال في ذيل روح الروح: في (ليلة ١٣ محرم سنة ١٠٣٨هـ) أمر الباشا حيدر بقتل كاني شلبي بالخنق، فخنقه الخادم محفوظ. وقبله كان الباشا فضلي (سنة ١٠٣٣هـ) حبس كاتبه محاسبجي في الدار الحمراء لامور صدرت عليه وأموال كانت لديه، وبطش به الباشا وهو على جناح السفر.

وفي (جمادى الآخرة سنة ١٠٣٨هـ)، مات تحت عذاب الباشا حيدر بسجن صنعاء كاتبه الفقيه عبد الله المحرقى وقبر إلى جنب قبر كاني شلبي في مقبرة المدرسة الكبيرة، وكان لبثه في السجن إلى أن قتل أحد عشر شهراً ولم يشيع جنازته أحد. وكان الفقيه عبد الله كاتباً بليغاً خطه كخط ابن مقلة المشهور، وكان الباشا قد أخذ منه أموالاً جزيلة، وثمر يديه بالمسامير الحديد، وفُكَّت في بعض الأوقات، فكتب من السجن إلى بعض أصدقائه أن يرسل إليه بوديعة كانت لديه، فأجاب أنه لم يكن عنده شيء، فلما أيسر الباشا من ذلك أمر مُحَرَّم آغا من أتباعه، فدخل على المحرقى إلى السجن وضربه بدبوس حديد حتى مات، وكان في المحرقى كبرياء وعظمة وتماون بأعيان الناس، فآل أمره إلى السجن والفقر والموت، تحت العذاب ساعه الله.

وفي (١٤ رجب) كان خروج حيدر من صنعاء نحو زبيد، وفي ٢٧ رجب دخل صنعاء سيدي أحمد بن القاسم، وكان دخول أخيه الحسين واستقر بالبستان. انتهى

حوادث سنة ١٠٣٨هـ

فيها بعث الباشا عابدين الواصل إلى المخا أميراً من أصحابه بخيل ورجال لقصد تعز، فتلقاهم الحسنُ بجنده فمنحه الله النصر، فقتل منهم نحو الثمانين وأسر مثلهم، واستولى على خزائنتهم وهزم من بقي منهم، وبعد أيام قصد الحسنُ إلى المخا فتشاعل أصحابه بالنهب لأطراف البندر ورجع الحسن إلى تعز.

وفيها جهز صاحبُ مصر الأغا رجباً في نفر قليل لاشتغال المقاتلة في العراق بحرب الشاة عباس، فلبث في البحر مدةً، ثم كتب إلى الإمام المؤيد يستأذنه في الوصول إليه؛ فأذن له، فوافى الإمام في أقر من ناحية شهارة، فأكرمه وجعل له ولايةً على المخادر من اليمن.

وفيها دخل السيدُ أحمد بن لقمان عامل الإمام على أبي عريش وجازان إلى القنفذة مُعداً للشریف محسن بن حسن صاحب مكة على الشریف أحمد بن عبد المطلب لما أنه قصد الشریف مغامس عامل الشریف محسن على بيشة، فهزم مغامساً وقتل من أصحابه، فخرج ولده حُسَيْن بن مغامس إلى الإمام المؤيد يستنصره على أحمد بن عبد المطلب وبعد هذا وصل الشریف محسن بن حسن بنفسه إلى الإمام، فقابله بالإكرام والإنعام وخيره في البقاء بمحضرتة أو صنعاء، فاختر البقاء بصنعاء، وحين وصل إلى بعض الطريق ابتدأه المرض فمات في بلاد الظاهر وحملت جنازته إلى صنعاء فدفن في القبة التي بناها الأمير إسكندر وهي الآن تعرف بقبة محسن بباب السبحة.

وفي هذه المدة احتلت بلاد عانز والحجرة، فسار إليها الحسين بن الإمام، فأصلح خللها وقرر أمورها، ورجع إلى صنعاء ووقع بينه وبين القاضي يحيى المخلافي وحشة آلت إلى أن المخلافي أظهر الخلاف وجمع أصحابه للمصاف، فاستقر الحسين بن الإمام بريمة بني السياغي، فانهمزم المخلافي إلى بلاد خولان، فقرر الحسين أمور تلك الجهة وتقدم إلى بيت ردم.

وفي خلال ذلك انقضت الهدنة فيما بين الإمام وحيدر، فتجهز حيدر للمسير من صنعاء إلى زبيد وجعل طريقه باب الأهر وجبل تيس، فوقع من أهل البلاد فخب

أطراف محطته، وكان الإمام قد أرسل صحبته ولده علياً، وكذلك الحسين أرسل جماعةً من أصحابه لمنع القبائل من نهبه وأمره بالمسارعة بالعزم، ورجع علي بن المؤيد إلى صنعاء عاملاً عليها، واستمر في عمالتها نحو أربعين سنة، وأحبه أهلها، وكانوا يدعونه في كل الحفلات، فكثرت وتعارضت فأرأوا أنهم يرسلون له من كل حفلة مقلًى فسَمَّوه علي مقلًى.

وكان حيدر قد أودع خزائنه جميعها في القصر بنظر حسن أفندي، وبعد أيام وصل رسوله إلى الإمام من أجلها، فأعطاه الإمامُ ثمنها ستة عشر ألفاً.

وفي (شوال من سنة ١٠٣٨هـ) استفتح الحسن بن الإمام مدينة تعز وأسر الآغا علياً وخمسة من الآغاوات، وأرسل بهم إلى حضرة الإمام، ولما استقر حيدر بزبيد وصلته كتب من الإمام، فاتهمه أصحابه فقبضوا عليه وسجنوه في جزيرة كمران، إلى أن وصل قانصوه فأطلقه.

وفيها جاءت كتب من الأمير رضوان إلى الإمام يطلب منه إطلاق الآغاوات المساجين، فأطلقهم وتوجهوا إلى الشام.

وفيها اتفقت في تعز قضية منافية للتقوى وهي أن جماعة بذلوا لصاحب مطبخ الحسن بن الإمام مالاً على أن يجعل له سمّاً، فأخبر الحسن، فقال له: افعل ما أعطوك من السم لهم، ففعل فهلكوا، وكانوا كالباحث على حتفه بظلفه.

وفي (سنة ١٠٣٩هـ) وصل الخبر بوصول الباشا قانصوه لاستفتاح اليمن بألف فارس وثمانية آلاف راجل، وكان حيدر قد كتب إلى السلطان يستمد منه الغارة، فلم يصل قانصوه إلا بعد خروج حيدر من صنعاء إلى زبيد، ولما بلغ خبر وصول قانصوه إلى الإمام المؤيد بعث ولده يحيى إلى أبي عريش من طريق جبل رازح، وكتب إلى قبائل صعدة بالمسير معه، فساروا إلى أطراف جبلٍ مما يلي قحمة، فاستقروا فيه خوفاً من خيل الأروام أن تأخذهم في قحمة.

ولما نهض قانصوه من أبي عريش إلى زبيد هبط أصحاب الإمام إلى أبي عريش وجاءهم الخبر أن جماعةً من الأروام وصلوا إلى ساحل جازان في سفيتين وغُرابين فقدّم السيد يحيى بن الإمام السيد الهادي بن صلاح بطائفة من الجند، وعقبه بالسيد صلاح بن

أحمد بن المهدي المؤيدي، فانهزم الأروام وولوا مدبرين.

ولما وصل قانصوه إلى بيت الفقيه بن عجيل قتل الفقيه أحمد بن جعفر الصوفي ظلماً بسبب أنه طلب منه تحصيل خمسمائة حمل طعام، فقال له: هذا المطلب لا يمكن تحصيله؛ لأن الناس متفرقون في الجبال.

ثم تقدم قانصوه إلى زبيد فبعث طائفة من عسكره لقبض الباشا عابدين من المخسا، فوصلوا به تحت الحفظ، فقتله، وقدم طائفة من خيله ورجله إلى حيس، وكان الحسن بن الإمام في إب، فانتقل إلى تعز وكتب إلى أخيه الحسين بصنعاء أن يتوجه إلى وصاب، ففعل، وبلغ الحسين أن الأروام متوجهون إلى تعز، فتوجه من وصاب إلى إب، ومنها إلى تعز، واجتمع بأخيه وتحرك قانصوه إلى حيس، فاستقر به، وقدم الكيخيا يوسف إلى نجد المُجرب من بلاد شرعب، لما كان الحسن قد سدَّ عليهم الطرق إلى تعز كوادي حاجر وغيره، فخرج الحسان لمحاربة الكيخيا يوسف فوجده قد ملأ الجبال والوهاد بالخيول والأجناد، فباشروه بالحرب، وأصدقوا في أصحابه الطعن والضرب ومنحهما الله النصر، فاستوليا على محطة الكيخيا وقتلا منهم قتلاً كثيراً، وانهزم الكيخيا في خمسمائة فارس، فتبعه الحسن وقتل جماعة ممن تناقل عن السير، ثم رجع إلى تعز، وأما الحسين فعاد صنعاء، وبعد هذه الوقعة انعقد الصلح بين الحسن وقانصوه مدة سنة.

وفيها أظهر الشيخ إبراهيم مؤري الميل إلى الإمام المؤيد واستدعى أميراً من أصحابه فبعث الإمام الشريف محمد بن ناصر الحمزي والشيخ أحمد بن فتح الله المحبشي وجماعة من العسكر، فلما وصلوا قريب مؤر خرج إليهم الشيخ إبراهيم وأظهر الغدر واستصرخ عليهم جماعة من فرسان الأروام وخلفهم أهل الواعظات من ورائهم فقتل الشيخ المحبشي وجماعة من أصحابه وأسروا آخرون.

وفيها خرَّ نجم من السماء ثم انفلق أثلاثاً، فوقع ثلثه في عُولي وثلث في مغربة لماس، وثلث في سوق الثلوث، وسمع أهل تلك الناحية عند سقوطه هدة عظيمة، ووجدوا حجارة لا تشبه حجارة الدنيا، فسبحان الله.

وفيات

أحمد بن محمد لقمان

في (٩ رجب سنة ١٠٣٩هـ) توفي بقلعة غمار^(١) من بلاد رازح السيد الإمام المجتهد المجاهد أحمد بن محمد بن لقمان بن أحمد بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى.

كان علماً من أعلام الزيدية، وعيناً في العترة النبوية. وصفه المولى الحسين بن القاسم بالاجتهاد التام، وكان إمام جامع شهارة مدرساً به ليله ونهاره.

وله من المصنفات النافعة (شرح الأساس) و(شرح الكافل) وشرح على تهذيب السعد في المنطق والرياض الزاهية شرح الكافية، وشرح على مرقاة الإمام القاسم، وحواشي على المفصل وعلى الفصول اللؤلؤية، وعلى أوائل المنهاج ونظم الشافية، وشرح البحر بجزء كأنه تنمة لبعض شروحه، كما في بغية المريد، ولعل شرح البحر لجدده لقمان، قيل: وله (البحار المغرقة في الرد على الصواعق المحرقة).

وكان زاهداً ورعاً عبادة لا يُكفر باللازم، ومن مشائخه الشيخ لطف الله بن محمد الغياث، وكان أحد قواد الجيوش الكبار في حرب الأتراك، وله في الجهاد مقامات مشهورة، كان مسكنه كحلان تاج الدين، ثم هاجر إلى شهارة في أيام الإمام القاسم ولازم التدريس بجامعها في كل الفنون، وتوفي بعد عودته من الحج بعد مرضه بتهامة، وطال مرضه، فحمل إلى بلاد رازح، حيث توفي رحمه الله وقبره مشهور مزور.

يحيى بن أحمد المنتصر

وفي (محرم سنة ١٠٣٩هـ) توفي بالظفير السيد العالم الفاضل يحيى بن أحمد بن محمد بن المنتصر القاسمي، كان حاكماً بالظفير.

(١) قلعة غَمَر.

سعيد بن صلاح الهبل

وفي (٢٤ شوال سنة ١٠٣٩هـ) توفي بشهارة القاضي العلامة المحقق سعيد بن صلاح الهبل الخولاني. وكان عالماً كبيراً محققاً للفروع، عاصر الإمام الحسن بن علي بن داود والإمام القاسم وولده المؤيد، وله أنظار وحواشٍ معتمدة في الفروع، قال في الطبقات: قرأ على أحمد بن معوضة الجربي وعلي بن قاسم السنحاني وغيرهما.

ومن تلامذته: المتوكل إسماعيل وأولاد المترجم له الأعلام أحمد وعلي وعبد القادر ومحمد ومهدي ويحيى وعبد الله، وكان يجعل أهل النسخ من تلامذته حلقة واسعة ويقعد في الوسط فيملي عليهم كأنما يغرف من بحر لا يحتاج إلى فتح كتاب، وكان في غاية من الزهد الصحيح والورع الشحيح، ويتنقل في البلاد للعلم والجهاد، وسكن صعدة وكان له بها أتباع.

ثم عاد إلى شهارة حيث توفي — رحمه الله — وقبره بالسرار من شهارة معروف، وكان رفيقاً بالطلبة مسلماً لهم. من ذلك أن الترك غزوا بلدة شوكان خولان وقتلوا جماعة منهم إخوته وأولادهم وقبضوا ابنه أحمد بن سعيد وابن أخته القاضي أحمد بن عامر، فعزى الطلبة ولم يقطع التدريس وهو إذ ذاك في الحيمة، ولما رأى بكاءهم سلاهم مازحاً، ثم قال: ((اخترتم ولاء أهل البيت ولا يصيبكم ما أصابهم))، ثم أخذ يسليهم بما لقيه أهل البيت عليهم السلام.

حوادث سنة ١٠٤٠هـ

وفي (سنة ١٠٤٠هـ) وقع اختلاف بين الأمير عبد القادر صاحب عدن وأحمد بن شعفل صاحب يافع، فأفسد ابن شعفل طريق عدن وكاتب إلى الباشا قانصوه، ومال إلى رأيه أهل يافع، فكتب الحسن بن الإمام إلى الأمير عبد القادر يحرضه على الاحتفاظ بعدن، ووجه إلى يافع السيد الهادي بن علي الشامي، فواجه إليه بعضهم وانهمز ابن شعفل من محله.

وأما جعفر بن شعفل فوصل إلى الحسن بن الإمام فأكرمه غاية الإكرام وأقامه مقام أخيه أحمد بن شعفل، وتقدم الحسن معه بنفسه إلى جهته، فقرر أموره، وضم إليه السيد الهادي بن علي الشامي، ثم رجع الحسن إلى إب. ولم يزل أحمد بن شعفل يكرّر الغارات

على أخيه جعفر، فأمدّه الحسنُ بعسكر كثير، ولم تزل الحرب بينهما سجّالاً حتى انتهى بدخول أحمد بن شعفل تحت الطاعة، وأمن السبيل.

وفيها وقع اختلاف عظيم بين الأروام بزبيد، وكان قانصوه بالمخا فرجع إلى زبيد وقتل الأمير سليماً.

وفيها وصل كتاب من باشا الحسا إلى الإمام المؤيد يشتمل على الترغيب والترهيب في موادة سلطان الروم وترك محاربة عماله في اليمن، فأجاب الإمام بنجواب يحمل مضمونه أن الباعث له على محاربتهم ظهور ما ظهر منهم من الجور والفساد ومخالفة رب العباد.

وفيها فخص الحسن بن الإمام من تعز لزيارة أخيه الإمام وسار بمسيره أخوهما أحمد، فاجتمعوا في أقر من أعمال شهارة، وبعد أن لبث الحسن في حضرة الإمام أياماً يسيرة سافر إلى حبور، ومنه إلى الغراس، ثم اجتمع بأخيه الحسين وتوجها إلى كوكبان، فتزوج الحسنُ ابن الإمام بالشريفة الكاملة زكية بنت عبد الرب بن علي بن شمس الدين بعد وفاة أبيها بتعز؛ وكانت قبل ذلك تحت السيد الحسن بن حميد الدين بن المطهر، وقد قام الناصر بن عبد الرب مقام والده في إمارة بلاده، ولما انقضت أيام الوليمة فخص الحسن إلى بيت ردم فعمره، وتوجه الحسن إلى جبل تيس، وخرج منه إلى الحيمة، ومنها إلى ضوران، فوجده جبلاً واسعاً ومعقلاً مرتفعاً، وفيه آثار قديمة، فترجّع له عمارته واتخاذ دار وطن لتوسطه في قطر اليمن، وكتب إلى أخيه الحسين يطلب منه الوصول إليه للمفاوضة فيما عزم عليه، فاستحسن الحسين ذلك وحث أخاه على عمارته، ثم رجّع الحسين صنعاء، وقام الحسن على العمل وتردد في الجهات الآتية وغرس فيها السُن في الأودية بأشجار كثيرة.

وفيها ظهرت نار في أحد جبال أوسة شرقي الحبشة واتصلت بجبل آخر هنالك، واصطدم الجبلان، فسمع أهل تلك الناحية أصواتاً عالية، وانهدم بعض أوسة وهلك من أهلها قدر خمسة آلاف نفس ومواشي كثيرة واستمرت تلك النار أياماً فسبحان عظيم السطوات.

وفيات

إبراهيم بن الهادي النعمي

في (عاشر صفر سنة ١٠٤٠هـ) توفي بشهارة السيد العالم الكامل إبراهيم بن الهادي النعمي التهامي الصَّبَّاني، وكان وصل من صبيا إلى حضرة الإمام المؤيد وهو المتولي للقضاء بصبيا.

الحسين بن عبد الرب بن علي

وفي (ربيع الأول سنة ١٠٤٠هـ) توفي بجهات تعز الأمير الكبير الحسين بن عبد الرب بن علي بن شمس الدين الكوكباني مجاهداً، وحُمل إلى الجند وقبر جنب والده وعمه محمد وذويهم.

وفيها توفي بتعز السيد يحيى بن المفضل بن إبراهيم بن علي بن الإمام شرف الدين، وقبر عند قبر الإمام إبراهيم بن تاج الدين بمقبرة تعز.

ومات بكوكبان السيد زكريا بن لطف الله بن رضي الدين بن شرف الدين، والسيد الناصر بن محمد بن الهادي بن المطهر والسيد عبد القادر بن رضي الدين.

أحمد بن علي بن أبي الرجال

وفي (ربيع الآخر سنة ١٠٤٠هـ) توفي بصنعاء القاضي العلامة أحمد بن علي بن أحمد بن أبي الرجال. وكان فقيهاً أديباً أصولياً متكلماً، قرأ بصعدة تسع سنين، ثم انتقل شهارة، وله ديوان شعر وخطٌ عظيم، ثم أصابته علة، فانتقل إلى صنعاء، وتوفي بها، وقبره جنب قبر الفقيه حسن النحوي صاحب التذكرة.

أحمد بن محمد المؤيدي

وفي (جمادى الآخرة سنة ١٠٤٠هـ) توفي بصعدة السيد العلامة أحمد بن محمد بن أحمد بن عز الدين بن علي المؤيدي. وكان عالماً فاضلاً مجاهداً.

زيد بن علي السوري

وفي (جمادى الأولى سنة ١٠٤٠هـ) توفي بباب القاضي العلامة زيد بن علي بن

الحسين بن محمد المسوري بمقام الحسن بن الإمام القاسم. وكان يعتمد في الكتب والرسائل والخطب، وله المعرفة الكاملة، وله تهنئة بخروج الحسن بن الإمام من الحبس تزيد على أربعين بيتاً أولها:

إيه بحمد عظيم المن موليه فذاك أفضل ما يتلوه تاليه
وهات عما تراه الآن من عجب لكي تُصدّق فيما أنت حاكبه

يحيى بن أحمد حابس

وفي (شوال سنة ١٠٤٠هـ) توفي بصعدة حاكمها القاضي العلامة الحافظ يحيى بن أحمد بن حابس الدواري. وكان عالماً فاضلاً ورعاً يحفظ نصف التذكرة غيباً والنصف الآخر في حكم الغيب.

صالح بن عبد الله الحاضري

وفي (سنة ١٠٤٠هـ) توفي بصنعاء السيد العلامة صالح بن عبد الله الحاضري السراجي. وكان عالماً فاضلاً مخالطاً للأتراك بصنعاء وقبره بجهة الصعدي.

صلاح الفلكي

وفي (سنة ١٠٤٠هـ) توفي بدمار الفقيه العلامة صلاح بن محمد بن ناصر الفلكي. وكان إماماً في الفروع وحفظ المذهب زاهداً إلى الغاية، قال في الطبقات: كان لا يزاحم في الفضائل، وعنه أخذ ولده محمد وعدة، (والفلكي نسبة إلى فلكة من قرى ذمار).

علي بن محمد مطير الحكمي

وفي (سنة ١٠٤٠هـ) توفي بتعز العلامة الحافظ علي بن محمد بن إبراهيم بن مطير الحكمي الشافعي. انتفع به جماعة في الحديث، وله مؤلفات واسعة.

حوادث سنة ١٠٤٢هـ

وفي (سنة ١٠٤٢هـ) سار الحسان إلى بلاد خبان وجهاتها، وأرادا دخول يافع، فنهاهم الإمام فانتهاها، ورجع الحسين إلى ضوران واستقر فيه، وأضرب عن سكون شهارة وأقبل على القراءة والتأليف، وفي نفسه ما فيها من قبض الإمام بلاد الحيمة بعد أن كانت إليه، وبعد أيام وصل الحسن إلى صنعاء.

وفيهما جهاز نائب السلطان بمصر ثلاثة آلاف نفر من عسكر مصر مع الأمير قاسم للقبض على الإصباحية الذين عاثوا في مكة، وهم نحو ألف عسكري عزموا من بنادر قنطرة ينهبون حتى وصلوا مكة، فدخلوها قهراً في (سنة ١٠٤١هـ)، فانضم العسكر المصري إلى أمير مكة الشريف زيد بن محسن، فقتلوا الإصباحية المتمردين جميعاً، وقويت شوكة الأمير زيد وجددت له ولاية مكة.

قال في ذيل روح الروح: في يوم (الثلاثاء ٢٨ ربيع الأول سنة ١٠٤٢هـ)، انقض قبل الظهر بساعتين كوكب، ثم تعقبه رجفة سمعها كل إنسان في داخل البيوت وخارجها كأنها الرعد. انتهى

وفيات

إبراهيم بن حثيث

وفي (صفر سنة ١٠٤١هـ) توفي القاضي الإمام الشهير إبراهيم بن حثيث الذماري، وهو من قرية العليب جهران. وكان إماماً في الفروع مرجوعاً إليه، أخذ عن الأخوين علي ومحمد ابني راوع وغيرهما، وهو من كبار المقررين للمذهب، ومن أجل تلامذته المتوكل إسماعيل بن القاسم ومحمد بن صلاح بن محمد بن ناصر الفلكي ومحمد بن صلاح بن سعيد بن قاسم السلامي ويحيى بن محمد بن صلاح السحولي، ذكره في الطراز المذهب في مشائخه فقال:

ومنهم خاتمة النظار	ابن حثيث الجهيد الذماري
أكرم إبراهيم من مفيد	وعالم وعامل مجيد

وهو الواسطة بين الأمير سنبل القائد التركي الكبير وبين المؤيد بن القاسم وأخيه الحسن، فمال إلى الإمام وترك الأتراك، وكان من أكبر قواد بيت القاسم، وولوه بلاد دمار ووصاب، وجاهد الأتراك مع الحسن وغيره حتى أخرجوهم من اليمن، وله محاسن منها مسجده بدمار، وتوفي بوصاب (سنة ١٠٤٦هـ)، ثم سار القاضي إبراهيم حنيث إلى المؤيد بشهارة فأجله، وقرأ عليه مع أهل مقامه وتعمّر طويلاً.

محمد بن سليمان الأهنومي

وفي (رجب سنة ١٠٤١هـ) توفي بالهجر الأهنوم القاضي العلامة محمد بن سليمان الأهنومي من هجرة الروس عن نحو سبعين سنة. وكان عالماً محققاً.

طه بن عبد الله الشافعي

وفي (شوال سنة ١٠٤١هـ) توفي القاضي العلامة الحافظ طه بن عبد الله الشافعي، وكان ثقة أميناً حافظاً متقناً محدثاً، تولى القضاء بجبله، وسادت فتاواه مسير الشمس.

أحمد بن الهادي الديلمي

وفي (ربيع سنة ١٠٤٢هـ) توفي بهجرة ساقين السيد العلامة أحمد بن الهادي بن علي بن محمد بن الهادي بن محمد بن الحسن بن أبي الفتح بن مدافع بن محمد بن عبد الله بن محمد بن الإمام الناصر أبي الفتح الديلمي، وهو المعروف بالمدافعي وبالباقر.

قال في الطبقات: اشتهر على ألسنة الفقهاء تسميته بالباقر لتبقره في العلم، وأخذ عن القاضي عامر بن محمد الذماري، وكان له خصال حميدة، وخرج للجهاد بالديار الصنعانية، ثم عاد إلى البلاد الشامية، وسكن ساقين، وبه توفي.

وفي (سنة ١٠٤٢هـ) توفي بالسودة الأمير لطف الله بن الهادي بن عز الدين بن الإمام شرف الدين عن ٥٩ سنة.

حوادث سنة ١٠٤٣هـ

فيها تعاظم الجور من الأروام بتهامة، ففزع أهلها إلى الإمام واستغاثوا به من الشدائد الجسام، فجمع العساكر وبذل الذخائر، وجعل قائد الجيوش الحرارة والعساكر المختارة

أخاه السيف المُنتَضَى، والأسد الذي ما رام فريسةً إلا نال منها غرضاً، شرف الإسلام الحسن بن الإمام.

وكان خروجه من صنعاء إلى ضوران في رجب، ومسيره منه إلى تهامة في شعبان، فأول ما استفتح بيت الفقيه الزيدية، ثم حَيَسَ على يد الشيخ علي بن شمسان والأمير رجب بعد أن خرج عليهما الأمير حسين الكاشف بعصابة من الأروام، فوقع حرب شديد انكشف بقتل حسين الكاشف في عدة من أصحابه واحتُزَّت رؤوسهم.

وكان استقرار الحسن في الحمى خارج زبيد وعَمَرَه حتى صار كالمدينة تجلب إليه البضائع الواسعة ويقصده التجارُ من البلاد الشاسعة، وتتابعَت إلى الحسن الأجناد من جميع البلاد، فمن الواصلين إليه بأمر الإمام الشريف هاشم بن حازم والشريف التقي بن إبراهيم بعساكر حجة وغيرها، حتى بلغت جيوشه إلى أربعين ألفاً.

وجهِز الأميرُ الناصرُ بن عبد الرب من كوكبان الأميرُ شمس الدين بن يحيى بن علي بن شمس الدين بعساكر كوكبان، وكان شجاعاً مقداماً، غير أنه لا معرفة له بتدبير الحرب، ولما وصل المظفرية من بلاد الحجرية حَيَّم هنالك في مكان منخفض، فأشار عليه بعضُ أصحابه بالانتقال إلى موضع عالٍ يَعْرِفُ منه الذهاب والآيب، فلم يُسْعِد.

وكان الأروام قد جعلوا طائفةً وافرةً إلى موزع نحو مائة وخمسين فارساً وألف راجل قائدَهم الأميرُ مصطفى، فما زال يَتَرَقَّبُ الفرصةَ ليهجم على محطة شمس الدين، وكانوا قدر ألفي نفر، فلما كان يوم عيد الإفطار قصدَهم بخيله ورجله، فوافاهم على حين غفلة، وقد اشتغلوا بإصلاح الغداء، فلم يشعروا إلا وقد خالطتهم العساكر، وشهت نخوهم البواتر، فاستأسرَ بعضهم وفر آخرون، وقتل البقية، وقتل قائدَهم شمس الدين، وكانت وقعةً عظيمةً وفادحةً جسيمةً.

وقد بلغ الحسين بن الإمام خروج الأروام إلى موزع، فخشي على تعز، فنهض من ضوران مبادراً حتى استقر في يفرس، فعرض له مرض فدخل تعز، ثم شفي فنهض إلى الحمى، واجتمع بأخيه الحسن ولم تزل الحروب بينهم وبين من في زبيد قائمةً على ساق وسحابتها منهلة الإرعاد والإبراق.

وفي ذيل روح الروح: أنه في يوم عيد الإفطار (سنة ١٠٤٣هـ) قصد الأتراك محطة

أمير البلاد التعزية السيد شمس الدين بن يحيى بن علي بن شمس الدين إلى المظفرية من بلاد الحجرية، فانهزم الأمير الهادي ابن الشويح وجماعة من العسكر، وانخذل جُل عسكر كوكبان، فثبت الأمير شمس الدين ومن معه من العسكر في موطن التزال وقاتل أشد القتال حتى قتل وأخذته سيوف الأتراك، وقتل معه في ذلك اليوم السيد أحمد بن محمد الحمزي الكوكباني، والسيد حفظ الدين بن أحمد بن إبراهيم بن علي بن الإمام شرف الدين والسيد الحسين بن عبد الله بن مطيع الله بن أحمد بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى، وأحمد بن محمد بن جميل العقباتي، والحسين بن حفيظ بن الهادي العقباتي وعدة من أعيان العسكر، وكان الأمير شمس الدين بن يحيى نجيباً شجاعاً مهيباً براً شقيقاً بأهله، وحكم البلاد التعزية من (سنة ١٠٤٠هـ) إلى (سنة ١٠٤٣هـ) أحسن حكم وسار فيهم أحسن سيرة وفر بعد قتله من فر من عسكره، وأسر الأتراك من عسكر كوكبان جماعة وأوصلوهم إلى الباشا قانصوه، وهو بيندر المخا، فأمر بضرب أعناقهم.

وفي يوم (١٤ شوال سنة ١٠٤٣هـ) كان خروج الأمير عبد الرحيم بن يحيى بن عبد المؤمن بن عبد الشكور بن شمس الدين بن الإمام من محروس كوكبان متوجهاً إلى تعز والياً عليها خلفاً للأمير شمس الدين.

وفي ذي الحجة سنة ١٠٤٣هـ خرج الأمير مصطفى ومن معه من الأتراك إلى القرية^(١) التي بها الأمير سنبل، ومن لديه من أصحاب الإمام في جهات زبيد، فتلازم الحرب بين الفريقين من الفجر ودخل الأتراك محطة الأمير سنبل، ثم كان الحريق في المحطة، فمنع الأتراك عن التقدم، وثبت الأمير سنبل ثباتاً عظيماً، فقتل من الأروام مائة نفر، وتعذر نفوذ الغارة التي أرسلها الحسن بن الإمام من محطة الحمى إلى الأمير سنبل صحبة الأمير الخضر بن الهادي بن الحسن، ولم يستحسن الحسن بن الإمام نحوه للتفريج عن الأمير سنبل خشية أن يقصد قانصوه محطة الحمى وتحصن الأمير سنبل بالتأوب حتى حجز بينه وبين الأتراك الليل.

ورجع الأتراك بعد ذلك وقد ذهب عدة من القتلى من الفريقين ولم تزل الحرب على

(١) تصغير قرية.

ساق بين الحسن والأترار بقية ذي الحجة. انتهى.

ومن ذيل روح الروح أيضاً، وفي (جمادى الأولى سنة ١٠٤٤هـ) توفي بمطرح الحمى خارج زبيد السيد صلاح بن عبد الله بن المطهر، وتوفي هنالك أيضاً السيد صلاح بن جعفر بن الهادي بن المطهر وصنوه ناصر بن جعفر.

وفي شعبان توفي بنحيس السيد عبد الرحيم بن يحيى بن عبد المؤمن بن عبد الشكور بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين أمير تعز، وكان ذكياً أديباً أليفاً، وتوفي بالحمى السيد علي بن الهادي بن غوث الدين بن المطهر، وكان أديباً أريباً، وتوفي بالحمى أيضاً السيد ناصر بن لطف الباري بن محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين.

وتوفي به أيضاً الفقيه الأديب عبد الله الزبيدي، وكان أديباً أريباً حافظاً لأخبار الدولة التركية.

وفي هذه السنة ظهر داع في بلاد المشرق تسمى بالإمام جبارة، فأتي به إلى الحسن بن القاسم إلى الحمى، فأمر بضرب عنقه.

وفيها كان الحريق بمحطة الحسن بالحمى فهلكت نفوس وخزائن، وكان قد وقع الصلح بين الحسن والأروام في (رجب سنة ١٠٤٤هـ). انتهى

ووصل أحمد بن القاسم من جهات صنعاء إلى جهات ذمار لضبط السبلاد وتأمين السبل من الدعار وأهل الفساد، وكان صحبته الأمير الشيخ ناصر الحبشي عن أمر الإمام.

وفي (سنة ١٠٤٤هـ) خرجت طائفة من عسكر الأروام من زبيد، فمنعهم جنود الحسين وقتلوا منهم وأخذوا بعض خيلهم.

وفيها كانت وقعة النخل وهي أن الأمير مصطفى لما عظم أمره بعد وقعة المظفرية لم يزل يختلف من زبيد إلى المخا لمشاورة قانصوه، فبلغ الحسن وصوله من المخا إلى زبيد، فقصده بنفسه، وترك في المحطة أخاه الحسين. فالتقوا في النخل ليلاً، فبغت مصطفى وأصحابه ثباتاً عظيماً حتى كاد أن ينهزم أصحاب الحسن، فضربت النوبة في محطة الحسن، فاهتم الأروام أنها زيادة جيش قد أقبلت للحسن، فانهزموا وقتل منهم ما لا يحصى واستولى الحسن على ما معهم من الحملة وهي قدر ثلاثمائة جمل من الحب، فحصل

الارتفاق بها، ومن جملة الغنائم الزبارط والوِطاق الذي أخذه مصطفى على شمس الدين في المظفرية.

وبعد هذا طلب الأروام الصلح من الإمام، فأسعدهم إلى مقدار ثلاثة أشهر، فكان هذا الصلح من الألفاظ الربانية؛ فإنه أصاب أصحاب الإمام الحمي، بعد ذلك مرض عام فلم تنقض أيام الصلح إلا وقد شفي الأكثر، ومات من وافاه أجله كيوسف بن الإمام القاسم وهو في أوان البلوغ ودُفن بالحمي - رحمه الله -.

وفي هذه المدة خرج الشريف هاشم بن حازم مفارقاً للحسين على جهة الخفية لم يكن معه إلا خادمه، وكتب إلى الإمام أن جميع ما معه في المخططة من خيل وسلاح وغيرها لبیت المال يتصرف فيها الإمام كيف يريد، فحصل مع أصحابه وهم قدر ألف نفر أسفّ عليه إذ هو قائدُهم وكان من أهل الكمال والديانة والمعرفة والفطنة. قرأ على الشيخ لطف الله بن محمد الغياث بمكة المكرمة، وهو من بيت الرئاسة، وخرج من مكة إلى اليمن لطلب العلم، ولما وصل صبيا ندم على فعله، فرجع إلى حضرة الإمام وهو بأقر، فاعتذر إليه، فعذره وقابله بالإكرام، ورجع إلى الحسن بالحمي ببلاد زيد فتلقاه الحسن بالإكرام في موكب عظيم.

وفيهما قدم (قانسوه) من المخا إلى زيد، وشرع في فعل حيلة وهي حفر خندق خارج سور زيد، وجعل فيه رجالاً من الشجعان معهم الزبارط المشحونة بالحديد والرصاص، ثم قصدوا محطة الأمير سنبل، وهو في القرية، فأثاروا الحرب، فحمل عليهم الحسن بن الإمام بأصحابه، فانهزموا فتبعهم الحسن حتى قرب من الخندق، فرمى من فيه فقتل من أصحاب الحسن نحو السبعين، وقتل من الأروام كثيراً. وتعبه حرب آخر قتل فيه من أعيان أصحاب الحسن السيد الهادي بن علي الشامي.

وفيات

علي بن محمد الجملولي

قال في الطبقات: وفي (٣ رجب سنة ١٠٤٣ هـ) توفي بكوكبان الفقيه العلامة علي بن محمد بن إبراهيم بن محمد الجملولي الأهنومي. وكان علامة كبيراً عاقلاً رصيناً، يُرجع

إليه، وعنه أخذ جماعة، وكان الإمام المؤيد قد عينه للقضاء بكويسان والتدريس والإرشاد، وكان يجري مع الناس على طبقاقتهم بما يجبر به قلوبهم، ولم تجر عليه وصمة. وفي كلامه ما يجري مجرى الأمثال. وولده الفقيه زيد بن علي الجملولي هو الذي أعدمه صاحب المواهب بدمار (سنة ١٠٩٨هـ) وحفيده هو العلامة علي بن محمد بن علي بن محمد الجملولي، توفي (سنة ١١٢٥هـ) وجده مفتي الحنفية بصنعاء مع الأتراك إبراهيم بن محمد الجملولي، توفي بصنعاء (١٠٠٢هـ)، سبق.

محمد بن عبد الله أبو علامة

وفي (٨ ذي الحجة سنة ١٠٤٤هـ) توفي بصعدة السيد العلامة النسابة صاحب المشجر المشهور، محمد بن عبد الله بن علي الملقب أبو علامة. وكان علامة نحريراً، لكنه خالف على الإمام ووالى الأتراك ثم تاب واعتزى إلى الإمام، وهاجر إلى صعدة في أيام الإمام المؤيد، وكان والده قد دعا، ولعل وفاته (سنة ١٠١٧هـ) وسبقت إشارة إليه.

محمد علي الغشم

وفي (أول رجب سنة ١٠٤٣هـ) توفي بجهات مسور لاعة القاضي العلامة الفاضل الزاهد محمد بن علي، وقيل: ابن عبد الله الغشم الأنسي. وكان عالماً عابداً، طاف في كثير من جهات اليمن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإرشاد إلى معالم الدين. وله تفسير للقرآن في مجلد، وله قصيدة بليغة نحو مائتي بيت تتضمن العقائد والمذاهب، وقبره بمسور لاعة مشهور مزور، وسيأتي ذكر له عند وفاة أخيه أحمد بن عبد الله (سنة ١٠٥٠هـ).

وفي شهر (رجب سنة ١٠٤٤هـ) توفي بحصن ضوران المولى الحسن بن علي بن الإمام القاسم وعمره نحو عشرين سنة كما في اللآلئ المضيئة.

وفي (شعبان سنة ١٠٤٤هـ) توفي بمطرح الحسن بن الإمام أخوه المولى يوسف بن الإمام القاسم، وعليه قبة بالحِمَى.

وفي (رجب سنة ١٠٤٤هـ) توفي المولى يحيى بن الإمام القاسم وعمره نحو عشرين سنة وقبره بمسجد حجر بصنعاء، وقد وصل من الحِمَى إلى صنعاء مريضاً من وباء قحمة،

وقال المولى الحسين بن القاسم يرثيهم:

سادة غُولجوا بكأس المنايا	عجباً ما أمر كأس النية
من فقيدين سيدين بصنعا	وبضوران قبر نفس زكية
ثم من بالحِمَى أحل فقيد	يوسف ذو المحاسن اليوسفية
يا لها أوجهاً غدت في الحود	كالنجوم التي تضيء بمية
مَا رَعَى الموتُ في علاهم ذماماً	للمعالي وللجلال السنية
أودع القلب منهم حر نار	عظّم الله أجرها من رزية

صلاح بن أحمد المؤيد

وفي (ذي الحجة سنة ١٠٤٤هـ) توفي بقلعة غمار من جبل رازح السيد الإمام العلامة صلاح بن أحمد بن محمد بن علي بن الحسن بن الإمام عز الدين بن الحسن المؤيدي عن ٣٣ سنة، فإن مولده (سنة ١٠١٠هـ)، وأخذ عن القاضي أحمد بن يحيى حابس والسيد داود بن الهادي المؤيدي ومحمد بن عز الدين المفتي بصنعاء، واستجاز من علماء مكة.

ومن تلامذته السيد إبراهيم بن محمد بن أحمد بن عز الدين والسيد صلاح بن أحمد بن علي بن عبد الله المؤيدي وغيرهما.

وكان إماماً مجتهداً في كل فن، فارساً شجاعاً كريماً فصيحاً شاعراً له الخط الحسن بالقلم العربي وغيره، وولاه الإمام المؤيد بن القاسم ولاية عامة، وله قصيدة تجرم فيها من ميل الناس عن علوم آل محمد.

قال السيد المفتي: ((وهي أفضل ما قال))، نأمل أن ننقل منها شيئاً، وصنف عدة مصنفات وجاهد الأتراك وفتح مدينة أبي عريش، وحاصر صنعاء مع الحسين، وكان مطرحة بالجراف، وكان منصوراً أينما توجه ولا يسافر إلا بكتبه، وأول ما تضرب خيمة كتبه فيدخلها للقراءة والخدم يضربون بقية الخيام ولا يزال ليلة ونهاره يحرق العلم والآداب مع ذوق لا نظير له، ووفاته بعد والده بخمسة أيام وقال في اللآلئ المضيئة: وفي نصف (ذي الحجة سنة ١٠٤٤هـ) توفي بغمار رازح السيد العلامة أحمد بن المهدي بن

محمد بن علي بن الحسين بن عز الدين بن الحسن، وأقام الإمام المؤيد مقامه ولده يحيى بن أحمد بن المهدي.

وفي (٢٠ ذي الحجة) توفي بقلعة غمار من رازح السيد صلاح بن أحمد المهدي، وقبره ينجب والده. وفي البدر الطالع والجامع الوجيز أن وفاة السيد صلاح بن أحمد بن المهدي في (سنة ١٠٤٨ هـ)، قال في مطلع البُذور: ((رأيتـه خارجاً إلى بعض المتزهات بصعدة مع أصحابه نحو خمسة وثلاثين فارساً يتراجعون بالمسائل والأديبات، وكان هذا ذأبه، وله مصنفات وأشعار بليغة)) وترجمته طويلة في مطلع البدور، وهو من نواذر الدهر علماً وفضلاً وذكاءً ورئاسة وشهامة.

حوادث سنة ١٠٤٥هـ

في شهر صفر طلب الأروام من الإمام الصلح لأنه قد نفذ ما معهم بزييد من النقد وغيره، واحتاجوا حاجةً شديدة، فأسعدهم الإمام سنة، وكان رأي الحسن عدم الإسعاد، فلم يسعه إلا الإسعاد وامتثال رأي الإمام، ولم تطل المدة، فقد خرج (قانسوه باشا) في قدر ثمانية خيالة إلى محطة الحسن ولم يشعر بهم إلا بعد أن وصلوا المحطة في يوم (الجمعة ٢٧ صفر سنة ١٠٤٥ هـ)، وبقي عند الحسن بن الإمام إلى شهر (جمادى الآخرة سنة ١٠٤٥ هـ).

وكان قد بدأ بالاجتماع بالحسين بن الإمام خوفاً من الحسن، ومما قاله للحسن: ((إنكم قد قبضتم اليمن وتسلمتموه، والسلطان ما مراده من اليمن إلا لحفظ الحرمين الشريفين، فإذا تركتموهما ولم تعرضوا لهما فلا يخرج أحد بعدي إلى اليمن، وإن فاتحتم على الحرمين الشريفين، فإن السلطان لا يترك اليمن لأجلهما)).

وطلب قانسوه العزم إلى الروم فودعه الحسنان توديعاً كريماً، وأحسنأ إليه وزلجه الحسن بزلاج عظيم، وأعطاه من الخيام شيئاً كثيراً، يقال: ثلاثمائة خيمة بوطاق، وكذلك الجمال والمال، وتوجه معه السيد التقى ابن عبود وسار بما معه من العُدَد، شاكراً للحسن بن الإمام علي ما بذله من المدد، ويقال: إنه أعطاه ثلاثة لكوك، ويقال: إنه أراد أن يعرف انضباط الجيوش، فقال للحسن: ((إني لا آسف على شيء إلا على سيف فُقد مني، فأسفت عليه))، فأمر الحسن أن يحضر كل حامل سيف يضع سيفه أمامهما،

فوضعوا سيوفهم عشرات الألوف، ثم قال: لم ير سيفه فيها، فأمرهم الحسن أن يأخذ كل واحد سيفه فأخذوها بانضباط، فبعد ذلك قال قانصوه للحسن: ليس معي سيف، وإنما أردت أن أعرف الانضباط والطاعة للذين بهما داوم ملككم.

ثم إن مصطفى باشا لما قل عليه الطعام والمدد بزييد أرسل إلى الحسن في خروجه إلى المخا وتسليم زييد والمخا إلى من شاء الحسن وشرط حمل ما معه من الأثقال والأثاث وأن من معه من شاء أن يعزم معه فلا حرج عليه، فأجابه الحسن إلى ذلك، فخرج إلى المخا ووصل من عند الحسن السيد محمد بن عامر لقبض البندر (المخا)، ثم ركب الأمير مصطفى بمن معه البحر من المخا، ومعه ألف وخمسمائة من العسكر.

ثم إن الحسين بن الإمام طلع ضوران من طريق رمع والحسن بن الإمام دخل زييد وصام شهر رمضان بزييد، وقرر لولاية بندر المخا الأمير سعيد بن ربحان الآغا وهي أكبر ولاية ورفع ما كان يؤخذ من المظالم. وفيها أو في التي قبلها ظهر جراد كثير باليمن.

وفي (سنة ١٠٤٦هـ) حصل قُر شديد وقت الظافر فضرب كثير من الأعناب، ووقع غلاء في الأسعار وقلت الأمطار، وهلك في المغارب كثير، وفي تهامة إلى بلاد عذر وعاهم وظاعن ونهم والمشارق، واستغاث الناس إلى بلاد شطب وعفار واليمن الأسفل، ولم يعدم الطعام إلا أنه بلغ القدح الصنعائي إلى حرفين، لكنها تهاوت الأسعار آخر السنة، وزالت الشدة ولم تطل المدة، بل كانت قدر نصف سنة، مات كثير من القراش وخلت قرى في اللجب ومشارق تهامة.

أحمد عواض الأسدي

وفيها توفي الحاج المجاهد الكبير أحمد بن عواض الأسدي الذي كان من أكبر أعوان الإمام القاسم من أول دعوته، وقبر بالروضة - رحمه الله - وكانت وفاته يوم الاثنين (٢١ ربيع الثاني سنة ١٠٤٦هـ) وكان مرضه خمسة أيام. وله في نصرة الإمام المغازي الكثيرة العديدة البعيدة، والفتكات العظيمة بالأتراك، وكان أكثر استقراره بخولان العالية، وكان جنوده الذين حمى بهم خولان وغيرها من الأتراك وغزا بهم غزواته الشهيرة التي تضمنتها سيرة الإمام القاسم، وقد كان مات ولده الأكبر قبله قريباً، وكان هذا ولده بجاهداً مرابطاً مع الحسن في تهامة وغيرها.

صلاح بن عبد الله السراجي

ومن ذيل روح الروح: في (٥ جمادى الأولى سنة ١٠٤٥هـ) توفي السيد العلامة صلاح بن عبد الله السراجي الحاضري. وكان متفناً في كل العلوم بليغاً ناظماً ناثراً، وقبره جنب قبر السيد صلاح بن أحمد الوزير المتوفى (سنة ١٠٤٠هـ) وفي طبق الخلوى: أنه كان لطيف المحاضرة حسن الجواب، وقد كانت له المترلة الرفيعة عند الباشا جعفر والباشا فضلي، فإنه تمكن من قلب الرجلين، ولما كتب إليه الباشا جعفر يسأله بقوله:

ماذا يقول إمام العصر في رجل أضحي قتيل الهوى بالأعين النجل
هل يستباح له أحياء مهجته برشف محبوبه والضم والقُبْل
أم لا يجوز له يوماً يعانقه ويشفي^(١) النفس من قول بلا عمل
فأجابه بقوله:

إن صح دعواه في إتلاف مهجته وأن رشف اللوى يشفي من العلل
فليرشفن رضاب الثغر ملثماً من ريق محبوبه أحلى من العسل
فالرشف في شرعة الإسلام أهون من قتل امرئ مؤمن بالله والرسل

وقال الوزير في طبق الخلوى أيضاً: إن ظاهر هذا موافق لمذهب الظاهرية أن التقبيل والنظر لشهوة^(٢)، وسائر المقدمات جائز، وبسبب هذا قد تعدى الحال في أيام حيدر المغرور، وما هو في سيرته وسيرة حاشيته مشهور، فكان إذا قصد إحدى المنتزهات اتحمك في أنواع المفاسد واللذات وبيع الخمر في سوقه واستوى زرع المنكر على سوقه، وقد قطع هذا العرق الظالم بدولة القواطم، بعد حصد تلك الرقاب العواصي بالعواصم، والحمد لله.

وفي (جمادى الأولى سنة ١٠٤٥هـ) توفي الفقيه الكامل الداهية ناصر بن علي بن

(١) وفي قوله: ويشفي النفس نصب بدون ناصب، وقد وقع له شواهد في أشعار القدماء وشعر المولدين كاللثني وغيره ووجهه بتقدير أن.

(٢) حمله المصنف الوزير على الجدمع أنه هزل، كما لا يخفى في نظائره من المداعبات والمعجب كيف يخفى هذا على الأديب الوزير. انتهى من خط المولى الحسين بن علي العمري - رحمه الله -.

زيد بن هُشَل الحبشي الشرفي.

وفي (صفر سنة ١٠٤٥هـ) توفي بتعز السيد الزين بن عز الدين بن محمد بن عز الدين بن الإمام شرف الدين.

وفي (شعبان سنة ١٠٤٥هـ)، توفي بدمار السيد يحيى بن لطف الباري بن محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين.

أحمد بن موسى الصعدي

قال في اللآلئ المضيئة للشرقي: وفي (جمادى الآخرة سنة ١٠٤٥هـ)، كانت وفاة الفقيه الفاضل المحدث سلمان أهل البيت النبوي في عصره وأبي ذر الغفاري أحمد بن موسى بن مقبل بن علي سهيل العدناني التزاري الصعدي، وقد طعن في السن وحج في (سنة ٩٨٠هـ).

وكان له في محبة أهل البيت والسعاية في قضاء حوائجهم والمحبة لهم بقلبه ولسانه والمناصرة بيده وإحسانه ما لم يكن لغيره قط، ولقد كان يسير بنفسه إلى قراهم البعيدة ليتفقد حُرْم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وربما تختصم المراتان منهم، فيخرج إليهما ليصلح بينهما، وكان قد اتخذ منزله مألفاً لبني هاشم يأوون إليه كما يأوي الطير إلى وكرة، وكان ممن بايع الإمام الحسن بن علي بن داود وشايعة وناصره، واستعان له من أهل صعدة أموالاً جزيلة، ولما دعا الإمام القاسم جعل له ولاية عامة، فكان يفعل كما يفعل الإمام من التصرفات، وكان باقياً في صعدة أيام الظالمين بأمر الإمام، وكان له هيبة في صدور الظالمين، وجرى له مع ولاية صعدة كالأمر محمد الكردي، والأمير صَفَر قصص وسلمه الله منهم، بل حُبس ساعة من نهار ثم أُخرج.

وقد كان هموا بقتله وأحضرُوا ما أرسله إلى الإمام حجة عليه، فهابوه وأبلسوا لما رأوا المدينة تموج بأهلها خوفاً عليه، فخلوا عنه، وقد أجاب على الأمير محمد بن جواب حسن قبله، قال له: هذا الإمام هو من بلدنا وبيننا وبينه مثلما بينكم وبين من هو من بلدكم كتب إلينا نشترى له بعض كسوة وصابون وأمور ليس عليكم منها ضرر، وكان يتكلم وهو مطرق لا ينظر إلى أحد من الأتراك.

أخبر السيد علي بن المهدي، قال: خرجنا مع سيدنا أحمد بن موسى لزيارة السيد فارس خارج صعدة، فإذا هذا الطاغي قد خرج بخيله ملأً البقاع، فانفرد عن فرسانه، وأقبل على فرسه حتى وقف وقد عرف سيدنا أحمد، فقال: أين تريد يا فقيه؟ فقال: أخرج إلى السيد فارس، فولى عنا ولحق بفرسانه، فسألني سيدنا أحمد هل الأمير شبية أم لا؟ فقلت: (يا سبحان الله)، أنت في بلده كذا كذا مدة ولا تعرفه، فقال: ما أعرف وجهه ولا أريد أن أعرفه.

أحمد بن عامر بن محمد الذماري

وفي شهر (رجب سنة ١٠٤٥ هـ) كانت وفاة القاضي العلامة المجاهد شمس الدين أحمد بن عامر بن محمد الذماري عقيب طلوعه من جهات زبيد، وكان مرابطاً للجهاد مع شرف الإسلام الحسن بن الإمام، فطلع إلى بيته في خولان في عاشر حيث مسكن والده، ومات ومشهده بعاشر، فمرض أياماً قليلة، ومات -رحمه الله- قبل والده، ووقع مع والده أمر عظيم لكبر سنه، ولم يبق من أولاده غيره، وكان مقدماً رئيساً عالماً.

الهادي بن صلاح النعمي

وفي يوم (الثلاثاء ٢٩ ذي الحجة سنة ١٠٤٥ هـ) كانت وفاة السيد الأفضل الأكمل الهادي بن صلاح بن الهادي الوشلي النعمي الوالي بيندر جازان. وكان موته بعله الجدري، وبعد وفاته ولَّى الإمام المؤيد بجازان أخاه السيد محمد بن صلاح بن الهادي الوشلي النعمي.

أحمد بن علي الحيمي

في (سنة ١٠٤٥ هـ) توفي بمكة الشيخ العلامة النادرة أحمد بن علي الحيمي الحيرسي - صنو عبد القادر-. كان من نوادر الزمان، فقيهاً ذكياً، أحاط بعلوم كثيرة بقوة الذكاء وسرعة الحفظ والتمكن، بسرعة من تحقيق مذهبه الزيدي، ثم قرأ فقه الحنفية. وتولى القضاء للأروام بصنعاء، وكان يفتيهم بمذهبهم بلسانهم ويفتي أهل فارس بلغتهم والعرب بلغتهم مع تبحر في علم العقول وشيخه في فقه مذهبه السيد محمد بن عز الدين

المفتي، ثم أنه اختلط آخر عمره، فادعى تارة أنه المهدي المنتظر وتارة أنه دابة الأرض التي تكلم الناس، وله أشعار فائقة، ثم دخل مكة واشتغل به العلماء هنالك، وبها توفي.

علي بن الحسين العابد

وفي ليلة (السبت ٢٨ ربيع الأول سنة ١٠٤٦هـ) كانت وفاة السيد الأفضل الأعمى علي بن الحسين بن علي العابد بن إبراهيم بن علي بن محمد بن صلاح الشرفي بصنعاء. وقبر بجانب قبر السيد عبد الله بن محمد بن صلاح، وقبر الفقيه العلامة حسن النحوي مصنف التذكرة.

كان من الفضلاء الأخيار العلماء الأبرار، وله مآثر حسنة، وهو الذي نقل جده الزاهد العابد علي بن إبراهيم من عفار، وكان مقبوراً في المشهد الذي فيه السيد داود، فنقله إلى بلده المسمى القويعة من الشاهل وبني عليه قبةً وبني حولها مسجداً جامعاً.

علي بن قاسم العنسي

وفي (ذي الحجة سنة ١٠٤٦هـ) كانت وفاة القاضي العالم الزاهد العابد الأفضل علي بن قاسم بن يحيى العنسي في برط. وكان من العلماء الأبرار والفضلاء الأخيار، له معرفة في الفقه وأصول الدين، وكان زاهداً في الدنيا، وقد اهتدى على يديه الكثيرُ بجهات برط، وستأتي زيادة في ترجمة ابنه أحمد المتوفى بصنعاء (سنة ١٠٦٥هـ).

المهدي بن عبد الله الذيباني

وفي (رجب سنة ١٠٤٦هـ) توفي بصنعاء وقبر بباب اليمن الفقيه العلامة المقرئ المهدي بن عبد الله الذيباني، ثم الصنعاني. قرأ على الشيخ سعد بن علي منحه وغيره، وقرأ عليه المولى الحسن بن الإمام القاسم أيام حبسه بقصر صنعاء، وكان فقيهاً محققاً فاضلاً.

وإلى هنا انتهى كتاب المستجد من تاريخ العماد، وهو المولى يحيى بن الحسين بن الإمام القاسم الموسوم (بأنباء الزمن في أخبار اليمن)، قال مؤلفه: كان جمعه (سنة ١٠٦٥هـ) وأرخه بعضهم:

أصلح الله ليحيى	كل أعمال ونية
وجزاه الخير لما	حاز أخبار البرية
بعبارات جليّة	ليس فيها قط مريّة
ولذا تاريخه قل	جاءنا في لفظ (غنية)
(١٠٦٥هـ)	

وقد بقي الأتراك باليمن مائة سنة من (سنة ٩٤٥هـ) إلى (سنة ١٠٤٥هـ). ومن هنا يتدبّر طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى للسيد العلامة الحافظ الألمعي الشهير عبد الله بن علي الوزير المتوفى بصنعاء في (٢٥ رمضان سنة ١١٤٧هـ) عن ٧٣ سنة، وقد جعل كتابه طبق الحلوى كذيل لأنباء الزمن إلى (سنة ١٠٩٠هـ) ننقل في خلاصة المتون كثيراً منه، ومن خطبته:

الحمد لله الذي وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في بلادهم، وجعلها دُولاً بين خلقته والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وأشهد أن لا إله إلا الله الوارث لكل حيوان وجماد، وأصلي وأسلم على النور المنتقل في الأصلاب الطاهرة، المخترع لأجله الكون، وإليه رئاسة الدنيا والآخرة، وعلى آله حمال الكتب والسير، مركز دائرة العز الأظهر.

وبعد.. فيقول المفتقر إلى مولاه القدير عبد الله بن علي بن محمد بن عبد الإله الوزير جملة الله بملبوس العافية والتقوى، ونزع عن خاطره مخايل الأهواء: هذا كشكول لطيف على الأرواح خفيف، أخذت العفو في الترتيب والرفق، فلم أحفل بالشهر وتسيير أيامه، ولف الدهر وتفتيش أعوامه؛ لعلمي وكل من برع في التسيير، أن هذا تصدّر لأمر عسير، وتعرض لما ليس من الصدق في قبيل ولا دبير، وقد غزّي إلى بعض مؤرخي اليمن أنه وضع باسم بعض الباشات مؤلفاً جعله على ترتيب أيام الشهور، ولما قُتشت ورقائه وجد منه نسختان، إحداهما المقتصر عليها والمرجوع في التسيير إليها، وحين قُوبل بين محصوليهما وجد الاضطراب بين منقوليهما، فترى في إحداها النكتة الفلانية في الشهر الفلاني، وتراها في الأخرى قد رتبت للثالث والثاني، ومن هذا الاضطراب الذي يقضي بأن القصد من هذا الكتاب الخدمة لذلك الجنب، فترى الكتاب لابساً لتلك الأساليب

والله أعلم ما تحت تلك الجلايب، وقد اطلعت على تاريخ لبعض أبناء ملوك اليمن أوعب فيه ما وصل إلى علمه الشريف وفكره اللطيف، فاعتمدت في القصص عليه، وأحلت جُلَّ ما نقلته إليه، وما زدتني فإن عزوته فقد خرجت عن عهده، وإن أطلقته فهو إن شاء الله بريء من الكذب ووصفته، ولم أتكلف لأكثره سجعا مطبوعا، ولا أحلته من مساكن التنطع ربوعا؛ لأني قصدت أن يشترك في الميل إليه أهل البداية والنهاية، وقد رأيت كثيرا من المؤلفات منبوذا مهجورا بسبب ما تحمله من النكات.

توفى البدور النقص وهي أهلة ويدركها النقصان وهي كوامل

وفي (صفر سنة ١٠٤٦هـ) اختط المولى أبو طالب أحمد بن القاسم الجامع الذي عمره بالروضة.

أحمد الحكيم بن لقمان

وفي (جمادى الأولى سنة ١٠٤٦هـ) توفى بكوكبان أمام محراب جامعها السيد أحمد الحكيم بن لقمان بن أحمد بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى بن المرتضى الكوكباني.

وكان سيدا فاضلا ورعا ناسكا، وفيها كانت العبرة التاريخية بملحمة الغرب التي جرى لمصالحها من كل عين غريب؛ وذلك أن الملوك الحسنية بتلك الديار تجاذبوا أهذاب النزاع والشجار، وكادت بجبوحه ملكهم أن تنهار وأكثر مملكتهم هي فاس، أما غيرها فقد خرجت عن الانتماء إليهم، وخلاصة ما شجر بينهم أنه لما فارق الحياة أميرهم الشريف أبو عبد الله القائم بأمر الله الحسين طلع بتخت مملكته أخوه الأكبر وملك القضيب والمنير، وضربت السكة باسمه وعقد عليه اللواء الأزهر، ثم أن بعد ذلك جنح إلى اقتعاد مملكة العلوم، واستخدام عساكر منطوقها والمفهوم.

ولم يلبث أن خلعه هادم اللذات، فطمع ولده في أن تكون مملكته من سائر الموروثات، فرام وضع السيف في من بقي من أعمامه، وقرطس من كنانة غدره نصال سهامه، طمعا في تفرد بتلك الجهات، ولهاجا في أن تصفو له بتفرده الكدورات. ولما علم بذلك عمه الشريف أحمد، أقبل على حربه بخاطر مؤلم وقلب مكمد،

فرحف عليه بجيش جرّار، ورماه من رجال الروم بمارح من نار، فمرج عليه بحرين، وجر عليه خمسين، وانكشفت الوقعة عن اقتحامه البحر الزخّار، وهكذا يكون دفع العار بالعار، فتقرر ملكه على قاعدة المغرب بأطراف الرماح، واستسلم خلع السلطنة بشفار الصفاح، وهكذا عاقبة من جنح إلى الملك العضوض، غير ملاحظ قاعدة مسنون ولا مفروض. وقد أُلِمَّ ببعض القصة الشهاب الأفندي في ربحانه الألبا، وهي من محاسن ما صُنِف في العصور المتأخرة، ومن البلغاء من يرجح نفسه على نفس قلائد العقيان.

وأما شعراؤها ففيهم المجيد والمتوسط، وفيهم من لا يدون شعره إلا بتسامح، وهذا الكتاب اليوم قد انتشرت نسخه في اليمن، ومؤلفه علامة نفسه يقضي بأنه من أرباب الاجتهاد، وما صان لسانه في رسائل أطلقها على أعراض جماعة من أكابر الروم، وقد كان يُسمّى بالولي، فإننا لله وإننا إليه راجعون.

ومن مؤلفاته، شرح شفاء القاضي عياض، ومما قلته فيه وفيها^(١):

إذا تنبأ بينكم أحمدٌ يا أهل مصرٍ غير منكور
فقد تحداكم بربحانة أوراؤها جاءت بمشور

وفيها خرجت الحدّا عن مذهب الشافعية إلى مذهب الزيدية، ولتقارب الديار أثر في هذه القضية، ويُقال: إن أصل هذا البطن من الحدادين بمصر القديمة، وإن نسبة بعضهم إلى يزيد بن معاوية، والله أعلم بالحقيقة.

وفيها كتب الإمام المؤيد محمد بن القاسم إلى صنوه إمام الاجتهاد الحسين رسالة تُكتب من العيون بالسواد، وتُقدى من المهج بسواد الأكباد، تليق بكل أمير وكل مؤمّر، ألا يفارقها في سفر ولا حضر، يربطها في زنده، ويدرسها مع ورده، يحث فيها على التواضع وترك المباهاة والتطاول وما يتعلق بالديانات الظاهرة والباطنة، وإعطاء ذوي الحقوق حقوقهم، والنهي عن القطيعة والعقوق، وتوظيف مراتب أهل الحقوق، على طبقاقتهم بمراعاة العالم بتوفير حقه وتوقيره، والجاهل بمواساة فقره المطيع وزجر عاصيه

(١) الكلام كله للوزير في طبق الحلوى.

وتحذيره، وافتقاده الأمراء والأجناد وعرضهم في أغلب الأحوال على دفاتر الإمداد، وكف الجند لا سيما الحاشية في كل وقت عن التخطي إلى طرق المظالم، وصيانة بيت المال، فعمارة المنصب بالمال، وعلى قدره يكون قدر الحياطة من الاضمحلال، وفي هذه الرسالة ما هو أكثر من هذا المرقوم، فلتطلب من محلها.

وفيها قُتل شريفٌ معتقد من بني العيدروس بحدود خثعم، قاصداً لبيت الله المعظم، فضرب الله أهل تلك البلدة التي قُتل فيها بالجُذام عقيب ذلك المنكر، وظهر عند الخاص والعام.

وفيها كانت وفاة السيد الأديب محمد بن مقاطع حبي، وله شعر متوسط مدح به الشريف المسعود صاحب مكة، ومَلِك اليمن الحسن بن القاسم والأمير الحسين بن عبد الرب الكوكباني، وله مكاتبات مع إمام الفلك السيد عيسى بن لطف الله ومعارضات لشعر السيد العلامة محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين.

وفيها وفاة واحد عصره في التنجيم والخط القويم عبد الله بن صلاح عنقوب، وله كتاب مجموع الزيج، وتكميل في الشهور العربية واليزدجرديّة، ككتاب الشيخ باغوث الحضرمي بلغ فيه إلى (سنة ١١٦٨ هـ).

وفيها مات الفقيه الفلكي عبد القيوم الرُّغَيْلي، وكان من الإتقان بمحل، وهو الذي وضع المذخل المختصر لزيج بن الشاطر المسمى بالدر النظيم، وقد وقفت عليه فرأيتُه جداول ساذجة خلاف ما عليه كُتِب هذا الفن من تخلل رسالة المداخل، وهو لطول مصر.

وفي (سنة ١٠٤٧ هـ) ارتحل الملكان الحسن والحسين من ضوران متوجهين إلى صنعاء في أُبْهة حيدرية ومملكة رومية، وخبول كالسَّعالي، وجنود تندك لها الشم العوالي، وتلقَّاهم من بصنعاء، فدخلوها في وقت مسعود، وكان يوماً مشهوداً انبهر له عسكر الأروام، الذين رغبوا في خدمة آل الإمام، ورأى الناس ما هالهم من الشارة الملوكية، والسناسق السلجوقية، والثَّوبَة التي رجفت لأصواتها قلوبُ المرجفين، واستحكمت بها قُوَّةُ أفئدة الذين كانوا مُستضعفين، ولما قرَّ قرارُ الملِكين انفصل الحسنُ إلى روضة حاتم البهية بمن معه من القوَّاد والأتابكِيَّة، ورجع أخوه الحسينُ إلى ضوران، وأحيا معالمها

فكان إلى نيابة مصر، وحين رأيت كثرة أموال طمعت في اليمن فتحملت مؤنة العساكر الرومية من مالي، وأما السلطان فما كان له فخرج إلى الخروج.

وفي هذه السنة كتب المؤيد إلى أخويه رسالة أمر فيها بأخذ الزكاة من القليل والكثير أخذاً بظاهر عموم الحديث (فيما سقت السماء العشر) قال: لأن على الناس واجبات ولو علم أنهم يتخلصون منها لما فعل ما فعل (ولقد غفل سامحه الله عن الحديث الصحيح المخصص (ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة) ولقد سن سنة سيئة رغم زهده وفضله وعلمه والعلة واضحة في عدم وجوب الزكاة فيما دون الخمسة الأوسق فصاحبها لا تكفيه في العام ولا يزال فقيراً فتكليفه بها مخالف للنقل والعقل) (وتبعه في هذا بعض الأئمة كالإمام يحيى حميد الدين).

وفيها ظهرت نار على بلاد حجة بمكان مرتفع واستمرت أياماً فسيحان من عظمت قدرته وبهرت صنعته، وفيها رأى بعض السادة طفلة لها ثديان ولحية مسترسلة فسيحان القادر على ما يشاء.

وفي شعبان هذا العام اقترن المشتري والمريخ وتطلب منزلة الاقتران من مصنف ابن عنقوب، فقد قررها وحررها.

وفيها عاد الحسن بن الإمام إلى مستقر مملكته ضوران وأطال فيه البنيان، فإنه كان أكرم من الغيث الهامع، ومع استقراره بما أمنت قبائل تلك الجهات، وكانت الحدا قد استولت على أكثر أموالهم ثباً وغصباً، واستقوت هذه القبيلة وصارت للمسلمين حرباً.

وفي ضوران الجبل المسمى بالدامغ وهو من المعازل الجسيمة والأعلام المنيرة العظيمة حميري الأساس مليح الأنفاس، وقد ذكره الملك الرائش ذو مراند في شعره وهو الذي أسس بناه وشيّد وانتماه. وهو من الأعلام المشمخرة تسترسل بين أكتافه ذوائب الغيوم، وتحمل المرأة مكتلها لما تتساقط إليه من دراري النجوم، قد امتزج طينه من غير النسيم بطيب، وأخذ نسيمه من الشفاعة إلى المزن بنصيب، حتى أطار القلوب إلى بيتي حبيب، في ذكرى منزل وحبيب.

ربى شفعت ريح الصبا بنسيمها	إلى المزن حتى جادها وهو هامع
كأن السحاب العر غيئ تحتها	حبيباً فما ترقى لمن مدامع

وهو واسع المزارع، كثير المنابع، له عيون تسرح إلى تلك الغصون، وترداد بترول ماء المعصرات الجُون. ولما صعد إليه السيد عيسى بن لطف الله المؤرخُ صحبة الحسن بن الإمام، ورأى رحابة أعلاه، وما فيه من الأراضي المثمرة، والعيون المتفجرة، قال: (هذا أرض في سماء، وهو حاكم على تلك البقاع، مُتَسَنِّمٌ على صياصيبها والقلاع).

وفيه قال بعض البلغاء من قصيدة طويلة:

كَأَنَّ الدَّمَغَ المَحْرُوسَ لَيْثٌ مَقَادُمُهُ إِلَى جِهَةِ المَشَارِقِ
يَقْلُبُ رَأْسَهُ يَمْنًا وَشَامًا لَيَقْتَرِسَ المَنَافِقَ وَالمَشَاقِقِ
فَسُمِّيَ دَامِغًا بَعْدَ اخْتِبَارٍ لَيَدْمَغَ للمُعَادِينِ المَفَارِقِ

وقد ازداد بهجةً وحسنًا بأن كان فيه ضريح الإمامين السعيدين الإمام الجواد المتوكل على الله إسماعيل، والإمام القطب الزاهر المنقطع النظير في الأوائل والأواخر المؤيد بالله قدس الله روحيهما.

وفي هذا العام اجتمع الحسن والحسين بضوران، وكان الحسين يتردد إلى وادي النابجة وإلى صافية ذي بُهْلان ولم يكن خاطره يومئذٍ بِمَحَلٍّ مِنَ الإِطْمِئْنَانِ لعوارض بينه وبين الإمام المؤيد بالله.

وفيها وفد على الحسن ولدُ أخيه الحسين بن المؤيد يشكو تَقَلُّصَ مَوَادِّهِ، وقلة إمداده؛ فأمر المَدْفَتِرَ بِإِدْخَالِهِ فِي زِمْرَةِ الْأَكَابِرِ، وأجرى عليه من سَنَى الْأَرْزَاقِ مَا يَفُوتُ حَصْرَ الحَاصِرِ، ولازم حضرة بابه، وأخذ في الخدمة بركابه، ولم يفارقه إلى أن فارق الحسنُ الحياة، ثم عاد إلى حضرة والده.

وفي (سنة ١٠٤٨هـ) وصل إلى الحسن بن الإمام السيد الطاهر المغربي المكي وأهدى إليه مُخْتَصَرَةً مِنْ كِتَابِ الجَفْرِ، فقابله الحسن بالفعل الحسن وخلع عليه الخَلْعَ الفَاخِرَةَ، وأجرى عليه الْأَرْزَاقَ التَّكَاثُرَةَ، ومده برفد كثير، ونوال غزير.

وفي اللَّائِي المَضِيَّةِ للسيد أحمد الشرفي: أنه وفد هذا السيد الطاهر بن عبد الله من آل شكر من ذرية الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذين سكوتهم بمدينة فأس وناحيتها من المغرب الأقصى في يوم (سلخ رمضان سنة

١٠٤٨هـ) إلى شهارة، وعُمُرُهُ نحو سبع وعشرين سنةً وأنه من أهل النجابة والعلم والمذاكرة والمراجعة، وأن مذهبه مذهب السابقين من الأئمة، وأنه أعطاه الحسن بن القاسم كتاب الفصول اللؤلؤية بحواشيه والأثمار وأعطاه الإمام المؤيد نسخةً من أحكام الهادي ونسخةً من أصول الأحكام، والأساس وشرحه وبعضاً من الرسائل لشدة حرصه في طلب كتب الأئمة.

وأنه حصل معه المشقة العظيمة والروعة المهيلة لما بلغه بشهارة وفاة المولى الحسن بن القاسم بعد أن سافر من لديه من ضوران إلى شهارة وأنه أخبر الإمام المؤيد أن قبر الإمام إدريس بن عبد الله بموضع يقال له زرهون، وقبر ولده الإمام إدريس بن إدريس بمدينة فاس.

وفي هذا العام أو الذي قبله توفي الشيخ العارف الأصولي علي رأي المعتزلة علي بن الحاج، وقد كان من عجائبه حسبما حكى عنه أنه لا يقول بإمامة الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد، وهو من مشايخ القاضي عبد الهادي الثلاثي الحسوسة.

الحسن بن القاسم

وفي وقت غروب الشمس يوم (السبت ٢ شوال سنة ١٠٤٨هـ) توفي الحسن بن الإمام بالحُصَيْن من ضوران وحضر وفاته صنوه الحسين، وكان عمره ٥١ سنةً. وكان عنده يومئذ ولده أحمد بن الحسن، وهو في أول بلوغه، وأما أخوه محمد بن الحسن، وهو الأكبر بعد أن قضى زيارة والده بضوران عاد إلى ولايته بصعدة وما إليها. فوصل إلى حضرة عمه المؤيد بشهارة ثم سار إلى حبور وبلغه وفاة أبيه، فعاد من حبور مبادرةً إلى حضرة عمه الحسين بضوران، وكانا يظنان أن الإمام سيجعل إليهما ولاية بلاد أبيهما ليل أصحاب أبيهما وعسكره إليهما. فاقضى نظر الإمام أن البلاد التي كانت بنظر أبيهما تعود إلى أخيه الحسين، وإليه تدبير أمداد حاشيتهما وأمرهما بالتوقف على رأي عمهما الحسين.

وكان الحسن مع شجاعته ونهاية كرمه وصفاء باطنه وسلامة جميع أحواله متمسكاً بخصه نافعة من العلم، وله حظ في البلاغة جيد، وله بأيدي الناس قصائد مشهورة، ومنها القصيدة التي يحث والدّه فيها على الصلح مع الأتراك وهو أسير لديهم بالدار الحمراء

بقصر صنعاء بإيعاز من الباشا جعفر ولم يوقع الحسن إمضاءه عليها.

مولاي إن الصلح أعذبُ موردا
أرسل دلاء الحكم في صافيه كي
واجعل رفيق القسط فيه مانحاً
إفتاً به حُمى الحروب وزفرها
أعمر به سهل البلاد وحزنها
شاور ذوي الأحلام واصغ إليهم
فالصلح فيه للأنام صلاحه
كم من أسير في الحديد مُكَبَّل
رفقاً عداك اللوم يا ابن محمد
أربط عصي الإسلام واجبر شققها
واعمل بقول النصيح فيما قلته
واستكرم المولى الوزير فإن للـ
وله جناب لا يرام صعوده
وترى له الصعب الشروء مُذْلاً
اختاره السلطان من أقباله
ورآه أهلاً للوزارة فيهم
فبني له مجداً رفيعاً سمكه
فهو الجدير بأن يراعى ذمة
وتمثله أغضى بحسن عنكم
فاللین عن عز يريك تكرماً
إني محضتك خير شورٍ ناصحاً
وتلقه عني بوجه مُبَشِّر

فاسلك له نهجاً سوياً أجردا
يُروي ظمأ المسلمين من الصدا
والرفق تمنح والسماحة مرقدا
في ساحة الإسلام كيما ييردا
سكن به فتناً تذيب الجلمدا
ما تعدمن إذا تشاور مُرشدا
والحرب أوهن ذا الأنام وأفسدا
ولكم قتيل في التراب مؤسدا
بالمسلمين وعطفة وتوددا
بجباير الإصلاح كيما تُحمدا
أعرض عن العُدال تغدُ مسعدا
كُرماء في أسواحه لتُرددا
صعب القياد لمن أتاه تجلدا
وله عوالي الشهب خرت سجدا
يُمنأ لذي يمن يمن فيجتدى
فيزين ملبسها تأزر وارثدى
يعلو به زلفاً سامي الفرقدا
لكم يراها عن وصية أحمددا
صفحاً لحلم لا وئى وتبلدا
والصفح عن حلم يسزین السؤددا
فاجعله سيروتاً يريك المهتدى
لا ترددنه لا يصير مفتدا

فلکم طریق فی الوساع مَرَحَلِ
یغدو عن الوضاح أعمى أبليدا
واسلم ودم فی رغد عیشِ دائِمِ
ما دام مرَّ الدهر نَحْمٌ أو بدا

وكان الباشا جعفر قد طلب الحسن إليه وقال له: إنه سيصل باشا متولياً لليمن، فاكذب إلى أبيك بصلح بيننا وبينه، فإن يتم الصلح ويخرج الأمير صفر المحاصر بصعدة أبقيناك في اليمن، وإلا أخذناك إلى الروم.

فأجاب الحسن بأي في يدك نفراً واحداً، والإمام ليس في يدي، وحيث قد رأيتم فسأكتب، وعاد إلى محله كتب هذه القصيدة، فلما وصلت إلى أبيه الإمام بدون توقيع ابنه لم يعرف أنها من ابنه وظن أنها من بعض أهل صنعاء المتوددين للأتراك فأجاب:

يا ما نحاً محضَ النصحية مرشدا
يا ما نحاً محضَ النصحية مرشدا
والحلُمُ عن بحاره تُروى بها
والحلُمُ عن بحاره تُروى بها
نَحْمِي حَمِي الإسلام أن يُسْطَى به
نَحْمِي حَمِي الإسلام أن يُسْطَى به
والسلم إن يدعوننا نجسح لها
والسلم إن يدعوننا نجسح لها
فبعدلنا بأوي السورى في ظله
فبعدلنا بأوي السورى في ظله
والرفق والإنصاف فهي سماتنا
والرفق والإنصاف فهي سماتنا
والدين تنظمه ونحكم سلكه
والدين تنظمه ونحكم سلكه
لا نقبل الدنيا وإن هي أقبلت
لا نقبل الدنيا وإن هي أقبلت
ولنا الورائة عن أبنائنا المصطفى
ولنا الورائة عن أبنائنا المصطفى
وبكرهنا ما كان من سفك الدما
وبكرهنا ما كان من سفك الدما
لا نبتغي إلا رضى الرحمن في
لا نبتغي إلا رضى الرحمن في
ومن المهيم نستمع إعانة
ومن المهيم نستمع إعانة
وأسيرنا وقتيلنا في راحة
وأسيرنا وقتيلنا في راحة
هذا كتاب الله يحكم بيننا
هذا كتاب الله يحكم بيننا
أطنت ويحك في مدحك فاسقاً
أطنت ويحك في مدحك فاسقاً

إن الهدى عندي لمن يغني الهدى
إن الهدى عندي لمن يغني الهدى
ظامي الحشا وبنور عدلي يُقتدى
ظامي الحشا وبنور عدلي يُقتدى
ونذود كل المسلمين عن الردى
ونذود كل المسلمين عن الردى
والقول ما قلنا وإن رغم العدى
والقول ما قلنا وإن رغم العدى
وبهذينا يا ذا الرجاحة يُهتدى
وبهذينا يا ذا الرجاحة يُهتدى
وخلال كل الخير فينا والندى
وخلال كل الخير فينا والندى
ونذب عنه من يريد تبذدا
ونذب عنه من يريد تبذدا
إن كان في الأخرى مغللاً مُفسدا
إن كان في الأخرى مغللاً مُفسدا
ومن الوصي وفضلنا لن يُحدا
ومن الوصي وفضلنا لن يُحدا
إلا لمن نأوى شريعة أحمدنا
إلا لمن نأوى شريعة أحمدنا
أفعالنا في الانتها والابتدا
أفعالنا في الانتها والابتدا
ولطائفنا تأتي وإن طال المدى
ولطائفنا تأتي وإن طال المدى
ذا يرتجي فرجاً وهذا الحُرُدا
ذا يرتجي فرجاً وهذا الحُرُدا
إن كنت صدقت النبي محمدا
إن كنت صدقت النبي محمدا
علجاً جعلت له الكواكب سُجدا
علجاً جعلت له الكواكب سُجدا

أَرْضِيَتْ مَخْلُوقاً وَتُغَضِبُ خَالِقاً
وَزَعَمَتْ قَدْ أَغْضَى وَرَاعَى ذِمَّةَ
هِيَهَاتَ مَا رَاعَى ذِمَامَ مُحَمَّدٍ
لَوْلَا صَوَارِمُنَا وَسُمْرُ رِمَاحِنَا
خَلَّتْ مِنَ الْأَعْدَا نَجِيعاً قَانِياً
أَوْ مَا عَلِمَتْ وَقَائِعاً وَمَوَاطِناً
هَذَا تَرَاهُ فِي الرِّغَامِ مَعْفِراً
أَسْأَلُ عَنِ الزَّهْرَا وَوَقْعَةِ سَامِكٍ
وَأَتُوا إِلَى عَرَبٍ لِيُقْضَى نَجْبُهُمْ
وَعَقِيْبَهُ وَادِي الذَّوَاهِبِ أَصْبَحُوا
وَبَغَارِبٍ غَرِبَتْ نَجْمُومُ سَعُودِهِمْ
إِنْ يَقْبَلُوا صُلْحاً فَبِإِي قَابِلٍ
وَقُرُ عَرْشِ اللَّهِ بَغِيّاً عَامِداً
فِينَا لِأَحْمَدَ فِي بَنِيهِ وَمَا اعْتَدَى
كَلّاً وَلَا كَفّاً لِللسَانِ وَلَا الْيَدَا
صَرَمَتْ جِهَاجِمُ لِلْعَدَى وَسَوَاعِدَا
وَتَعْلُ مِنْ دَمٍ مَنْ يَصِيرُ مَعَانِدَا
خَرَّتْ لَهَا الْأَذْقَانُ لَيْسَ تَعْبُدَا
وَأَسِيرَ أَنْكَالٍ وَذَاكَ مُصَفِّدَا
وَبَسْفَحِ أَسْنَانٍ بِقَاعٍ أَجْرَدَا
كَالْوَاعِدِينَ فَلَمْ يَخُونُوا الْمَوْعِدَا
صَرَغَى تَرَاهُمْ مِثْلَ زَرْعٍ أَحْصَدَا
وَالْفَايِشِي لَقَدْ فَشَا فِيهِ الرَّدَا
أَوْ يَحْجُمُونَ فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا

ثم حصلت المكاتبة بهذا الصلح سرّاً، فما شعر الناس إلاّ وسيّدنا العلامة عامر بن محمد الذماري بصنعاء لعقد الصلح وتحليف الباشا جعفر، فعقد لسنة من رجب (سنة ١٠٢٥هـ) إلى (رجب سنة ١٠٢٦هـ)، وأرسل الإمام من رافق الأمير صفر من صعدة إلى صنعاء.

ثم بلغ الإمام أن جعفر باشا نقض الصلح والعهد وعزم على أخذ مولانا الحسن إلى الروم، فقلق الإمام وشجن وطلب القاضي عامر والقاضي علي بن جابر المهبل، وقال لهما: ((يعزم أحدكما في هذه الساعة إلى بلاد خولان على أنه زائر لأولاده بها ويجد بها من فيه كصفة القشعمي من أهل المشرق الأبطال فيدخل إلى قصر صنعاء، فإذا وجدهم على المسير بالولد الحسن فلعله يدخل إليه فيحتمله بقيده إلى مشرق خولان ويخفيه هنالك)). فقالا للإمام: ((استعذ بالله من وساوس الشيطان واستخّر الله، وما بدا لك من الرأي فمن الغد إن شاء الله))، فلما كان آخر الليل أرسل إلينا وإذا به قد سكن قلقه وبوجهه البشر، فقال لنا: رأيت من يقرأ علي ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَخْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ﴾

وَأَهْلَكَ ﴿١﴾ العنكبوت: ٣٣.

وكان القاضي العلامة الهادي بن عبد الله أبو الرجال عالي الهمة، فأرسلوا إليه بهذه القصيدة وجواب الإمام عليها، ولا يعلم أحد أنها للحسن، فكتبها في مجموع له، وأرسله بعد الصلح لتجليده بصنعاء.

فوقف الحسن على جواب الإمام، فحصل معه التألم الشديد وظن أن الذي أجاب على لسان الإمام هو القاضي الهادي، فكتب هذه القصيدة الهزمية الآتي بعضها إلى أبيه وإخوته، وفيها ما يدل على عظيم ما وقع في نفسه:

قل هو الهجرُ ثابتٌ والجفاء	قد تولّى الوصالُ ثم الحفاءُ
كلما جرتُ هضبةٌ من قطاع	ابتدت لي من الأسى هضباءُ
أصروفاً مع اغترابٍ وسحنٍ	يا لخطبٍ أعميت له الخطباءُ
يا لدهرٍ تحار فيه عقولُ	فاضَ كيسانُهُ وغاض الوفاءُ
ما أرايَ لذينةٍ قط إلا	وعليها من الموم التواءُ
كم تراءى لناظري شخصُ صدقٍ	إن ذاك الخيالَ فيه هباءُ
فعلام الملام عاذلٌ دعني	أستطيب البكا فمما السلاءُ
يا خليليَّ علاني فإني	طال ليلسي ونُدَّ عني الغفاءُ
ليلٌ بالله إصْدَقَنِي جواباً	أين صبحُ الوفا وأين ذُكاءُ
فكُ قِيدَ الصباح والشمس عنا	أو تريد الفدا فمخي الفداءُ
فيراني أبي وأهلي أراهم	إذ ترائي الوجوه فيه الحياءُ
فأبث الوداد عن ذي ودادٍ	إن قول العتاب فيه البقاءُ
لم يكونوا من الأشايبه أصلاً	بل سرّاً وصفوة نجباءُ
رؤساء أعزّة كرماء	حلماء أجلة علماءُ
أي وُدّ ودادكم و خليلي	منكم واصل ^(١) ووصلي راءُ

(١) واصل بن عطاء.

تتناسون إذ خُصِّصْتُ بحبسٍ فبحسبي يُخَيَّرُ الأصفياءُ
 فاذكروا وحدتي وضيق مكاني حيث تلهو البنون والآباءُ
 لهمُ بالحنين ترجيع نحل تتدأني لسقمه الأرجاءُ
 فإلى الله مفرعي وانتجاعي وإليه اللجأ وفيه الرجاءُ
 إن لله بعد ذا العسر يُنيرين بهذا للإله وعد وفاء
 يا إمامي ووالدي واستنادي من به لي على الأنام إزدهاءُ
 منك أصلي وفيك ذخري وحصني واستضائي إذا دجا الظلماءُ
 كيف يُسطاع في نظام ونثرٍ وصفُ فخرٍ مناطه الأنبياءُ
 كم لآل الرسول أنشرت علماً طمسها الرسومُ والأقواءُ
 ما يليني من الأقارب سقمٌ ولسقمي في راحتك الدواءُ
 غير أني تولعت بي جيوش وخطوبٌ وهت لها الأعضاءُ
 كأسّي الضيم والكآبة ساقٍ ونديمي السهاد والبرحاءُ
 من لفكري ومن لكسري وقطعي أنت وصلي حَبَّارتي والعطاءُ
 شرح حالي إلى ارتجائك منادٍ بمقالٍ تقول له الشمراءُ
 هذه عليّ وأنت طيبي ليس يخفى عليك في القلب داءُ

ولما وصلت هذه القصيدة أمر الإمام الفقيه علي بن محمد سلامة بالجواب فقال نحو

مائة بيت منها:

أرقتني حمامة ورقاء إذ تغنت وقد دجا الظلماءُ
 وتباكت حمائم الغور شجراً ليكاهها فهن فيه سواءُ
 ناولتنا على اغتراب وبعد فأجنبنا وهكذا الأصفياءُ
 ليت شعري تشوقي وغرامي هل له بعد طوله إنقضاءُ
 هل لماذا؟ شكوت من ألم المجر ومن ظلمة النوى إنجلاء؟
 زاد شجوي نظم له الحسن طبعاً وصفات له السنا والبهاءُ

قط ما مثله رأيت نظاماً
 مثل روض الربيع يفتقر في الصبـ
 نظم من أكمل المحامد جمعاً
 شرف الدين والأنام وذو الفضـ
 من له في الأنام فضل جليل
 حمد الناس منه كل السجايـ
 يا سليل الإمام حركت شجواً
 وأفضت العيون دمعاً غزيراً
 قد عنا كل مهجة منه حزن
 كل حين لهم عليك إلتهاف
 كيف ينسون ما هو الشمس شأنـ
 أي يوم غدوت فيه أسيراً
 أنت يا جامع المحامد والفخـ
 ليت يا دهر لو فعلت جميلاً
 تحت سجن في قصرهم أي سجن
 يا سليل الإمام ذي الفضل صيراً
 فعساه يحل عقداً وثيقاً
 فلكم نظرة له بعد بأس
 يا كريم الفعال يا خير مرجو
 إليك انتجاعنا واللجاء
 من أميراً تعنوا له الأمراء
 فأعدها وقد أتاها العطاء
 منهم الأنبياء والأوصياء
 طالعات والبضعة الزهراء

ولما كان القاضي عامر بصنعاء للصلح بسط القول للبasha جعفر في إطلاق الحسن، ومما شرط به البasha من شروطه في إطلاقه، أن يطلق الإمام ما تحت يده من بلاد حضور لقرها من صنعاء، وكانت بيد الإمام إلى قرب عصر وتموا على ذلك. فوصل القاضي عامر بذلك إلى الإمام، فطلب الإمام العلماء وأهل الفضل كلهم، فرجحوا ذلك، ثم قال الإمام لا يراني الله أخونه في عباده وبلاده، وكم في بلاد حضور من نفوس أبيعهم بنفس واحدة، فبكى القاضي عامر يستعطف الإمام في ابنه، فذكر الإمام الحديث «لعن الله إماماً يتجر في رعيته»، وقال الإمام: «أنا مُستودعُ الله ولدي وهو أقدر على خلاصه».

وقد روى الحسن عن نفسه في أسره، قال: «لما وصلوا بي إلى جعفر باشا، فرقوا بيني وبين أصحابي فجعلوني في مكان منفرد بالدار الحمراء وأغفلوني، فصليت على الحالة، وقد جعلوا في رجلي قيداً قدر أربعة وخمسين رطلاً فعجزت عن القيام به، وإنما حملني وإياه عتال من أهل القوة، وجعلوا عليّ حارساً تركياً لا يعرف كلمة عربية، فخفت منه، فإذا هو قد نام فاطمأنيت.

فلما كان في اليوم الثالث استأذن الحاج أحمد الوادي من البasha في وصوله إليّ وكان عندهم مقبولاً، فوصلني بعنب وفواكه وفراش، وقال: ألك حاجة؟ قلت: ثلاث:

الأولى: تغيير هذا القيد أهلكني ولا أستطيع معه الصلاة.

الثانية: أن يكون عندي من أصحابي آنس بهم.

الثالثة: أنه كان من أصحابي باسم عبيد لعبد الرحيم أو لابن المعاف وهم أحرار، فلا يستعبدون. فقام من حينه وقضى هذه الحوائج الثلاث وصلاح الحال وأجرى علينا الكفاية من الطعام والماء. وكان سائس يخدم خيل البasha يعرفنا، فيمر من تحت الطاقة، فإذا رأي سلم عليّ وقد يشير عن أحوال الحرب، فكنت أجد لإشارته لذة، فلما كانت وقعات الشام من عَرَبٍ والحضائر وعلاف أشار بالبشارة، فما شعرنا إلا وقد أخرجوا من كان عندي كالسيد الحسين بن إبراهيم، والهادي جحاف، وعثمان بن سليمان، وعبد المغني بن عيسى الشرفي وضربوهم وعنقوا عليهم وزادوني قيداً وخفت أن يقتلني البasha لما وقع من قتل جنده، وكان في أصحابه شهامة فكَرَّهوا له قتل الأسير حتى بَرَدَ، ومضت أيام وإذا السائس يشير بأعظم من الأولى، وإذا هي وقعة غارب أثلة ففعلوا معي ومع

أصحابي كالمرة الأولى فصمم الباشا على قتلي، فراجعته أصحابه كعبد الرحمن شليبي وعثمان أفندي وإسماعيل آغا والخزرجي الكاتب، فلم يقبل منهم، فأرسلوا إلى الحاج أحمد الوادي أن أذرّكنا، فلما رآه الباشا بش به وشكا عليه من الإمام. وقال: قد عزمنا أن نقتل ولده ومن عندنا من أصحابه، وكان الحاج أحمد له صناعة في الحديث، فقال: يا سبحان الله إن كان فعل خطأ فتخطي مثله.

وبالبلغ أن الإمام أحاطهم مع المطالبين بالقصاص منهم إلى الشريعة وما قتل إلا من حكم عليه بحكام الشريعة بالقصاص، وأنت إذا كان أحد سأل من هؤلاء دماً أمرتم إلى الشريعة، وكنت قد لبست لباسين، لئلا تنكشف عورتني عند القتل وأعددت فلقتين من الخطب أقاتل بهما جهدي إذا قصدوني، فوصل ذلك الحارس العجمي بعد نصف الليل، وقد آيست، فقال: سلامة)). وقد سبق ذكر خروجه من الحبس في (سنة ١٠٣١هـ).

وقبر الحسن غربي جامعته الذي بناه بمدينة ضوران. وللقاضي العلامة أحمد بن سعد الدين المسوري أرجوزة كبيرة أمر برسمها على مشهده منها:

هذا ضريح الأسد المصور	الحسن بن القاسم المنصور
من كان بحراً لا يرام ساحله	وغيث خصب عظمى سوائله
من كان للإسلام حصناً حاصناً	وللمعالي كافلاً وحاضناً
من ذلك البيت الذي جبريلُ	لأهله دون السورى نزيلُ
من لأبيه حجة الرحمن	على البرايا أنسهم والجان
ولأخيه القائم المؤيد	الأحمد ابن الأحمد ابن الأجد
فزّره يا من يتغى المفازا	من ربه ويطلب الجوازا
كان معيناً كافياً ما نابا	كم موقف عنه كفى ونابا
على عداة الحق سيفاً صارماً	وأبداً فضاءً فضيضاً صارماً

.. إلخ.

وقد رثي بمراثٍ كثيرة منها:

أدرى الذي ينعى إلينا من نعى؟ لو كان يدري ما أشاد وأسمعا

أنراه يدري أنه ينعى إلى كل الأنام الدين والدنيا معا
وحياتهم ومعاشهم ورياشهم ونعيمهم هذي الخصال الأربعا
ومما يحكى أنه انتشر خبر موت الحسن بن القاسم في عموم اليمن، فكان الرجل
والمرأة والصغير والكبير يبكون لموته ولو لم يعرفوه.

وكان هو وأخوه الحسين شريفي الأبوين، فإن جدهما من قبل الأم السيد الناسك
علي بن إبراهيم العابد، كان قوته عونة واحدة في اليوم. فرغ نفسه للعبادة في المساجد
الخالية ورفض الدنيا وبعد عن أهله، فكان يؤتى بقوته من طاقة المسجد. وقام بالحسبة؛
لما قال له أهل الشرف الأسفل: إن الشاوش مرجان وغوث الدين وأصحابهما دخلوا
على الشرائف وجعلوا وفعلوا فقام بالحسبة هو والسيد علي بن إبراهيم العالم صاحب
الجاهلي، وقام معهما قبائل الشرف الأسفل وقتلوا مرجان الشاوش وعسكر غوث الدين
في موضع الفايش فوق بني جل وتحت المحابشة، فانهزم القبائل ولم يصدقوا وقتل منهم
جماعة ولا هم لهم في نصر الدين؛ إنما همهم إزالة مطالب الدولة وظلمهم لمن استضعفوه
منهم أكثر من ظلم الدولة، فلما عرف ذلك منهم رفضهم بالكلية واعتزلهم اعتزالاً
كاملاً، ولم ينله من الدولة الذين حاربهم مكروه خوفاً لجانبه، وكان كما قيل:

يدع العظيم فلا يُراجع هيةً والحاضرون نسوا كس الأذقان
أدب الوقار وعز سلطان التقى فهو المطاع وليس ذا سلطان

ومات وهو يتلو سورة يس.

وفي (سنة ١٠٤٦هـ) كانت وفاة الأديب محمد بن مقاطع. مدح الشريف بمكة
مسعود وملك اليمن الحسن بن القاسم والأمير حسين بن عبد الرب، وله مكاتبات مع
عيسى بن لطف الله ومعارضات لشعر محمد بن عبد الله شرف الدين.

وفيها توفي عبد الله بن صلاح عنقوب، له كتاب الزيج إلى (سنة ١١٦٨هـ).

وفيها توفي الفلكي عبد القيوم الرغيلي. وكان مُتَقَناً ألف المدخل المختصر من زيج
ابن الشاطر وهو لطول مصر.

صالح بن عبد الله العياني

وفي (تاسع رجب سنة ١٠٤٨هـ) توفي بشهارة السيد العلامة النبيل صالح بن عبد الله بن علي بن داود^(١) بن القاسم بن إبراهيم بن القاسم بن إبراهيم بن الأمير محمد ذي الشرفين بن جعفر بن الإمام القاسم بن علي العياني الغرياني الملقب مُعَلّ.

كان إماماً محققاً مجتهداً له جهاد مع الإمام الحسن بن علي بن داود، ومع الإمام القاسم. وكان يقرأ عليه الإمام المؤيد، وكان لا يفارقه حتى عجز وقر. عمشه جده الأمير ذي الشرفين. ومولده بجنور في (رجب سنة ٩٦٠هـ) فعمره ٨٨ سنة، وله فصاحة ورجاحة وتعبُّد وتأله، ومن شعره القصيدة المشهورة إلى ٤٤ بيتاً منها:

ضاع الوفاء وضاعت بعده المهم	والدين ضاع وضاع المجد والكرم
والجنور في الناس لا تحفى معالمة	والعدل من دونه الأستار والظلم
وكل من تابع السلطان محترماً	وكل من عبد الرحمن مهتضم

وفيها مواعظ وحكم.

ويروى أن الإمام القاسم أمره أن يضمن ما كان مكتوباً على الخاتم الذي تصدق به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في صلاته وهو (سبحان من فخري بأنّي له عبد)، فقال:

لوجه علي تسجد الأرض هيبة	وآياته في الذكر ليس لها عدو
كما أنه صنو النبي وابن عمه	ومولى له من بعده الحل والعقد
بخائمه زكّى وفخر نظامه	بسبحان من فخري بأنّي له عبد
عليه صلاة الله بعد محمد	وأسنى سلام لا يُحد له عدو

فأعطاه الإمام القاسم على كل بيت مائة حرف ذهباً، وأوصى أن يكتب على قبره هذان البيتان:

لما عدمت وسيلة ألقى بها	ربي تقى نفسي أليم عقابها
-------------------------	--------------------------

(١) وفي سيرة الجرموزي أن داود هذا ابن علي بن الحكيم بن عبد الله بن عسكر بن مهنّي بن داود بن القاسم بن إبراهيم بن القاسم بن محمد بن جعفر بن الإمام القاسم العياني فيحقق أيهما أصح.

صيرت رحمته إليه وسيلة وكفى بها وكفى بها وكفى بها

عيسى بن لطف الله

في يوم (الثلاثاء ٢ شهر ربيع الأول سنة ١٠٤٨هـ) توفي بصنعاء السيد الأديب البليغ الفلكي المؤرخ عيسى بن لطف الله بن المطهر بن الإمام شرف الدين بعد وصوله إلى صنعاء، من لدن الملك العظيم محمد بن الحسن من ذمار.

وله التاريخ المشهور رَوْحُ الرُّوح، وهي تسمية مناسبة، وهو من رأس المائة التاسعة إلى زمنه، ذكر فيه دولة بني طاهر وجده الإمام شرف الدين وما تعقب دولته وكيفية زوال تلك الدول، وفصل ما شجر بين جده المطهر وبين أمراء الأروام من تلك الملاحم التي طحنت الروس، وأفنت النفوس، وأنست حرب داحس والبسوس، وقضت أن المطهر بن الإمام فرع من تلك الشجرة العلوية وفخر للبلاد اليمنية.

وقد جعله خدمةً لمحمد باشا لمزيد اختصاصه به وإحسانه إليه وله فيه قصائد.

ولـه ديوان حميني مختصر وهو الذي جمع ديوان السيد الأديب محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين الحميني والموشح، وذكر أسباب القصائد وليته لم يذكرها، وذكر في ديباجة الديوان أن أول من تكلم في الحميني أحمد فليته، ثم الفقيه عبد الله المزاح، ثم الفقيه إمام الطريقة عبد الرحمن بن إبراهيم العلوي.

وكان السيد محمد بن عبد الله بن الإمام شرف الدين من محاسن السادات علماء وعملاً مع ورع شديد، ويكفيه حديث الجارية، فإنه اشتراها وعلق بها إلى نهاية، فذكرت له مرةً أنه اشتراها مسلم وأولدها ولداً، ثم غاب عنها، فخرجت من بلدها. فانتَهَبت وبيعت إليه، فتكدر باله وتشوش حاله ومنع نفسه منها تخرجاً عن الوقوع في المحذور.

وكان الفقيه العلامة الشكايزي قد أفناه بأن اليَدَ له والملك ملكه في الظاهر، ولكنه رجع التعمق في الديانة، وأمرها بالاحتجاب وسد عنها الأسباب مع طرف مسفوح، وقلب مقروح، وهي أيضاً قد كان وقع منها الموضع العظيم من الولوع به، فاشتركا في تصعيد الزفرات، وإرسال الدموع، ثم تبين أنها فرت إلى بلادها، وأنها ارتدت وانتَهبت بعد الردة، ثم بيعت إليه، ولكن هذا لم ينجع في إزالة الشبهة عن خاطره، بل استمر على

الفراق، وهذا من الورع الذي أُلِمَّ به الغزالي في إحيائه والديلمي في تصفيته وغيرهما. ووقع بينه وبين الإمام القاسم بن محمد مشاعر تتعلق بمذهب التصوف وغير ذلك. وكانت وفاته (سنة ١٠١٠هـ) بالذنوب من حجة، وسبق عن أنباء الزمن أنها (سنة ١٠٠٨هـ).

ومن شعر عيسى بن لطف الله:

لا تلمني في حب أهيف كالغصن يُغير الشموسَ في الإشراق
لدغتي في حُبهِ حيلةُ الوجهِ فما غيره وصله من راق
وكان يهوى غلاماً جميلاً فقتله الأتراك في بعض الحروب فقال من قصيدة:

قد كنتُ أهوى بأن تأوي إلى نظري
عذبتني بالجفا وقت الحياة وفي
فقلت منك غداة الحالين معاً
يا زهرة قطفت من بعد ما بسمت
فألآن من لي بجعل القلب تابوتاً
مما لك اليوم قد أحرمني القوتا
حيا وميتاً فيا طول الجوى هيتا
وزهرة غربت مذ وافت الخوتا
عن سحر نفتها أسحار هاروتا
فهي على المقلة الكحلا التي قصرت

ومولد عيسى بن لطف الله في (٢٧ جمادى الآخرة سنة ٩٨٦هـ) بجهة حصن ذي مرمر، ورثاه السيد محمد بن إبراهيم بن المفضل بن إبراهيم بن علي بن الإمام شرف الدين بقصيدة منها:

ورقاء بانات اللوى والأجرع
نجم هوى ما كنت أحسب قبله
يا قلب كيف تصيبُ عيشاً بعدما
دفن العلاء والمحمد في قبر ثوى
روح الوجود وغرة الدهر الذي
عيسى بن لطف الله زينة عصره
الخ...

وفي (ذي الحجة سنة ١٠٤٨هـ) توفي بمسور لاعة الفقيه الأفضل يحيى بن صلاح الثلاثي، عامل الإمام المؤيد بالله على بعض جهات مسور.

عبد الهادي الثلاثي الحسوسة

وفي ليلة الجمعة (١٢ ذي الحجة سنة ١٠٤٨هـ) توفي بثلا القاضي العلامة الشهير والحاكم الكبير الأصولي المحدث عبد الهادي بن أحمد بن صلاح بن محمد بن الحسن الثلاثي المعروف بالحسوسة الحاكم بصنعاء. أخذ عنه أولاده الثلاثة المهدي وعلي والحسين والقاضي إبراهيم بن يحيى السحولي، وناب عنه في القضاء بصنعاء وفي الخطابة واستمر عليهما بعد وفاته.

وكان منقطع النظر حافظاً لعلم الكلام والأصول ومجموعات الإمامين الهادي والقاسم عليهما من حفظه، وكان محققاً لمذهب المعتزلة البهشمية.

قال الإمام القاسم: ((إن القاضي عبد الهادي أسع علماً من أبي الهذيل)).

وكان إذا جلس في عامة العلماء، فهو لساغم الناطقة وكلمتهم الفارقة، عاضد الإمام القاسم والإمام المؤيد، ولأه القضاء بصنعاء، من يوم فتحها، وكان له من السياسية في تناول القضايا والنظر الموصل إلى تحقيق فصل الخصومات، ما يضرب به الأمثال. ولما مرض وانتقل إلى ثلا، فعند خروجه من صنعاء وقف أمامه عيون من أهل صنعاء للنظر إليه والتبرك به، فالتفت إليهم وقال: أنتم مع الله يا أهل صنعاء، ما أعلم أن معي لأحدكم مظلمة لا قليلة ولا كثيرة، وكان زاهداً ورعاً يفترش إهاب شاة على حصيرة وجرم من أوكس جنس، ولقد أراد عامل صنعاء المولى علي بن الإمام المؤيد بن القاسم لشيخه وملازمه القاضي عبد الهادي: أن يُوطئَ له فراشاً مما يليق وكسا ما ينبغي، فأرجعها وأبى عن تغيير حاله، قال ولده القاضي العلامة علي بن عبد الهادي: وكنت الرسول، فلما أرجعتها إلى المولى علي بن المؤيد حوقل واسترجع وطلب مني أن أقبلها إلي، حيث لم يقبلها أبي فقلت له: إني بضعة منه أكره ما يكره، فلما أخبرت أبي بذلك سُرَّ به وقَبِلَ بين عيني.

عبد الله بن حسن البشاري

وفيها توفي القاضي العارف البليغ عبد الله بن حسن البشاري العذري. وله قصائد

كثيرة مدح بها شرف الإسلام الحسن بن الإمام وغيره، وله ديوان مجموع.

عبد الرحمن بن المنتصر العبسي

في (جمادى الأولى سنة ١٠٤٧هـ) توفي القاضي عبد الرحمن بن المنتصر العبسي في بني أسد من الشرف الأسفل. وكان عالماً فاضلاً، جاهد مع الإمام القاسم، أصابته رصاصة في عينه، ونجا من أسر الأتراك وولاه المؤيد بلاد الشرف، وقيره في بلدة الصومعة من الشرف الأعلى.

عامر بن محمد الذماري

في (عاشر رمضان سنة ١٠٤٧هـ) توفي بعاشر من خولان القاضي العلامة عامر بن محمد الذماري. تولى القضاء بشهارة، وكان الواسطة في الصلح، وهو من قرية صباح البيضاء رداغ، هاجر إلى ذمار، فقرأ بها، ثم بصنعاء، ثم بصعدة على عبد العزيز بمران، ثم كان المرجع في تحقيق الفروع. وكان في هجرته للعلم لا يملك إلا فرواً من جلد الغنم، فإذا تنحس باحتلام أو غيره غسله ولبسه وهو أخضر، ودرس أيضاً بالظهوراوين حجة على إبراهيم بن مسعود الخوالي.

وكان فيه من الحلم والأناة ما لا يلحق فيه، فإذا وصل الجامع شخص إليه الناس وخضعوا، وكان لا يحتاج إلى عسكر أو أعوان في القضاء، فإذا لزم حبس أحد أخذه من حضر من الناس أو يذهب إلى الحبس بنفسه، وكان كثير العبادة وتلاوة القرآن، لازم القاسم وقبله الإمام الحسن بن علي، ثم المؤيد، وهذب إسماعيل بن القاسم، وأقل ورده ثلاثة أجزاء وصحيفة زين العابدين، وقيره بعاشر ينجب التهامي وراوع ثم ولده أحمد بن عامر.

وأرسل المؤيد ولده علي بن المؤيد للعزاء بعاشر، وقبيل وفاته طلب العلماء، وسلم لهم أمانة كتابه التذكرة، فقد حققها وأقرأها أربعين مرة.

حوادث سنة ١٠٤٩

وفي سنة (١٠٤٩هـ) استقر بدر الإسلام محمد بن الحسن بن الإمام بدمار ومعه

أكثر أعيان والده، وكان في باب تدبير الملك خريئاً ماهراً لا يُدرك له غور، ولا يوقف له على طور. انتعشت همته إلى تدوين أعوان والده، وأمر كل رئيس أن يضبط من تحته من الأتباع، وبادر إلى فتح الدواوين، ومد الأنطاع، وأشخص نفسه للإنصاف بين المتظلمين، وقرَّب من قربه والده من السادة والأعيان ورؤساء العبيد وسائر المعاونين، وكان والده قد نظم من أعيان الدولة جملة يفتح بها الأماكن القاصية، ويقتنص بها الرقاب العاصية.

ولما فتح نفسه للوافدين وطعم الناس حلاوة عدله مع ما رُزق من كيمياء السعادة، وانجذاب خواطر العالم إليه بما يخرج عن طريق العادة، حصل له من مال البلاد ما يكفي الأجناد. وتزوج يومئذ بنت الأمير سنبل وسكن بدار أبيها بدمار.

وأما صנוه صفى الإسلام أحمد بن الحسن بن الإمام، فإنه عاد إلى ذي مرمر والغراس، وعنده جملة من الأبطال المعدودين ليوم التزال، وعليه لوائح الجلالة تلوح، وطيور الإقبال تغدو عن ميامنه وتروح.

ثم إن عز الإسلام محمد بن الحسن أجمع رأيَه عندما كثرت الأجناد بحضرته، وتضاعفت النفقات أن يتقدم إلى عمه الحسين بضوران، فوصل إليه بأبْهة ملوكية وشارة حسنة، ولاطفه في أن يُفرده ببلاد تكون إعانة في نفقات الأجناد، فبادر عمُه إلى إسعاده، ومدَّ يداً إلى إمداده، وضم إليه بلاد الشوافي وخجان وبني سرحه، ويريم والتعكر، ثم عاد إلى دمار مجبوراً مجبوراً، ثم وصل مولانا شرف الإسلام الحسين بن الإمام إلى دمار، فوصلها بزى عظيم وجيش جرار، وأراد التزول بدار التكية في حوطة حسن البابا، فلم تطب نفس ابن أخيه، وقال: لا يصلح السكون إلا في داري والدار دارك والولد ولدك.

فساعده عمه ثم عاد الحسين ضوران وبقي محمد بدمار.

وأما صفى الإسلام أحمد بن الحسن، فإنه وصل من ذي مرمر إلى أخيه محمد بدمار، وكان عمه الحسين قد ولَّاه وصاباً، فتولاها واستصغرها.

وأما الإمام المؤيد فلم يأذن للجميع بقيد شر وأجاب لما سُئل بتوليتهما بأن الولاية ليست ميراثاً، وكان مع أحمد بن الحسن من جنح إليه من فرسان الصدام وآسباد الالتحام، ثم انتقل من وصاب إلى عتمة، فخرج عنها واليها الرئيس المطهر بن محمد

الجرموزي، فوصل الجرموزي إلى الحسين بضوران، فرفع إلى الإمام المؤيد بأن أحمد بن الحسن قد رفع الجرموزي، وأنه متبوع، ورأيه مسموع، وأن الناس قد انتالوا إليه رغبة ورهبةً وانسأقت الأمور إليه، وأن علي بن شمسان والي إب وبعدان قد مال إلى جانب أحمد بن الحسن، فتقدم عمه الحسين لاستدراك ذلك المصور قبل انتشار شراره.

فإن النار بالزندان تُورَى وإن الحرب أولها كلام

وكانت طريق عمه الحسين وادي النايجة، واستناب بضوران ولده محمد بن الحسين، فبات ببلد يقال له ذاهب أسفل وادي النايجة، فوق مدينة العبيد، وجمع عسكره ووجوه الناس إلى مسجد ذلك البلد، وأفهمهم سبب التجهيز وعرفهم ماهم ومن هو القادمون عليه - وكان الحسين أسداً من أسد الله وسيفاً من سيف الله - فأجاب عليه أعيان العسكر بلسان واحدة: إنا تحت رايتك، ولو إلى مطلع الشمس. ثم انتقل في اليوم الثاني إلى بلد مئاس، وأمر بحفظ مغربة عتمة وبأها، فلم يشعر أصحاب الحسين إلا وقد طلع عليهم بيرق دار، من تلقاء ابن أخيه، ووراه الجيش الحرار عليهم النقيب المقدم عطية وأحمد بن الحسن استقر في (بلد الحوادث)، وأراد أن يكون مهبط الوقائع والحوادث.

وكاد أصحاب الحسين أن يولوا الأدبار، فالتجأوا بعد ذلك إلى الحَيْل، بعد أن أعيتهم الحَيْل، ثم أرسلوا ما في بطون البنادق، فاهلكت على المعسكر الأسفل بصواعق، وانصرفت إلى عطية وهو مقدم القوم رصاصة، دعت إليه حَيْتَه وخلاصه، فانهمز عسكر أحمد بن الحسن. ونهض عمه الحسين إلى سوق الربوع في الليل، ثم في الصباح إلى القرية التي وقع فيها الحرب، ثم إن جماعة من أصحاب الجرموزي انضموا إلى أحمد بن الحسن، وسمعت تحضيرة الحرب من محل الحوادث مطرح أحمد بن الحسن، فقال السيد أحمد بن علي الشامي للمولى الحسين: أما بعد التحضيرة، فلا يصلح منكم التواني، فتغير وجه الحسين؛ لأنه كان يريد أن تنحسم فتنة ابن أخيه بدون هذا، شفقةً عليه ومحبة في حقن الدماء وتسكين الدهماء، ثم أمر بأخذ الأهبة والتعبئة للقتال، وتقدم بيرق أحمد الحاشي صاحب الشرف، ثم تراجع الفريقان بسبب البنادق، وحجزها ما بين الفيالق.

وكان النقيب سرور شلبي من أصحاب أحمد، ومن انضاف إليهم، قد ترتبوا في المغربة وطريق الحوادث، والنقيب حسن البَحْش قد أخذ رأس الأكمة وعمّر المتارس،

فاتصل الحرب من صحوة النهار إلى الظهر، وبسبب إصلاح التعبئة من أصحاب أحمد استعلوا على أصحاب عمه، فأمر الحسينُ البيرق دار — وهو صلاح الحملاني — أن يتوجه بمن بقي من العسكر إلى القرية التي هي أيسر الأكمة، وقال له: إذا دخلتها، فاطلع على الذين في الأكمة من ورائهم ليكون ذلك نفساً على من تحتهم من أصحابنا، فعزم المذكور ومعه نحو العشرين، ودخل القرية بغير شجار، وتجاوز عنها للتنفيس على أولئك من الحصار، فلما رآه أهل الأكمة لم يلبثوا أن ولّوا الأعقاب، فكان نظر الحسين من أقوى الأسباب. فتبعهم العسكر في الأثر وطلع بدر النصر للحسين وأزهر، واتصلت بمسامع أحمد هذه الفعلة الجسيمة، واشتغل أصحابه بالنهب، وهو انحاز إلى القرية السفلى، وقد فاز عمه بالقدح المعلى، ثم إن الحسين أرسل السيد عبد الله بن أمير الدين إلى ابن أخيه أحمد بن الحسن ليصل إليه، فوصل فخلع عليه، ووجه أسباب الأُنس إليه، وأمسى الجميع بالحوادث.

ويروى أن أخاه محمد بن الحسن قد كان جهّز إليه جماعة من عسكر الصدام، فصادف ذلك أن الحرب قد وضعت أوزارها، وأطفئت بيد الحسين شرارها، والحمد لله. وأما علي بن شمسان، فإنه قد كان وجه مدداً لأحمد بن الحسن من إب وأراد الارتحال إليه، فبلغه انجلاء المعركة عن تسليم مخدومه أحمد فتشوش خاطره، وما زال يدبّر الحيلة للفرار، ففر إلى ابن عبد القادر بَعْدَن، وقال الحسين: إنه لو وصل لما ناله إلا كل خير.

وكانت وقعة الحوادث هذه يوم الخميس في العشر الآخرة من (شعبان سنة ١٠٤٩ هـ)، وفي آخر شعبان وصل المولى الحسين إلى إب ومعه ابن أخيه أحمد بن الحسن، ووصل بعد ذلك كتاب الإمام المؤيد باستدعاء أحمد بن الحسن، وعلي بن شمسان إلى حضرته بشهارة، فسارا إليه، ولما وصلا قابلهما بالإجلال والإعظام، فأما أحمد فاستقر عند الإمام ما شاء الله، وعاد عن أمره إلى صنعاء على أوضاع جعلها بيده، فيها كفايته وكفاية من إليه من أصحابه وأخذانه، وأما علي بن شمسان، فرجّع الإمام بقاءه لديه ذلك الأوان، وعمر له داراً فاخرة، وأجرى عليه الإنعام.

ثم دعا المولى الحسين أخاه العلامة إسماعيل بن الإمام إلى ضوران لينوب عنه بما ما دام باليمن الأسفل، فسافر من ضوران العلامة محمد بن الحسين إلى والده بإب، وبقي شهر

رمضان، وفي شوال عاد إلى صنعاء، ثم وصل محمد بن الحسن إلى عمه الحسين باب ثم نزل إلى تعز وهو يلاطف عمه في زيادة ولايته.

وفي هذه السنة شاع أن المولى أحمد بن القاسم أصاب في دار الكيخيا التي سكنها المولى أحمد كترًا من الذهب الأحمر، ولعله كان من دفين عبد الله شلي؛ لأنها كانت مستقرة لما حاصره حيدر باشا أيام جعفر باشا، ففعل منه المولى أحمد: جامع الروضة وأوقافه وغيره من المحاسن.

وفي هذه - (سنة ١٠٤٩هـ) - قذف البحرُ بجازان سمكةً عظيمةً مثل الأكمة طولها نحو خمسين ذراعاً ورأسها مثل الخيمة، وارتفاعها نحو تسعة أذرع، وقال أبو الرجال في مطالع البدور بترجمة السيد صلاح بن عبد الخالق بن يحيى بن المهدي جحاف المتولي (سنة ١٠٥٣هـ) أنه اجتمع في صفر (سنة ١٠٥٠هـ) بالسيد الرئيس أحمد بن صلاح بن الهادي والي جازان، فوصف له أن البحر قذف سمكةً عظيمةً جداً إلى موضع قريب من جازان، فطلب السيد صلاح بن عبد الخالق من السيد أحمد بن صلاح زيادة إيضاح، فأمر سيدنا العلامة الناصر بن عبد الحفيظ المهلاً بنظم هذه الأرجوزة:

الحمد لله على نعمائه	حمداً على السابغ من آلائه
نسأله المزيد من إنعامه	وأفضل الصلاة مع سلامه
على النبي المصطفى وآله	سفن النجاة التابعي مقالاه
ما سارت السفن على البحار	وكُور الليل على النهار
وبعد وافاننا كتاب موجز	من ابن من له الكتاب المعجز
وروده لثلثنا صلاح	وكيف لا يفيدنا صلاح
وبحره منه الأنام تغترف	وفضله به الجميع يعترف
من ذا يحيط كابن عبد الخالق	بحا حواه البحر من دقائق
تضمن السؤال عن شيء عجب	ألقى به الساحل في شهر رجب
من عام ألف بعد أربعين	وبعد تسع قد مضت سنين
في دولة المولى الإمام الأعظم	محمد نجمل الإمام القاسم

فقلت صف فلي على الوصف حجج
نعم فقد أصبح في العثيمة
وهذه الدابة ذات الشحم
وطولها خمسون بالذراع
أما ارتفاعها فقد تسعة
كأنه في جرمه دعامة
وإنه لخمسة قد يثقل
وعينها قد بلغت ذراعين
وقلت لي كيف فقار الظهر؟
لسانها يشبه طرف العضب
وكل عضو طولُه كاللحي
قد اكتفيت فيه بالإشارة
وما رواه الحبر عن ذي البحر
وليس بحر الشام قد عرفتُم
وما أتى في مثله عن جابر
فذاك مما قد عرفت أكبر
لأنَّ وَقَبَ عَيْنِهِ كَبِير
وضلعه من تحته مرَّ جَمَل
وقد روى لنا الفقيه يوسفُ
ذاك الكتيب الضخم في الرواية
لا مثل ما أوردت نصف شهر
وقد رواه حجة للشافعي
فأكلهم إن كان للضرورة

حدث عن البحر فما فيه حَرَج
ما رأسه في الشكل مثل الخيمة
كأنها مثل الكتيب الضخم
وخمسة والعرض ذو اتساع
وطول عظم كل لحي سبعة
وقس على اللحي اتساع الهامة
ودونهم للحيها لم ينقلوا
شاهدت ما أحررت عنه بالعين
فقلت قدر العظم مثل الصخر
وذاك عن جرم كبير يني
وذا من الأوصاف بعض الشيء
عن كله قد تقصر العبارة
في السمك المنبوذ عند البحر
بأنه البحر الذي ذكرتم
من أكله وشبعه المسافر
ولحمه من لحم هذا أكثر
ودهنه متسع غزير
وفوقه فتى طويلاً قد حمل
بأنه مثل الكتيب يوصفُ
والشهر للأكل رواه الغاية
ثم أتوا إلى السني الطهر
فخذ بتوجيه مفيد نافع
كما روى في القصة المشهورة

ما أكل المختار من باقيه كلاً ولا أدخله في فيه
 وإن يكن ذلك ليس طافياً فبينوا لنا بياناً شافياً
 وما الذي عليه في هذا البناء ومن هذا وجهه من صحبنا
 وإن عرفتم طولّه والعرضاً ذكرتم من وصف ذاك بعضنا
 فإن فيه عبرةً للسامع بما يزيد شكره للصانع

وفي (سنة ١٠٥٠ هـ)، قياً شرف الإسلام الحسين بن الإمام للطلوع من اليمن الأسفل إلى ضوران، ثم الزيارة لحضرة الإمام، فسار في شهر ربيع.

وفيهما وصلت الأخبار من جهة الروم أن السلطان مراد بن أحمد خان بن عثمان قصد محاصرة بغداد، وهو في الأصل من قواعد مملكته، إنما وثب عليه الشاه عباس بجراته، فأحاط السلطان به من جميع الجوانب، ورُتّب عليه البوش والآغوات والمراتب، وكل مُقَدَّم من أولئك الأعيان يضبط تحته عدة من الرجال والفرسان، ويقال: إنه كان جملة الخارجين مع السلطان في ذلك الصوّب أربعة عشر (لكّا)، وكان جملة أيام الحُطّاط أربعين يوماً وعظُم على السلطان الخطب بسبب قوة أصحاب الشاه عباس، وما كان قد أنشأه من الترتيب فقصد السلطان الشيخ عبد القادر الكيلاني، واستمد منه الأنفاس، ثم أمر الحدادين أن يصنعوا له مدفعاً من الخوارق، ليطلق على سور بغداد من جوفه صواعق، فلما وجه الضربة على السور انتهت إليه ورجعت الحجر على أصحاب السلطان، فأهلك منهم جملة، ثم رمى به أخرى ففتح جانباً من السور، وكان بسببه الفتح المشهور؛ لأنه أثار جانب من ذلك الدائر، فتبادرت إلى الدخول منه العساكر، وقتلوا في بغداد عدداً لا يضبطه قلم، وكان الشاه في جانب من القصر ففر بنفسه بعد تدبير الخيلة، فصادف هربه اشتغال الناس بالقتل والسلب والنهب. ولما أدرك الشاه النجاة كتب إلى السلطان يطلب منه الصلح على ما عدا هذه البلاد، وأن يأمن كل من في سربه، فأجابه إلى ما رام، ولم يكن في خَلْده غير فتح مدينة السلام، واستقرت يدُ الشاه على بلاده التي هو فيها من جبال فارس وما إليها، واقتصر بعد أن عاين المهول عليها، مع أنه لم يترك أثناء حصاره مجهوداً، فقد دبر الخيلة الغريبة، حكى أنه ربط بذنب هر فتائل النار، ثم أرسله بعد الترتيب إلى جبخانه البارود، فولج ذلك الهر وأحرق الجبخانه، ولما فتحت بغداد أمر السلطان بعمارة قبر أبي حنيفة - رحمه الله - ببغداد،

وكان الشاة قد أمر بخرايه؁ واعتل بأن أبا حنيفة كان يعارض الإمام جعفر الصادق بالفتوى؁ وأمر السلطان أيضاً بعمارة قبر الإمام موسى الكاظم؁ فأصلح القرن وعمر المشهدين وعظم الإمامين.

قيل: وكان مراد السلطان مراد التجهيز على اليمن بعد فتح بغداد؁ فبلغه أن أحياه إبراهيم بن أحمد خان؁ قد خالفه واستبد وخان. وتغلب على مملكة الروم؁ وتم له الدست فيما يروم؁ فداخله من الضيق ما صدّه عن تلك الطريق؁ وأسرع به إلى طريق المنية؁ وعاون عليه سلطان الأعراض النفسية؛ ففاضت روحه؁ وخلا عنه سوّحه؁ ولما ثبت أخوه إبراهيم على كرسي السلطنة تحركت نفسه لفتح مالطة وما وراها. ويأتي فيما بعد عامٌ خير؁ وكيفية نصره وظفره؁ ولم يفتح السلطان مراد بغداد إلا بعد إفناء الأموال العديدة والذخائر العتيدة؁ والأبطال الكرامة والخيل المختارة؁ وأول جيش توجه على بغداد جيش الباشا حافظ أحمد؁ ورجع بعد حروب طويلة بقلب مكمد؁ وتبعه إرسال الوزير الأعظم؁ والجناب المقدم؁ فطال حصاره للمدينة؁ وضرب خيامه بمشهد الحسين؁ ورجع عن فتح المدينة بخفي حنين؁ لكنه فتح كثيراً مما حولها؁ وتعبه هذا الفتح الشهير؁ ولما استقر الصلح كما سلف بين السلطان والشاه؁ قرره أخوه إبراهيم ومشاه؁ برسوم رُسمت على الشاه منها: إتاوة يحملها إلى السلطان في كل عام منها الحرير وغيره؁ ولم يطب حال الشاه بعد إخراجة عن العراق؁ واستيلاء السلطنة على تلك الآفاق؁ فتوفي وتولّى مملكته من بعده ابنه صفي شاه؁ ثم إن ابن أخيه عباس شاه ثار عليه؁ وأخذ المملكة من يديه؁ وجرّعه كأس المنية وأعدمه تلك الأمنية؁ ولسلاطين العجم هؤلاء أحوال؁ حكموا فيها الملوك الذي عاقبته إلى زوال؁ مثل: فرش الأفنية بخالص الحرير؁ واستعمال آنية الذهب والفضة المرصّعة بالجواهر النفيسة؁ وإطلاق رَسَنِ البطالين في مدّهم مع البغايا تعللاً بشبهة المتعة؁ وتسليط بعض الأنعام على بعضها للإغراء بينها والتفكّه بما يتفق منها؁ وقد يُسمّون ما ذك في النطّاح بمن يغمصون جانبه من الصحابة؁ وإذا غلب الذي إرادهم ذكّه صالوا على من هو في ملكه.

وذكر بعض السادة عمن روى له أو شاهد أنهم يرقمون أسماء مشاهير الصحابة في نعالهم؁ ويرفعون أصواتهم بلعنهم؁ ويجعلون ذلك نوعاً من التقرب إلى الله؁ وهذا خاصة ليس بنكير في مذهبهم؁ ومن هو على طرزهم؁ إنما العجبُ انهماكهم في تلك الأحوال

التي تدل على ضعف العقل والحشمة، وعدم الإلمام بالشرعية، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

المولى الحسين بن القاسم

وفي (شهر ربيع الآخر سنة ١٠٥٠هـ) طلع شرف الإسلام الحسين من اليمن الأسفل إلى ذمار، وحصل بين عسكره وبين أهل المدينة شجار؛ لأن عسكر الحيمة الذين كانوا صحبته أرادوا دخول البيوت، ولم يكن قد سبق مثل ذلك من العسكر، فاحتكرت نفوس أهل ذمار، وأقبلوا عليهم بالحجار، وكان فيها يومئذ عز الإسلام محمد بن الحسن، فكأنه مدّ إليهم الرمز اللطيف، أن ذبوا عن أنفسكم ولو بالدفع العنيف، قبل أن تثبت عادة، ويعسر تغييرها عند الإرادة.

وأما المولى شرف الإسلام الحسين، فإنه عُلِقَ به الألم من ذلك الحين، ويقال: إنه ذات الحنب ففارق الحياة في يوم (الثلاثاء ١٥ ربيع الآخر). وكان قد قام بتولي بلاد أخيه الحسن، فدبر الأمور وساس الجمهور، وكان — رحمه الله — بعد وفاة أخيه الحسن وتحمله لعهدته قد ظهر منه الخلق الواسع والعطاء النافع، وحضر دفنه ولد أخيه محمد بن الحسن، وقبر حول حوطة الإمام المتوكل المطهر بن محمد بن سليمان الحمزي.

قد أشار إلى ذكر تاريخ وفاة المولى العلامة الحسين بعضُ البلغاء في آخر أبياته التي رثاه بها، وهي مرسومة فوق الباب الشرقي لقبته المشهورة المزورة بدمار، فقال:

أيا قبةً حازت من المجد أسنائه	ومن شرف الفخر المؤئل أسمائه
حويت سليل القاسم بن محمد	أجل الورى قدراً وعلماً وأعلاه
حيبب أئمة الله في الحشر نوره	وبوَّاه علياً الجنان وأعلاه
أقام بهذي الدار من صدر فيلق	إلى صدر تحت يفحم الخصم فحواه
وجاهد في مولاه حق جهاده	بكل وعى فيه الصناديد قد تاهوا
وراح وقد أبقى لدينا ماثراً	بجأزيه بالإحسان في فعلها الله
فيا زائراً قراً تضمَّنه لقد	بلغت به من موقف الحشر أرجاه
توسَّل به في دفع كل ملمة	ونيل الذي ترجو فإنك تُعطاه

فهذا له عند الإله مكانة
فلو سُئل التاريخ أين محلّه
بها رضي الرحمنُ عنه وأرضاه
لقال مجيئاً (دار الأكارم مثواه)
(١٥٠هـ)

وفي (ليلة الاثنين عاشر محرم سنة ١١١٧ هـ) ظهر هذه القبة للمولى الحسين-رحمه الله- أربعة أنوار: بعضها أحمر كالجمرة، وبعضها أبيض كذباله المصباح، ونور من داخل هكذا في الجامع الوجيز للمولى أحمد الجنداري.

ومن شعر المولى الحسين:

مولاي جُد بوصال صبٍّ مُدِنِفٍ
وارحم فُديتَ جريح سيف مُرْهَفٍ
وامن بحقك يا حبيب بزورة
مولاي إن الصدَّ أتلِف مهجتي
عجبا لعطفك حين رُئِحِ وانثى
أنا عبدك الملهوف فارث لزلتي
عرّفتني بمواك ثم هجرتني
حملتني مالا أطيق من الهوى
يا مهجتي ذوبي ويا روحي اذهبي
هل من معين لي على طول البكا
وإليك عاذل عن ملامة مغرم
حاشاي أن أشكو وأنسى عهد من
قل ما تشاء فإني يا عاذلي
أنا عبده لا أكتفي عن مالكي
يا قلبه القاسي أما ترثي لمن
اعطف على صبٍّ أذبت فؤاده

وتلافه قبل التلاف بموقف
من مقلتيك طعين قد أهيف
يجي بها القلب القريح ويشتفي
والصدُّ للعشاق أعظم مُتلف
متأوداً وعليّ لم يتعطف
وارفق فديتك بي لطول تلهفي
يا ليتني بمواك لم أتعرف
وأذقتني سم الفراق المزعف
من صده عني ويا عيني اذري
أو راحمٍ أو ناصِرٍ أو منصف
لا يرعوي عما يروم ولا يفي
أحبيته إني أنا الخُل الوفي
لا أنتهي لا أنثي عن متلفي
والعبد عن مُلاكه لا يكتفي
قاسى نوى وجوى وطول تأسف
واستبق مني بالنبي الأشرف

وله:

رفقاً بقلب المسائم المشتاق رفقاً فقلبي في أشد وثاق
شرف محبك يا حبيب بزورة أولاً فَمَنْ عليه بالإطلاق
أرقتني وأرقت من عيني دماً بصوارم من مقلتيك رفاق
كم ذا صدودك بل جفاك وآه بل كم تقصد الأحشاء بالإحراق
آه من القلب الجريح وآه من جفني القريح ودمعه المهراق

.. إلخ.

وأما علم المولى الحسين فهو الذي طبق الآفاق، وانعقد عليه الإتفاق، ويكفيه تحقيقاً وتديقاً وترصيفاً وتنميقاً مؤلفه في أصول الفقه المسمى غاية السؤل وشرحها المسمى هداية العقول، وقد كتبت ما قلته في ديباجته (عبدالله بن علي الوزير).

لله من غايبة أعوذها بالله من عين كل ذي حسد
كم كللت بالفصول جوهره وكم لها من يد على العضد

وقد اشتغل آخر مدته بالحديث، وسمع صحيح مسلم على الفقيه الحافظ عبد الرحمن بن محمد الحيمي.

وللمولى الحسين مؤلف في عدم اشتراط الإمام الأعظم في صلاة الجمعة، وهو كقول الشافعي، وللسيد الحسن الجلال مؤلف في نهجه، وأصل هذا البحث للأمير الحسين بن محمد، وقد زاد عليه السيد محمد بن إبراهيم الوزير في رسالة مشهورة.

وللمولى الحسين رسالة في النهي عن منع الشافعية من التأمين في الصلاة لما منعههم بعض ولاية الزيدية جهلاً منه، فنهاه الحسين عن التعرض في المسائل الخلافية، ولما وصلت رسالة الحسين إلى الشافعية، أثنوا عليه خيراً. وله مختصر في آداب العلماء والمتعلمين، وله حواش على شرح الأساس للسيد أحمد الشرفي والإمام القاسم.

وكان للحسين من شدة البأس ما يخرج عن طور البشر ومواطنه مع شجعان الأتراك أيام الخطاط علي حيدر باشا وغيرها معروفة.

ومما اتفق له من الشدائد العظيمة أنه سبح في غدير المرصدين من جهات البطنة من

بلاد عذر، فغمس في الماء كما يفعله الماهر في السباحة، فقفذه الماء عند ارتفاعه إلى جانب شديد الظلمة، منحسر عنه الماء؛ لأن الغدير بين جبلين، فبقي في ذلك الجانب متحيراً في أمره من نهار ذلك اليوم إلى صباح اليوم الثاني، فعند ذلك ظهر له شعاع الشمس عند شروقها، وأدرك ضوءها بين الماء، فغمس في الماء تبخيتاً وتخميناً لمصعد النجاة، فخلصه الله وبرز من ذلك الخضم بعد أن حصل الأياس منه.

وكان — رحمه الله — يرى أن الخلاف بين العلماء في أصول الدين لفظي، وأنه لا يجوز التكفير والتفسيق بالإلزام.

وما ذكره في شرح الغاية أن ترجيح الداعي يكون بالإرادة والاختيار، وهو قول السمرقندي وغيره.

ومن مآثره رحمه الله المسجد المعروف بباب السبحة بمسجد حجر، سمي باسم بيت حجر من أولاده الذين تولوا على المسجد ووقفه، وقبر ابنه العلامة محمد بن الحسين والعلامة أحمد بن علي الشامي وغيرهما من الأعلام بجانبه (وقد نقل مسجد حجر إلى الصافية جنوبي صنعاء ونقل عظام الموتى إلى المقبرة العامة، وبني هنالك البنك اليمني للإنشاء والتعمير) وقد وقف المولى الحسين على المسجد ما يكفيه، ومنه البستان المعروف ببستان الخير، وكان بنظر بيت حجر، وقد زاد في المسجد، وحسنه ابنه المولى العلامة محمد بن الحسين.

ولم يلبث الحسين بعد أخيه الحسن غير سنة وتوفي، ولم يصل إلى الخمسين سنة. وكان أخوه الإمام المؤيد قد جعل بنظره جميع البلاد التي كانت بنظر أخيه الحسن، وهي غالب البلاد الجنوبية. ولما مات الحسين توجه ما كان إليه من أعمال العساكر إلى ابن أخيه محمد بن الحسن، وقرره الإمام المؤيد على البلاد التي كان عينها له عمه الحسين، واقتصر عليها، خلا أنه أمدده الإمام من بقية البلاد بأرزاق من انضاف إليه من الأجناد، ويده مطلقاً في تنفيذ الأوامر، والإنصاف للمظلوم من الظالم، وإصلاح ما يحدث من الفتن.

مقارنة بين الحسنين

قال المؤرخ المطهر الجرموزي المتوفى (سنة ١٠٧٦هـ) في الجزء الثاني من الجوهرة

الميرة، في جُمْل من عيون السيرة، للثلاثة الأئمة ما نصه: ((أخبرني من كان يخالط الظلمة ويتودع ودائعهم ويظلم ضعفاء بلده ويؤذيهم فحبسه مولانا الحسن سنة بضوران، وأدّبه بثلاثة آلاف، ثم أطلق بتوسطي له، وبعد وفاة الحسن حصل منه، مثل تلك الذنوب في أيام مولانا الحسين، فأدّبه بثلاثمائة، فشكا وتوجّع كثيراً، فطلبنا من مولانا الحسين سماحه بشيء، فما أبقي عليه إلا مائة، فأقسم أن (٣٠٠٠) من الحسن أخف عليه وأسهل من المائة من الحسين وترخّم على الحسن وبكى، وذكر الحسين بما لا يجوز وهو حي.

ولما توفي الحسن ودفن جمع الحسين أصحاب الحسن وأمرأه وأجناده وأحمد بن الحسن حاضر في (١٨ سنة)، فمالوا إليه ولا يلتفتون إلى الحسين إلا إذا التفت أحمد على عمه، وأن الحسين أمر أن يكتبوهم لعطائهم وصلاتهم، فبكوا، وهاموا على وجوههم قبل ذمار واليمن، ولم يرجعوا إلا بمشقة، وزادوا نفوراً إذا خاطبهم غير ابن سيدهم.

وعظم على الحسين وهم أن يتركهم فطيب نفسه أحمد والحاضرون. ولا يقبلون أوامر الحسين إلا إذا عرضوها على أحمد، ووصلت أوامر الإمام بتعيين الحسين، فوصلت كتب الحسين بتولية الولاية، فكتبوها، وعند وصول كتب محمد بن الحسن أظهروها، ولما رأى ذلك الحسين، عاد إلى بيته في ذي هبلان، وقال: ((دونكم أمركم وجندكم)).

وصار محمد بن الحسن إلى ذمار وصار إليه جميع جند أبيه، وعاد أحمد إلى ذي مرمر، وقد ألقى الله محبة الحسن إلى جميع أهل زمانه من يعرفه ومن لا يعرفه.

وبعد موت الحسين سقط جناحا الإمام المؤيد.

* * *

(وفيات)

إبراهيم بن هادي النعمي

وفي (سلخ صفر سنة ١٠٥٠ هـ) توفي بالشرف، السيد العالم المجاهد التقى إبراهيم بن هادي النعمي الشرفي. وكان من أعيان أصحاب الإمام، وله الصبر العظيم بمواقف

الجهاد والصدام.

إبراهيم بن أحمد عامر

وفي (رجب سنة ١٠٥٠هـ) توفي بشهارة، السيد العالم إبراهيم بن أحمد بن عامر الشهيد بن علي. وكان ملازماً للإمام المؤيد، ودفن بالحجرة التي عند قبة الإمام، ومولده في (شوال سنة ١٠١٨هـ-)، فعمره (٣٢ سنة).

وكان من أعيان علماء وقته علماً وحلماً وزهداً وكرماً، وكان الإمام المؤيد يخصه بمزيد التكريم والتعظيم، وأخذ على الشيوخ الذين وصلوا إلى حضرة الإمام وغيرهم، وله شعر كثير. وقد ترجمه في مطالع البدور ترجمة استوفى فيها أحواله وأعماله المبرورة، وأرخ وفاته (سنة ١٠٥٦هـ) وهو الصحيح ولازم السفر للحج أميراً للحجاج.

وفي (ذي القعدة سنة ١٠٥٠هـ) توفي بالشرف الفقيه الأعلام الأفضل ناصر بن جابر الأسدي الشرفي.

محمد بن عز الدين المفتي

في (شعبان سنة ١٠٥٠هـ) توفي السيد المجتهد محمد بن عز الدين بن محمد بن عز الدين بن صلاح بن الحسن بن الإمام علي بن المؤيد بن جبريل المعروف بالمفتي في (١٢ شعبان) بذهبان شمالي صنعاء، ودفن بخزعة، وقبر إلى جنب والده، وكان إمام العلوم، فارس منطوقها والمفهوم، بركة الأنام. وجّه إليه الباشا جعفر منصب الإفتاء بصنعاء، فكان يفتي بكل المذاهب مع ورع شحيح، ودين قويم صحيح، ومن مشائخه السيد العلامة عبد الله بن أحمد المؤيدي والسيد العلامة صلاح بن عبد الله الوزير، ولم يتخرج في الفقه إلا في آخر أيامه، فإنه أنفق جمهور شبابه في العلوم العقلية والنقلية، ثم أقبل على الفقه بالقلب والقال، فجلّى في ميدانه وملك قبضة عنانه، وألفَ البدر الساري في أصول الدين وشرحه بواسطة الدراري، وقد سلك مسلك الحجة محمد بن إبراهيم الوزير في الإيثار والعواصم والروض الباسم، إلا أنه لم يصرح بمذهبه، وقد أفصح عن بعض مطلبه، فإنه قوى ما يعتمد عليه، وترك مكان ما لا يريده من التنقيح والتبسيح، وهي صناعة تدل على غور حصيف وذهن شريف، وملاحظة لأحوال الزمان، ومداواة حسنة للإخوان.

وله شرح تكملة الأحكام للإمام المهدي أحمد بن يحيى، وله منهج الإنصاف في النهي عن سب الصحابة، وكان يفتي بما لا يلائم خاطر الباشا في بعض الأحوال، اتفق في مدة جعفر باشا أنه أفتي بيوم الفطر، فأفطر من أفطر بفتواه، فطلبه الباشا وعاتبه، وقال له: كان عليك أن تُشعر الأفندي، فقال: قد أشعرتة، فطلب الأفندي إلى حضرة الباشا، وسأله، فقال: كلاماً معناه: أفتي السيد بشاهدين ما يكمل بهما الحكم على مذهب أبي حنيفة؛ لأنهم لا يعملون إلا بأربعين شاهداً، حيث الأفق لا علة فيه من سحاب ولا غيره، فتغير خاطر الباشا، وقال للسيد: ليكن حيسك في بيتك، فانفصل عن حضرته وبقي في بيته أياماً، ثم إن الباشا استدرك هذه المفقوة، فاستطاب خاطر السيد ونوع له الإحسان، وقد كان ينسب إلى الباشا جعفر الميل إلى جانب العلماء بسبب أنه كان له حصة وافرة من العلم سيما علم المعقول.

ومن شعر السيد محمد بن عز الدين يذم ذهبان.

ذهباً أحبُّ مكسبُ كسبِ الفتي	لله در رياضها والوادي
بلدٌ به حل السقام مع الضنا	فكأنما كانا على ميعاد
بلدٌ به نكد المعاش أما ترى	سخط الإله لأهل ذاك النادي
فعليه مني كل يوم لعنة	ما غرَّد القمري وزمزم حادي

وألف حاشية السيد على متن ابن الحاجب الكافية، جعلها لبعض تلاميذه لا سيما أولاد الباشات، واعتمدها الناس ونسخوها، وكان يدرّسها ويلحق فيها زيادات، فلهذا اختلفت نسخها.

أحمد بن عبد الله البشري الغشم

وفي (سنة ١٠٥٠هـ) توفي بصنعاء القاضي العلامة أحمد بن عبد الله بن علي بن يوسف بن أحمد بن علي بن عيسى البشري، من بني بشر، أهل حرجة الشام المعروف بالغشم الأنسي. وكان عالماً فاضلاً كثير الحركة في البلاد لمنفعة الإمام المؤيد محمد بن القاسم بالرسائل ونحوها إلى بلاد همدان وجهات صنعاء وبلاد حراز. وقبره بجانب قبر شيخه القاضي محمد بن علي الشكايزي، وله أولاد صلحاء علماء فضلاء، وهما علي بن أحمد وعبد الله بن أحمد الغشم. وأما صنوه القاضي العلامة محمد بن عبد الله الغشم،

وفاته (سنة ١٠٤٣هـ)، وكانت له مكانة عظيمة جداً عند الإمام المؤيد محمد بن القاسم.

حوادث سنة ١٠٥١هـ

وفي (سنة ١٠٥١هـ) جهز السلطان إبراهيم بن أحمد خان على جزيرة مالطة، فما زالت سراياه تناوش الإفرنج بحروب، تذهل عندها القلوب، واستفتح كثيراً مما بأيدي الإفرنج من البلدان، واستمر ولده بعد وفاته على ذلك الشأن.

وفي (ربيع الأول سنة ١٠٥١هـ) وصل من الإمام إلى أحمد بن الحسن كتاب يستكشفه فيه، عن خزانة والده الحسن، ويطلب أن يوضح التصرف فيها، ويقول له: إن كانت لبيت المال، فليس لك عليها يد بحال. وإن كانت لوالدك الحسن فأنت فيه أسوة ورثته، وكلكم في سنن، فما بال الاستبداد الذي خفي علينا فيه المراد.

وكان الصفي يرى في ذلك الأوان مع طيبة نفس الإمام عليه أن ما تصرف فيه من الخزانة فيده فيه أمانة، وعند ذلك جاشت نفس الصفي، وقدّر أن غير المباشرة بكفاية هذا الجواب لا يفي، فتحرك من حصن ذي مرمر للخروج، ووكل الجواب إلى بطون الأعماد، وظهور السروج، فتوجه إلى بلاد خولان في جماعة من الرجال وجريدة من الفرسان، وقد ضم إليه الذخائر النفيسة والنقد الكثير، وغمر أصحابه بأنواع الإحسان ونفحهم بكل خطر. فوصل إليه مشائخ خولان والأعيان وبذلوا له وجوه الرعاية وصنوف الإحسان، ثم ارتحل إلى بلاد عنس، ثم قيفه، وعند ذلك تبعت في أثره الرسائل الإمامية، وأخذ فيها بحفظه على عمال الأفطار، ووصلت إلى عمه إسماعيل إلى ضروران من الإمام تتضمن إيجاب الحركة عليه إلى ولد أخيه وإرصاد المكان له في كل وجه، والاستيثاق من أحواله حتى يؤتى به إلى الحضرة المؤيدية، فحث إليه الركاب، وصحبه أخوه عبد الله بن الإمام القاسم.

وكان أحمد بن الحسن قد قصد قعطبة، فنبعوه إلى نقيل الشيم، فوقع الحرب وبعد أن تتابع القتل في الفريقين، رأى أن من إلى جانبه قد أدركهم الظلم، فاستخلص نفسه ومن

معه بلطف وارتفع، فانتهب العسكر جميع خزانته، فرجع العزم إلى الحسين بن عبد القادر صاحب عدن فبقي عنده زماناً، ولقي منه إحساناً. وبعد تقضي الواقعة استخلف إسماعيل بن الإمام على قعطبة السيد محمد بن أحمد بن الإمام الحسن بن علي، وعزم إلى تعز لتقرير أحوالها، فوردت رسالة من الإمام إلى صاحب عدن يقول له: أرسل إلينا الولد أحمد فعرض عليه الرسالة، فلم يمتثل وأحسَّ بعد ذلك بانحراف من الأمير الحسين بن عبد القادر، ونوع ترفع دون احتمالاه عند الصفي ملاقاته الحسين، ففارقه عجلًا وأنشد متمثلاً:

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان غير الحي والودد
هذا على الخسف مربوط برمته وإذا يُشج فلا يرثي له أحد

وقصد بلاد يافع، فرأى منهم غاية الإكرام، فاطمأن خاطره وطلب منهم المصاهرة، ففعلوا ثم طلب منهم الغارة على قعطبة، فأسعدوه وقصدوا أهلها على غفلة، فوقع حرب شديد، وكانوا قد أشرفوا على الاستيلاء؛ لأنهم أحاطوا بها، لكنها خفت صولتهم من آخر المعركة، فصال أهل البلد عليهم، فانهزموا إلى بلادهم، فاستدرج الإمام قلوب أهل يافع بالملاطفات وإرسال الصلات والكسوات ومنعوا جانب الصفي، وأجابوا على الإمام أنه لا يمكن الخلوص إليه، ومتى بدا له رغبة فهو ولدكم وأنتم أولى به.

وفي هذه السنة أذن الإمام المؤيد لعلی شمسان بالحج، فعزم ومات في أثناء الطريق، وكان مقدّم الحسن بن الإمام، وله رئاسة وإقدام، يصحبه عجلة في الانتقام، حتى نُسب إليه قتل جماعة من عسكر السلطنة بعد تأمينهم، واستنكر منه ذلك.

وفي أثناء هذا العام خالف بعض الجهات النجدية على الشريف زيد بن المحسن، فقصدها بنفسه وأحرب بعض قراها وأجلى عنها أهلها وهي على طريق السراة.

وفيات

عثمان بن علي بن الإمام شرف الدين

قال في ذيل روح الروح: في (٢٧ محرم سنة ١٠٥١هـ) توفي بمدينة ثلا السيد

العلامة بقية السلف الصالح، والمجد الذي قارن السماك الرامح، عثمان بن علي بن الإمام يحيى شرف الدين عن زيادة على ثمانين سنة. وكان سيداً عالماً عاملاً فاضلاً متفنناً في النحو، والمعاني، والبيان، والمنطق، والفقه، والعلوم العقلية والنقلية، وله معرفة بالتصوف وعلم الطريقة وكان لطيفاً في طبعه.

وفي (عاشر جمادى الأولى سنة ١٠٥١هـ) توفي السيد الرضى بن عز الدين بن الإمام شرف الدين، وقبر عند قبر صنوه علي بن عز الدين.

وفي (١٨ شعبان سنة ١٠٥١هـ)، توفي بكحلان تاج الدين السيد الهادي بن الحسن بن الإمام شرف الدين. وقبر في القبة التي عمرها لنفسه بإزاء مسجد المنصور عبد الله بن حمزة بكحلان.

وفي (٢٢ ذي القعدة سنة ١٠٥١هـ) توفي بقية السلف الصالح المهدي بن غوث الدين بن المطهر بن الإمام. وفي (٢٤ ذي الحجة سنة ١٠٥١هـ) توفي غريقاً في السد الذي بناه الأمير أحمد بن شمس الدين بكوكبان، السيد محمد بن عبد الله بن علي يحيى بن المطهر بن شرف الدين.

وفي (سنة ١٠٥١هـ) توفي بوصاب علي بن أحمد بن إبراهيم أبو الرجال، وله ترجمة مفيدة في الطبقات.

وفي (سنة ١٠٥٢هـ) في المحرم استولى الخسوف على القمر في برج الميزان.

وفيهما نجم خلاف الشيخ علي بن ناصر بن راجح الأنسي بعد عودته من حضرة الإمام وانضاف إليه جماعات أهل جبل الشرق، (وهي الروية وما والاها من تلك الآكام مثل بعض أطراف ريمة وكسمة)، وتعللوا بأن الأكوع عامل ضروران عاملهم بالحقارة والامتهان، واستولى على القطع والحقوق، ولم يبق لنفاق رئاستهم عنده سوق، وأضافوا إلى ذلك شيئاً من دعوى الجور، فسلطوا علي ناصر ومنعوا على الدولة، واشتدت منهم الصولة فانتدب عامل أنس الأكوع لهم وعلم أنها لا تُدحض هذه الفعلة إلا بالسنان لا بالأشنان، وأنه إن لم يسرع حسمها بغير الحرب، امتدت عروقُ فسادها في الشرق والغرب.

فجمع الرجال المختارة، والخيال الكرارة، وإليهم عسكر ضروران، وهم أهل الضرب والطعان، فانكشفت المعركة عن قتل جماعة رُقم القتل عليها، وانتهاب بيوت كانت

ذخائرهم قد جمعت إليها، واستولى على تلك الحصون والآكام، وفيها حصن بني راجح المسمى حرفة، وهو معقله وضيعته وموئله، الذي فيه ذخيرته ومنفعته، وفر بعد ذلك وذهب شريداً حتى اتصل بمولانا محمد بن الحسن وطلب منه أن يجيره، وأن يأخذ له الدمام فرأها له عز الإسلام جميلة، وقيّاه من الأمان في ظلّ خيمته، وأكرم نزله وسد خلله.

وكان جماعة ممن استعصاه وضرب بعصاه، قد أطالوا الحصار على يفعان، ودُّبوا إليه ديبب الأفعوان، فأنسلوا عقيب فتح البلاد وتفرّقوا في كل وادٍ.

ولما انتصر الفتح وصل إلى تلك الجهة مأمور الإمام المؤيد السيد الكريم النجيب صارم الدين إبراهيم بن أحمد بن عامر الشهيد ومعه جماعة من الجند، واستقر أياماً في البلاد لتأديبها وتجهيدها وتصحيحها عقيب ذلك الاستعصاء والاعتلال، ثم عاد إلى ضوران وأمر فيه بالمعروف، ونهى عن العصيان، وظهر فيه من مخائل النجاة والكرم، ومحاسن الأخلاق والشميم، ما يقضي له بأنه من صميم السادة، وأبناء ذوي المحادة والسيادة، ولم يعد إلى حضرة الإمام إلا وقد علقت به الديون، وغلقت فيها ذمته غلاق الرهون، فشكر الإمام أفعاله، وروح بتحمّل ديونه حاله، وهكذا الكريم تقال عثاره، وتُحمد آثاره. وقد سبق ذكره في حوادث (سنة ١٠٥٠هـ) والصحيح أن وفاته (سنة ١٠٥٦هـ).

ولما رأى الإمام أن ابن أخيه الصفي جانح إلى الغربة سكّنه، جامع في ميدان الإعراض رسّنه، وكان في يد أصحابه حصن ذي مرمر، وهو قُقل بلاد خولان، وكالحاكم على ما تحته من البلدان، أزمع على حصاره وطمس آثاره، فأمر الشيخ حسن بن الحاج أحمد بن عواض الأسدي بمحاصرته، فاستمرت سنة كاملة حتى خرج من فيه على رسمه، وهم الآغا فرحان ومن معه من المماليك وكثير من الأعيان، وجميع الحشم الذين كانوا به أيام بقاء أحمد بن الحسن بالغراس.

ثم أمر الإمام في جمادى الأولى من هذا العام، بخراب مساكن الحصن وتحويل أبوابه وأخشابه، وحملت أبوابه إلى شهارة، وكان هذا الفعل بطلب قبائل بني حشيش وما لاصقهم لكرهتهم تشييد الحصون الدولية بين أظهرهم.

وهذا المعقل حصن حصين، وعلم شامخ العرنيين، نسيم أعاليه سحسج، ومصباح

علايه من قناديل السماء مسرج، له لون يدعو الأفراح إلى الأرواح، ويكسوها نشوة الراح، كأنما عجنت طينته بماء الصهباء، أو علفت عليه طلاسـم الكثر المخبأ، وفي أثانيه غارات مخلوطة رائعة، وهي مما عملته الصنّاع للتبابعة، وللناس فيها مقال مضطرب، وأما مما عملته الجن لأسعد ذي كرب:

وقد كان أرباب الصناعة كلما رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن

وقد تداولته في الإسلام أيدي الأئمة الأعلام، وانتقل مرةً إلى نوبة الباطنية وما زال من أيام الإمام شرف الدين إلى هذه السنين في أيدي الأئمة المهادين وحال الرقوم، وهو من جملة الرسوم، فقد أغلق على مجموعة الباب الآخر، فسبحان الله الوارث القاهر.

وفي هذا العام أرسل الإمام إلى يافع القاضي شرف الدين الحسن بن أحمد الحيمي للسعاية، في استمالة ابن أخيه أحمد بن الحسن حتى يرجع إلى دياره، فأسعده أحمد، فعاد والعود أحمد.

ولما وصل حضرة الإمام ظهر منه الابتهاج، واستقام الاعوجاج وزوجه الإمام بإحدى بناته، وحمد مسعود حر كاته، ثم استأذنه للعام المقبل في حج بيت الله الحرام، فأذن له مع جملة من الأعيان والأهل والأرحام، واشتهر أنه انفتح له باب الحجر النبوية، فزار جده رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأخلص نية.

وفيهما اتفق أن بعض السادات الثقات، سار إلى بلاد شمت، نزل إلى بركة للشرب منها، فوجد هنالك جمجمة ملقاه على الأرض وفي فمها لحام من حديد، فخاطبها يستكشف بلسان الحال أمرها، فلم يشعر إلا بصوت عظيم من تلك الجمجمة، داخله من الفزع ما خرَّ معه لوجهه، واستأنس بمارة الطريق فدفنوا تلك الجمجمة وقد صارت لسوادها كالحممة، فما تم الدفن حتى لفظتها الأرض، فتركت كما هي وتفظنوا أن هذا من عذاب القبر، الذي يظهره الله أحياناً للزجر.

وفي هذا العام تجهز جماعة للتجارة، من الحسا والبحرين والبصرة، وعبروا البحر الفارسي، فلما عارضوا بندر مسكت وكان يومئذ بيد الفرنج انتهبهم، فخاف بعد ذلك المارة وانقطع العبور إلى أن استولى العماني على بندر مسكت كما سيأتي، فسلك الناس في البحار وأمن التجار من أولئك الفجار.

وفي هذا العام وقع إفساد بحر القلزم وهو بحر اليمن من قبل الفرنج، فجهز عليهم أمير اللحية وهو النقيب سعيد المجزي عصابة من أولى الفتك والممارسة للحروب، فقبضوا عليهم وأرسلهم المجزي إلى الإمام وهو بوادي أقر فعرض عليهم الإسلام وهم زهاء سبعين نفرًا، فأسعدوا إلى الإسلام والإيمان، وفعل بهم شعار الإسلام وهو الختان.

وفي هذا العام جاءت الأخبار أن بلاداً في بلاد العجم استولى على أهلها الخسف العظيم شقق الأرض وهدم العمران وعطل السكان، ومن أمارات الساعة حديث في الترمذي، معناه ((لا تقوم الساعة حتى يلعن آخر هذه الأمة أولها، فإذا فعلوا ذلك فليرتقبوا ريحاً حمراءً ومسخاً وخسفاً)).

وفي (رمضان سنة ١٠٥٢هـ) توفي السيد أحمد بن حمد الله بن الإمام شرف الدين وصنوه محمد.

وفي (سنة ١٠٥٣هـ) أذن الإمام لابن أخيه أحمد بن الحسن بالانتقال إلى صنعاء والاستقرار بها، وقرر له ما يقوم به وبخاصته، وروي أنه اعتذر عما سبق منه من خروجه على الإمام، بعدم ممارسته لأحوال الأيام، مع تربيته في حجر أبيه ونشأته تحت ظل نعمة الأمان والحدأة والسلطان، وقد قيل:

سَكَرَاتُ حَمْسٍ إِذَا مُنِيَ الْمَرْءُ بِهَا صَارَ نَبَةً لِلزَّمَانِ

سَكْرَةُ الْمَالِ وَالْحَدَاثَةِ وَالْعَشَقِ وَسَكْرُ الْمَدَامِ وَالسُّلْطَانِ

حتى رُوي عنه أنه قال لهذا: قبضنا أولادنا وقصرناهم على تطويل إحساننا وإمدادنا. وفيها أمر ضياء الإسلام إسماعيل بن الإمام بقطع شجرة الشيخ أحمد بن علوان، وكان المحرّض على القطع الشريف محمد بن أحمد المخنكي، فحصلت به علة.

وفيها طلع المولى إسماعيل بن الإمام عن رأي أخيه المؤيد من اليمن الأسفل إلى ضوران، واستقر به لولاية البلاد والإصدار فيها والإيراد، فعمل بالعدل وحكم بالفصل، وصار مسعود الحركات في الأفعال، والأقوال والأحوال. فإنه وصل إلى دُور شيدها غيره، ومملكة زجر سعدّها طيره. مع بلاد مطمئنة إلى إمارته عليها، ضامية الأكباد إلى وروده إليها، فطلع فيها نجماً زاهراً، ونبغ فيها غصناً ناضراً، وأحيا فيها معالم العلوم، ونعش فيها من مآثر الأئمة قديم الرسوم، وجاد حتى تميزت ماهية الجود، كما يتميز

المعرّف بالرسم والحدود.

وكذا الكريم إذا أقام ببلدة سال النظرُ بها وقام الماءُ

ولم ينفصل عن تعز إلا وقد أحرز المجد والعز بما اقتناه من ذخائر العلوم، واستفاده من خزائن المعلوم. سمع بتعز تيسير الديبع على الشيخ المحدث عبد العزيز الحبش المفتي التعزي الشافعي، ونسخه بخطه، وسُنن البيهقي الكبرى، وأجازه شيخه بماله من إجازات.

محمد بن عبد العزيز المفتي التعزي

وفي الجامع الوجيز أنه: توفي في (جمادى الأولى سنة ١٠٥٣هـ) بتعز الشيخ العلامة محمد بن عبد العزيز المفتي التعزي. وحضر دفنه المتوكل إسماعيل، وكان وصيّه على أولاده، فقام بهم القيام التام، وبلغوا مبلغاً حسناً، وأناهم منه جميل البر والإحسان، وقيل: إن وفاته (سنة ١٠٥٨هـ).

وفي هذا العام وقع بمصر فناء عظيم، وخرج عنها الباشا ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، قيل: إن الذين هلكوا أربعة لكوك.

وفيه وصلت الأخبار إلى اليمن أن السلطان إبراهيم بن أحمد خان وجّه إلى جدة والحجاز بعساكر في ستة غريان، ويكون هبوطهم إلى مصر، ثم إلى جدة، ثم إلى اليمن، فلما عبروا عن بحر الروم بتلك النية واتصلوا ببندر اسكندرية، مات منهم الكثير، واضمحل التسفير، وخرج الباقيون إلى السويس، فركب منهم من ركب، وتفرقوا وجُهل ذهابهم. وفي رمضان على مضي ساعتين من ليلة الخميس خسف القمر ببرج الدلو.

وفيات

محمد عبد الله المحالي

وفيه توفي الفقيه العارف محمد بن عبد الله الهتاري المحالي، فقيه الشافعية بزييد، وهو أحد مشايخ المولى الحسين بن القاسم، واستحاز منه بمحروس الحمى خلال فتح زييد، أخذ عنه شمائل الترمذي وغيرها.

محمد بن صلاح شرف الدين

وفي (٢٩ صفر سنة ١٠٥٣هـ) توفي بكوكبان السيد محمد بن صلاح بن الهادي بن الحسين بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين بعد أن عاد من الحج.

محمد بن هادي بن محمد أبو الرجال

وفي شهر (ربيع سنة ١٠٥٣هـ) توفي بصعدة القاضي العلامة محمد بن هادي بن محمد بن علي بن محمد بن سليمان أبو الرجال، وكان عالماً مُدرّساً بجامع الهادي، وكان له في الزهد غاية لا تدرك.

وقال في الطبقات: إن مولده بمحل بمرهبة (سنة ١٠١٦هـ)، وإنه وصل الإمام القاسم إلى البيت الذي ولد فيه، فأدخل عليه فبرك فيه ودعا له، فنشأ النشأة الطيبة، وقرأ على السيد العلامة أحمد بن الهادي الديلمي وغيره، وكان تقياً فاضلاً رؤوفاً بالضعفاء، له أخلاق نبوية.

الحسين بن علي جحاف

وفي (جمادى الأولى سنة ١٠٥٣هـ) توفي بجبل عمرو من بلاد حجة السيد العلامة الحسين بن علي بن إبراهيم بن المهدي بن أحمد بن يحيى بن القاسم بن عليّان جحاف. وكان عالماً فصيحاً متكلماً ورعاً.

وفي طبقات الزيدية: إن وفاته (سنة ١٠٥٨هـ) ببلده حبور، وعليه مشهد مزرور، وأنه كان من فضلاء العترة عالماً كاملاً مرجوعاً إليه في علوم العربية والفقه، والأصولين، وكان بليغاً زاهداً يعمل في ماله بنفسه، وولاه الإمام المؤيد بن القاسم بلاد حجة، وكان يستدعيه للمراجعة في المهمات.

وفي (جمادى الأولى سنة ١٠٥٣هـ) توفي السيد صلاح بن عبد الخالق بن يحيى بن الهادي جحاف بحبور، وفي طبق الحلوى أرخ وفاته (سنة ١٠٥٥هـ)، والأصح الأول.

حوادث سنة ١٠٥٤هـ

في (١٢ محرم سنة ١٠٥٤هـ)، كان تحويل سنة العالم، فكان زحل في برج الحمل بآخره والمشتري بأول الجوزاء، والمريخ بأول درجة من الأسد، والجوزة ببرج الأسد. وفيها ساخ جبل بالأحجر وتد عثر من أعلاه بعض الحجارة والطين، وكبس بعض ما يليه من الجرب والبساتين.

وفي ذيل روح الروح: إنه في يوم (الخميس ٢٠ رجب سنة ١٠٥٤هـ) رجفت بقدره الله جبال وصخرات في العشة من أعمال بلاد الأهجر، وسارت تدك ما تحتها من الأحجار، حتى وصلت إلى فوق الطريق، ووقفت، وكان ذلك والشمس مسفرة، ولا مطر، وكان هبوطها كالجبال التي تقبض من خشية الله أو التي تصيبها الصواعق، فتزله من الشواهي، وكانت تسير سيرا، وشاهدها حال سيرها جماعة من الثقات، ومن نظرها بعد وقوفها السيد العلامة محمد بن إبراهيم بن المفضل والسيد الناصر بن عبد الرب، وصنوه السيد المطهر بن عبد الرب والقاضي العلامة الحسن بن أحمد الحيمي، فسبحان القادر المتصرف في مخلوقاته.

وفيها كتب الإمام المؤيد إلى الشريف المحسن بن الحسين أمير مكة يطلب منه الانتماء إليه، ويرغبه في الإقبال عليه، وأن يضرب برسمه السكة، ويخطب له بمنى مكة، وضمن ذلك رسالة مشحونة بدلائل محبة البيت النبوي والجناب المصطفوي، وحسن الانتماء إلى الأئمة، وما لهم من المزية على سلاطين الأمة. فأجاب الشريف بالامتنان، وأنه يبادر بالإرسال، فركب رسوله البحر في غير موسم الحج، حتى انتهى إلى جدة، وهناك بلغه أن مرسله بلغ من الحياة حده، وتأهب للمعاد ورحل بما معه من الزاد، فعاد من حيث وصل، وأتصل به من الاكتتاب ما اتصل.

والذي عرف من أحوال الأشراف أن ذلك الجواب إنما هو تأدب لا اعتراف، واستخراج لدُر الفوائد من الأصداف، واجتناء لثمر العوائد من أغصانها بلطف الاقتطاف، وإلا فإنه قد كان سبق من الإمام إلى أهل مكة رسالة يحثهم فيها على تسليم الزكاة المفروضة إلى من يرسله إليهم، فما كان جوابهم عن ذلك القيل، بغير قول إبراهيم

الخليل: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧] ثم استمدوا من الإمام، صنوف التفضل والإنعام، وأنهم منتظرون لرفده، ناظرون في المعروف جهة قصده:

ومن يجعل الضرغام باراً لصيده تصيده الضرغام فيمن تصيدا

وكان الشريف المحسن قد وعد الإمام بذلك المرام، لكنه بسبب ما وقع بينه وبين الأشراف، آل الأمر إلى خروجه عن مكة بعد طول نزاع وخلاف، فارتحل الشريف محسن إلى اليمن، واستولى أحمد بن عبد المطلب عليها بالسيف.

حكى بعض من لازم الشريف سعد مدة من السنين: أن الشريف أحمد بن عبد المطلب — المسمى بأبي حمارة — كان ممن لا يؤبه له في الأشراف، ولا يُظن أن الدهر يميل إليه بانعطاف، خلا أنه كان مقداماً متلافياً، وكان العامة وأهل الجذب بمكة لا يزالون يعدونه بإمارتها، وطال هذا الكلام، حتى خرج مخرج الهزؤ الخارج عن الاحتشام. فكان يقول له القائل: أيها الشريف، متى وليت المقام المنيف، فاجعل لي من العهدة كذا، وافعل لي من التأديب كذا، وكل يطلب على ما يبدو له في الحال، وهو يعدهم بإنجاح تلك الآمال.

ثم إنه اتفق منه غرة من الشريف محسن في بعض الحضرات، وانفلت إليه على حين غفلة من الحجاب والأغوات، فشكا إليه ما صار يعانيه من شدائد الحاجة، وبسط ذبول القول وأطال في اللجاجة، فزجره الشريف، وأطال له التعنيف، وذكره بسيرته غير المرضية، وبث له في الحرمان القضية. فخرج من حضرته لا يلوي على غير الخروج من البيت العتيق، واللبق باليمن أو أي مكان سحيق، ملتهب الأنفاس، مخاطباً لنفسه بقول أبي فراس:

ومن كان غير السيف كافلاً رزقه فللذل منه لا محالة جانب

ثم توجه إلى جدة بخاطر مكلوم، وقلب مسموم، وكان بما يومئذ قائد من الأتراك وللشريف بعض القواد العبيد، فحاول الولوج عليه، والوصول لديه، ثم رجع بصفقة

حين، وخُفِّي حُنين.

واتفق أن الباشا الموجه إلى بعض بلاد السلطان وصل إلى جدة ولقي مصرعه، ونزل مضجعه، فاتصل الشريف أحمد بن عبد المطلب بأعيان الباشا كالأغا والبير قدار والحازن والدفتري دار وعرفهم نسبه، ومجاداته وحسبه. وشكا من الشريف محسن ما أصدره إليه، واستنجدهم في النصرة عليه، وبذل لهم العهد الأكيد في عدم الاستبداد بالفائدة، وأن يده وأيديهم بعد الظفر واحدة، فأجابوا عليه بالتلبية والإسعاد، وأنشدوه قول بعض الشعراء الأبحاد:-

لا تحسبن ذهاب نفسك موتها ما الموت إلا أن تعيش مذبلاً
فارق ترق كالسيف سُل فبات في متنيه ما أخفى القراب وأهلاً

ثم أتهم واعدوه على وقت في الليل يدخل فيه على القائد، ويكون فيه على أهبة المراسد، فدخل إليه ذلك الوقت وقد ألوت جماعة من أصحاب الباشا بداره آخذين أسلحتهم، فلما وصل إلى القائد، ووقعت عينه عليه، طلب منه خلوة ليذكر فيها بعض حاجاته، فصرف القائد من لديه وأقبل في الخطاب عليه، فقام بنفسه إلى الباب وأغلقه ورجع إلى القائد بوجه طلق، ولم يكن بينهما فرق، ثم قرب منه ليوهه الخطاب، ويمت إليه من الشكوى بأسباب، ثم أخذ سيف القائد من وتده، وأطار به عنقه عن جسده، وفتح إحدى طاقات المكان، ورمى برأسه إلى الأعوان وأمرهم بالدخول على سبيل البدار، والفتك بمن وجدوه في صحن الدار، فدخلوا إليه مبادرين، وفتكوا بمن وجدوه في الدار في الحين، وألقوا مقاليد الأمر إليه، ونادوه باسم الملك وبركوا عليه، ثم بادر إلى مخازن الدار، ففك أقفالها، وأخرج أموالها، وفيها ذخائر القائد وخزنته، ونادى بالشمعدان، وأمر بإحضار التعبئة والفرسان، ومد الأنطاع، وصير إليهم الجوامك الفاخرة، وخلع عليهم الخلع الغامرة، كل ذلك من خزانة القائد، ورزق الساعي للقاعد، وأما أصحاب الباشا فهم خلاصته الأقدمون وأهل بيعته الأولون، ثم أنفذ في أثناء الليل رُسلاً خفافاً إلى أعيان الأشراف بمكة، وحرك نفوسهم على الشريف المحسن، وأودع الرسل إليهم جملة مما خف من المال الذي يعيل بقلوب الرجال، ورغبتهم في الدخول تحت

سنجقه الخافق، ورهبهم إن لم يقطعوا عن المحسن العلائق، ثم أنه بعد ذلك توجه في أقرب حال إلى مكة المشرفة في زي عجيب، وجيش مهيب، فلما شارف دورها وقارب معمرها، خرج إلى حربه جماعة من الأشراف بنية فاسدة، وقلوب مائدة.

وخيل ما يخر لها طعين كأن قنا فوارسها ثمام

وانجلى الأمر عن ارتحال الشريف المحسن وولده زيد إلى اليمن، واستقر أحمد عبد المطلب بمكة وقطن.

ولما وصلاً إلى الإمام لم يترك ما يتوجب لهما من الإجلال والإعظام، وتقلبت الأحوال من حال إلى حال، ومات الشريف محسن بصنعاء ودُفن بقبة الإسكندر المعروفة بباب السبحة بمسجد محسن (وقد صارت بعد الثورة دكاكين ونقلت العظام إلى المقبرة العامة).

وأما أحمد بن عبد المطلب، فإنه اقتعد كرسي المملكة الحجازية، ونبذ جلال السلطان خلف ظهره، كما توضع الجلالية، وأقبل على تفقد أحوال مكة وأعطى كلاً من السائلين مقترحه على قدر أسئلتهم، حتى إن بعضهم اقترح عليه القتل على هيئة مخصوصة، فقتله كذلك، وبعضهم اقترح خدمة مخصوصة، فمكّنه منها تمكين المالك، وما زال نافذ الكلمة بمكة، وما إليها من البلدان، حصّة من الأعوام والأزمان، والسلطان ترد عليه أخباره، ولا تخفى عليه آثاره، حتى حان الافتضاح، وهبطت أوامر القضاء المتاح، بوفود سنجق السلطنة إلى مكة والفتك به، فنادى السلطان بالباشا قاسم، فلما مثل بين يديه ذكر له أحوال الشريف، وما تواتر عنه من الإلحاد في الحرم الشريف، ثم شدّ عليه بنداً بيده، وقال له: عزمت عليك ألاّ تل هذا البند حتى توثق أحمد بن عبد المطلب في الحديد، وتأتيني به بعد أن تُقرّر ولاية الشريف زيد بن المحسن على ولاية بيت الله الحرام، وتوافيني بهذا الطاغية في أسوأ حال، فانطلق الباشا قاسم بمهمة عالية، فاستوثق من أطراف الحرم، وضيق عليه حتى تركه في دائرة الميم، فانسلك عنه كل صديق وحميم، ثم وضعه في السلسلة، واستملّى من أهل مكة أحاديث خلاعاته المتسلسلة، وصادف يومئذ دخول الشريف زيد بن المحسن إلى مكة عقيب موت والده بصنعاء، فنصبه الباشا في دست أبيه

المكلم، وخلع عليه الخلعة التي وصل بها من الروم.

ثم انفصل بالشریف أحمد تلقاء الأبواب السلطانية، فلما مرَّ به قارعة الطريق تبعه جماعة من أصحابه يريدون استنقاذه، فأشار بعض الحاضرين أنه لا ينقطع أيأس أصحابه إلا بعد أن يقطع رأسه، فضرب الباشا عنقه ورجع إلى الأبواب، وقد قضى الآراب، وحلَّ البند المعقود، وانقلب في الطالع المسعود.

وفي أثناء هذه الأيام نقل بعضهم عن الإمام أنه أراد رفع يد أخيه إسماعيل عن بلاد ضوران ورمعة وما إليها، فتغير خاطرُ أخيه، إذ كان العزلُ بلا سبب يقتضيه، والله أعلم بحقيقة الحال.

وفاة الإمام المؤيد

وفي ثمار (الخميس ٢٨ رجب سنة ١٠٥٤هـ) توفي الإمام المؤيد بالله محمد بن الإمام القاسم بمحروس حصن شهارة، وعمره (٦٣ سنة وشهران)؛ لأن مولده في (رمضان سنة ٩٩٠هـ) وخلافته (٢٤ سنة وشهران وكسور)، وقال: من أرخ دعوته:

دعا إلى الله إمام الهدى	محمد خير إمام كريم
من شمل الناس بإحسانه	وعمهم بالبر منه العميم
وسار في أمة خير الورى	بالعدل جازاه الرؤوف الرحيم
دعوته قد جاء تاريخها	(بدا بتقدير العزيز العليم)
	(١٠٢٩هـ)

وقال من أرخ وفاته:

إن المؤيد خير داع للهدى	بخصائص قد نالها من ربه
خير الأئمة في الدين تقدموا	أو ما ترى تاريخه (ختموا به)

١٠٥٤هـ.

وفي ذيل البسامة:

وقام من بعده^(١) من خصه كرمًا
 مؤيد الدين حامي سوجه بظبي
 كهف الأنام وغوث المسلمين معاً
 حمد السر من ضاهت محامده
 أزال بالعزم كل الترك عن يمن
 أبي محمد السامي الغلا حسن
 له الكرامات عند الله خالصة
 إلهه بعظيم الفضل في الأثر
 هندية وقنا الخطيئة السمر
 سبط الإمام الفتي الصمصامة الذكر
 نور الرياض ونور الشمس والقمر
 على يدي صنوه المشهور في السير
 من باع في الله نوم العين بالسهر
 ولطف جانبه في السلم والسفر

وبعد وفاته اجتمع أعيان الناس من آل الإمام وغيرهم، فاقتضى رأي وصي الإمام المؤيد القاضي العلامة أحمد بن سعد الدين المسوري أن المهم أن لا يُوارى الإمام إلا وقد نظروا فيمن يخلفه خشيةً مما يدعو إلى التراع، وأجمع رأيهم مع أكثر الناس أن يعقدوا البيعة لصنوه الإمام أحمد بن الإمام القاسم الموجود بشهارة، ففعلوا وتلقب بالمنصور بالله، ثم واروا الإمام المؤيد.

وكان ذا سيرة حسنة وطريقة مستحسنة، ملاحظاً لتوظيف الناس على قدر مراتبهم، قريب الجنب، شريف الخطاب، لا ينقص له معلوم، ولا ينسخ له مرسوم، كما كان عليه أخواه الحسان، وكانت الأرزاق في وقته هامية، والبركات بركته نامية، وكان على مذهب جده الهادي يحيى بن الحسين، إلا أنه كان لا يورث ذوي الأرحام، ويأخذ الزكاة من الكثير والقليل، ويجيز صرف زكاة الهاشمي للهاشمي الفقير، وغير ذلك من الاختيارات.

ومن مآثره إصلاح سمسة القبتين بطريق اليمن بعد أن كان أخرها الحاج أحمد الأسدي في حصاره للترك، وعمر المدرج من وادي أقر إلى شهارة من الجهة الجنوبية وغير ذلك.

ولما ظهرت دعوة الإمام أحمد بن الإمام القاسم وصل إليه من أعيان المولى الحسين بن

(١) المفروض أن يكون مولده سنة ٩٧٤هـ.

الإمام القاسم الفقيه الرئيس يحيى بن أحمد البرطي، وأفهمه أن عمود الخلافة الملوك، وأنه لا ينتظم حال بغير المال، وعمارة قلوب الرجال، وأن الرأي إقطاع أولاد إخوته نفيس البلاد، وإطلاق أيديهم في الإصدار والإيراد، وأن بهذا تنتصب رايته وتستقر غايته وتستحكم يده، ويشتد عضده، ثم بعد أن يستحكم له الأمر ينظر في تحرير الولايات بالمد والقبض، فقال له: جوابي عليك جواب الإمام القاسم محمد باشا حين وقع الخوض في إطلاق الحسن على إرجاع بعض ما افتتحه الإمام من البلاد، وهو (أنه لا يسعني عند الله ذلك)، فعاد البرطي من حيث جاء وعلم أن قيام هذا الأمر الصعيب بغير هذا السيد النجيب.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه النبذة التي اختصرتها من رسالة الكاتبة حياة محمد الحمد البسام السعودية (الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم في اليمن).

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم قد اطلعت على رسالة الكاتبة القديرة حياة محمد البسام السعودية، فرجحت النقل منها لعظم فائدتها وهي: (الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم في اليمن).

معلومات عن المؤلفة

مولدها بمكة المكرمة في (٢٤/٥/١٣٧٤هـ — ١٩٥٤م).

درست الابتدائية والمتوسطة والثانوية في مدارس الزهراء الأهلية بمكة المكرمة، ثم التحقت بجامعة الملك عبد العزيز شطر مكة (سنة ١٣٩٤هـ) بكلية الشريعة قسم التاريخ الإسلامي، نالت درجة البكالوريوس في التاريخ الإسلامي (سنة ١٣٩٧هـ) بتقدير جيد. سافرت إلى الولايات المتحدة لمدة عام، ثم عادت وعُينت مُعيدة في نفس القسم، والتحقت بالدراسات العليا التاريخية سنة (١٤٠٠هـ). نالت درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث (سنة ١٤٠٥هـ) بتقدير ممتاز على أطروحتها (الإمام المؤيد محمد بن القاسم في اليمن من سنة ٩٩٠م) إلى (سنة ١٠٥٤هـ) من جامعة أم

القرى بمكة المكرمة.

تعمل حالياً محاضرةً في نفس القسم وتشغل منصب/ وكيلة العميد لشئون الإسكان والتغذية.

سجّلت لرسالة الدكتوراة في نفس المجال.

وأختصر الآن من رسالتها، قالت - أسعدها الله في الدارين-: كان اختياري لهذا الموضوع مصادفةً أشار عليّ مشرفي سعادة الدكتور عبد الله الحبيد بأن يكون موضوع الأطروحة عن الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم. ففي البداية ترددت في أن أعمل في هذا الموضوع؛ لأنني لا أعرف شيئاً عن هذه الشخصية، ولندرة المصادر وانحصارها في المخطوطات المتفرقة في المكاتب، لكنني بعد أن قرأت عنه نبذة مختصرة لعبد الله الحبشي في كتابه: (حكام اليمن المؤلفون المجتهدون)، وعرفت ما لهذه الشخصية من أهمية تاريخية، وعرفت عن أستاذه الدكتور عبد الله الحبيد أن المؤلف الوحيد الذي أفرد له بحثاً هو المطهر الجرموزي في مؤلفه المخطوط (الجوهرة المضيئة في تاريخ الخلافة المؤيدية).

أما المؤلفون المعاصرون فيجملونه في كلمات قليلة نحو الورقة، وأن مثل هذه الشخصية يجب إفراد دراسة خاصة لها. فهو الذي وحّد اليمن تحت لوائه، فقد بدأ والده الإمام القاسم هذا العمل، ومات ولم يكمله، فأخذ الرسالة من بعده ابنه الإمام المؤيد، فوحد اليمن تحت حكومة واحدة مستقلة في (سنة ١٠٤٦هـ).

وعمل الكثير من أجل البناء والتعمير والجانب الحضاري، وقد حرصت أن يكون بحثي شاملاً لكل جانب من جوانب حكم الإمام بمعلومات موثقة، والتزمت أسلوب النقد العلمي وتحليل بعض المعلومات والاستنتاج المبني على النصوص المعتمدة. وتحتوي هذه الرسالة على مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة (هذا الذي سبق هو خلاصة المقدمة).

والتمهيد هو في دراسة جغرافية اليمن، وتاريخه القديم، ثم قالت: وقد انتشر المذهب الزيدي في اليمن على يد الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي بن إبراهيم. ولد (سنة ٢٤٥هـ)، بالمدينة المنورة وتربّى تربية علمية، وكان عالماً متحدثاً متفقهاً، عاش في مدينة الرس، وقد خطب له بالإمامة في مكة المكرمة، ودعاه أهل اليمن عند

معرفتهم بعلمه؛ فأجأهم وذهب إلى صعدة ونجران في (سنة ٢٨٠هـ) ثم دخل صنعاء بمساعدة عاملها أبي العتاهية، فتمردوا عليه بعد أن حرّم عليهم بعض العادات التي كانت منتشرة من عادات الجاهلية، وعند ازدياد تمردهم عاد إلى الحجاز، فندموا على تمردهم، وتفرّق شملهم، فدعوه، فعاد في (سنة ٢٨٤هـ)، فاخترأوه إماماً عليهم لصفاته الحميدة، وخطب له على المنابر، وأرسل الولاة إلى المخالفين، ونشر الأمن، وتوفي (سنة ٢٩٨هـ) ودفن بصعدة، واشترط للإمامة أربعة شروط:

- ١ - الحكم بكتاب الله وسنة نبيه.
- ٢ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ٣ - أن يؤثر أتباعه على نفسه، وأن يقدمهم عند العطا قبله.
- ٤ - أن يتقدمهم عند لقاء عدوه وعدوهم.

وقبل دخولنا في الموضوع الأساسي لهذا البحث نتطرق لنبذة عن مؤسس الدولة القاسمية الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد بن علي. ولد (سنة ٩٦٧هـ) بالشاهل من بلاد الشرف، وكان شخصية فريدة، تلقى علومه على أعظم علماء اليمن. وكان سريع الفهم، وتعلم فنون القتال على والده الذي كان في عسكر المطهر بن شرف السدين، دعوته في (سنة ١٠٠٦هـ) في جبل قارة، فتجمع حوله نحو أربعمائة فرد، فأعدّ الحاكم التركي الباشا حسن العدة لمواجهته، فدارت معركة كان النصر فيها للإمام القاسم، فأرسل الباشا جيشاً بقيادة عبد الله بن المعافى وأردفه الباشا بفرقة أخرى بقيادة عامل وشحة، فوجد الإمام نفسه محاصراً بقوة تفوقه عدداً وعدة، فأمر أصحابه بالكف عن القتال والاجتماع في مكان محدد، فباغتتهم القوات العثمانية، ف وقعت معركة قتل فيها كثير من أصحاب الإمام، ونجا بعدد من جنده.

وقبل أن تنتهي السنة الأولى من ثورته استطاع أن يفتح العديد من البلاد كالحيمة، وشاطب، وحصن السود، وغيرها.

لكن الباشا استنجد بالدولة العثمانية، فأرسلت المساعدات من جند وعتاد، فحاصر الإمام بخصن شهارة، ففر منه إلى جبل برط، وأسر ابنه محمد وغالبية أهله وسُجنوا بخصن

كوكبان.

ثم طاردت الحكومة العثمانية الإمام القاسم لعله يسلم لها، لكنه صمّم على الحرب. فدارت معارك كثيرة منها في عرة الأشمور، انتهت بأسر الأمير الحسن بن الإمام القاسم الذي بقي في السجن تسع سنين هرب منه في أيام أخيه المؤيد محمد.

ثم عُقدت بين الإمام القاسم والأتراك معاهدات اعترف الأتراك بسلطة الإمام على ما تحت يده من مناطق آخرها التي عقدت في ولاية محمد باشا (سنة ١٠٢٨هـ) لعشر سنوات. فانتقل القاسم إلى جوار ربه (سنة ١٠٢٩هـ) وتولى بعده ابنه المؤيد محمد الذي أكمل توحيد اليمن.

من الفصل الأول

الإمام المؤيد نشأته وولايته

ولد الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن الرشيد، ينتهي نسبه إلى الحسن بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، لليلتين خلتا من شعبان (سنة ٩٩٠هـ الموافق ١٥٨٢م) في جبل سيران.

نشأ في بيت علم وفقه تحت إشراف والده ونخبة من علماء اليمن.

وكان كثير الإطلاع والقراءة في أغلب العلوم، قليل اللعب، فبرع في عدة علوم، وتوسعت مداركه وتمكن من الإفتاء والتدريس شاباً، واشتغل بالقضاء في عهد والده، وكان يجيب على أصعب المسائل، وكان سريع البديهة، ذا فطنة ونباهة.

شرح الأساس لوالده بطريقة أعجبت الكثير من معاصريه، وألّف الكثير من الكتب التي تعتبر ثروة علمية زادت على المئات، من أشهرها (المسائل والرسائل) و(تركية الأخلاق)، وكتاب (جواب سؤالات) وغيرها كثير.

وقد اتصف الإمام بجانب العلم بصفات قل أن تجتمع في شخص واحد، منها: زهده وورعه، كان زاهداً في كل مباحج الدنيا، يعتبرها متاعاً زائلاً، كان يقضي وقته في القراءة والصلاة وإدارة أمور البلاد. وكان تصله الأموال من التذور والعطايا فلا يأخذ منها إلا

القليل لضروريات الحياة، ويدفع الكثير لبيت المال. كما كان زاهداً أيضاً في مأكله ومشربه، وملبسه، ولم يرتد الملابس الفاخرة التي يرتديها أبناء زمانه، بل كان لبسه قميصاً ضيق الكم وعمامة واحدة قطن، وكان العامة يلبسون أفخر منه.

وكان شجاعاً ثابت القلب لا يخاف لومة لائم ما دام على الحق، وهو متميز بقامته الفارعة ومناكبه العريضة، يخشاه في الحرب كل فارس، ولكنه في مجالس العلم والحديث يفيض طيبة ورقة.

وكان لا يفرق بين طائفة وأخرى، فإذا جالس الزيدية والشافعية أو الخنفية أو غيرهم يعتبرونه منهم.

ولم تقتصر هذه المعاملة على العلماء، بل تعدت إلى المؤلفات قلوبهم، فإنه يدد وحشتهم أنساً وعطاءً، ويكون لهم نعم الأخ والصدیق، وأقرب مثال ما صنعه مع الأمير صفر التركي من حسن الضيافة والإكرام بعد أسره، ومن حسن خلقه تفقده أهل الحاجات، وتقديمه لهم العون من مأكّل ومشرب وكسوة، فقد كان واسع الصدر لا يضيق بهم، يلاحظ الصغير والكبير والغني والفقير والأرملة حتى إن من يراه يحسبه واحداً منهم.

إن أي إنسان تجتمع فيه هذه الصفات، يحظى بحب وتقدير الجميع، لذلك نرى أنه حينما وافى الأجل المحتوم الإمام القاسم (سنة ١٠٢٩ هـ، سنة ١٦١٩ م)، اجتمع السادة والأعيان والعلماء على اختيار خليفة لتسيير أمور البلاد، وكانت جميع الشروط في ولده محمد، أجمع الحاضرون على اختياره إماماً وتلقيه بالمؤيد، وكان قد أوكل إليهم اختيار خليفة آخر، إماماً للبلاد، وأكد لهم أنه سيكون أول المبايعين لمن اختاروه وتسليم ما لديه من أموال بيت المال، ولكن الجميع بسطوا أيديهم له مبايعين له بالإمامة، وأكدوا له اجتماع رأيهم في اختيارهم له لهذا المنصب، وأفهموه أنه ليس من حقه عدم القبول، فبايعوه، ثم أقبل أفراد الشعب لمبايعته.

وكان أول عمل قام به كتابته للباشا محمد الوالي العثماني بصنعاء يخبره بوفاة والده، وأكد له أنه باق على الصلح الذي عقده والده (سنة ١٠٢٨ هـ) وأهدى للباشا نسخة من الكشف، فأجابه الباشا برسالة كلها تواضع، وأبدى سروره في دوام الصلح منه: -
(الحمد لله الذي جعلكم القائمين من بعده، والشادين بشده لما اختاره من الخير وقياكم

بالأمر بعد استخارة الله سبحانه وموطأة من العلماء الأخيار والقضاة الأطهار، وإنكم لما وقع من الاختيار أهل ومحل، تولى الله عونكم ورزقكم الصبر، وكتب لكم على فراق والدكم الأجر.

وإنّا لكم كما أنتم لنا، وما هو موجود عندكم هو كذلك عندنا، والألفة الصافية الخالصة الوافية كما هي، ما يغير تلك القواعد مغير، ولا يكورها مكور، ونحن لكم في أمر الخير مساعدون، وطرق مرضاة الله معاضدون، الله يختار لنا ولكم الخير، ويأخذ بنواصينا ويرشدنا، حسبي الله وكفى تاريخ (١٧ ربيع الأول سنة ١٠٢٩هـ) محروسة صنعاء)).

وبعد قبول الباشا بقاء الصلح أخذ الإمام المؤيد في توطيد حكمه ونشر الأمن في البلاد وأرسل إليها الولاة.

وفي (سنة ١٠٣١هـ) عُزل الباشا محمد من اليمن وتعيّن الباشا أحمد فضلي. وبعد وصوله إلى صنعاء أرسل إلى الإمام المؤيد خطاباً بموافقة على استمرار الصلح.

وكان الأمير الحسن بن القاسم قد فر من سجن الأتراك بعد أن أسروه من عرة الأشمور، حيث كان معه قليل من الجند، وحاصره الأمير حيدر بجنود كثيرة، وخاف الحسن على أهل العرة، فسلم نفسه وطلب الأمان له ولأتباعه، فسُجن بقصر صنعاء مكبلاً بالقيود إلى أن تولى الباشا محمد، وكان طيباً حليماً، فأزال القيود عن الحسن وعامله معاملة حسنة، وسمح بدخول الأصدقاء عليه وبدراسته على مشائخ من صنعاء، وأهدى له جارية، وملّكه داراً في بئر العزب يسكن بها مع الجارية في أي وقت يشاء، وقد أنجبت له ابنة أحمد بن الحسن.

وحينما عُزل الباشا محمد بالباشا أحمد فضلي خاف الحسن أن تتغير المعاملة له من فضلي الفظ الغليظ الشديد القاسي. ففكر الحسن في الخروج من السجن، فاشترى حصاناً قوياً وأظهر أنه سيقدمه هدية للباشا فضلي، وأخرج الكثير من كتبه وأثاثه، وقام بثقب الغرفة التي هو فيها إلى ثمانية، ثم إلى ثالثة، وأمر أهله بمغادرة بئر العزب إلى مكان عيّنه لهم، وأمر أصحابه أن يُعدوا له حصانه تحت سور القصر، ثم تسلل من الفتحات المثقوبة، وهو يسمع غطيظ الحرس في نومهم، وأخذ معه حبلاً وتسلق به سور قصر

صنعاء من شرقيه ومعه أصحابه. فلم يطلع الصبح إلا وهو في بني عاصم، ثم واصل سيره ومعه أهله وأصحابه إلى أرحب. وقابله قبائل حاشد وبكيل مقابلة حسنة، وفرحوا بخروجه من السجن، واجتمعت لديه أعداد كبيرة من الرجال والسلاح. ثم واصل بسيره إلى شهارة مقر الإمام، وفرح الناس به وقيلت القصائد الكثيرة فمن قصيدة للقاضي زيد بن علي المسوري.

ما العيد أن تُنحر المستسلخات ضحى	وإنما العيد يومٌ جاءنا فيه
قد جاءنا في حميسٍ لو يروم به	بغداد لبثه إن نادى مناديه
لولا موثيق عهد كان أسسها	أبوره ثم اقتفاه بعد قافيه
إمامنا خير أهل الأرض قاطبة	من ليس ينقض عهداً وهو موليه

وقد عمت الفرحة أرجاء الأراضي الإمامية على عكس ما حصل في صنعاء. وبعد وصول الباشا فضلي لآم متولي الحراسة وهو الأغا علي، فضرب عنقه.

وفي هذه الأثناء أخذ الإمام يوطد أركان حكمه، ويقمع الفتن وأهمها كانت في صعدة في (سنة ١٠٣٢هـ)، وسببها اختلاف أهل الشام من خولان وأهل اليمن من الأهنوم، فإنه صادف دخول طعام العيد، فاختلف الفريقان عليه، فخاف الأهنوم من خولان لكثرتهم، فتحصنوا في القصر وتبادلوا الرماية. فوقع قتلى من الطرفين، وكادت المدينة أن تكون فريسة للنهب والسلب؛ لولا تدخّل بعض المشائخ مثل الحاج أحمد بن عواض الأسدي، والحاج أحمد بن علي بن دعيس، والسيد داود بن الهادي، والسيد أحمد بن المهدي، فأصلحوا بين الطرفين ومنعوا تفشي الفتنة، وعقدوا صلحاً بينهما. غير أن الحاج علي بن عبد الله الطير الذي كان قائماً بالأعمال مع الأمير أحمد بن القاسم، كان متهماً من بعض أهل الشام بمناصرتة لأهل اليمن، فذهب بعضهم إلى شهارة يشكّوهم إلى الإمام، فقابلهم بكل ترحيب، فاعتقدوا أنه عازل أخيه أحمد عن ولاية الشام، فعادوا متمردين على أوامره، فأرسل إلى أخيه الإمام يخبره بتمردهم، وطلب السماح له بالخروج عليهم، لكن الإمام كعادته لا يحب الابتداء بالقتال، فطلب من أخيه التريث، ولكنهم ازدادوا عصياناً وتمرداً، فازدادت الفتن حتى كادت الشام بأسرها أن تخرج من سيطرة الإمام، فأرسل جيشاً نحو الألفين بقيادة أخيه الأمير الحسن، فأتى إليه أهل الشام طائعين،

وكانت خدعة منهم، فأحسن إليهم الحسن وأكرمهم فطمعوا فيه وانقضوا على أطراف القوات الإمامية، فخرج الأمير أحمد من صعدة لنجدة أخيه بجنود، فوصل إلى ساقين.

فاتخذت جنود الإمام وهجمت هجمة واحدة، فنفرك شمل المتمردين تاركين وراءهم ديارهم وأموالهم نهباً لعسكر الإمام الذين دخلوا البلاد (شعب حي) فهدموا بيوتها وأخذوا ما بها من أموال وأثاث، ولما وصلت إلى الإمام قال في حسرة: والله لقد حاولت معهم ما يقارب التسعة الأشهر، ولكن ذلك لم يزدهم إلا عصياناً، وكان من نتائج هذه المعركة أن أمنت الطرق في البلاد، ثم عاد الأميران أحمد والحسن إلى صعدة.

أما الباشا فضلي فسير الأمور على خير ما يرام ويعتبر من أحسن الباشوات الذين تولوا اليمن، فكان كثير العطايا والصدقات، ويكرم ويجل العلماء، وفي عهده عم الخير أرجاء البلاد وكثرت الأرزاق.

ثم غُزل فضلي وتعين الباشا حيدر مكانه الذي تمكن من أسر الحسن سابقاً. فسار فضلي ومات في أبي عريش.

وصل حيدر باشا وكتب إلى الإمام باستمرار الصلح، فوافق الإمام.

وكان حيدر أرعن أحمق متسرّعاً، اشتهر بشرب المسكر، فكان مكروهاً من العثمانيين واليمنيين، تسرّع بقتل الأمير سنان، والي تعز المشهور بأخلاقه العالية، وحبسه للخير والإصلاح، أجرى سنان الساقية للماء من صبر إلى تعز بخافة المرباع سبيلاً للعموم، وكانت له عطايا وصدقات فأحبه الجنود، فخاف حيدر ميلهم إليه، فقتله وردد الناس قلوبهم خرج اليمن من تحت العثمانيين بعد قتله، ثم قام حيدر بمصادرة أموال الباشا فضلي.

وبعد أن قضى الإمام على الفتنة في الشام أرسل إلى أخيه الحسن رسالة بتولي الشام حثه فيها على أعمال الخير، وما يجب أن تسير عليه سياسة البلاد برعاية الرعية، وتكريم العلماء والفقهاء، وأن يكون عوناً لهم، وأن يجالس العلماء والأدباء وأهل المذاهب والمساواة بينهم، وأن يرعى الجند وأن ينصر المظلوم. والرسالة تدل على ثقافة الإمام في العلوم الدينية والدنيوية.

مكث الحسن بصعدة يُسير الأمور بحكمة ودراية يخصص وقتاً للقراءة ومدارسة

العلماء والأدباء، ووقتاً لتنظيم أعمال الدولة والنظر في حوائج الرعية ومقابلة الوفود، ووقتاً لأعمال الجنود وأرزاقهم والشدة على أهل الفساد.

وفي (سنة ١٠٣٤هـ) أمره الإمام بخروجه إلى بلاد (العمالسة) الذين كانوا لا يحلون الحلال ولا يحرمون الحرام ولا يعرفون من الإسلام إلا الشهادتين لا صلاة ولا صيام ولا زكاة، وإذا طلقت المرأة من زوجها فتتزوج من ليلتها بغيره بدون عدة. فغزاهم الحسن وأدهم وأخذ عليهم عهداً بدخول العلماء ورجال الدين بلادهم؛ لنشر تعاليم الإسلام وأخذ عليهم رهائن في ذلك، ثم عاد صعدة مدة يسيرة.

ثم أعد عدته إلى بلاد فيفا، وكانت غارقة في الجهالات، منها أنهم إذا أكرموا الضيف قدموا له إحدى نسائهم للفراش. فخرج عليهم بجيشه حتى وصل إلى بوسان من بلاد جماعة، ثم إلى ينعم - جبل عال مشرف على بلاد فيفا - فأخضعهم وأعادهم إلى حضيرة الإسلام، وأخذ منهم الرهائن لضمان صلاحهم وعاملهم بإحسان. ثم أرسل إلى محاط عدداً من أصحابه تحت لواء السيد شمسان والسيد عز الدين محمد بن أحمد، وجعل فرقة أخرى بالقرب منهم لنجدتهم، فتمكنوا من دخول المدينة وتأمينها وتأمين الطرق.

وفي أعلى جبال فيفا عسكر جند الإمام واستولوا على حصنها المسمى (العبيسية) ثم غدر أهل البلاد بمقدمة الجند وقتلوا منهم ثم فروا برهائهم، ثم عاد الحسن إلى صعدة.

وفي (سنة ١٠٣٦هـ) تكاثرت الشكاوى من الرعية من سوء معاملة الباشا حيدر، وكان الإمام يرسل الفقيه العالم حسن العلماني إلى صنعاء لجمع الزكاة من أهلها، وكان محل التكريم والتقدير من الباشا فقتل بصنعاء. قيل: إن الباشا قتله، وهو في حالة سكر، وقيل: قتله حرس الباشا، وقيل: قتله أعداء الباشا لإثارة العداء بينه وبين الإمام.

فأرسل الإمام إلى الباشا حيدر خطاباً يطلب فيه تنفيذ حكم الشرع في قاتل الفقيه العلماني، فأهمل الباشا الطلب وماطل، فأعد الإمام جيوشه بقيادة إخوانه الحسن والحسين وأحمد وإسماعيل لمحاربة الأتراك فاستولوا على ريمة، وعتمة، ووصاب، وحفاش، وملحان، وبلاد خولان، واتجهوا إلى كوكبان، وثلا، وإب.

واستولوا على منطقة صعدة بأكملها، ثم انتقلوا لمحاصرة مدينة صنعاء.

والآن ننقل من الفصل الثاني

في الثامن من شهر (صفر سنة ١٠٣٦هـ) تقدم الأمير الحسن من صعدة عسن طريق الجوف إلى بلاد نهم بعد أن استخلف ابنه محمداً على صعدة. وكان الحسن على رأس جيش نحو (ثلاثة آلاف) من خولان الشام، وسحار، وبني جماعة، وآخرين، ومائة فارس من أشراف الجوف الحمزات منهم الشريف ياسين بن الحسن الذي كان والياً على نجران.

وعند وصول الحسن إلى نهم أتاه عاملها الأمير الهادي بن طاهر الشويح معلناً دخوله في طاعة الإمام. ثم سار الحسن إلى جبل اللوز وفتح قلعته وغيرها من البلاد، ثم حاصر الأمير سنبل وجنوده في قلعة الذراع وقطع المؤن والزاد عنهم حتى تسلم قلعة الذراع، وفر الأمير سنبل إلى ذمار.

وفي هذا الوقت أجمعت جميع قبائل خولان والحداء على الدخول في طاعة الإمام، فأرسل الباشا حيدر قوات تركية لتأديبهم، فسارع الحسن لنجدتهم ومناصرتهم، وساعده في هذه المهمة الأمير الهادي بن المطهر، فأعلنوا الولاء للإمام.

وبعد أن أمنت السبل سار الحسن إلى نهم بقرية الحديد وولى على نهم الأمير الهادي بن المطهر. فاتجهت إلى الحسن القبائل من خولان، ونهم، وبنو سحام، والوطاء، وبنو حشيش، وجميع الجهات حول صنعاء، ودخلت في طاعته.

واستلم جبل هيلان بعد هروب الأمير الحسين بن ناصر منه، فعم الخير والأمن في تلك الجهات.

وقد كتب الله النصر للحسن، فهزم القوات التركية وغنم جيشه مغنم كثيرة من عدة وعتاد، ثم سارت القوات الزاحفة إلى باقي المناطق حتى وصلت إلى حضور، فاستقر الحسن في مَسِيْب فطلب أخاه الحسين الذي كان في مصييح فالتقيا في مَسِيْب أربعة أيام اتفقا على خطة للقتال.

وكان الأمير أحمد بن القاسم قد توجه بجيشه وفتح جبهة ثالثة للقتال من بلاد خمر، فتقدم إلى بلاد الظاهر حيث أتاه أهلها طائعين، ومن هنا تقدم زاحفاً إلى جبل عيال يزيد فحضر الحصار حول عمران. وعندما سمع أهل السودة بقدومه قدموا إلى حضرته

طائعين، ثم توالى القبائل للدخول تحت طاعته، كما توالى انتصاراته في تلك المناطق. ومن أصحاب النفوذ والقوة في هذه المنطقة: صاحب كحلان تاج الدين، الذي أتى إلى أحمد بن القاسم مُسلِّماً للسلطة المركزية تحت قيادة الإمام فقابل به الأمير أحمد بالإحسان وعينه والياً على كحلان وعفار.

لم يقتصر الإمام المؤيد في محاربة العثمانيين على قيادة إخوانه، فقد عين قادة آخرين، فأرسل جيشاً بقيادة علي بن عبد الله العُبالي، والفقير يحيى بن صالح الثلاثي، والفقير عبد الرحمن بن المنتصر الغشمي، للمحاربة في بلاد حجة، ولاعة، والسُود.

ودارت بين الطرفين معارك كان النصر فيها حليفاً لقوات الإمام، فانهزمت القوات العثمانية من كوكبان وغيره، وتجمعت إلى منطقة غولي، حيث حاصرتهم قوات الإمام عدة أيام، فاضطروا للتسليم، وطلب الأمان، فأعطوهم الأمان على أنفسهم، وسمح لهم بالرجوع إلى أميرهم السابق عبد الرب بن شمس الدين الذي كان موجوداً في مُعسكر أنود.

ونتيجة لاستيلاء القوات الإمامية على المناطق، فقد عين الإمام والياً على حجة السيد الحسين بن علي جحاف، وعين على جبل اللوز وخولان القاضي أحمد بن عامر، والقاضي أحمد بن علي بن أبي الرجال، فأتتجها إلى هذه المنطقة وهاجما القوات العثمانية، فانتصر جيش الإمام، ودخل القائدان سوق الحضارم، حيث تلبأ على الناس رسائل الإمام. وعندما انتهت من هذه المهمة واصل سيرهما إلى الأعماس، فكان النصر لقوات الإمام التي غنمت الكثير من قوات العثمانيين هناك.

واستمر الإمام في إرسال السرايا والكتائب لتزويد القادة المحاربين للعثمانيين، وفوض أخاه الحسن في بعث الجيوش تحت قيادة من يرتضيه. فأرسل جيشاً بقيادة الشيخ علي بن الطير إلى منطقة حضور وبني مطر، فدخلت هذه المناطق طوعاً واختياراً تحت حكم الإمام.

كذلك أرسل الحسن جيشاً آخر بقيادة السيد مطهر بن ناصر الدين والقاضي محمد بن أحمد السلفي لفتح بلاد أنس، ورِيمة، وبرع، وكتيبة أخرى بقيادة القاضي يحيى المخلافي لفتح بلاد الطويلة، فدخلت تلك الجهات في طاعة الإمام.

وأرسل الحسن القاضي أحمد بن علي لقطع الطرق إلى صنعاء وقام الحسن بنفسه

بعمل مماثل لقطع الطريق المؤدي إلى اليمن، فانقطع الاتصال بين قوات الأتراك المحاربة، وبين القيادة في صنعاء، مما جعل القوات التركية في عزلة تامة، وشعر الأمير سنبل العثماني بتردي الوضع، فانسحب إلى ذمار. ثم طلب الحسن أخاه الحسين من كوكبان واجتمعا في ريشان، ثم اتجه الحسين في (جمادى الثانية سنة ١٠٣٦هـ) إلى ريمة حميد، فاصطدم بالحامية التركية، فانتصرت قوات الإمام، واستولوا على ما في المعسكر من أثاث وعتاد وخيام وخيول وذخيرة.

ونتيجة لاجتماع الأخوين فقد قرّرا فتح أنود، فتظاهر عدد من جنود الحسن بالاختلاف معه والغضب منه، فيحاول الإيقاع بهم، فيفرون إلى شقيقه الحسين، ثم يسير الحسن في إثرهم لإيهام القضاء عليهم، وهنا يلتقي الجيشان في منطقة معينة دون أن يشعر أحد بذلك، ويحاصرون حصن أنود. ودارت على من فيه الدائرة، فقتل الكثير منهم وأسر الأكثر. وقد فر من هذه المعركة الأمير عبد الرب إلى حصن بُكر ومعه عدد من أصحابه، واستولى الأميران الحسن والحسين على حصن أنود.

فكتب الأمير عبد الرب إلى الإمام خطاباً يعلن فيه دخوله تحت طاعة الإمام، ويطلب الأمان له ولمن معه، فأجابه الإمام بالموافقة ولّى طلبه في خروجه إلى حصن كوكبان.

ثم طلب العثمانيون الصلح فوافق عليه الأميران الحسن والحسين بشروط إعطاء الأمير عبد الرب الأمان وتسليم حصن كوكبان، فتم لهم ذلك.

وبعد انتصارات الإمام سارعت القبائل إلى الدخول تحت طاعة الإمام، فأمنت تلك المناطق بعد ضمها إلى حوزة الإمام.

وبالرغم من انتصارات الإمام وهزائم العثمانيين فقد هاجم الأمير صفر العثماني - حاكم عمران - جند الإمام على حدود ثلاً، وكانت هذه المنطقة تحت قيادة السيد أحمد المخنكي، فانتصرت قوات الإمام وفرّ الأمير صفر من المعركة، وتحصّن في مدينة ثلاً، فأسرع الحسين بن القاسم من كوكبان إلى ثلاً. كما اتجه أحمد بن القاسم بقواته المتمركزة في المَطلعة، وأطبقت القوتان على مدينة ثلاً على القوات العثمانية الفارّة من وجه السيد أحمد المخنكي، فطلب الأمير صفر الأمان والتسليم، فأعطي الأمان، ووجهه وأصحابه قائد الإمام إلى شهارة مركز حاضرة الإمام، واصطحبوا معهم سلاحهم

وذخيرتهم واستقر حاكم الإمام في ثلا.

تساقطت البلدان في أيدي قوات الإمام، ولكن بقي أكبر معقل مدينة صنعاء، وكانت مُحَصَّنَةً بقوات كبيرة وعدة وعتاد، فتوجه الأمير الحسين إلى لولة، فأحسن إلى أهل همدان وأكرمهم، وكان على رأسهم الأمير إبراهيم الداعي.

وبقي الحسين في طيبة في انتظار شقيقه الحسن، والأمير عبد الرب، وأهل كوكبان من أجل اتحاد الجيوش ورسم الخطة التي تسير عليها الجنود إلى صنعاء، فاتفقوا على مهاجمتها بعد أن فشلت محاولتهم مع الباشا حيدر بتسليم المدينة، فتمركز أولاد الإمام ومن معهم في حدة بني شهاب، وبقي الفقيه هادي بن عبدالله الحبشي ومن معه في الروضة.

وقد وصلت طلائع عساكر أولاد الإمام إلى بئر العزب، والباقي تمركزوا حول مدينة صنعاء من كل جهة، ثم بادروا بالاستيلاء على حصن نغم وجعلوا فيه فرقة من العسكر؛ لحماية وزودوه بالسلاح والذخيرة، واتفقوا على رمز بينهم أن الفرقة بنغم إذا رأت جنود الأتراك قاصدين الروضة فترمي الفرقة بالزبارط ثلاث مرات، وإذا كانوا قاصدين حدة فترمي بالزبارط مرتين.

وكانت فرقة من جند الإمام فتحت بلاد سنجان.

وشدد الأميران الحسن والحسين في حصار صنعاء، فعزلوها عن المناطق الأخرى، فأصبح الذين بها في ضنك، فاضطر الباشا حيدر إلى طلب الصلح من الإمام بشرط أن يخرج من صنعاء إلى اليمن الأسفل، لكن الحسن علم بهذا الطلب، فمنع وصوله إلى الإمام، وزاد من تشديد حصاره على صنعاء.

وعندما علم حيدر باشا ما حدث وعرف أنها الحرب لا محالة أخذ يقوي روح العزيمة لدى جنده، ووزع عليهم الأموال والملابس الفاخرة لكسب رضاهم وزودهم بالسلاح والذخيرة، ثم أمرهم بالخروج إلى خارج المدينة ووعدهم بالإمدادات القادمة من مصر، وكان على رأس الخارجين، وقد تخلى بأهلي الحُلل وتوشح هو وجنده بالسلاح. لكن جند الإمام بادروهم بالحرب وأهالوا عليهم كالسيل الجارف، فدارت معركة استخدموا فيها شتى فنون القتال، وفي النهاية كان النصر للعثمانيين، وهُزمت جنود

الإمام إلى الحفا، وأسر حيدر باشا عدداً وقتل عدداً آخر، ثم عادت القوات العثمانية إلى صنعاء.

لم تفت هذه الهزيمة في عضد قوات الإمام، فاستمروا في حصارهم للمدينة. وقد قتل خلال الحصار من قادة الإمام الشيخ علي عبد الله الطير.

وقد أحاط أصحاب الإمام بصنعاء إحاطة السوار بالمعصم، فارتفعت بها الأسعار وضائق المعيشة، واشتد تعسف حيدر باشا، فاستولى على أموال أهلها وعاملهم معاملة قاسية، مما اضطر أكثرهم للخروج منها، فخلت من الأهالي وبقي بها هو وجنده.

وكان الأمير أحمد يحاصر مدينة عمران، فاضطر الكيخيا إلى طلب الأمان، ثم التسليم، فأمنهم الأمير أحمد، واستولى على عمران وخزائنها، وأرسل الأسرى إلى الإمام بشهارة، وجعل على عمران حاكماً.

وتقدم بقواته لمساعدة أخويه في فتح صنعاء، ومعه أهل همدان، فاجتمع بأخويه وبقي بالروضة.

كما كانت حركة الجهاد والتوسع كبيرة في المناطق النائية، فقد قاد كل من الشريف هاشم بن حازم المكي والسيد التقي بن إبراهيم جيشاً، وتوجها إلى تهامة، حيث دخل في طاعة الإمام الكثير من أهلها، فواصل سيرهما إلى أن تمكنا من التمرکز قرب مدينة زبيد، وحاولوا تسلقها بالسلام، إلا أن الأتراك دافعوهم فرجحت كفة الأتراك القوية.

فعادت قوات الإمام للتحصن في بيت الفقيه بن عجيل.

والكثير من أهل تهامة قد والوا الإمام ودخلوا في طاعته، وكان على رأسهم أشرف صبيا وأبي عريش وجازان.

لقد بدأ موقف حيدر باشا صعباً للغاية وأكبر المآسي عليه هروب بعض قادة جيشه، وانضمامهم إلى الإمام، فبعد الأمير عبد الرب قرر الأمير سنبل وهو من أعظمهم الانضمام إلى الإمام، فأرسل إلى الحسن خطاباً يعلن فيه طاعته للإمام، ويطلب الأمان، فقابلته الحسن بكل ترحاب، وأعطاه ما شرطه وعينه حاكماً لدمار، وكان ماهراً في فنون الحرب، وعلى علم بخطة القتال التي تسير عليه القوات العثمانية، وعلى علم بمواطن الضعف فيها. فانضمامه إلى الإمام مكسب هام.

وبعد دخول الأمير الحسن بن ناصر بن محمد الحمزي في طاعة الإمام أرسله الحسن بن القاسم على رأس جيش من أهل الحدا لفتح اليمن الأسفل، ومعه السيد محمد بن أحمد بن الإمام الحسن بن علي بن داود، فتم له ذلك، ولم يبق إلا تعز وصنعاء.

وقد عيّن الحسن لرزمة السيد علي بن إبراهيم جحاف، والسيد محمد بن علي القراع لحفاش وملحان بعد أن قبض على العامل العثماني الآغا عيلان.

وأخذ حيدر باشا يعامل الموجودين بصنعاء بعسف وقسوة خوفاً من خيانتهم، فحبس الأمير كافي شلبي في الدار الحمراء لتهمة إهماله، وعدم إخبار الباشا بتحركات أولاد الإمام في حروبهم. وأساء حيدر إلى وزيره المحرق الذي اتهمه بالخيانة، فصادر جميع أمواله وحبسه في داره ومنع عنه الطعام إلى أن اضطر أن يستجدي المارّين من أمام شباكّه، لكن حيدر عندما علم أمر بأن تسمّر كفاه في الشباك حتى يكون عيرة لغيره.

وما زال الحصار مضروباً على صنعاء حتى طلب حيدر باشا عقد هدنة، فأجابه الإمام إليها وأرسل رسوله إلى مصر لطلب المساعدة.

وبادر المسئولون العثمانيون، فجهزوا جيشاً كبيراً بقيادة القائد (قانسوه باشا)، فكون جيشاً كبيراً من جند مصر والشام.

وفي مدة الهدنة حول صنعاء سار الأمير الحسن ومعه الأمير عبد الرب على رأس جيش كبير إلى اليمن الأسفل، فمر بزازجة وذمار، ثم تقدم لحصار تعز بعد أن فشل الأمير الحسين بن ناصر الجوفي في فتحها؛ لأن القوات العثمانية بها كانت كبيرة بقيادة حاكمها الآغا علي.

وقسم الأمير الحسن جيشه إلى مقدمة جعل عليها الأمير عبد الرب في نحو ألفي رجل، وقاد الحسن باقي الجيوش من جهة الحجرية وعبد الرب من جهة القاعدة وجبل صبر، ونشر المحطات حول تعز، وأتى أهل اليمن الأسفل إلى الحسن مبايعين معلنين الطاعة.

وكذلك أمراء تابعون للباشا العثماني، وكذلك صاحب أبيّن عبد القادر بن محمد الجرهمي الذي لم يكتف بإعلان الطاعة للإمام، بل سارع إلى الاستيلاء على الحج وعدن، وأرسل إلى الحسن استعداده بمده بالجنود والمؤن، وأخذ حاكم تعز الآغا علي يَقسُو على

أهل تعز، فاستولى على أموالهم.

وكان (الباشا أيدين) أرسل من المخا بنقود، كما أرسل حيدر باشا مثلها من صنعاء للمقاتلين الأتراك بتعز، لكن الآغا علي وزعها على عسكره بالمدينة، ولم يجعل لعسكر حصن القاهرة شيئاً، فحققوا عليه ودبروا الخطة للانتقام منه، فراسلوا المحاصرين لتعز وعقدوا معهم اتفاقية على أن يفتحوا لهم أبواب المدينة ويسهلوا لهم الدخول إليها مقابل إعطائهم الأمان، فوعدهم الحسن بذلك، فتم لقوات الإمام فتح المدينة، ونهب العسكر سوقها، وألقوا القبض على الآغا علي، وأرسلوه إلى شاهرة ومعه عدد من الآغوات.

ثم وصل (قانسوه باشا) بجيشه الكبير إلى المخا، وقد انتهت الهدنة بصنعاء بين الإمام وحيدر الذي رأى أنه ليس بمقدوره مواصلة القتال، وزاد الأمر سوءاً تأخر وصول قانسوه وسقوط مدينة تعز، فقرر تسليم صنعاء بشرط الأمان له ولجن معه، وبشرط أن يرافقه عند خروجه أحد أبناء الإمام، وأحد العلماء ليأمن قتله، فوافقه الإمام، وأرسل ابنه علي بن المؤيد، والقاضي عامر الذماري، فأحسن علي بن الإمام المؤيد معاملة الباشا حيدر وأكرمه كعادة آل القاسم وأعد له فرساً سرجها مكسو بالذهب وأعطاه سلاحاً ليدافع عن نفسه ليسير إلى حيث يريد، وعند خروجه ودَّعه عدد كبير من جنوده الذين اختاروا البقاء بصنعاء والانضمام إلى قوات الإمام، وسار معه علي بن الإمام إلى أن وصل المحويت، ثم واصل حيدر سيره إلى زبيد، غير أن حاكمها التركي أتممه بميله إلى آل القاسم، وأنه يرأسهم، فقبض عليه وأرسله إلى السجن في جزيرة كمران.

ويعتبر تسليم صنعاء انتصاراً عظيماً للقوات الإمامية، وعندما تمت أنباء تسليم صنعاء إلى (قانسوه باشا) زحف بجيشه وقد هال الناس جيشه العظيم الذي يفوق عدده وعدته الوصف، وكعادة الباشوات العثمانيين، فإن هذا القائد (قانسوه) بدلاً من أن يكسب محبة الناس وتعاونهم عمل العكس، فأخذ في تنفير أقرب الناس إليه، وهم جنده وقادته، فاستدعى حاكم المخا (الباشا أيدين)، وأمر بشنقه بدون ذنب، ولم يعرف عن أيدين إلا رجاحة العقل والاتزان والحلم، ولعل صفاته هذه أثارت قانسوه عليه حين رأى حب الناس له والتفافهم حوله.

ثم زاد الأمر سوءاً حين قتل الفقيه أحمد بن جعفر الصوفي، لما طلب قانسوه منه

الإمداد بالمال والزاد، فاعتذر بأن الناس متفرقون في الجبال بسبب الحروب.

هذا ما كان من معاملة العثمانيين يقابلها معاملة آل القاسم الذين أسروا القلوب لأعدائهم قبل أصدقائهم بحسن المعاملة والترغيب في انضمامهم إليهم وحُبهم حتى الباشا حيدر الذي كان من ألد أعدائهم، فتحول لما لقيه من حسن معاملتهم التي افتقدها من الطرف الآخر.

أما عن الحرب في هذا الوقت الذي كان الباشا قانصوه يعد قواته للهجوم على جنود الإمام، بادره الأمير الحسن بهجوم مباغت، فدخل المخا وقتل عدداً كبيراً من جنود العثمانيين، مما اضطرهم إلى عقد هدنة بين الطرفين من بنودها:

تسليم عشرة آلاف ريال وخمسة أحمال من الرماح الهندية لقوات الإمام، وإخراج المساجين العرب الموجودين في البحر.

وقد لاقى الوفد كل إكرام من الأمير الحسن، وخلع عليهم الخلع النفيسة، ثم أرسل مندوبه السيد المهدي بن الهادي لاستلام المال المشروط في المعاهدة.

ثم أخذ قانصوه يعد العدة لاسترجاع ما ضاع على العثمانيين، فتقدم بجيش كبير يرافقه القائد مصطفى باشا و(الكينخيا يوسف) إلى مدينة حيس، فأصدر الإمام أمره بالتحرك لملاقمتهم، وكان الأمير الحسين يقود أهل الحدا وجزءاً من جنود أهل اليمن، والأمير سنبل يقود أهل الشام، أما الأمير الحسن فكانت تحت قيادته بقية الجيوش، فاجتمعت تلك الجيوش في منطقة تسمى الفحيم، ثم لحق بهم الأمير عبد الرب، ومعه (الفرقة الرابعة)، وحينما علموا أن قانصوه يخطط لاسترجاع مدينة تعز، ضربوا حصاراً على قواته، فتمركز الحسن بتعز والحسين بوصاب، وباقي القوات في أماكن استراتيجية أخرى، فاستدعى قانصوه الكينخيا يوسف الذي كان تحت إمرته عدد كبير من الجنود لفتح الحرب في نجد المحير، فسار إليه وبقي الطرفان متقابلين دون قتال ثلاثة أشهر حتى تسرب الملل للطرفين، فأمر قانصوه جنوده ببدء القتال.

واختار الحسن التمرکز في جبل الزواقر ليشرف على حيس وبلاد شرعب.

أخذت قوات الإمام بمناوشة القوات التركية لكشف مواضع الضعف فيها، وأخيراً اشتبك الطرفان في معركة كان النصر لقوات الإمام، فقتل العديد من جنود الأتراك.

وحين علم قانصوه بالهزيمة تحرك من زبيد إلى الشيخ عيسى فسدت عليه قوات الإمام جميع الطرق، فتحول إلى منطقة نجد المحيرب بجنده الكبير، ومعه (الكيخيا يوسف) و(الباشا عابدين)، فحملت عليهم قوات الإمام وهزمتهم، وقتلت قائدهم عابدين، وغنمت مغائم كثيرة، وكان للحسن (صنحق) عابدين، وكان ذا نقوش جميلة محلاة بالذهب، وللأمير سنبل النوبة التي يضرب بها للباشا عابدين.

ثم خرج قانصوه على رأس جيش كبير، وسار به في التهائم المليئة بالرطوبة والحر الشديد، وهنا رأى قانصوه أن الصواب عقد صلح مع الإمام لمدة عام حتى يتسنى له إعداد الجيش من جديد، ولتتعرف على جغرافية اليمن، فقبل الإمام الصلح على الفور.

ودبَّ الحَسَدُ بين القادة العثمانيين، فمال العسكر إلى قائدهم الكيخيا يوسف، فأخذوا يعظمونه ويقدمون له فروض الطاعة، فإذا ركب ساروا بين يديه حتى نَقُذُوا أوامره على أوامر قانصوه، فخاف أن ينقلب عليه الجند ويتبعوا الكيخيا يوسف، فعندما دخل عليه كعادته كل صباح أمر مماليكه أن يقطعوا رأسه، ويرموا به للجند دون ذنب ارتكبه، فثار الجند على قانصوه وحاصروه في قلعة المخا، وكادوا يقتلونه لولا أنه أخذ في مهادنتهم وزيادة رواتبهم مما هدأ من ثورتهم.

ولما انتهت مدة الهدنة وكثرت شكاوي أهالي تهامة إلى الحسن من جور قانصوه وظلمه، فجمع الحسن جنده وسار إلى تهامة بمحاذاة بلاد أنس، وأسفل ريمة حتى وصل إلى بيت الفقيه، ففر الجند العثماني منه إلى زبيد والمخا، وتمكن الحسن من الاستيلاء على تهامة سلماً دون قتال.

ثم قام بتنظيم البلاد، وولى عليها الولاية، فولى على اللّحية النقيب سعيد المجزي، وعلى الحديدة القاضي الهادي بن عبد الله الحارثي، ثم سار إلى منطقة الضحي وأقام بها، وأخذ في توزيع الغنائم والأموال على عسكره.

ثم سار إلى المنصورية استعداداً لحصار زبيد. فطوقها من كل جانب وأخذ في تعمير الحِمَى وأنشأ سوقها وجلب إليها كلما تحتاجه لراحة جنده أثناء حصار زبيد، وأخذت الإمدادات تأتي إليه إلى الحِمَى من كل صوب. وكان على مقربة منه الأمير سنبل ومعه كتيبته التي نزلت في منطقة القرية وبالقرب منه الشيخ علي شمسان.

في يوم عيد الأضحى (سنة ١٠٤٣هـ) غزا الأمير مصطفى التركي بفرقة من موزع لمهاجمة الأمير شمس الدين بالمظفرية من بلاد الحجرية - وكان هذا الموقع منخفضاً - فأشار على شمس الدين رفاهه بالارتفاع إلى مكان عال، فرفض فقتل مع عدد كبير من جيش الإمام. ثم عاد مصطفى إلى موزع، وأخذ يتحرش بجنود الإمام، فأخذ الأمير الحسن يتتبع أخباره، فعلم أنه يخرج من زيد إلى المخا للتشاور مع الباشا قانصوه، وبلغ الحسن أن قافلة كبيرة محملة بأحمال عظيمة من طعام وسلاح في طريقها من المخا إلى زيد، فهاجمها الحسن ليلاً بعد أن ولّى شقيقه الحسين على المحطة، فاشتبك الطرفان في معركة بوادي النخيل. وكانت قوات العثمانيين محصنة بالسلاح والرجال تحميهم مدفعيتان، فكان المعركة سجالاً في أولها، فلجأ قادة الحسن وجنوده إلى خدعة، فضربوا النوبة الحسنية، مما جعل الأتراك يتوهمون أن مساعدة قادمة للحسن ففر الأتراك، وهزم الحسن الأتراك ما بقي منهم وغنم مغنم كثيرة، وظفر بمدفعين، فاحتفظ بواحد في الحمي وأرسل الآخر إلى الأمير سنبل في القرية.

ثم طلب قانصوه من الإمام هدنة ثلاثة أشهر، فوافق عليها. وكان قد تفشّى المرض بجند الإمام، ومات منهم الكثير، وشب حريق كبير في الحمي، وكانت المنازل من القش، فجعلها الحريق كومة من رماد، فنجى الأهالي بنفوسهم بما خف حمله، واستمر الصلح جمادى الأولى والثانية ورجب (سنة ١٠٤٣هـ)، فرأى الطرفان تمديد الصلح إلى رمضان. وخلال رحل قانصوه من المخا إلى زيد، فحفر الأتراك حول سور زيد خنادق، وجعلوا فيها جنوداً مدربين على الرماية وزودوهم بالسلاح، وبعد الصلح حصلت مناوشات صالحها لقوات الإمام.

حتى كانت (سنة ١٠٤٤هـ) فبعد تحصين الأتراك زيد هاجموا الأمير سنبل الموجود في القرية، ففوجئ بغارتهم عليه، فاشتبك الطرفان في معركة حامية، فاستنجد سنبل بالحسن، فهجم بجنوده، فهرب الأتراك وقتل الكثير منهم.

وقد ركز جند الإمام حصاره على زيد (سنة ١٠٤٥هـ)، فطلب قانصوه هدنة لمدة عام، فوافقه الإمام بالرغم من معارضة إخوانه الذين وافقوا على كره منهم، فاستمر الصلح شهرين.

اشتدت الحالة سوءاً في الأتراك، مما دعا الجند إلى الثورة على الباشا قانصوه، وأخذوا يطالبونه بالطعام، وأرادوا قتله، ففر هارباً إلى عند الحسن بالحِمَى، ومعه عدد من مماليكه، وطلب الأمان من الحسن، فلم يشعر الحسن، وهو في صلاة الجمعة بمسجد الحِمَى نهاية شهر (صفر سنة ١٠٤٥هـ) إلا وجنده قد تكاثفوا على شخص كان قاصداً المسجد يريدون قتله، وحين رأى الحسنُ القادمَ وجده قانصوه، فأعلمه أنه فر من جنده حين أرادوا قتله، وهنا تقدم الحسن وأبعد عنه الجند وأخذ به إلى مكانه وأكرمه وأحسن وفادته كعادة أبناء الإمام القاسم في مثل هذه الحالة، وبقي في ضيافته إلى نهاية جمادى الأولى (سنة ١٠٤٥هـ).

ثم جهزه بما يلزم من مال وخيام وخيول وزاد، وأوصله إلى جازان ليواصل مسيره إلى مصر. أما الأمير مصطفى فبقي بزيد إلى أن اشتد عليه الحصار، فطلب الخروج منها وتسليمها للإمام، فوافق الحسن وزوده بالمال والطعام، ورحل إلى المخا. أما عسكره الموجودون بزيد فخيرهم الحسن بين الرحيل مع الأمير مصطفى أو البقاء تحت حكم الإمام، فطلب الكثير منهم البقاء باليمن في طاعة الإمام، فأحسن إليهم الحسن وأكرمهم وزودهم بما يحتاجون وهم نحو أربعة آلاف مقاتل من أمراء وآغوات وقواد، أما الذين رحلوا مع مصطفى فنحو ألف وخمسمائة مقاتل. ثم قرَّر الأمير مصطفى تسليم المخا للإمام حفاظاً على أرواح جنده، فأرسل الأمير الحسن السيد محمد بن عامر لاستلامها وركب مصطفى من المخا إلى مصر.

وبتسليم المخا تكون سائر بلاد اليمن قد دخلت وتوحدت تحت حكم الإمام المؤيد.

إن انفصال اليمن عن الدولة العثمانية لا يعني ضعفها، ولكن هناك عدة عوامل:

أولاً: بعدُ اليمن عن مركز الخلافة العثمانية لتعرض الإمداد للغرق في البحر.

ثانياً: كان يدب خلاف بين الولاة الأتراك باليمن.

ثالثاً: كان بعض الإمدادات تبقى بجدة وتفضل البقاء بالأراضي المقدسة.

رابعاً: انشغال السلطان بالحروب مع الصفويين في العراق، بالإضافة إلى أسباب أخرى منها أن غالبية الباشوات كانوا قساة وأهملوا مصالح البلاد، وعاملوا الناس بالقسوة حتى فروا منهم إلى آل القاسم الذين أحسنوا إليهم وأكبر دليل انضمام الشوافع باليمن

إلهم رغم اتفاقهم في المذهب مع العثمانية، فقد كان الإمام وإخوانه يكرمون العدو والصديق ويساوون بينهم ولا يفرقون بين مذهب ومذهب، يجلون العلماء.

* * *

ثم نعود إلى الفصل الأول لترباط الكلام

يعتبر الأمير الحسن العضد الأيمن للإمام، نظم شئون البلاد، ولّى على زيد الشريف هاشم بن حازم المكّي، وولى على المخا مملوكه سعيد ربحان، وعلى موزع الأمير هادي الشوبع الحمزي، وغيرها. وتعدت تنظيماته إلى جزيرتي كمران وفرسان التابعتين لدولة الإمام المؤيد، وأمر بإصلاح أمورهما وتعميرهما بعد خروج الأتراك منهما.

ثم عاد الحسن إلى ضوران بعد أن أمنت البلاد، واتحدت تحت لواء آل القاسم من عدن إلى صعدة، وبقي الحسن بضوران يصلح أمور البلاد وركّز اهتمامه على الناحية العمرانية، فشيّد حصن الدامغ بضوران، فأصبح آية في فن العمارة، وأجرى عنده الأثغار الغزيرة، وزرع المنطقة التي حوله بالأشجار، وأصبحت مدينة ضوران من المدن الكبار. ثم مرض الأمير الحسن وتوفاه الله في شهر شوال (سنة ١٠٤٨هـ) وهو في الحادية والخمسين من عمره والدارس لحياته يجدها ملحمة من البطولات.

ولد في (سنة ٩٩٦هـ) فرباه والده الإمام القاسم من بيئته الصافية ومنهله العذب تربية دينية حريّة، كان ملازماً لوالده في حروبه، حتى وقع أسيراً لدى العثمانيين (سنة ١٠٢٢هـ) إلى (سنة ١٠٣١هـ).

ثم كانت له بطولات ضد العثمانيين أيام أخيه الإمام المؤيد، واهتم بالأمر الدينيّة والمعارف، فأدرك حصة من العلوم ولازم الجلوس مع المشايخ والعلماء. وكان كريماً معطاءً.

وقد خلّف الحسن من الأبناء محمداً وأحمد والحسين، وحضر مراسم جنازته ودفنه بغرب جامع شقيقه الحسين وابناه أحمد والحسين والعلماء والجنود.

ورثاه كثيرون بمراث خلدت أعماله الجليلة منها:

أدري؟ الذي يعني إلينا، من نعى؟ لو كان يدري ما أشاد وأنشعا

أترأه؟ يدري أنه ينبغي إلى كل الأنام الدين والدنيا معا
وحياتهم ومعاشهم ورباشهم ونعيمهم هذي الخصال الأربعا

وكان الأمير محمد بن الحسن قبل أن يمرض والده قد استأذنه في زيارة عمه الإمام إلى شهارة. ثم وصل خير مرض والده، فأمره الإمام بالإسراع إلى ضوران، فما وصلها إلا بعد مراسيم الدفن، فاستقبله عمه الحسين وأخوه أحمد بن الحسن والعامه، وقدموا له التعازي.

وكان في اعتقاده أن الإمام سيجعله خليفة والده، فبسط نفسه لحكم الولاية، فعين أعوان والده ونصب نفسه رئيساً للجيش. كما أمر أن تسير الأمور على ما كانت عليه أيام والده، ونصب نفسه للقضاء بين الناس، وأحبه العامة والخاصة؛ لأنهم توسموا فيه بعض صفات والده العظيم، فالتفتوا حوله ولم يلتفتوا حول عمه الأمير الحسين الذي أراد العودة إلى ذي بھلان، ولكن الأميران محمد وأحمد ابني الحسن رجوا في البقاء، وجعلاه يتولى الأمور وينصاعان لأوامره، ولكن الناس لا يقبلون منه أمراً إلا بعد عرضه عليهما.

ثم أتى أمر الإمام بتولية الأمير الحسين، إلا أن الجند والأعوان استمروا على ما كانوا عليه لا يأتمرون إلا لأبناء الحسن، وحينما رأى الحسين ذلك قرر العودة إلى ذي بھلان، وقال: (دولتكم وأمركم وجندكم). وبعد رحيله سير محمد بن الحسن الأمور والتف حوله الجند والعامه، فعظم ذلك على الإمام؛ لأنه نذير فرقة، فأكد الأمر بولاية الحسين وكف أيدي أولاد الحسن، فاعتبروه تجريداً لهم من حقهم، وقد انصاع محمد بن الحسن لأمر عمه، وأخذ جنوده وأتباعه وعاد بهم إلى ذمار، وحينما رأى كثرتهم وأنه لا يستطيع الإنفاق عليهم طلب من عمه الحسين أن يقطعه بعض البلاد عوناً له في الإنفاق، فبادر الحسين وطيب خاطره بأن أقطعه بلاد الشوافي وخبان وبني سرحة ويريم والتعكر، وبقي في تلك المناطق مسلماً لا يخالف عمه في شيء.

أما شقيقه أحمد بن الحسن فبالعكس، فبعد أن وصله خطاب الإمام بتولية عمه الحسين على ولاية والده، وكف يده عن التصرف جُنَّ جنونه، فأرضاه عمه الحسين بإقطاعه لبلاد وصاب، فاستحقر ما أعطي وتحرك بجنود وأتباع يزيدون على ستة آلاف إلى بلاد عنس، فقبول من أهلها بالإكرام والتأييد. ثم انتقل إلى بلاد خولان، فانضمت

إليه أعداد كبيرة، وزودوه بالمال والذخيرة، ووجد في كل مدينة حُباً وترحيباً.

فعرز على الإمام هذا التصرف، فأصدر أوامره إلى الأقاليم بالتحفظ من هذا التصرف، وحاول إرجاعه وثنيه عن غيّه، لكنه لم ينصع لأوامر عمه الإمام، فأمر الإمام أخاه إسماعيل بإعداد جيش للقاء جيش ابن أخيه. وتقابل الجيشان في منطقة قعطبة، فوقعَت حرب انتهت بالنصر لجيش الإمام، ففر الأمير أحمد إلى أبين، وصاحبها الحسين بن عبد القادر الذي قابله بالترحاب، وأقام عنده مكرماً معززاً.

فأرسل الإمام إلى حاكمها مطالباً بإرجاع أحمد أو طرده، فأخذ الحاكم يعامله ببعض الحفاء، فغادره إلى يافع، فاستأذن زعمائها السيد أحمد بن الحسين بن أبي بكر بن سالم صاحب عينات في حضرموت في قبوله، فأذن لهم بقبوله للإقامة لديهم، فلقى منهم كل إكرام نحو ثلاث سنين، وجمع جمعواً وتقدم بهم على المناطق الإمامية على حين غفلة، فكانت موقعة قُتل فيها أعداد من جنود أحمد، ثم أرسل الإمام القاضي الحسن بن أحمد الحيمي على رأس وفد إلى بلاد يافع (سنة ١٠٥٢هـ-)، فنجح القاضي الحيمي، واقنع الأمير بالعودة إلى حظيرة الإمام، فسمح له بالذهاب إلى صنعاء (سنة ١٠٥٣هـ-)، وجعل له مكانة محمودة وأقطعه أرضاً، وكون له جماعات وأعواناً يتبعونه، وبقي تحت طاعة عمه الإمام إلى وفاته (سنة ١٠٥٤هـ-).

وبقي الأمير الحسين بن القاسم في ولايته يسوّي أمورها ويرعاها إلى وفاته في ربيع الآخر (سنة ١٠٥٠هـ-) بدمار، ودفن بها. وخلف من الأبناء خمسة: محمداً ويحيى والحسن وأحمد وعبد الله، وكان -رحمه الله-: تقياً عالماً ذا ذكاء حاد، حتى أن مشائخه كانوا يتعجبون من سرعة فهمه وحسن إدراكه، وقرأ على يد جماعة من فقهاء اليمن الأصول والبيان والمنطق والنحو والحديث والتفسير والفقه.

ومن مؤلفاته المشهورة الغاية وشرحها في أصول الفقه.

وكان الساعد الأيمن لشقيقه الحسن في حروبهم، ضد العثمانيين، ولم تشغله الحروب عن العلوم، فكان يؤلف الكتب وهو يقود الجيوش في المعارك.

وبعد وفاة الأمير الحسين جعل الإمام جميع ما تحت يده لأبناء أخيه الحسن، فهدأت الأمور وانتشر الأمن في البلاد إلى وفاة الإمام (سنة ١٠٥٤هـ-) بشهارة، ودفن بجوار

والده الإمام القاسم، فيكاه أهل اليمن وعلماءها، فقد كان - رحمه الله - بالإضافة إلى حنكته السياسية جواداً كريماً عالماً فقيهاً، اجتمعت اليمن كلها بدون نزاع على حكمه، فهو موحدٌ أقطارها رحمه الله رحمة واسعة.

وخلف الإمام المؤيد ستة أبناء: علياً وهو الأكبر ويكنى به، والحسين ويحيى وأحمد والقاسم والحسن.

وبعده أجمع العلماء والمشائخ على اختيار خليفة له شقيقه أحمد بن القاسم بشهارة، ولكن عندما وصل الخبر إلى إسماعيل بن القاسم بضوران سارع بترشيح نفسه للإمامة، فأخذ البيعة من العلماء والمشائخ هناك؛ لأنه أحق بالإمامة، لكونه أعلم بأمور الحكم والشرع، فتم تنصيبه خليفة للإمام الراحل.

من الفصل الثالث علاقة المؤيد بالخارج

تخللت ولاية الإمام المؤيد علاقات مع الدولة العثمانية ودّية وحرية، فعقدت هدن ومعاهدات بين الطرفين، وتبوّدت الرسائل الودية، فعندما وصل الباشا أحمد فضلي (سنة ١٠٣١هـ)، واستقر بصنعاء، أرسل إلى الإمام المؤيد خطاباً حوى كثيراً من عبارات الود وتواضعاً جمّاً وأدباً كبيراً، ثم عرض الصلح، وقال: إنه سرّه هروب الحسن من سجن العثمانيين في اليمن، وأنه لا حرج على الإمام فيما أقدم عليه أخوه من عمل، وأردف كلامه بأنه لو بقي هذا الأمير مسجوناً إلى حين تولّيه الحكم في صنعاء لأطلقه بنفسه.

وفي (سنة ١٠٣٣هـ) حين وصول الباشا حيدر إلى صنعاء بدلاً من الباشا فضلي، أرسل رسالة إلى الإمام يطلب فيها دوام الصلح والعلاقة الحسنة، فأجابه الإمام بخطاب مماثل ضمنه موافقته على استمرار الصلح.

وتردد بعض الفقهاء والعلماء من دولة الإمام على صنعاء، إما لجمع الزكاة أو لنشر العلم بين الناس، وهذا يعني وجود علاقات ثقافية وتجارية بين الطرفين. ويؤيد ذلك الحادثة التي غيرت مجرى التاريخ في اليمن، وهي مقتل الفقيه العلماني الذي اغتيل في صنعاء (١٠٣٦هـ)، فكان سبباً في نشوب القتال بين الطرفين، ولم يتسرع الإمام في شن الحرب إلا بعد ما أعيته الحيلة في تطبيق الشرع على مرتكب هذه الجريمة، فتبادل

الطرفان الرسائل للتفاهم في تسليم القاتل وتحديد المسؤولية، لكن الباشا حيدر ماطل مما حدى بالإمام إلى تحديد موقفه لقطع علاقته بالباشا وإعلان الحرب عليه، استمرت من (سنة ١٠٣٦هـ) إلى (سنة ١٠٤٥هـ)، انتهت بخروج العثمانيين من اليمن وإعلانه دولة مستقلة.

وفي (سنة ١٠٣٦هـ) اقترح السيد الحسن بن محمد الجوفي على الإمام المؤيد أن يرسل خطابات للسلطان عبد الله بن عُمر الكثيري سلطان حضرموت وإلى زعماء العلويين يحثهم على تأييده في حربه ضد الأتراك، فلم تأت إجابات سريعة على ما دعا إليه الإمام، وإنما أجاب العلويون على خطاب الجوفي الملحق بخطاب الإمام بتعنيف الجوفي على استشهاد الجوفي بالآية القرآنية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وأنه تطاول في نصيحة أبناء الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - في أمور دينهم. غير أنهم أشعروه برضاهم وغبطتهم عن الذي قام به الإمام المؤيد من عمل جليل في شن الحرب على الدولة العثمانية، وأعلموه بأن ما أقدم عليه الإمام هو أنه اتبع الطريقة الحربية التي فعلها الحسين بن علي بن أبي طالب.

وأما هم فقد فضّلوا الطريقة السلمية التي اتبعها أخوه الحسن بن علي والتي لا تؤيد إراقة الدماء للمسلمين.

كما أرسل الإمام رسالة إلى السيد الحسين بن أبي بكر بن سالم عميد السادة آل الشيخ أبي بكر بن سالم في عينات بخضرموت، فرفض الانضمام إلى دعوة الإمام، وقال قولته المشهورة: (حقيق لمن لم يدع إلى ما يرجى ثوابه أن ينقلب صاحبه بغير جواب)، فتارت نائرة أتباع الإمام ووصفه مؤرخ الإمام الحرموزي بأوصاف لاذعة. وأرسل الإمام (سنة ١٠٣٦هـ) رسالة إلى السيد زين العابدين بن عبد الله العيدروس.

ومن جوابه على الإمام: ((إن اتباع ولاية السواد الأعظم والصراط الأقوم أهل السنة والجماعة الذين أوجب الله تعالى سلوك سبيلهم واتباعه، نعتقد صحة خلافة الخلفاء الأربعة، ونعتقد أن الصحابة قد وفقوا للإصابة في جميع ما فعلوه باجتهادهم، وأجمعوا عليه بدلائلهم وإسنادهم، فهم أساطين الدين المحمدي)). إن المتأمل لرد السيد زين العابدين، يدل على رجاحة عقله واطلاعه على العلوم، فرفض ما دعاه الإمام من

الانضمام تحت حكمه وبين سبب الرفض.

فَعَقِبَ الإمام على رفض السيد بأنه يُعْتَبَرُ تعدياً بغير يقين على السلف الصالح الذين تلقت عنهم الأئمة الزيدية معلومات صحيحة البرهان، وقد اعتمد السيد على كتب تخالف رأي العترة النبوية، ووعد الإمام بالتأليف كرد على السيد.

وكان للإمام علاقة قوية بحاكم أبين وخنفر الأمير عبد القادر بن محمد الجرهمي، وقد اشتهر بالزهادة والتدين والعدل.

وكانت له عوائد تأتيه من الدولة العثمانية، ولكن حين تولى حيدر باشا اليمن قطعها مما حداً بالأمير أن يسافر إلى صنعاء لمقابلة الباشا، ولكن وهو في طريقه إليه، وصلت إليه أنباء ثورة الإمام على الدولة العثمانية، فعاد مسرعاً إلى بلاده، وكتب إلى الأمير الحسن بن القاسم من مدينة حرقة خطاباً يعلن فيه تأييده للإمام ومناصرته.

وفي (سنة ١٠٣٧هـ) بعد انتصارات القوات الإمامية في موقعة (نجد قُسيم)، أرسل الأمير الحسن بن القاسم خطابات إلى شيوخ اليمن الجنوبي يخثهم على الانضمام إلى صفوف الإمام، وبشّرهم بالنصر العظيم، من جملتهم الشيخ رصاص الجرهمي، وقد كانت له عوائد من العثمانية من صنعاء.

وعندما دانت اليمن لدولة الإمام أرسل الأمير الحسن إلى الشيخ الرصاص بأن المعتاد سيأتيه من الجانب الزيدي، وكان عنده من علماء الصوفية جعلوا الرصاص يتحامل على الرسول ويضعه في السجن أياماً حتى تبين حقيقة الأمر، وعرف خطأ ما ارتكبه، فاعتذر وأعطاه ما أرضاه، وأخبره بأنه فعل ذلك ليتحقق من الأمر.

ولقد كانت علاقة اليمن بالحجاز متينة، وكان للإمام المؤيد تأثير على الأشراف هناك، وكانت تصله التقارير فيما يدور بينهم من خلافات، وطلب المعونة منه، فقد طلب الشريف محسن بن حسين العون من الإمام المؤيد على منافسيه الشريف أحمد عبد المطلب والشريف مسعود بن إدريس.

وقد فر الشريف مسعود إلى حاضرة الإمام، ورغب في الوصول إليه إلى اليمن؛ ليلغيه وجهة نظره في نزاعه مع الشريف محسن، ولكن مشاغله الكثيرة حالت دون مراده من الوصول، فعذره الإمام من المجيء في خطاب أرسله ردّاً على خطابه عبر عن شعوره

العميق والسرور العظيم لإصلاح ذات البين لأشراف مكة الذين قال جدهم سيد البشر صلى الله عليه وآله وسلم: (إن إصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والزكاة)، ومما لا شك فيه أن إصلاح ذات البين في حرم الله بين أهل بيت نبيه هو من إعلاء شأن دينهم القويم، كما يغيض الله به أعداءهم من كل شيطان رجيم.

ثم بدأ الصراع بين الأشراف من جديد، وذلك عندما هاجم الشريف أحمد عبد المطلب مدينة بيشة (في سنة ١٠٣٨هـ)، وكان يحكمها من قبل شريف مكة الشريف محسن الشريف مغامس.

وأُسفر الهجوم عن مقتل ابن حاكم بيشة وسقوطها في أيدي الشريف أحمد عبد المطلب، ولم تكن قوات الشريف محسن كافية لتأديب وطرده المهاجمين. فلجأ إلى الإمام وطلب منه المساعدة فلبى طلبه وجهز جيشاً من اليمن قوامه أشراف الجوف وعناصر أخرى، وقد تمكنت من دخول مدينة بيشة وهزيمة الشريف أحمد عبد المطلب، وتسلم جنود الإمام للمدينة، غير أن الشريف محسن بن حسين حاكم مكة لم يستمتع بهذا الانتصار؛ لأن خصميه الشريف أحمد عبد المطلب والشريف مسعود بن إدريس تحالفاً ضده، فأدرك أنه لا طاقة له بملاقاتهما، فلم يجد وسيلة يلجأ إليها غير الهرب إلى اليمن تاركاً الأمر لهما.

وعندما وصل إلى اليمن قابله الإمام بالترحاب وحسن الضيافة وتخلّى عن المطالبة بحكم الحجاز، وفضل البقاء في اليمن. فخيره الإمام المؤيد في البقاء عنده في شهارة عاصمته أو في صنعاء، فاختار الشريف صنعاء، لكن المنية عاجلته، فمات أثناء سيره إلى صنعاء، إلا أن جثمانه حمل إليها، ثم دُفن (في قبة محسن بباب السباح معروفة بمئات السنين ثم في عصر الجمهورية نقل قبره إلى المقبرة العامة وجُعِلَت القبة دكاكين).

وقد تدخل الإمام المؤيد في (سنة ١٠٣٩هـ) لحل النزاع بين حاكم أبين وعدن الأمير عبد القادر الجرهمي وحاكم يافع أحمد بن شعفل عندما اعتدى الأخير على بعض مناطق حاكم عدن لحدوث خلاف بينهما. فقام أحمد بن شعفل ببعض الأعمال التخريبية مثل قطع الطرق إلى عدن ومراسلة الباشا (قانسوه) باستعداده للانضمام إليه ضد الزيدية، فاضطر الأمير عبد القادر إلى الالتجاء إلى الإمام المؤيد لفض هذا الخلاف،

وطلب منه العون والمساعدة. فأجابه الإمام إلى طلبه، وأمر أخاه الحسن بمساندة الأمير عبد القادر، فسار إلى ابن شعفل لتأديبه، ففر إلى جبل حجيل قريب من يافع.

وخرَّب الحسن بلاد الربيعتين المناصرين للخصم، ويبدو أن عمل أحمد بن شعفل لم يعجب بعض أقاربه، فقد وصل شقيقه المسمى جعفر إلى الأمير الحسن وقَدَّم الولاء والطاعة له. وكانت تربط جعفر بالأمير عبد القادر صلة قرابة، فهو خال لجعفر، فقرب الأمير الحسن جعفرًا وأحسن إليه وولَّاه ما كان تحت يد أخيه من بلاد.

ثم سار جعفر إلى بلده يرافقه مندوب الأمير الحسن السيد الهادي بن علي الشامي، والشيخ محمد بن شمسان وغيرهما، لتثبيت حكمه، أما أحمد فقد فر إلى يافع الداخل، إلا أنه استمر في أعماله التخريبية وعندما نفذ صبر الإمام أرسل جيشاً لمساندة جعفر بن شعفل لتأديب أخيه، فدارت معركة، تمكن بعدها الجانب الإمامي من أن يجبر أحمد على الخضوع والدخول تحت الطاعة. واستمر الإمام في تكليف جعفر حكم يافع بدلاً من أخيه أحمد.

بعد أن هدأت الأمور عادت قوات الإمام إلى إب بعد أن أدت المهمة.

في أوائل (شهر رمضان سنة ١٠٤٠هـ)، حاول بعض الحكام العثمانيين في غير اليمن التدخل لكف أذى الحرب بين الإمام والعثمانيين، فكتب حاكم الحسا والقطيف العثماني الباشا علي رسالة إلى الإمام المؤيد ينصحه أن يكف عن حرب الدولة العثمانية ويبيِّن ما لها من فضل على العالم الإسلامي، وأن ملوكها يسيطرون على غالب البلاد الإسلامية، كما أنهم يُلقَّبون بـخُدَّام الحرمين الشريفين، وهذا أرفع الألقاب، وأن السلطان العثماني قد أقام الله به الدين، وانتظمت به مصالح المؤمنين، ويسعى في الجهاد ضد أعداء الإسلام ليقطع دابرهم.

فأجابه الإمام المؤيد برسالة مماثلة أوضح فيها الأسباب التي أدت إلى المحاربة وهي فساد باشوات آل عثمان في اليمن، وخروجهم عن أمور الدين وتعاليم الإسلام وإباحتهم المحرمات كشرب الخمر وبيعه في الأسواق مجاهرةً وقتلهم الأبرياء بغير حق وخاصة العلماء والفقهاء، كما حدث من الباشا حيدر، وأن من واجب الإمام كمسلم وولي أمر اليمن أن يحارب الباغي ويقف في وجه مرتكبي هذه الأفعال إلى أن يرتدعوا ويعودوا إلى رشدهم ولو بالحرب والخروج عن طاعتهم في سبيل إعلاء كلمة الحق

والدفاع عن الدين.

وكذلك حاكم البحرين العثماني كتب إلى الإمام (سنة ١٠٤١هـ)، أن السلاطين العثمانيين قد أعظموا الفِرقة بين الأئمة والسلاطين، الذين مقاصدهم هو إصلاح العباد والبلاد وإخلاء العالم من الفساد، وأنهم لا يرضون بتصرفات الباشوات في اليمن، فالأولى بالإمام أن يُعرّف السلاطين بما أقدم عليه هؤلاء الباشوات من أعمال خبيثة وسيرى أنهم سيستمعون إليه؛ لأن كلامه مقبول لديهم كما سيرى في إجابتهم ما يسره، لا سيما وأن السلاطين يعظمون أهل البيت النبوي والنسب العلوي الذي ينتمي إليه الإمام نفسه.

أما الباشوات باليمن فالأولى أن تكون طريقة الإمام معهم بالتي هي أحسن.

وقد ردَّ الإمام على رسالة الباشا العثماني في البحرين، فشكره على مدحه له ولأهل البيت النبوي وأكد موافقته على ما جاء في رسالته، والتي يفهم منها أنه على علم بتصرف الباشوات بالفساد والعبث بإهلاك الحرث والنسل في العباد والبلاد وعدم موالاة العترة النبوية.

كما أقر الإمام أن هدف السلاطين العثمانيين إصلاح العباد وسعيهم في عمارة البلاد، كما أنهم يعظمون أهل البيت النبوي؛ ولذا فيكون لزاماً على الباشوات باليمن أن تكون معاملتهم لأهله بالتي هي أحسن، وما أقدم عليه من محاربتهم كان اضطراراً، ولم يكن تمرداً على السلطة العثمانية، وإنما لإصلاح ما أفسده الباشوات، فهي أمانة في عنق الإمام لانتشار الأمن بين الشعب اليمني، وإقامة حدود الله وهي أمور يوافق عليها السلاطين العثمانيون.

في (سنة ١٠٤٣هـ) أرسل (قانسوه باشا) آخر حاكم عثماني باليمن من المخا الأسطول التركي بقيادة (إبراهيم بك) على عدن بعد تحالفه مع بعض أهل يافع أن يهجموا على عدن من البر وهو من البحر. فبلغ الأمير الحسن بن القاسم، فأخبر أمير أبين عبد القادر بن محمد، فترك مقر عمله واتجه إلى عدن ليقوى من دفاعها، واستخدم نفوذه لدى أهل يافع المقيمين بعدن المؤيدين للزيدية بها، وعلى رأسهم معوضة بن عفيف الذي أقنع اليافعيين المؤيدين للأتراك بعدم هجومهم عدن من البحر وبالتخلي عن الأتراك. وفعلاً استجابوا وتم ما يريده زعماء الزيدية من إفشال الهجوم واضطر قانسوه لاستدعاء

الأسطول التركي من جهة عدن بعد فشله، لكي يحمي ميناء المخا من الهجوم الزيدي.

كما أن قانصوه فشل في محاولته تأييد حاكم الشَّحْر الكثيري بالهجوم على عدن.

وفي (٢٤ جمادى الثانية سنة ١٠٤٣هـ) أرسل السلطان عبد الله بن عمر الكثيري خطاباً إلى الإمام استعمل فيه كلمات ودِّية فقال: ((والذي نهيه إلى مسامعكم الشريفة أطاب الله مسموعها وأعذب ينبوعها، أنا صرنا من المحيين لكم ونحن منكم وإليك)) وفي مكان آخر، قال: ((في الحقيقة، نحن نحبكم طبعياً ونحن على طريقتكم في الداخل والخارج))، وشرح للإمام أن الذي أخره عن الكتابة إليه للتعبير عن هذه الصداقة هو الخوف من قوة الأتراك في البر والبحر، كما كان أجداده يخشونهم، وقد أجاب الإمام المؤيد على السلطان عبد الله الكثيري بخطاب يحمل المودة والمحبة له والتفهُّم لما أبداه الحاكم الحضرمي في خطابه وأخبره أن السكوت عن الدعوة إلى الله في حضرموت سيعاقب عليها أمام الله.

وفي سنة (١٠٤٤هـ) توجه السلطان عبد الله مكة للحج واستخلف على الحكم في حضرموت أخاه بدرأ الذي حاول أن تكون علاقته مع الإمام ودية أيضاً، فراسله سراً، وعندما قرأ إجابة الإمام عليه المدوَّنة في (٤ رمضان سنة ١٠٤٤هـ) نجد أن الانطباع فيه على أن بدرأ قد أصبح حاكماً زيدياً، وأن الإمام قد سره ذلك.

وقد مات السلطان عبد الله في مكة (سنة ١٠٤٥هـ) فأصبح أخوه بدر الحاكم المطلق للدولة، بالرغم من أن ابن أخيه بدر بن عبد الله هو الخليفة لأبيه في عرف تقاليد أسرة آل كثير، ولذا فقد تأمر على عمه وقاومه، ويقال: إن أكثر العوامل لإسقاطه من الحكم هو اعتناقه للزيدية.

وقد تشجع اليمنيون بمجريات الحوادث في حضرموت والتي كانت لصالحهم، فأتجه نفوذهم إلى الجهات الشرقية من اليمن الجنوبي حيث إقليم المهرة، وذلك عندما كتب الإمام المؤيد خطاباً لسلطان قبيلة المهرة مسعد بن عمرو يدعوه فيه للخضوع لأهل البيت وذكره أن أجداده الأولين كانوا يفعلون ذلك.

ولم تكن علاقة دولة الإمام المؤيد مقتصرة داخل الجزيرة العربية، بل ترامت إلى مسامع الحكام والأفراد البعيدين لما لها من مكانة مرموقة بالرغم من حداثة عهدها

بالاستقلال. ومن الذين سمعوا عنها وتأثروا بها السيد الطاهر بن عبد الله الإدريسي الذي حدث بينه وبين ابن عمه ملك المغرب خلاف اضطره إلى مغادرة بلاده والفرار إلى اليمن فوصلها (سنة ١٠٤٦هـ)، والتقى في مدينة زبيد بالسيد هاشم بن حازم بن أبي غمي حاكم الإمام بزييد، فرأى على السيد المغربي سمات العلم والمعرفة، فتوسم فيه الخير، فقدمه إلى الأمير الحسن بن القاسم الذي أكرمه وأحسن منزلته، ثم أرسله إلى عاصمة البلاد (شهادة) وبرفقته عدد من الأتباع، لتقليده إلى الإمام المؤيد الذي أكرمه وأحسن وفادته أيضاً.

ومما لا شك فيه أن السيد المغربي قد أفضى إلى الإمام بما دار من خلاف بينه وبين ابن عمه الملك، فتلقيه بصدر رحب واستمع منه، وعند عودته إلى بلاده المغرب حملة رسالة إلى الملك المغربي: تضمنت إصلاح ذات البين، وقرابة الإمام المؤيد الذي يعود نسبه إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب، كما أن ملك المغرب ينحدر من نفس الدوحة، كما تضمنت الدعوة، وهي كما قال: «فكتبنا إليكم دعوتنا هذه داعية إلى مثل ما دعا إليه سلفنا وسلفكم وآباؤنا وآباؤكم من كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - وما حث الله عليه من تقوى الله المبلغة إلى دار السلام وحفظ هذه البيضة التي شرفها الله بالإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله وطاعة رسوله وطاعة الإمام، والدخول مع جماعتكم وإخوانكم من أهل البيت، وأتباعهم من المؤمنين فيما دخلوا فيه من الإجابة.

وأمرنا السيد الجليل الطاهر بن عبد الله أن يبلغها إن شاء الله إليكم، ويأخذ عهد الله فيها عليكم، ويقول فيكم إن شاء الله أحكامها ويستعين بعد الله بكم على نشر أعلامها بما يطابق كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - وسيرة أئمة الهدى من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

كما أن علاقة الإمام لم تقتصر على العالم العربي فقط، وإنما تعدته إلى مناطق غير عربية لما كان لها من عظمة وهيبة في قلوب الحكام من غير العرب.

وقد وصل إلى عاصمة اليمن (سنة ١٠٤٨هـ) مندوب من أحد ملوك الهند الذين كانوا يتقربون إلى الإمام، فحمل إليه كثيراً من الهدايا الثمينة التي أنتجتها أيدي الصانع الهنود وهي تشتمل على سيوف من أجود ما تصنعه الهند مع فاخر البخور والتوابل.

وقد تلقى الإمام المؤيد هذا المندوب بالترحاب والإكرام، ثم رد على هذه الهدية بأن حمّل المندوب بالخيول الأصيلة الموجودة في اليمن في ذلك الوقت.

ومن الذين ترامت إلى علمهم أخبار دولة الإمام المؤيد محمد بن القاسم إمبراطور الحبشة (فاسلداس بن سينوس)، وقد أراد أن يقيم علاقة مع اليمن؛ لأن بلاد الحبشة في تلك الفترة كانت تعج بالفوضى، والاضطراب؛ لأن سكانها مزيج من المسلمين والمسيحيين وبعض القبائل المختلفة الأديان، فقامت بين هذه الفئات حروب دامية خاصة مع قبائل (الجالا) و(الفلافة) و(الأجار) و(سيداما).

وفي (سنة ١٠٥٢هـ) بعد توتر الحالة في الحبشة، وقطع الإمبراطور علاقته بالدول الأوروبية خاف الإمبراطور على البلاد، فأخذ يتقرب إلى الدولة المسلمة لصد غدر الدول الأوروبية، فأرسل رسالة إلى الإمام المؤيد يعرض فيها رغبته في إقامة علاقات ودّ ومحبّة مع هذه الدولة الفتية وأبدى استعدادة لإقامة علاقات ثقافية وتجارية وعسكرية، وأرسل هدايا رمزاً لبدء هذه العلاقات، وفي فقرة من رسالته ((يسعد دولتنا القاهرة صدور الحروف لأداء واجب السلام وتحديد العهد بأخلاقكم الكرام))، إلى أن قال: ((وبعد هذا اليوم لا تقطعوا عنا أوراقكم وأخباركم عن طريق الدلكلي، كما بندر البيلول قريب إلى المخا، وبعض الأشياء التي عندنا ما هي عندهم، فبعدما وقعت الصلحة بيننا تتبادل الحوائج من الطرفين بالذي يريد خاطركم وخاطرنا، فالالتماس من مروءتكم وهمتكم الكريمة وجودكم وفضلكم العميم أنكم تجعلون لنا خيلين واحدة مصان طويل جسيم يحمل آلة السلاح كلها، والثاني قصير أنثى ونريد درعاً وسبعاً طويلاً لا تدخل الحربة فيه وواحدة خوذة وسبعة مليحة لا تقطع ويدكم طويلة قادرة على وجود ذلك، والواصل إليكم برسم البركة عشرون رأساً رقيقاً وواحدة بغلة سوداء من مراكبنا وتفضلوا بقبوله)).

ومن خلال الرسالة يتبين اعتراف دولة الحبشة بدولة الإمام المؤيد واستقلالها من الدولة العثمانية.

وقد أجابه الإمام المؤيد برسالة مماثلة أكد له أنه على أتم الاستعداد لتلبية طلباته وقبول هديته، وأرسل إليه وفداً إلى عاصمة الإمبراطور محملاً بالهدايا ورسالة جاء فيها شكر

الإمام للإمبراطور فاسلداس وتقديره له ودعمها بالآيات القرآنية التي فيها ذكر سيدنا عيسى ووالدته مريم - عليهما السلام - وأبدى الإمام استعداده للتعاون مع الإمبراطور ولَبَّى طلبه فقال: ((وأما ما أشار إليه زاده الله من الإنعام والتمسه من رأسي الخيل والدرع والبيضة، فذلك في حقه يسير وبالنظر إليه حقير، وصدر ذلك مع سيف صارم، ولداء الأعداء إن شاء الله حاسم، جعل الله تواصلنا بحمده وشكره وعبادته وذكره والاجتماع على أمره ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)).

وعند مغادرة الوفد الحبشي للأراضي اليمنية أرسل الإمام معه عدداً كبيراً من الجنود لحمايته.

وهكذا نجد أن دولة الإمام المؤيد في فترة وجيزة تخللتها الحروب مع أعظم الدول، استطاعت أن تمد علاقاتها السياسية والتجارية والثقافية إلى أماكن بعيدة عن اليمن.

من الفصل الرابع

إصلاحات الإمام الداخلية

كانت الفوضى تدب في اليمن ويشيع فيه الاضطراب وذلك من الحروب المتواترة التي قامت بينها وبين الدولة العثمانية التي أرادت بسط سيطرتها على اليمن، غير أن أئمة الزيدية ومنهم الإمام المؤيد محمد بن القاسم ضيع عليهم هذه الفرصة، وسعى جاهداً لتوحيد البلاد تحت لوائه، وإخراج الغزاة من بلاده. وقد نجح في ذلك عندما أجلى آخر حاكم عثماني (قانسوه باشا) في (سنة ١٠٤٥ هـ) وبذلك أصبحت البلاد تحت حكم الإمام وقامت أول دولة موحدة في اليمن منذ أن دخلها العثمانيون.

نلاحظ بعد دراسة جوانب حياة هذا الإمام في الفصول السابقة من الرسالة أنه لم يسع لمصلحته الخاصة، فمنذ توليه القيادة، وهو يقوم بالأعمال الإصلاحية التي عم خيرها جميع البلاد.

فإذا أخذنا بالاعتبار أن نتناول بالبحث ما قام به الإمام من إصلاحات داخلية فقط

وحصرناها بالإصلاحات العمرانية والعلمية، فهذا يعتبر نقصاً في فهمنا لمعنى هذه الناحية الهامة من حياة هذا المؤسس العظيم للدولة الزيدية في اليمن، فإن معنى الإصلاح شامل لكثير من الأعمال السياسية.

لكن مؤرخي ذلك العصر قد أهملوا أهم جانب من جوانب هذا العصر وهو الجانب الحضاري، هذا وإن تعرضوا له فإنهم يذكرونه من باب الصدفة ويعتبرونه من النواحي السياسية، ومن هذا نجد أن آل القاسم لم يهتموا هذا الجانب المشرق في هذه الدولة، بل اهتموا به اهتمامهم بأي جانب آخر من الجوانب المكونة للدولة مثل الجانب السياسي والحربي والعلاقات الخارجية فقد كانت سياستهم تقوم على تشجيع النواحي الحضارية في البلاد وتدعيم مرافقها، سواء أكانت علمية أم أمنية أم عمرانية أم إدارية، فلو تناولنا كتب التاريخ التي ألفت في عصره لوجدناها صبت كل اهتمامها على الناحية السياسية وأهمها الحرية وأهملت هذا الجانب الهام وهو الجانب الحضاري.

ولكن نستطيع أن نستخلص ما قام به الإمام من إصلاحات مما أجملته هذه المؤلفات من خلال حديثها عن النواحي أو الجوانب الأخرى.

لكن لو أخذنا في تفصيل إصلاحات الإمام في داخل البلاد لوجدناه قد اهتم بجميع نواحي الحضارة، وخاصة الناحية العلمية، فإن الإمام المؤيد بالإضافة إلى حنكته السياسية فهو يعتبر موسوعة علمية حوت شتى العلوم، فإن المتتبع لحياته يجده تربي في بيت علم ودين وتلمذ على أيدي أساتذة أفاضل أجلاء نبغوا في كثير من العلوم الدينية والدينية، لذا فقد شبَّ على حب العلم وألف الكثير من الكتب التي تعتبر كثرًا علمياً أثرى المكتبة اليمنية.

لذا نجده منذ نعومة أظفاره مشغولاً بالعلم والتعليم، فهو منذ صغره يختلف عن أقرانه صغار السن، فلم يكن محباً للعب معهم بل كان منغمساً أكثر وقته بالمكتب يدرس ويقرأ ويستزيد من العلوم، فقد شرح كتاب البحر الزخار شرحاً مستوفى حتى قيل: إنه يتكلم بكلام علمي غزير أحسن من شروحه الآخرة، مما جعل مستمعيه يستغربون ذلك منه، ولم يقتصر على ذلك، بل أخذ ينمي في نفسه هذه الخصلة حتى أصبح من العلماء المؤلفين، فلم تشغله حروبه المستمرة ضد الدولة العثمانية عن هذا، فقد كان مكباً على

التأليف والتصنيف في قلب الأزمة التي تفجرت في البلاد؛ لأنه وجد في هذا العمل الغذاء الروحي والفكري للنفس البشرية، فألف العديد من المجلدات أو الموسوعات نذكر بعضاً منها:

١ — جواب سؤالات ومنه نسخة مخطوطة ضمن مجموعة برقم (٧٤). مكتبة الجامع.

٢ — أسانيد المؤيد منه نسخة مخطوطة ضمن مجموعة برقم (٢) الجامع الكتب المصادرة.

٣ — تصفية النفوس عن الرذائل، وهو ينقسم إلى قسمين: الأول: يختص بالرياضة وتهذيب الأخلاق. أما القسم الثاني فهو يختص في بيان الصفات المهلكة، وتوجد منه نسخة مخطوطة برقم (٢٨٩٧) بالمتحف البريطاني في (٥٣) ورقة.

٤ — الفتاوى الفقهية، وتوجد منه نسخة مخطوطة في (٢٧٤) ورقة بمكتبة الجامع برقم (٢٨) فقه.

٥ — المجموع المؤيدي، وهذا كتاب جمعت فيه أجوبة الإمام المؤيد مخطوط بمكتبة الجامع الغربية رقم (١١١) حديث.

وهناك الكثير من المؤلفات له ما زالت مخطوطة في المكتبات المتفرقة في أنحاء العالم. وبالطبع، فإن هذا العدد من الكتب له فائدة علمية كبيرة عادت - وتعود - على المطلع عليها بالفائدة الجمة، وتكون دلالة واضحة على أن مؤلفها شغوف بالعلوم والمعارف بالإضافة إلى هذا الجانب الحضاري الذي يتميز به الإمام المؤيد فقد اهتم بنشر العلم بين أبناء اليمن، ففتح المدارس ودور العلم، وكان يصرف عليها المبالغ الطائلة ويشجع الطلاب على البحث والدراسة، وقد أجرى النقود للدارسين في هذه الدور، وخصص لها نوابغ المدرسين لإلقاء الدروس فيها.

ومقابل هذه الأعمال فقد انتشر في عصره العلم وسادت المعرفة جميع أنحاء البلاد وكثر العلماء والمتعلمون الذين أثروا المكتبة العربية بالكتب والمعارف، والتي لم تزل كتبهم حتى يومنا هذا نستمد منها مادتنا العلمية.

فقد أوردت بعض الكتب ولو بشكل موجز اهتمام الإمام المؤيد بهذا الجانب الحضاري الهام أو بالإصلاحات الداخلية، فقد ذكر المؤلف الجرموزي في كتابه السيرة

المباركة ما يلي:

(وفد إلى الإمام الوفود من كل قطر وهو مُجَدِّ مجتهد في تقريب الشارد، وتسهيل مرافق الصادر والوارد، وتعمير المدارس الإمامية وتفقد أمور أهلها ويتولاها بنفسه).

فإن مثل هذه العبارة رغم صغرها تدل على اهتمام الإمام بالتعليم وفتح المدارس وتفقدتها بنفسه. ولم يكن الإمام المؤيد الوحيد في أسرته الذي اهتم بالعلم ونشره بين الأهالي، فإن إخوته لم يكونوا أقل منه شغفاً وحباً للعلم، فإننا نجد الأمير الحسن الذي قضى معظم وقته في الجهاد لتوحيد البلاد، لم يهمل هذا الجانب الهام بل خصص له وقتاً للقراءة والمطالعة يستزيد من العلوم على أيدي كبار العلماء في ذلك الوقت.

أما الأمير الحسين بن القاسم فهو الآخر مثل أخويه شغوفاً بحب العلم والاهتمام فيه، فإن المطلع على نشأته يجده منذ نعومة أظفاره محباً للعلم، فقد درس على يد الشيخ لطف الله الغياث. وكان سريع الفهم شديد الملاحظة، قوي الذاكرة. ألف العديد من الكتب في جميع العلوم، ونبغ في الدقائق الأصولية والبيان والمنطق والنحو، وألف في الحديث والتفسير والفقه. ومن مؤلفاته الغاية وشرحها، وهو كتاب عظيم، كان يدرس في مدارس اليمن، وقد ألفه - رحمه الله - وهو في ساحة القتال، فلم تبعده الحروب عن ساحة العلم الذي يعتبر من أهم ساحات الإصلاح البشري، فهو الذي يعرر النفوس من الجهل وينقيها من الشوائب، فهو مغولٌ لهدم الجهل ومشيدٌ دور النور في النفوس، وهو الذي يهذب النفس. كذلك فلاحظ أنه - رحمه الله - بعد أن انتهت الحرب في اليمن، وانتشر الأمن انكب على التأليف.

وبعد هذا الاستعراض الموجز لبعض إصلاحات الإمام العلمية في اليمن والتي أوردتها بعض المؤرخين، ويجب أن نستعرض أهم إصلاحاته الإدارية.

فبالرغم من اهتمامه بالجانب العلمي لم يهمل الجانب الإداري، لذا نجد أنه قسم البلاد إلى ولايات، وضع على كل ولاية واحداً من إخوته، فقد عين الحسن على صوران، والحسين على ذي بلان، وأحمد على صعدة، وكل أمير منهم حرص على نشر الأمن في منطقته ووفر للأهالي الراحة والطمأنينة. وكانت سياسة الإمام حسن إدارته في جميع الولايات مما جعل الناس يحبونه ويلتفون حوله، يُحسنُ إلى العدو قبل الصديق، وقد

ولى الولاة السابقين المخلصين كالأمير عبد الرب والأمير سنبل.
وقد قسم الولاة أوقافهم في مصلحة العامة والخاصة، فمثلاً الأمير الحسن قسّم يومه
ثلاث فترات:

الأولى: للعلم والمطالعة والتأليف.

الثانية: للأعمال الإدارية وحوائج الرعية ومقابلة الوفود.

الثالثة: للنظر في أحوال الجنود ورواتبهم.

ولم يهمل الإمام المؤيد رعيته للولاة يتحكمون فيهم، بل كان يتصل بهم ويوصيهم
بالرفق بالرعية والنظر في حوائجهم، ويدل على هذا ما أمر به القاضي أحمد عبد الله
العشم أن يكتب إلى ولاة مناطق همدان العالية وحراز بالرفق بالرعية، وأن ينشروا العلم
بينهم ويفهموهم ما جهلوه.

كذلك معاملة الأمير الحسن لأهالي كوكبان حينما كان مقيماً لديهم كانت غاية في
الطيبة والرفقة والإحسان، أعاد إليهم خيرات بلادهم من محاصيل زراعية وغيرها.

وفي (سنة ١٠٤٠هـ) طاف الأمير الحسن بعدد من المقاطعات وتفقد أحوالها وزار
الأئمة في ظفار وذيبين، ثم عاد إلى ذي مرمر بعد أن أصدر أمره بأن تجرى لهذه المناطق
التي زارها الصدقة المسماة (بالحسنية).

وقد اهتم الإمام المؤيد ولولته بالناحية العمرانية وتطوير المدن وشق القنوات إليها،
وازدهرت فيها الزراعة، وعُبدت الطرق من أجل تسهيل مهمة الانتقال من مكان لآخر،
فكانوا بعد فتح أي مدينة يحرصون بعد نشر الأمن على تعميرها بالبنين وتشجيع الناس
على التواجد فيها، ويشغلون بالزراعة والصناعة والتجارة.

ويلاحظ الدارس لتاريخ اليمن خاصة في فترة تولي آل القاسم أنهم قد اهتموا بتشييد
المدن والحصون وعبدوا الطرق لتمييز اليمن بالجبال، فقد شيّدوا المدن على رؤوس الجبال
كمدينة ضوران التي اختارها الأمير الحسن معقلاً له بعد أن واصل سيره في غيرها، ثم
استحسنها، وكتب إلى بعض الولاة في الأقاليم أمثال: الجرmozى أن يمدوه بأهل
الصناعات والمهندسين والمقضيين والتجار، بعد ما اشترى من أهله أملاكهم بأشكال
غالية، وطيب نفوسهم وأحقهم بأتباعه واشترى كثيراً من الأدوية المحيطة به، ووزعها

على أتباعه أمثال الأمير سنبل وغيره، ثم أخذت العمارة تزداد شيئاً فشيئاً بعد أن حرص الأمير على زراعتها، فكثرت خيراتها وعم نفعها وعمر فيها قصره وسماه الحصن وألحقت به دور لأتباعه، وعمر المدرج، وبنى الحبس، وبنى الجامع المقدس بمساحة كبيرة، واهتم في عمارته حتى أصبح يضاهي الجامع الكبير بشهارة، وزاد عليه ابنه محمد بن الحسن زيادات وتحسينات، كذلك فعل أخوه المتوكل إسماعيل من بعده بعمارة جامعته في رأس الحصن المقبور حوله.

وغرس الأمير الحسن أشجار الفاكهة وغيرها، مما جعلها تشتهر في اليمن حتى أصبحت هذه المدينة من أشهر المدن بعد شهارة، وعمر حصنه المسمى (بالدامغ)، وعمر الحسن مدينة ذيبين ومدينة الغراس وزرعها بالأشجار المثمرة.

أما الحسين فلم يكن أقل من شقيقه الحسن حماساً في حبه للتعمير، فإننا نجد شيد حصن بيت ردم، وساعد أخاه الحسن في تشييد مدينة ضوران.

ثم عمر الحسن مدينة صنعاء بعد خرابها بالحروب، وأجرى إليها ينابيع الحياة التي كانت تسمى بالغيول، وكذلك ابنه محمد بن الحسن، وازدهرت الحياة فيها، ولم يقتصر اهتمام الإمام المؤيد وإخوانه بتعمير المدن الكبيرة فقط، بل أكبوا على تعمير الحصون والقلاع والمدن الصغيرة والأسواق التجارية.

كما أن الأمير أحمد بن القاسم توجه إلى جبل عيال يزيد وثلاً وأخذ في تخطيطها وأشاد فيها العمران، وعمر الجامع الكبير بروضة حاتم، فأصبح غاية في فن العمارة، فلم يكن له مثيل في تلك المنطقة.

وبما أن اليمن جبلية فقد حرص الإمام المؤيد وإخوته على تعمير المدرجات التي اشتهرت بها اليمن، وأشرف الإمام بنفسه على عمارة المدرج الذي يمتد إلى باب الفتوح، ومدرج شهارة الذي انتشرت حوله الدور.

وقد امتدت تعميرات الإمام إلى الجزر التابعة لدولته كجزيرتي كمران وفرنسان. وهكذا نجد أن الإمام ورجال دولته لم يهملوا أي جانب حضاري، ولم يتركوا ركناً من أركان الإصلاح إلا وعملوه من أجل الأهالي.

الخاتمة

يعون الله سبحانه وتعالى انتهيت من هذا العمل العلمي الذي أرجو الله أن تكون فائدته شاملة وعامة لكل مطلع عليه، وهو البحث المكمل لدرجة الماجستير والخاص بالإمام المؤيد في اليمن من (سنة ٩٩٠هـ) إلى (سنة ١٠٥٤هـ)، والذي تناولت فيه بالدراسة حياة الإمام.

وأهم الأحداث وأهمها الثورة التي قادها بمساعدة إخوته، فاستطاع توحيد البلاد تحت سلطته، ووحيد اليمن بأسره تحت لوائه.

ومن خلال دراستنا لهذا البحث استطعنا ولو بصورة مختصرة التعرف على إقليمية بلاد اليمن وطابعها الجبلي الذي كان له التأثير الكبير على التكوين الجسماني لأهل تلك المناطق.

واتضح لنا أن أهمية هذا القطر لم يكن حديثاً، بل كان منذ القدم أي قبل الميلاد كانت به ممالك عظيمة، وكان يتمتع بتقدم حضاري كبير منه سد مأرب الشهير، ومملكة سبأ العظيمة.

وعند دراستنا لحياة الإمام المؤيد تبين لنا أنه تربى تربية دينية وعلمية وحرية، وحرص والده أن يُعده للولاية من بعده إعداداً متكاملأً من جميع النواحي.

وقد نجح أبوه في هذه المهمة، فقد كان الإمام يتمتع بجميع صفات الحاكم المسلم.

وقد حرص على قمع الفتن المنتشرة بين القبائل وحرص على دوام الصلح الذي عقده والده مع باشوات الدولة العثمانية ليستطيع ترسية قواعد حكمه ول يتمكن من فتح نيران الثورة على الدولة العثمانية من كل جانب التي تفوق قواته بالعدد والعدة. وقد استطاع يعون الله سبحانه، ثم بمساعدة إخوته على الانتصار عليهم حتى تم له جمع اليمن بأسره تحت لواء الأئمة الزيدية.

ويتضح أن قوات الإمام استطاعت الانتصار في المناطق الجبلية لمهارتهم فيها بخلاف الجند العثماني، فمهارتهم في القتال في السهول.

وقد استطاع الإمام المؤيد أن يكتسح بلاد اليمن ما عدا بعض المناطق، خلال السنة

الأولى من ثورته، وهذا يدل على تدمير الأهالي من الحكم العثماني، فما إن سمعوا بثورة الإمام حتى سارعوا إلى الدخول تحت طاعته؛ ويعود هذا إلى معاملة السلاطنة العثمانيين للأهالي، فقد اتصفوا بالقسوة والتعسف وغلاظة القلوب، على خلاف الطرف الآخر الذي رأى نتائج هذه المعاملة السيئة، وما ترتب عليها فاستفاد من أخطاء الغير، فأحسن معاملة الأهالي وخاصة أهالي البلاد المفتوحة الذين سارعوا بدورهم في الدخول تحت طاعة الإمام بطوعهم غير مجبرين.

وكما تقدم لنا من دراسة أخلاق ومعاملة الإمام وأتباعه تبين لنا الطريقة الناجحة التي استطاع بها اجتذاب أتباع الطرف الآخر وانضمامهم إلى صفوف جيش الإمام. ودأب قادة الإمام على تولية الولاة السابقين على البلاد المفتوحة لكسب رضاهم، ولأن الأهالي قد تعودوا عليهم ولمعرفتهم بأمر تلك البلاد، وقد كانوا أقدر من غيرهم لتسيير أمورها.

وحرص الإمام على ترابط الأسرة الحاكمة والإمساك بزمام الأمور، ويتضح ذلك في تصرفه مع أبناء أخيه الحسن بعد وفاته عندما شعر بميل الجنود للأميرين محمد وأحمد ابني الحسن، فأمر بتحويل جميع ولايات الأمير الحسن إلى أخيه الحسين وأدى ذلك إلى ثورة الأمير أحمد ضد عمه الإمام المؤيد، وكادت تغصف بالأمن في البلاد، لكن الإمام بعقله وحكمته استطاع أن يقضي على هذه الفتنة بامتصاص غضب ابن أخيه وإرجاعه إلى طاعته.

واتضح لنا اهتمام الإمام المؤيد بعلاقات خارجية مع الدول القريبة والبعيدة مثل الهند والحبيشة والمغرب.

وقد نجح في إقناع أشرف مكة المكرمة بالدعوة له على المنابر، وأن تُصك العملة باسمه، وهذا معناه الخضوع لدولة الإمام بطريقة غير مباشرة.

لم تشغل الإمام المؤيد كثرة حروبه عن الناحية الحضارية، سواء أكانت علمية أم عمرانية أم إدارية، فقد اهتم ببناء المدن وزراعة الأرض، وإجراء المياه من النزع وحفر الآبار، وتعبيد الطرق وتأمين حدودها حتى غدت مدناً عظيمة عامرة بالسكان واهتم بالناحية التعليمية بفتح المدارس وإشرافه المستمر عليها، وتعيين المدرسين الأكفاء، واهتم

هو شخصياً بهذه الناحية، ويتضح ذلك من انكبايه على التأليف في شتى العلوم، فألف العديد من الكتب.

لقد اتصف الإمام المؤيد بحسن معاملته لجميع أصحاب المذاهب الموجودة باليمن، فلم يفرق بين مذهب وآخر، مما جعل أهل هذه المذاهب يتفانون في محبته والانصهار تحت حكمه.

من خلال استعراضنا للبحث تبين لنا مدى اعتزاز الإمام بنسبه، الذي ينتهي إلى سيدنا علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وأظهر ذلك في كثير من رسائله التي كان يبعث بها إلى الملوك والأمراء.

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت في تحقيق صورة واضحة لهذه الفترة من تاريخ هذا القطر العربي الإسلامي الشقيق الذي قد أغفله عددٌ من مؤرخي وقتنا الحاضر، وأرجو من الله التوفيق والسداد في كل عمل نقصد من ورائه المنفعة العلمية والحمد لله رب العالمين^(١).

خلافة الإمام إسماعيل

وعند أن بلغ الخبر إلى صنوه إسماعيل وهو بضوران أجمع رأيه ورأي من لديه من العلماء والأعيان كالقاضي محمد السلامي، والقاضي إبراهيم بن حسن العيزري على أن إسماعيل هو الأنحس بهذا المقام، والأولى بسياسة الأنام. فبرز إلى مسجد الحصين. فبايعه الناس أفواجاً وسلوكوا إليها فجاجاً في (٣ شعبان سنة ١٠٥٤هـ) مع ما قد كانوا عرفوا منه أيام السيادة من ملاحظة جانب الشرع، والكرم الذي تميل إليه الخواطر بالطبع، وكان قد أظهر دعوة السيد العلامة إبراهيم بن محمد المؤيدي في جهات الشام، ودعوة أخرى لملك اليمن عز الإسلام محمد بن الحسن من إب، وتلقب بـ(الهادي لدين الله).

ثم إن المتوكل إسماعيل عاتب أخاه أحمد على العجلة بالدعوة، ورجح البعض أحمد

(١) انتهى ما تم اختصاره من رسالة الكاتبة القديرة حياة محمد حمد البسام (الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم في اليمن) وانظر مصادر البحث للكاتبة في آخر الكتاب.

لتقدم دعوته، والبعضُ إسماعيلَ لرسوخ قدومه في العلوم لا سيما الفقه.

ثم إنه التأم الحال بين محمد بن الحسن وعمه الإمام إسماعيل، وكان ذلك مستهمل السعادة المتوكلية، فإن دولة محمد بن الحسن، كانت موازيةً لدولة أبيه، فأقطعه الإمام إسماعيل جميع اليمن الأسفل، وفوضه فيما يصير لأخيه أحمد بن الحسن والتقيا بعد ذلك في رأس القفر، وانفصلا، وقد تقررَت الأمور ومال بذلك أكثر اليمن إلى المتوكل من ضوران إلى عدن والمشرق وذمار وخولان والحداء.

وعند ذلك خرج من صنعاء أحمد بن الحسن قاصداً لأخيه محمد، وخرج أيضاً العلامة محمد بن الحسين قاصداً للمتوكل، فأنعم الإمام على الجميع بالبلاد، فاتصل أحمد بن الحسن بنصف اليمن الأسفل واتصل محمد بن الحسين ببلاد الشرف وحفاش وملحان وبلاد البستان، ثم أبدل عن الشرف بحراز، وكان بيده من قبل بلادُ البستان فقط (وقد سميت بلاد البستان باسمهم وهم بيت البستان الممتد من بستان المتوكل إلى قرب مسجد الرحمة، وكان للحسين بن القاسم ثم ذريته) وكان تقرير هذه الأمور بشعبان وأكثر رمضان، ثم أمر الإمام أحمد نائبه بصنعاء ابنه محمد بن أحمد، وبها أيضاً العامل المستمر أربعين سنة علي بن المؤيد بالتقدم، فتقدم محمد بن أحمد، وكان أمير الجيش السيد عز الدين دريب و(شعبان آغا القارني)، فتقدما إلى خدار بجيش جرار، وطرردوا عامل المتوكل إسماعيل من تلك الجهات.

فجهز المتوكل السيد المقدام محمد بن الحسين ومعه النقيب سرور شلي، فتوجه إلى خدار بجيش مختار، وحملوا على القرية حملة رجل واحد، وثبت أصحاب الإمام أحمد في البيوت، فانهمز أصحاب المتوكل إلى رأس نقيل يسلمح، ثم بنوا المنارَس هناك وثبتوا، وبات البعض منهم بقرية النقيل وأهل خدار لم يميلوا إلى أيهما، وقالوا: الكل إخوان، ونرجو أن يلتئم الجانبان ويصطلح الفريقان.

ثم بادر محمد بن الحسن من ذمار، ومعه أخوه أحمد إلى جهات صنعاء، وجمع خولان والحداء وسنحان وغيرهم، وكتب إلى الأمير محمد بن الحسين، بأن يتقدموا جميعاً إلى صنعاء، وكان الشيخ حسن بن الحاج أحمد الأسدي قد ترتب بريمة حميد مع الإمام أحمد، فرأى من الصواب خروجه إلى يد الأمراء الثلاثة، وعند ذلك رجع الأمير الهادي

بن الشويع إلى صنعاء، واتفق رأي من فيها على تغليفها، وفيها الأميران محمد بن أحمد وعلي بن المؤيد.

واستقر أحمد بن الحسن ومحمد بن الحسين بئر العزب، واستعجل أحمد بن الحسن بإخرا ب بيت الخطيب القاضي إبراهيم بن يحيى السحولي جنوبي صنعاء جوار مسجد السعدي؛ لأنه خطب للإمام أحمد بن القاسم، ثم عمره له أحمد بن الحسن. وتحرك الإمام أحمد من شهارة يريد صنعاء، فبلغه حصارها، فتوجه إلى ثلا، وقد انتقل عسكره من خدار إلى حضور، فطلع إليهم محمد بن الحسين، وهي بلاده، فواجههم بيت ردم وأرعد وأبرق، فواجهته العساكر جميعها بسلام، ثم وصلت بيعة الأمير الناصر بن عبد الرب وبيعة الحسين بن المؤيد للمتوكل إسماعيل، وكانا قد أجابا الإمام أحمد، لكنهما رأيا حركات التمام في غير انتظام، فأخذتا بقائم الأمر الواقع.

وفي يوم (الاثنين ١٧ رمضان سنة ١٠٥٤هـ) خرج الإمام أحمد بن القاسم من شهارة إلى خمر، ثم عمران، ثم ثلا، فسار محمد بن الحسين إلى ثلا، فالتقاء الأمير الناصر إلى قاع حوشان، وقصدا ثلا، فشرع الحرب ممن بها.

وكان أحمد بن الحسن قد بعث بياقوت شلبي وعسكراً إلى بني ميمون، فمنع الصادر والوارد، ولما انفتح الحرب بثلا جد واجتهد الإمام أحمد على الإبقاء، وحرّض على الثبات، وفعل فعلاً الكمأة، وقتل من الجانبين زهاء سبعة أنفار، وخلص الأمر عن هزيمة جيش الإمام أحمد، (وربك يخلق ما يشاء ويختار)، فانحاز إلى قلعة ثلا ليلة واحدة، ثم خاطب بالخروج والوصول إلى حضرة أخيه إسماعيل، وخرج من ثلا ليلة (السبت ٣ شوال)، ثم توجه الجميع إلى حضرة المتوكل بضوران، وصحبته قاضيه الأكبر وخطيبه وعوينه وحببيه القاضي أحمد بن سعد الدين المسوري، والسيد صارم الدين إبراهيم بن أحمد بن عامر الشهيد، وكفى الله المؤمنين القتال. ودخل أحمد بن الحسن صنعاء، وخطب القاضي إبراهيم السحولي للإمام المتوكل، وكان عوامُ البلدان قد تأهبوا لنهب صنعاء، كما هو شأن الطغام، فلما حصل هذا الإلتئام وصلاح الشأن رجع كل إلى محله، وبعد أن بايع أحمد بن الإمام للمتوكل إسماعيل وجهه إلى صعدة وما إليها وأطلق يده في واجباتها، وجعله أميراً عليها، كما جعله أبوهما الإمام القاسم سابقاً.

وفيهما خالفت المعازبة بتهامة، ثم صلحوا وانتظم أمرهم أحسن الانتظام. واستقر واستمر صفي الإسلام أحمد بن الإمام بصعدة، وكان ولده عز الإسلام محمد بن أحمد الملقب الجثام قد برز في الرئاسة وظهر عنه محمود السياسة، فعينه الإمام المتوكل على جميع بلاد البون وبلاد القبلة إلى حمر، وسكن محل والده بالروضة ومحل إمارته عمران. وأما الحسين بن المؤيد، فوجه الإمام المتوكل إليه ولاية بلاد عفار وشهارة والشرف الأسفل.

وفي (سنة ١٠٥٥هـ) تافت نفس السيد عبد الله بن عامر الشهيد بن علي إلى الزعامة والتسمي بمنصب الإمامة، فتقدم من حوث إلى وادعة وأظهر الخلاف والمنازعة، فجهز الإمام ولد أخيه الختام محمد بن أحمد، وكان بخمر فسار منها إلى الحصن فجمع وادعة وسوقها فاستدرك الأمر بعد قتال قتل فيه واحد من وادعة وثلاثة من العكسر، وعثرت أربع من الخيل وهرب السيد عبد الله إلى بلاد شاطب، وسلم من الوقوع في لهوات المعاطب.

وفيات

أبكر الحسيني

وفيه مات الشيخ السيد المعتقد أبكر الحسيني بمساقط بلاد حراز. وكان ذا براهين قاطعة وأنوار ساطعة، وفي خلاصة الأثر: إن السيد أبا بكر بن أبي القاسم بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن سليمان بن أبي بكر بن القاسم بن أبي بكر بن القاسم بن عمر بن علي الأهدل الحسيني، توفي في (جمادى الآخرة سنة ١٠٣٥هـ) في قرية المحطة بتهامة.

إبراهيم بن علي الحوثي

وفي (سنة ١٠٥٤هـ) توفي السيد العلامة شمس الدين إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن علي العالم بن المهدي بن صلاح بن علي بن أحمد بن محمد بن جعفر القاسمي الشرفي العالم الحوثي. كان من الصالحين، لم يتول شيئاً من الأعمال.

المؤرخ طاهر بن يحيى

وفيه توفي الشيخ المؤرخ طاهر بن يحيى ببلدة المنصورية بتهامة أسفل وادي سهام. وهم يذكرون أنهم سادة حسينيون ولهم هناك جاه واسع وأفضال، واستقامة باطن وغو أحوال.

وكان قد عاون في فصل الشريعة ثم عذر نفسه، وخلفه في زاويته ابنه محمد بن طاهر. ويذكر عنه أنه زجر (الباشا قانصوه) عن اليمن وأهله حال خروجه إليه، فلم يلتفت إلى كلامه، فلما وقع فيما وقع فيه مر عليه، وطلب منه العفو، واعترف وأهدى له نسخة من القاموس ونسخة من حياة الحيوان الكبرى. ولما مر عليه شرف الإسلام الحسن بن الإمام، أضافه إضافة سنية، وقام بسائر خاصته وفرق عساكره في البلاد وفعل فعلات الأجواد.

وفيهما ملك صاحب عمان الأباضي بندر مسكت الذي في سواحل بلاده، وكان في أيدي الفرنج، وما كان يُظن استيلاؤه عليه، ولكنه دبّ بالحيلة إليه بأن أنفذ جماعات في قالب الدراويش، فلما علم أنهم قد صاروا نصاباً لرتبة القلعة أمرهم بالفتك بمن فيها بالسكاكين المعدة معهم، ففتكوا بمن في القلعة عن آخرهم، وبعد ذلك، أمن التجار الذين يخرجون من البحرين والعراق والعجم إلى اليمن. ويقال - والله أعلم -: إن الأباضية يكفرون بالمعصية، ولا يعملون بالشهادة، إذا لم يصدقها المدعى عليه، وإذا أنكرت الزوجة الزوجية فرّق بينهما بمجرد دعواها، وكذا المملوك إذا ادعى عدم الملكية وهي روايات غريبة بعيدة.

وفيهما مات الشريف الرئيس هاشم بن حازم بقطعه بلدة زبيد، ولما مات وجد في وصيته أن خيله تكون لبيت المال. وله تعلق بالعلم وأهله. وكان من القادة الكبار مع الحسن، في حصار الأتراك بزبيد، وتقدم له ذكر حسن في (سنة ١٠٤٤هـ).

فتح عدن

وفي (شوال سنة ١٠٥٥هـ) سار الإمام المتوكل من صوران إلى صنعاء، فاستقر بها أياماً، وجهز ابن أخيه أحمد بن الحسن على الأمير الحسين بن عبد القادر بعدن وأبين. وقد ذكرنا فيما مضى انفصال الصفي عنه بخاطر مكسور، ويذكر أنه في أثناء ذلك المقام اطلع أحمد من سيرة المذكور على ما يقبح من الأمور فأسرّها لهذا الوقت، وزحزحه عن

ذلك التخت.

ولما وصل الصفي إلى تلك الديار شبَّ على الأمير سعي النار وأحاطت ببلاده أجناده وضائق به أغواره وأنجاده، فاقتدح الأمير زنداً، ولم يترك من الجلاذ جهداً، وأصدق أصحابه السيف في أصحاب الصفي حتى أفردت لهم مقبرة تعرف بمقبرة أحمد بن الحسن، ثم أن الصفي شدَّ له شدة المصور، وأحاطت أجناده به إحاطة السور، فكانت الهزيمة فيه وفي حربه، وخرج عن مملكته مصاحباً لكربه، واستولى الصفيُّ على ذخائره وخزنته. فلجأ الأمير إلى يافع، بعد أن علم أن ليس له عاصم ولا نافع، ثم إن الصفيَّ قرر ولأه على البلاد، بعد أن تم له المراد، وعاد إلى صنعاء حضرة الإمام، وقد وقع على الركاز وظفر بالمرام. ولما شارف العسكر دخول صنعاء وقع بين معسكره وأهل كوكبان مالا يزال بين العسكر من المنافسة على البيارق، فوقع خصام وترام بالبنادق، ذهب من عسكر كوكبان ثلاثة أنفار، ولما وافى الصفيَّ حضرة الإمام قرَّ نظره وطاب منه خبره وخبرته.

وفي ذيل رَوح الرُّوح: أن توجه المولى أحمد بن الحسن من صنعاء إلى بلاد خنفر عدن وأبين في (يوم ٢٧ ربيع الأول سنة ١٠٥٥هـ). وفي (يوم السبت ١٠ شعبان)، وصل الإمام المتوكل إلى صنعاء ورجوع أحمد بن الحسن من عدن، وما كان بين جنده وجند الأمير الناصر بن عبد الرب أمير كوكبان، كل ذلك في شعبان (سنة ١٠٥٥هـ).

وفي (شعبان سنة ١٠٥٥هـ)، كان رخص الأسعار وتفجر الأنهار وصفاء الأحوال. وفيه كان بمكة المشرفة السيل الرائع دخل الحرم والكعبة المشرفة، وصعد جدارها حتى حاذى القناديل وأخرب جانبي البيت المعمور، وفيه قال السيد إسماعيل بن إبراهيم جحاف:

أتى السيلُ مجتازاً بمكة موهناً فطهرها واجتاح منها أباطيلاً
وما قصَّد الضُّرَّ الشَّنِيعَ وإنما أراد من البيت المعظم تقبيلاً
يقولون أرخ كونه قلت فاحسبوا (سمعت بأن الماء لاقى القناديلاً)

(٥٧٠)(١٢٥)(١٣٢)(٢٢٧) = (سنة ١٠٥٤هـ)

وللقاضي عبد الرحمن بن محمد الحيمي:-

إن شئت تدري لطيف صنع
 في حرم الأمن حيث يُعطى
 إذ طاف بالبيت طائف الما
 (بشهر شعبان جاك سيل)
 (٩٣٠) + (١٢٤) - (١٠٥٤ هـ)

وفيات

الحسين بن عبد الله الحمزي

في (٦ شعبان سنة ١٠٥٥ هـ) توفي السيد الحسين بن عبد الله الحمزي الحسني الكوكباني الشهير بالأدرن عن سن عالية. وكان حافظاً لأخبار أيام المطهر بن شرف الدين وأيام الأتراك، ووُزِّرَ للأمير علي بن يحيى بن المطهر وغيره.

صلاح بن عبد الخالق جحاف

وفي هذا العام مات السيد العلامة الأديب صلاح بن عبد الخالق بن يحيى بن المهدي بن إبراهيم بن المهدي بن أحمد جحاف. وفي الطبقات والبيغة: إن وفاته في جمادى الأولى (سنة ١٠٥٣ هـ) بخبور. قرأ على الإمام المؤيد بالله بن القاسم والقاضي أحمد بن سعد الدين المسوري في (سنة ١٠٣٤ هـ). وكان إمام الآداب ونادرة وقته، وأقام آخر أيامه بخبور والصحيح أن وفاته (سنة ١٠٥٥ هـ)، وكان ذا دراية بأصول الفقه والعربية شاعراً محاضراً، وله شرح على تكملة الأحكام، وله قصيدة نغم فيها على المهر الذي أكمل الحمام:

يا هر في غير حفظ الواحد الصمد
 وقد نزلت فأحسنًا جوارك لم
 رجوت أنك تكفيننا أذية ما
 فلم ترعها بشيء بل عمدت إلى
 ضعيفة لم تكن تدري بفتكك يا
 احثثت سيرك عن داري وعن بلدي
 نبخل عليك بما تحويه ذات يد
 في البيت من جرذ عاد ومن خلد
 حمامة ضعفت في البطش والجلد
 أعق ما خلق الرحمن من ولد

أبدت رعدة منهوك فحين دنت
أما نظرت إلى أطوافها ولها
وحين رابك ما في النفس من جزع
ولم تطف بقاء الدار قط سوى
هذا جزاء امرئ غذاك نعمته
فالآن نُبتَ إلى بقاء بلقعة
وحق من قال إن الطير آمنة
والمؤمن العائذات الطير بمسحها
لو أنما علمت هذا إذا لنجت
وقد رضيت بأن الفأر يفسد في
فخلنا غير مأسوف عليك ولا
فما أقول لنفسي فيك مُتَسِيًّا
كلا كما خلف من بعد صاحبه
بل سوف أنشد تسكيناً لحاظرها

فأجاب على لسان الهر السيد العلامة الجدلي الحسن بن أحمد الجلالى:-

فهاج لي حسرة أوهى بها جلدي
تبخل علي بما تحويه ذات يد
ومثل ذلك عند الحق لم يُفد
يا هر في غير حفظ الواحد الصمد
كَيْلاً لخلي كما قد كال لم أزد
ولا لأعدائكم أبقيت من سَبَد
ما لي سوى قطعة في الوعد من كبد
في الأربعاء لأجل اللحم وال أحد

سمعتُ عتبك والتأنيب يا سندي
وصرت أعجب من دعواك أنك لم
إذ تلك دعوى ولا برهان يصحبها
فما أقول كما قلتم إلي جَفأ
لكني مظهر ما كنت أستره
خدمتكم غير وإن في منافعكم
وبالخصاصة أرضى في محبتكم
دليله قولكم ما جئت قط سوى

علامٌ يُهَضَمُ قدرِي بينَ أظهركم
أقول للنفس إن الربَّ سَطَوْتُهُ
حتى غدا دأبكم كفران منفعتي
فقللت للنفس أرض الله واسعة
وخدمة المرء مولى ليس يعرفها
(ولا يقيم على ضيمٍ يراد به
فحد جدي ولا زاد ولا سغب
وقد تصيرت حتى لات مصطبر
حتى عمدتُ ولي في ذاك مأربةً
لأذهب الجوع إذ أنفدتُ فاركمُ
إذ تلك تشبههم بل هي أحق كما
ولو رعيتَ حقوقي منك أجمعها
(ما إن أتيت بشيءٍ أنت تكرهه
ها أن معذرةً إن لم تكن نفعت
وقد أورد ابن خلكان والدميري في حياة الحيوان قصيدةً تُفسِّها هذا النفس في غير
الوزن:

يا هر فارقتنا ولم تعد وكنتَ عندي بمزَل الولد
وهي لأبكر الحسن بن علي بن العلاف المقرئ.

الحسن بن شمس الدين جحاف

وفيها توفي السيد العلامة الحسن بن شمس الدين جحاف. وكان ذا دراية بعلوم
العربية والمنطق زاهداً خاملاً. وهو خال الإمام المتوكل إسماعيل، أقام أعواماً بمجسد
الأخضر بصنعاء، وله ترجمة مفيدة في مطالع البدور، وفي الطبقات.

أحمد بن محمد الشرفي

وفي (٢٣ ذي القعدة سنة ١٠٥٥هـ) توفي ودفن بمعمرة الأهنوم عن (٨١ سنة) السيد العلامة الكبير أحمد بن محمد بن صلاح بن أحمد بن محمد بن القاسم بن يحيى بن الأمير داود المترجم بن عبد الله بن القاسم بن سليمان بن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن القاسم الجراري — نسبة إلى جرارة قرية باليون — بن محمد بن القاسم الرسي بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. مولده (سنة ١٠٧٥هـ) (١). ومن جملة مشائخه الإمام القاسم، وله تلامذة جهابذة وأخبار حسنة وأشعار وجهاد واجتهاد. وله (ضياءُ ذوي الأبصار شرح الأزهار) في أربعة مجلدات (وشفاء صدور الناس في شرح معاني الأساس) في مجلدين، و(مختصره عدة الأكياس المتترع من شفاء صدور الناس) في مجلد، وله (اللائئ المضيئة في مناقب أئمة الزيدية) في ثلاثة مجلدات ضخمة، شرح حافل لبسامة الوزير وذيلها بذكر القاسم والمؤيد للشرفي، وكان مفتياً بصنعاء.

محمد بن أحمد السلفي

في آخر (سنة ١٠٥٥هـ) توفي بصنعاء القاضي العلامة محمد بن أحمد السلفي. وكان له معرفة تامة بعلم العربية والأصول، وكان حافظاً للقرآن الكريم يتلوهُ سَفْراً وحضراً، ولي مخلاف حراز مدة. ثم عرض له آخر مدته استعطاش، فترك الولاية وطلع صنعاء، وسكن بداره ببئر العزب. وجمع كتباً نفيسة في الحديث وفي سائر الفنون، وأجاز به بعض علماء الشافعية وقبر بجزيرة. ومن مآثره البناء بمقدم مسجد قرية القابل.

حوادث

وفيهما خرج أحمد بن الحسن بأمر عمه المتوكل على الله إلى بلاد ملاحا من أطراف خولان، وكان الطاغوت قد فشا فيهم وتغلبوا على الحقوق الواجبة وصرفوها فيما يريدون. وسائر بلاد خولان قد هموا بذلك، فلما أوقع بهم الصفي حذر الكل.

(١) أي إبراهيم.

وفيهما أمر محمد بن الحسن بعمارة مشهد على قبر الإمام أبي الفتح الديلمي شرقي ذمار بجنوب بنجد الجاح طرف قاع القعودين، وأمرت زوجته الشريفة دهما بنت المؤيد بالله ببناء سمرة هنالك للمسافرين.

وفي (سنة ١٠٥٦هـ) أعلن السيد إبراهيم بن محمد حورية المؤيدي بدعوته، ودعا الناس إلى بيعته وهو من العلم بمكان، ومن المنصب بحيث لا يختلف فيه اثنان.

من آل يحيى مساميح قساور في الـ — سهيجاء سُنع الأسامي مسبلي الأزُر
وليه في الشام أتباع وأعوان، قد حلَّ منهم محل الروح من الأبدان، فهو أنفُس
عندهم من الزمرد الأخضر، وأعز عندهم من الكبريت الأحمر، يودعون دراري فتاواه
أصداف قلوبهم.

ولما استفاض هذا الخير وشاع، وجَّه الإمام كفايةً هذا المهم إلى ابن أخيه المقدم محمد بن الحسن بن الإمام، فنهض بجيش كثير. ولما تخلل بلاده استوثق عليه من الجهات وسلك في سبيل قبضه كل الطرقات فهيأ الله أسباب الصلاح، ونادى مناد الظفر حي على الفلاح، وانقلب به عز الإسلام إلى حضرة عمه الإمام، وهو بصنعاء، فجمع الأعيان بديوان القصر.

وتقدم إليه السيد المذكور مؤدياً لبيعته ملاطفاً للحضرة بما حضره من لطيف المقال، ثم طلب الرخصة من الإمام في عوده إلى الشام، فأنعم عليه بذلك المطلب وساعده إلى ما أحب.

ولما وصل إلى عيان ببلاد سفيان اجتمع بقضاة من آل العنسي وغيرهم، فأفاض عليهم أنما لم تكن بيعته للمتوكل عن اعتقاد صحيح، وللتقية فيها مسرح فسيح، فلم يحصل منهم على ما يشفي الفؤاد، ولا ظفر منهم ببعض المراد، فنفذ إلى بعض الشام، وأفاض عليهم ذلك الكلام، فقالوا له: الأمر إليك، فانفض ولا بأس عليك، وأعاد ذلك النداء حتى عاد الأمر كما بدأ.

ووفدت الأراجيف إلى صنعاء، ففزع الإمام إلى ابن أخيه المقدم أحمد بن الحسن بن الإمام، فتوجه تلقاء مدين، ذلك المطلوب، وانفصل في أمي زي وأهيج أسلوب. وحين ضربت في (بوصان) خيامه، ونُصبت في ذلك المقام أعلامه، تفرق شمل أصحاب

الصارم^(١)، وعلموا أنه لا قدرة لهم على ذلك الصارم، ولما تكذّرت عليه الحياض، وانحاز إلى أطراف بلاد قراض، أنشد لسان حاله:

هو الخط خذه إن أردت مسلماً ولا تطلب التعديل فالأمرُ مُبهمٌ
وكتب من هجرة باقم هذه الرسالة:-

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله مدبر الأمور على مقتضى إرادته كل يوم هو في شأن، المتصرف في مصالح خلقه على مر الدهور بلطيف حكمته من غير مؤازر ولا ثان. والصلاة والسلام على المبعوث لإعلاء كلمته في الإنس والجان، وعلى آله المطهرين أحسن طهور من رجس الشيطان والمترهين عن معصيته، فهم لأهل الأرض أمان.

وبعد.. فليعلم أن الداعي إلى الله بالمغفرة وراجيها إبراهيم بن محمد بن عز الدين ثبته الله على قواعد الشريعة ومبانيها، يقول: لما ظهرت الدعوة المتوكلية بظهور الشمس عقيب ليل الفتن، دان لها ذوو العقول وخضعت لها غلبُ الرقاب، ورفعها المسلمون معزين لها ومكرمين، وذهبوا إليها ثبات وعزين.

ووكّل بها قوم ليسوا بها بكافرين حتى صارت ماضية لشأنها قائلةً بلسانها:

دعوني أحوب الأرض في طلب العلا

وعقد المسلمون للمسرة بها تاجاً، ودخل تحت أوامرها المسلمون أفواجاً، وما ذاك إلا لأنّ متحملها ينبوع العلم الفوّار، وغيث الفضائل المدرار، وزبرقان الفلك الدوّار.

عليّ رست للعلم في بحر صدره جبالُ جبال الأرض في جنبها قُفٌ

ذلك فاتح الأرتاج، ودرة التاج، المولى أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين إسماعيل بن أمير المؤمنين، فعند أن خصه الله بالخصائص الجليلة، ورأيت المصلحة في مخالفته قليلة، وقد أمر الله بالوفاق، فقال تعالى: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] سلمت ما كنت تعملته من الأعباء الثقيلة، تسليم راضٍ لا شبهة فيه ولا حيلة، لوليه وابن وليّه الإمام المذكور المتوكل على الله إسماعيل.

(١) أي إبراهيم.

إلى قوله: فليعلم من وقف على مكتوبي هذا ما التزمته من أحكام الطاعة للإمام، وأن ما تقدم مني واعتقدت فيه المطابقة لمراد الملك العلّام، فإن كنت موافقاً لمراد الله فقد مضى بما فيه من الأجر، وإلاً فأنا أستغفر الله وأسأله التوفيق فإليه مرجع الأمر، والإنسان محل الخطأ والنسيان، والكريم محل المسامحة والغفران، وقد ألزمت نفسي بالوفاء وأوقفتها عن حلبة السباق، وأنا أستغفر الله، وجل من لا عيب فيه وعلا.

ألا لا أبالي من رماني بريية إذا كنت عند الله غير مريب
إلخ..

حرر يوم الجمعة من (شهر جمادى الأولى سنة ١٠٥٦ هـ).

وكتب القاضي العلامة أحمد بن يحيى حابس على هذه الرسالة اسمه وحرر فيها لمزيد التأكيد رسمه.

وسأيت في (سنة ١٠٦١ هـ) ما يضاف إلى هذا الكلام. ثم عاد أحمد بن الحسن من بوسان في (١٧ جمادى الآخرة)، واستتاب بعض أصحابه يتأخر بعده في تخليص آداب على أهل نجران ومن يليهم من البدوان لذنوب اجترموها، خالفوا الشرائع وما احترموا.

وفيها اتفق بين أهل صنعاء وأهل برط خصام أفضى إلى قتل رجلين من برط وخرجوا عن صنعاء هارين إلى فوق مصلى العيد، ثم إن الإمام عطف عليهم وأحسن بالقول والفعل إليهم.

وفيها سار الإمام إلى شهارة وأمر ألا تؤخذ زكاة السوائم إلا من النصاب التّام. وفيها أمر الإمام بقطع شجرة في بلاد عذر، اعتقد فيها العوام بالتعظيم والنذور، وكادت أن تصبح كشجرة ذات نواط التي كانت في وقت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -.

وفيها نزلت بجامع صنعاء صاعقة، فأخذت جانباً من المنارة الشرقية، وفتحت باباً في عرضها ونفذت إلى المؤخر، فأهلك رجلين كانا في الصلاة.

وفي ذي الحجة وقعت زلزلة بصنعاء وغيرها، ولما عاد أحمد بن الحسن بعد أخذه موالاة صارم الدين إبراهيم المؤيدي هنأه كثيرون بتهان منها:

لا زلت معتزداً بالنصر والظفر
ومنها:

جمعت شملأ لآل المصطفى فغدا
وفاك صارم أهل البيت منتضياً
وسلم الأمر في برصان معتمداً
ولم يكن شارطاً شرطاً لتعطيه
سوى الأمان له أو من يلم به
وأنت أهل لما يرجوك من ممن
يختال في حلال الدياج والحرير
فاضرب به وهو بالإجلال منك حري
بحسن رأيك يا ابن الطهر من مضر
من الولايات أو شيئاً من البدر
مدى الزمان ودفع الجور والضرر
من الإمام إمام البدو والحضر

وكان نية أحمد بن الحسن الحج، فرجع الإمام تأخيره إلى العام القابل لانزعاج
العثمانيين بمكة لما كان ببوصان وتوهموا سريانه إليهم، ورتبوا جدة وغيرها، مع توهمهم
في موالة الشريف زيد بن محسن للإمام لما قبل به ووالد بصنعاء من الإحسان، وإنما
كان يداجي السلطنة.

وفيات سنة ١٠٥٦هـ

الهادي بن المطهر الشويح

وفي (سنة ١٠٥٦هـ) توفي الأمير المقدم الهادي بن المطهر بن الشويح بصنعاء. وكان
إليه ولاية هم.

إبراهيم بن أحمد عامر

وعلى الصحيح كانت وفاة السيد الأفضل إبراهيم بن أحمد بن عامر الشهيد بشهارة
في (١٧ رجب سنة ١٠٥٦هـ). وله خطب نافعة ومواعظ وازعة وعلم واسع وأعمال
مشكورة. ومولده في شوال (سنة ١٠١٨هـ). وكان علامة كريماً مطلقاً، فقضاها خاله
الإمام المؤيد بن القاسم.

زين العابدين بن العيدروس

وتوفي (سنة ١٠٥٦هـ) السيد العلامة زين العابدين العيدروس الشافعي. وكان ذا

وفيها استخرج المولى محمد بن الحسن غيل المحدادة، وهو نهر عظيم، عذب الماء من تحت سوق المحدادة بصنعاء، يسقي من باب شعوب إلى الجراف. وصارت غيول الروضة سبعة، وهو من الأنهار القديمة، وقد ظهر في أيام الإمام المتوكل شرف الدين، ثم غار إلى هذا العام.

وفيها خطب السلطان ناصر بن عمر الكثيري للإمام بحضرموت، فنازعه أقاربه وهجموا عليه ليلاً في زي النساء، وأوثقوه رباطاً وخلعوه وسجنوه، وقتلوا السلطنة بدر بن عبد الله.

فلما بلغ الإمام اهتمام بإرجاعه إلى سلطنته، فلم يلتفتوا، فسكت الإمام على مضض حتى كان ما سيأتي.

وفي (سنة ١٠٥٨ هـ) نهض أحمد بن الحسن عن أمر الإمام إلى الجوف (بخمسمائة راجل ومائة فارس)، فوصل إليه بيراقش الأشراف آل شكر والحمزيون، فرفعوا ولائهم عن الحصون، وولّى من يرضاه، ثم نفذ إلى معين والزاھر، ثم رجع إلى معين وغزا بدواناً من المفسدين، فاكسح (٢٥٠ من الإبل)، وخضعوا له بالطاعة، ثم أغراه جماعة أن يغزو الجدعان وراء جبل اللوذ، فتقدم من معين إلى قريب الحلق، فحذروه بلزوم الاستعداد، فاقمهم وتوجه من العصر إلى الفجر، فلم يجدهم باللوذ، ولعلهم أُنذروا.

فنفذ إلى القرظ ساكنه الجدعان ودھمه، ولا يوجد فيه ماء، فاحتشدوا من الشرق، ووقع بعض قتال ساعة قتل منهم ستة وأُسِر من مشائخهم جماعة وفر الباقون، ونفرت الخيل وتفرقت في الأودية، وقد كادت تهلك المحطة جميعها لعدم الماء، لولا أن المشايخ الأسرى دلوا على الماء اليسير، ثم عادت المحطة جميعاً إلى اللوذ نصف الليل، ووجدوا ماءً في الآبار شربت منه الخيل، وارتحلوا آخر الليل.

فلما صاروا بالرميل أسفل جبل اللوذ غلبهم الحر والعطش، وأمنوا ففترقوا وأختل النظام وأجهدهم العطش، فشربوا ماءً الحنظل والأبوال، ولقوا من الشدائد ما لم يخطر ببال.

مهامه لم يملك بما الذئب نفسه ولا حملت فيها الغراب قوادمه

ثم وصلوا الحلق عصر ذلك اليوم بعد جهد جهيد، وفقد (١٣ رجلاً)، ومن الخيل ربعها، وبقي أحمد بن الحسن بالحلق ستة أيام حتى تراجعت إليه المحطة، وبعد أن ثبت

الحصون وأزال المعاملات بالربا وبالطاغوت أسرع العود إلى الروضة ووجد في نفسه على الذين ذكّوه من ذو حسين إلى هذا المذهب، وبعد أيام سلمت الجدعان دية الذين قُتلوا خوف العواقب.

وفيه حج أحمد بن الحسن حجته الثالثة بعد حجتين في أيام المؤيد. وطلع الإمام شهارة وقد ضاقت الأحوال لعدم الماء، فصلى بهم الجمعة واستسقى، فأنزل الله الغيث الهنيء.

وفيات سنة ١٠٥٧هـ

الحسن بن علي العبالي

وفي (سنة ١٠٥٧هـ) مات بالظفير السيد العلامة الحسن بن علي بن صلاح بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن بن يحيى بن علي بن الحسن بن عبد الله بن عيسى بن إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن القاسم الرسي المعروف بالعبالي، نسبة إلى محل العبال في بلاد حجة.

قرأ على الشيخ لطف الله بن محمد الغياث، والإمام القاسم وزوجه بابتته الشريفة جمانة بنت الإمام القاسم. وكان إماماً في المعقول والمنقول، شيخاً للعلماء الجهابذة الفحول، عالي الرتبة، حاوياً للفضل، مرجوعاً إليه سيما في علم الآلة. هاجر إلى شهارة واستمر بها، ثم انتقل قبل وفاته إلى ظفير حجة، كما في الطبقات أن وفاته في (جمادى الآخرة سنة ١٠٥٦هـ)، ولعله الأصح، وله شعر جيد.

وكان ممن تأتّى عن مبايعة المولى أحمد بن القاسم وحث على مفاوضة أخيه إسماعيل أولاً، فلم يُساعَد على ما اختار، وأخذت بيعته بدون الاختيار.

حوادث سنة ١٠٥٨هـ

وفي (سنة ١٠٥٨هـ) حصل في مياه الآبار والأنهار زيادة ظاهرة في صنعاء وما حولها كالروضة والجراف، وظهر غيل الجراف بأيسر حفر، وجرى من أعلى السد بشعوب واستدام وانتفع به أهل الجراف، واستراح الناس من عناء المساني باستصلاح

العيون الغوارات والساعي في استخراجة هو المولى محمد بن الحسن، وهو أساس قديم دفتته الدولة الطاهرية مع دفن غيول صنعاء. وتعبه استنباط غيل آخر للمولى علي بن الإمام المؤيد عامل صنعاء، استخراجة بأقرب عمل وجره إلى مناظر الحشيشية، فسقاها وفاض إلى الروضة.

وفيهما وقعت بين الإمام المتوكل وعلماء عصره مطارحات ومراجعات منها: ما هو في التكفير بالإلزام الذي يذهب إليه الإمام المتوكل، ووضع في ذلك رسالة القاضي العلامة عبد القادر بن علي المخرسي، تدل على غزارة علمه ورسوخ قدمه. ومنها في شأن التأديب الذي يعم البلد، وسببه خاص.

ومنها ماهو في شأن المكوس والمجاي، ومنها ما هو يتعلق بالزكاة. والمطارحات والمراجعات ما زالت بين المخلوقين حتى بين الأنبياء المعصومين. كما اتفق بين آدم وموسى في حديث الصحيحين محاجة موسى لآدم بقوله: (ما بالك أخرجتنا ونفسك من الجنة وآخره فحج آدم موسى)، ولما سأل يحيى بن الحسين بن القاسم صاحب أنباء الزمن المتوكل إسماعيل عن المطالب الشهيرة التي تؤخذ من أهل اليمن الأسفل، وسبب أخذها كان من جملة جواب المتوكل أن مذهب أهل العدل أن المجيرة والمشبهة كفار تأويل، وأن الكفار إذا استولوا على أرض المسلمين ملكوها، وأنه يدخل في حكمهم من والاهم واعتزى إليهم، ولو كان معتقده يخالف معتقدهم، وأن البلاد التي تظهر فيها كلمة الكفر كفرية، ولو سكنها من لا يعتقد الكفر، ونحن أخرجنا الأتراك فملكنا كل البلاد التي أخرجناهم منها، فنضع عليها ما نشاء، ثم قال: هذه الأصول معلومة عندنا بأدلتها القطعية ومدونة في كتب أئمتنا، ولا ينكر ذلك عنهم أحد ممن له أدنى بصيرة ومعرفة بمصنفاتهم، كالأزهار وغيره... إلى أن قال: فإذا استفتح الإمام شيئاً من البلاد التي كانت تحت الأتراك، فله أن يضع عليها ما شاء، سواء كان أهلها ممن هو باق على ذلك المذهب أم من أهل العدل.

فالمقلد من الناس إن أراد أن يكتفي بالتقليد فهذه الأمور معروفة في المختصرات، وإن أحب الوقوف على الدليل ففي المطولات ما يكفي ويشفي.

ومما رد به المولى يحيى بن الحسين بن القاسم على المتوكل، قوله: ((إنكم لستم الذين

أخرجتم الأتراك وحدكم، وإنما أخرجهم جميع أهل اليمن، فيملك كل واحد ما تحت يده، ولا تملكونه أنتم، وهذا بناء على أساسكم بالتكفير باللازم، ولا نسلمه، فتكفير من أصله الإسلام خطر ويحتاج إلى دليل قطعي لا تكفي فيه هذه القواعد).

ثم جاء العلامة المجتهد الإمام الورع نخبه آل القاسم الحسين بن عبد القادر بن علي بن الحسين بن المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم، فناصر المنصور حسين بن المتوكل قاسم بن الحسين بن المهدي وآل الإمام بقصيدته الآتية في ترجمته ومنها:

قد استبدوا بيت المال أجمعه	وأخذ من ذوي الإسلام عدوان
قالوا : إمامهم إسماعيل عالمهم	أفتاهم بمقال فيه برهان
يقول إن جنود الترك كافرة	دانت لهم من جميع القطر بلدان
وبعدهم قد ملكناها بقوتنا	صارت إلينا حلالاً بعد ما بانوا
وكل شخص من الزراع عالمنا	على الذي بيديه أينما كانوا
أصولنا تقتضي هذا فلا حرج	بما أخذنا، ولا والقول بهتان
إبليس سؤل هذا والنفوس دعت	إليه، رغبتاً فيه لها شأن
هذي الخيالات لا تجدي ليوم غد	إذا قضى بين أهل الأرض ديان

ولعل المتوكل إسماعيل يشير بقوله: إن ذلك في كتب الأئمة كالأزهار وغيره إلى ما في الأزهار في آخر كتاب الخمس (وما أجلي عنها أهلها بلا إيجاف فملك للإمام وتورث عنه)، لكن قوله (بلا إيجاف) لا ينطبق على ذلك، فالظاهر أنه يشير المتوكل إلى ما في الأزهار في كتاب السير. وفي العلم الشامخ للمقبلي مزيد إيضاح.

ومن المراجعات والمطارحات ما جرى بين المتوكل إسماعيل والسيد الحسن بن أحمد الجلال، حيث اعترض على المتوكل في قتاله لأهل المشرق الشافعية لأجل أخذه الزكاة منهم برسالة الجلال، (براءة الذمة بنصح إمام الأمة) ومن كلام الجلال للمتوكل: ((إنك تقا تل أهل المشرق الشافعية بناءً على أن ولاية الزكاة إليك، وأنهم بغاة مع أن مذهبهم أن ولايتها ليست إليك، فليس الباغي بأولى من العكس)).

ووقع مراجعات ومطارحات ورسائل بين السيد العلامة الهادي بن أحمد الجلال،

وبين المتوكل إسماعيل أُشير إليها في نشر العرف في ترجمة الهادي الجلال المستطردة في ترجمة ابن أخيه محمد بن الحسن في حرف الميم في الجزء الثاني وهي:

أن للمتوكل إسماعيل رسالة منها، قال محققو العلماء: ((ما أمر به الإمام على الناس أو على بعضهم من نفقة الجهاد فهو مال حقاً مستحقاً ودينياً لازماً، كالخراج وضربة السيد على عبده.

ودليل ذلك أمرُ الله تعالى بالإنفاق في الجهاد ترغيباً وترهيباً، وأمرُ رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- به.

وليس الجهاد مجرد ملاحمة الحرب، ولكنه ذلك وإعداد ما يستطيع من القوة التي هي في زماننا هذا الجند.

ثم إن الجهاد لا يختص بجهاد الكفار والبغاة، ولكنه ذلك مع جهاد المنافقين الذين لا يمثلون لأحكام الشرع إلا كرهاً وخوفاً من صولة الإمام بجنده أو بعضهم، وقد يكون ذلك من كثير من أهل الشوكة الذين يحتاجون إلى فئة من المسلمين من الجند تردهم عن ذلك، وقد يكون ذلك من أفراد الضعفاء، لكنهم كثير بالنظر إلى جملة البلاد، فلا يقوم بأمرهم إلا الجند، فعلى كل حال إعداد الجند والنفقة عليهم من أعظم الجهاد، وهم مجاهدون، إلا من فسدت نيته.

فإذا تقرر ذلك فالمطالب التي وضعتها الإمام كالحق والدين اللازم على الناس على قدر الأرض أو الملك أو المواشي، فهو مما يعين حكمه الشرع، ولا ريب في ذلك، فكيف يقال: هذا مرجعه إلى غير الشرع، كما رأيناه من بعض الفقهاء، فليتقظ لذلك)).

فأجاب السيد الهادي الجلال -رضي الله عنه- بقوله: ((الحمد لله الذي جعل المؤمنين بعضهم لبعض في الدين كالبنين، وافترض كلمة الحق والنصيحة لعامة المسلمين وخاصتهم على كل إنسان. والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير من نطق بالبيان، وعلى آله نجوم الهداية وتراجمة التبيان.

وبعد، فلما اطلع العبد المعترف أفقر عباد الله هادي بن أحمد الجلال على كلام المولى أمير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين ولم يعرف تلك المعاني ولا تلاءمت له تلك المباني، فأردت أن أستكشف عن حقيقة الحال وأعرف على أي أصل ترتب ذلك

المقال. فقلت:

قولكم أبقاكم الله (قال محققو العلماء...) ينني على أحد ثلاثة أشياء، إما قياس الأرض العشرية على الخراجية، والحر على العبد، وهو كقياس الأعمى على البصير والظلمات على النور، وإما أن الإمام يملك رقاب المسلمين وأموالهم، والمراد بقولكم كالخراج التماثل والقياس، وعليه يتمشى أخذ المعونة من السكان الذين لا يملكون بيتاً ولا مالاً ولا متجراً، فهذا هو ضربة السيد على عبده، لكن هذا يُنسب إلى الإمامية فقط، وهم لا يثبتونه إلا لاثني عشر إماماً فقط، ليس المولى حفظه الله أحدهم. وإما على أن أرض اليمن خراجية أصلاً لا قياساً، فيقال: قد كانت على عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عشرية، فإن أهلها أسلموا طوعاً، وذلك مستفيض، فماذا أخرجها؟ إن كان هو استيلاء الترك البغاة وهم فساق، إذ لا سبيل إلى تكفيرهم مع إقامة الأركان الخمسة، ولو كانوا كالكفار لم تجز ذبائحهم ولا نكاح نسائهم ولا دخولهم المسجد ولا مكة، ولا أحصر ما بين أحكام الكفار والفساق من الفروق الظاهرة، ولو سلم وجود الجامع فإن شرط حكم الأصل ألا يكون معدولاً به عن سنن القياس، وقياس تقرير الشارع ملك كل لما تحت يده، وأن لا يخرج عنه إلا بأي وجوه التماليك المعروفة، قاض بأن ملك الكفار إن صح دليله بغير وجه من تلك الوجوه خارج عن سنن القياس كشهادة خزيمة، وكيف يملكون علينا وقد أخرج أبو داود عن سعيد بن زيد عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: ((ليس لعرق ظالم حق))؟ وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم - ((لا أكل مال امرئ مسلم إلا بطيبة من نفسه))؟ وما أخرجه أبو داود عن ابن عمر أن غلاماً أبقَ إلى العدو، فظهر عليهم المسلمون فردّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى مولاه، وقصة أخذ المشركين إبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفيها الجدعاء وامرأة أبي ذر راعيتها وساقوها معهم حتى أتوا دارهم، وفي الليل ركب امرأة أبي ذر الجدعاء، ونذرت إن نجّاه الله عليها أن تنحرها، فنجاهها الله، فأخبرت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بنذرها فقال: (بئس ما جزيتها به) وأخذها منها، ولم ير أنهم قد ملكوها بأخذها إلى دار الحرب؟ وأيضاً فتحريم مال الغير معلوم قطعاً، فلا يعارضه إلا صريح آية أو خير متواتر، أو إجماع، وأين ذلك؟ ولا بد أيضاً للاستدلال على جواز أخذ هذا المال من أحد هذه الأدلة القطعية، ولا تكفي الظنية لعدم

معارضتها للقطعي.

وأيضاً فقد استولت الأحزابُ على أموال المسلمين ولم يأخذها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، بل أقر كل واحد على ما تحت يده على ما كان عليه بالملك الأول.

حتى قال الهادي الجلال عند إبراده ما في عبارة الإمام المتوكل من تسامح في الإعراب: (وكان القياس رفع حقاً ومستحقاً ودينياً لا نصبه).

ثم قوله أبقاه الله (قال محققو العلماء) لا ينبغي أن يكون معتمداً لمجتهد؛ لأنه إن وجدَّ الدليل اعتمد عليه، وإن لم يجده طلبه، ولم يرجع إلى اجتهد غيره أو تقليده أيضاً؛ لأنه مأخوذ عليه الوقوف عند قواعد أهل مذهبه، وهذه المسألة مخالفة لقواعد المذهب (فأي فائدة) في (قال محققو العلماء)، ثم من هم هؤلاء المحققون؟

ثم قال أبقاه الله: (ودليل ذلك أمرُ الله تعالى بالإتفاق في الجهاد.. إلخ)، ظاهر هذا الاستدلال أنه للمحققين؛ لأن سياق القول لهم، أو أنه دليل آخر، ولا شك في قوله تعالى: ﴿جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]، وهو خطاب للمكلفين بالنهوض بأنفسهم والتجهُّز من أموالهم.

يَبَيِّنُ مجمل الآية فعل الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما في إجمال ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بينه فعل النبي، ولم يؤثر أن النبي ألزم أحداً بتسليم مال، وترغيبه - صلى الله عليه وآله وسلم - بنحو قوله: (من جهَّز غازياً) فعلى سبيل الندب لا (دينياً) لازماً وحقاً مستحقاً، وإلاً فينبوه لنا.

ثم قال أبقاه الله: (وليس الجهاد مجرد ملاحمة الحرب.. إلخ)، فنقول: إطلاق الجهاد على الإعداد ليس حقيقة الجهاد اللغوية ولا الشرعية يعرف هذا كل أحد، وإن أطلق الجهاد على الإعداد، فمجاز ولا يصلح دليلاً. وأما وجوب الإعداد فلا شك فيه لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] وفُسرَت بالقسي؛ لأن الرماة أشد بأساً، أي أن الإنسان يملك فرساً وقوساً لنفسه يجاهد بها في سبيل الله، هكذا فعل الصحابة مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فالمكلفون يعدون من أموالهم لأنفسهم والإمام مما تحت يده يعينهم.

وأما قوله: أبقاه الله (إن القوة في زماننا الجند) فلا شك في فساد الزمان، لكننا لا

تُفسد الأحكام الشرعية تبعاً لفساد الزمان ونفس القرآن بخلاف ما بينه فعل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأصحابه. والإمام إنما قام ليبين الأحكام الشرعية لا ليعمل على ما يقتضيه الزمان فيما قد حُكِم به شرعاً.

وقال الهادي - عليه السلام -: ((والله ما هي إلا سيرة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أو النار)). والله در الشافعي حيث قال: من استحسن فقد شرع.

ثم قال أبقاه الله: ((إن الجهاد لا يختص بجهاد الكفار والبغاة، ولكنه ذلك مع جهاد المنافقين))، وفسرهم بأنهم الذين لا يمثلون لأحكام الشرع إلا كرهاً وخوفاً من صولة الإمام. إلخ.

فالمعروف من تفسير المنافق أنه من يظهر الإسلام، ويُظن الكفر فيا لله من الحكم بالكفر والنفاق على أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بمجرد المعاصي، وهل هذا إلا رأي الخوارج.

ثم قال أبقاه الله: (وقد يكون ذلك من كثير) .. إلخ.

فأما بمجرد اختياره فنعم، وأما بنظر الشرع فبعدُ لهم المؤمنون أجمعون، فإن أطاعه المؤمنون قام وقاموا بما أوجب الله عليهم، وإن لم يطيعوه سقط عنه التكليف، ولم يكلفه الله أن يطيعه المسلمون مع أن المسلمين إن شاء الله لا يتقاعدون عن نصرة الحق، كما فعلوا مع الإمام القاسم، فإنهم جاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم ولم تُجند الجنود إلا بعد أن قلَّ الله شوكة العدو، ووُجد بيت المال فأنفق في هذا الأمر، ثم في الدور والمصانع والحلي والحلل.

ثم قال أبقاه الله: (وقد يكون ذلك من فرد من الضعفاء) .. إلخ.

فنقول: مهما لم يتحزبوا فلا يجب جهادهم، وإذا فعلوا جاهدتهم المسلمون.

وأما (قول القائل: مرجع هذا إلى غير الشرع)، فلعمري لقد نطق بالحق في مذهب الزيدية وغيرهم، إذ داهن أهل العلم فحزاه الله عن دين نبيه أفضل الجزاء.

ووالله إني لم أُرِد بمقالي العناد ولم أقصد إلا الاسترشاد والإرشاد، وما جرأتي على هذا المقال إلا أني قد رأيت المولى قد تعرض برسائله هذه للمباحثة في ميدان الاستدلال. والله يأخذ بنواصينا الجميع إلى واضح السبيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

ومن لهم المباحث المفيدة في هذا البحث من أكابر علماء الزيدية المجتهدين المعاصرين للمتوكل إسماعيل القاضي المحقق الكبير عبد القادر بن علي الخيرسي المتوفى (سنة ١٠٧٧هـ) والسيد الإمام الحسن بن أحمد الجلال المتوفى بالجرف (سنة ١٠٨٤هـ)، والسيد الحافظ يحيى بن الحسين بن القاسم المتوفى بصنعاء (سنة ١١٠٠هـ) والفقيه المحقق الشهير صالح المقبل صاحب العلم الشامخ المتوفى بمكة (سنة ١١٠٨هـ) وغيرهم رحمهم الله، وكانوا أهل صراحة لا يسكتون على ما يستنكرون.

وفي يوم الخميس (١٣ جمادى الآخرة سنة ١٠٥٨هـ) كان قران المريخ وزحل في برج الجوزاء.

وفيها بدا للإمام رأي شديد، وهو أن يجعل أميراً على حجاج اليمن بصحبة جريدة من الخيالة، وبجماعة من العسكر الرجالة معهم الأسلحة ويستصحب أمير الحاج صلوات يصرفها للمستحقين في الحرمين الشريفين.

وفيها حصّة وافرة لشريف مكة، ففعل ورفع بذلك لليمن شناراً، وفي القلوب صيتاً ومناراً، وكان قبل ذلك في أيام أخيه الإمام المؤيد يعزم أميراً للحجاج السيد الفاضل إبراهيم بن أحمد بن عامر ليس بهذه الأهبة والصلوات والعسكر، وإنما كان السيد محمد بن صلاح عامل جازان وأبي عريش يصحب الحاج في بلاد الحرامية لحفظهم.

ثم استمر ما فعله المتوكل في أيام من بعده من الخلفاء أكثر من مائة وخمسين سنة.

وفيها أُتِيَ إلى المولى محمد بن الحسن برجل كان يقطع الطريق بين دمار وصنعاء، وكان قد اشترك هو وآخر في قتل رجل وأخذ ماله، فأفلت الآخر، وجيء بهذا فقتله وصلبه بباب شعوب، وكان لقتله موقع في قلوب المفسدين وسكنت بفعلته سورة الشياطين.

وفيها توفي الفقيه النحوي محمد بن عبد الله الأنسي.

وفي (سنة ١٠٥٩هـ) جهز الإمام ابن أخيه الحسين بن المؤيد إلى قبة خيار حاشد، وأمره بإخراص بيوت أشرار حصل منهم الأضرار، فأوصل إلى أساسها الشمس، وتركها كأن لم تغن بالأمس، وعاد إلى محروس شهارة.

وفيها عزم أحمد بن الحسن إلى الإمام بشهارة، فزوجه الإمام بابنته، وتزوج الإمام

بأبنة السيد الحسن بن الحسين جحاف بجبور وتزوج محمد بن الحسن بذار.

وفيهما توفي السيد محمد بن الإمام الحسن بن علي بن داود، وكان من قادة الجهاد.

وفي (سنة ١٠٦٠هـ) وصلت اعتراضات على الإمام من السيد صارم الدين إبراهيم محمد حورية المؤيدي، وتولّى جواباتها الإمام، والسيد عماد الدين يحيى بن أحمد الشرقي، والقاضي شهاب الدين أحمد بن صالح بن أبي الرجال.

وفيهما مات علي باشا نائب السلطنة على الحسا بالمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم. وسببُ مصيره إلى المدينة، أن ولده عيسى باشا ترشّع في وقت والده، ولم يعلم بمضمر مقاصده، فلما قوي زنده، وخفق بنده جنح إلى المروق، ومال إلى العقوق، وكسر خاطر والده بالرفع، وخبّ في ميدان جهله بالوضع والرفع، فاغتم والده لهذه القضية المكيفة، ولجأ إلى المدينة المقدسة والحجرة المشرفة، واستقر به المقام حتى وفد عليه الحمام. وكان من خير ولده أن لاطفَ جنابَ السلطان إبراهيم بن أحمد مراد، وتوسل برشيق الوسائل إليه فيما أراد، فوصله التشريف والخلعة إلى الحسا، وترشّف كؤوسَ الباشوية بعد أبيه واحتسّى، فلم يكن من الذين أحسنوا فلهم الحسنّى، ولا لاحظ قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨].

وفي (سنة ١٠٦٠هـ) نُسب^(١) إلى السيد الإمام الحسن بن أحمد الجلال الجنوح إلى شيء من مذهب الظاهرية وطريقة ابن حزم من العمل بالبراءة الأصلية. وإسقاط الاحتجاج بالأخبار الأحادية، وقصر التعويل على التواتر، وإنكار حجية العموم، ودليل المفهوم، وتحليل المتعة، وإسقاط الأذكار في الصلاة والإعتدال، والقول بأن الإمامة لا

(١) وجد في هامش طبق الحلوى بخط البدر محمد بن إسماعيل الأمير ما لفظه: كُتب الجلال بأنه يقول: لا بد في قبول الخبر أن ينقله اثنان، من بدايته إلى نهايته، فيكون العمل به عزيمَةً، فإن نقص كان العمل به رخصة، ولا يشترط التواتر في كلما يجب العمل به، وهو مذهب أبي علي الجبائي وجماعة. وأما إسقاط حجة العموم فقد صرح به في شرح الفصول وغيره، وتحليل المتعة صحيح عنه، وأما إسقاط الأذكار فلم يقل به، وأما الإمامة فلا يقول بما قال به نشوان، ولم يقل بخل الزكاة لبني هاشم، بل صرّح في ضوء النهار أنها كالميتة تُل للمضطر، وإن أكلها الهاشمي، فهي كالغصب. انتهى

منصب لها معين، بل هي صالحة في جميع الناس مع التقوى، كما يقول نشوان والخوارج، وتحليل الزكاة للأغنياء والهاشميين، وعدم وجوب الجمعة إلا بحضور الإمام الأعظم وغير ذلك، والله أعلم بحقيقة هذه النسبة.

وفيها ظهر أيضاً من الشيخ العلامة أحمد بن علي بن مطير الحكمي من علماء الشافعية بتهامة ما امتاز به على أهل مذهبه، مع تشديدهم على التقليد والالتزام من ذلك أن أحاديث الإفتراق في الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة، أحاديث باطلة لمخالفتها المعقول، والمقرر من الأصول، ومتواتر المنقول، كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فتصير بعد هلاك أكثرها شر الناس؛ لأن افتراقها زاد على افتراق من قبلها بفرقتين، كما في لفظ الحديث، وعما ذكره جواب لا يسعه المختصر.

* وفيها مات السيد العلامة محمد بن علي بن الحسين بن علي بن الإمام شرف الدين. وكان سيداً نجيباً عارفاً بالفقه.

الأمير رجب الرومي

وفيها مات الأمير رجب بن مصطفى الرومي بصنعاء. وهو الذي بعثه السلطان زيادة لحيدر باشا، فترجح له موالاته الإمام المؤيد، فولاه على المخادر، فشيد بها العمائر، واخترع بها عجيب المآثر، ومن عجيب ما صنع له في داره دولا في المطبخ من أسفل إلى أعلى المناظر، فإذا حضر وقت الطعام رفعت فيه نفائسه العجيبة، وأنواعه الغريبة، فيصل إلى أعلى الدار بلا كلفة ولا انتظار.

ولما عرض له غرض إلى المولى محمد بن الحسن، وصل إليه إلى صنعاء فقضيت له أمنيته، لكنها عاجلته منيته ودفن بحوطة قبة البكيرية.

إبراهيم بن يحيى السحولي

وفي (٢٠ جمادى الأولى سنة ١٠٦٠ هـ) توفي حاكم صنعاء وخطيبها وعالمها القاضي العلامة إبراهيم بن يحيى بن محمد بن صلاح الشجري السحولي الذماري، ثم

الصنعاني أعاد الله من بركاته، عن (٧٣ سنة)، فإن مولده بدمار (ليلة الجمعة ٢٣ جمادى الأولى سنة ٩٨٧هـ).

وقد ترجمه في مطالع البدور ترجمة وافية. كان محققاً للفقهاء مقرراً لقواعد المذهب. وله في أصول الدين تحقيقات على غط الأصحاب، وله حاشية على الأزهار، وشرح الثلاثين المسألة وغير ذلك من الفوائد، قرأ في الفنون على الإمام محمد بن عز الدين المفتي والقاضي عبد الهادي الثلاثي الحسوسة والقاضي الشكايزي، واجتمع له بصنعاء القضاء والخطابة وإمامة الجامع الكبير، وذكر عنه أنه لم يسجد للسهو مدة إمامته.

وكان مع اشتغاله بالقضاء لا يفتقر عن التدريس، واختار جواز صرف الزكاة إلى فقراء بني هاشم، ولمصالح الأغنياء.

وكان قد دفن بحجرة الروض، فنقله صنوه لرؤيا رآها إلى قرب المسجد الذي عمره في حياته بمنطقة المحاريق جنوبي صنعاء، وقبره الآن مشهور مزور جوار مسجده مسجده السعدي، وقد انضمت إليه قبور جماعة من أهله، وعند نقل جثته وجدت كما هي لم تتغير.

ومن مؤلفاته الطراز المذهب في إسناد المذهب. ومن قرأ عليه الأخوان محمد بن الحسن، وأخوه أحمد، وآل السحولي لا يخلو عنهم الفضل بحال، وحب أهل البيت فيهم غريزة، وتلاميذه كثيرون.

عبد الحفيظ المهلا

وفي (سنة ١٠٦٠هـ) توفي الشيخ الحافظ المحدث عبد الحفيظ بن عبد الله بن المهلا الزيدي. وكان آية باهرة في علم السنة.

وفي خلاصة الأثر: أن وفاته ليلة الخميس سلخ ربيع الأول (سنة ١٠٧٧هـ)، وقبره بالأشعاف بشجعة الشرف، وترجمته عظيمة استوفى أحواله في خلاصة الأثر.

حوادث سنة ١٠٦١هـ

وفي (سنة ١٠٦١هـ) رجع السيد إبراهيم بن محمد حورية المؤيدي إلى ادعاء الإمامة؛ لما صدر من الفقيه محمد بن علي جميل والعسكر من العسف بخولان الشام، وقام معه بنو بحر آل روكان، وشيوخهم يحيى روكان.

فقتلوا من أصحاب الفقيه محمد جميل نحو خمسة وعشرين قتيلاً، فتقدم المولى أحمد بن القاسم فلم يؤثر، فوجه الإمام ستمائة نفر بقيادة النقيب سرور شلي، فارفع القبائل وأخلوا بلادهم، وتأخر السيد إبراهيم إلى بني جماعة، وتفاقم أمره، فوجه الإمام محطة أخرى بقيادة علي بن صلاح الجملولي.

ثم وجه الإمام الحسين بن المؤيد بمحطة، فطلب المشائخ، وأوثق من يتهمهم بالفساد، وأحسن إلى كثير منهم، وتجهزت الحائط على السيد إبراهيم، فلما علم بالغلب تظاهر بالرجوع إلى الطاعة، وطلب اللقاء إلى ضحيان، فلقيه المولى الحسين بن المؤيد بنجدة، فاعتذر السيد عن الحضور، وأظهر التوبة، وأقر بالخطأ، ثم حضر ووصل مع الحسين إلى الإمام إلى شهارة، وأقام لديه أياماً أوسعه إحساناً وإكراماً، ثم أذن له بالعود إلى وطنه، وأقطعه الإمام رغبةً وما إليها، فعزم، وقد تلحت الصدور وانتظمت الأمور.

وأما الشيخ يحيى بن روكان فوصل إلى الإمام بضوران بعد أزمان، وسيأتي أنه عاد إلى الخلاف، فأبقاه بحضرته ورعى جانبه غاية الرعاية بعد القدرة، وعوضه عما فات عليه عند قيامه مع السيد إبراهيم، وأعانه على عمارة بيوته بعد خرابها، وأعفى أصحابه ثلاث سنين عن الواجبات. وبقي بضوران وتوفي بها.

وفيها حصل انتشار في النجوم في الثلث الأخير فارتاع لمنظرها الكثير.

وفيها خرج على الإمام السيد محمد بن علي الحيداني المعروف بالفوطي، وقال: أنا إمام وإسماعيل إمام، فقالت له الأقدار: حُمي صمام، لا خلف ولا أمام. فخرج من بيته إلى برط ثم الجوف، ثم خولان، ثم المصعبين، وقيفة، روي عنه أنه المهدي المنتظر وتكفير المسلمين، إلا من اتصف بمذهب أبي الجارود، فقاتله أهل المصعبين، فعاد إلى مسكنه بالشام بخفي حنين، بعد أن نُهيت كتبه وثيابه وانقطعت أسبابه.

وكان أحمد بن الحسن قد تقدم إلى رداع للتحذير من الاغترار وإطفاء هذه النار، فما وصل إلا وقد انحسم الضرر وأطفئ الشرر، وكان قد دعا في دولة المؤيد، فوقع في البؤس، وقتلت نفوس، وكان مما جرّاه أنه ذكر له أن في الجفر اسم محمد بن علي بخروف مقطعة، ثم توفي بوطنه كما يأتي.

وفيها انتقل الإمام إلى درب الأمير بوادي أقر برهةً من الزمن.

وفيها قُتل الأمير مصطفى نائب جده من قبل الباشا الذي بمصر، وكان النائب بها قبله الأمير قبطاس، وذكر أن سبب قتله معارضته لأمر مكة الشريف زيد بن المحسن لما أخذ الشريف نخصة من الانتباه على المحرمات والرَّيب، وتكسير آلات الطرب، وأباد الملاهي، وانتمى إلى الإمام في الأوامر والنواهي، فكان قتله وهو متنزه في برية الطائف، وأنكر قتله الشريف لعلمه أنه لا يخفى على السلطنة خبره، ولا ينطمس على صاحب مصر أثره.

ولما احتاجت جده إلى تجديد النائب أعيد إليها قبطاس، فأظهر بها النجدة والبأس، وفوق إلى الشريف بسهام التعنيف، ورماه بالغدر وعدم الوفاء، ونسب إليه قتل الأمير مصطفى. ثم تجهَّز بعد ذلك عليه، فالتقى خارج الحرم واشتد بينهما الجلال، وخطرت الصعاد ولعت الحداد، وذهب من الفريقين من دنا أجله وانقطع من الدنيا أمله.

ولما تفتن الأمير قيطاس، وتفرس لحسة نتيجة هذا القياس، وأن الشريف إذا طال الحرب وتلاحم الطعن والضرب لا بد أن يُشرق بدره ويقهر نصره، فیلحق قيطاس بمصطفى. ويؤول مصباح رئاسته إلى الإنطفاء، وقد يؤول الحال إلى الإلحاد في الحرم، فرجع إلى بندر جده، وعاد الأمر بينهما إلى السداد لا غالب ولا مغلوب.

وفيها وفد من صعدة إلى شهارة المولى أحمد بن القاسم، ثم إلى صنعاء، فوجد الأحوال غير ما يعهد، فرجع إلى صعدة سريعاً وأوسع البلاد والأهل توديعاً. وفيها هبت ريح عظيمة في ذمار وبلادها، فأخرت جانباً من دائر القصر وحملت بعض الكلاب في الهواء.

وفيات سنة ١٠٦١هـ

في ربيع الأول (سنة ١٠٦١هـ) توفي قاضي صعدة وناظر أوقافها ومجتهدها وإمام جامعها وخطيبها ومفتيها العلامة أحمد بن يحيى حابس الدواري. وكان بمجة المحافل وزينة المجالس والمدارس من الحكام المعترين الزهاد المبرزين، يلحق بأكابر المجتهدين ومن رجال الدنيا والدين. له شرح الكافل في أصول الفقه، وله المقصد الحسن في عدة من النقول في الحديث المقبول، وله شرح الثلاثين المسألة، شرح مفيد، وشرح تكملة

الأحكام للإمام المهدي، وله التكميل في الفقه على شرح الأزهار في غاية المناسبة والاستظهار بالأدلة والأنظار، وكان لا يرتزق من بيت المال، ويأكل من تجارة له قائمة بالحال، وخلفه من بعده أخوه الحسين بن يحيى، مشى على منهاجه واستمر على النظر فيما هو إليهم، والتولي على أوقاف صعدة، وأقام على ذلك مدة. ولما ولّاه الإمام قضاء صنعاء جعل ما كان إليه من أوقاف صعدة إلى الفقيه علي الطيري الملقب بالوحش، ولما صار بصنعاء وكل إليه المولى محمد بن الحسن أملاكه بالجهات الصناعية وعامله المولى أحمد بن الحسن في المصرفات؛ لأنه كان يتجر، وهو المرجع، وخلف ما لا يُظن من مثله جمعه، ولا يُدرى من أين أصله وفرعه.

أحمد بن سعيد الهبل

وفيهما توفي القاضي العلامة الفقيه الكبير أحمد بن سعيد بن صلاح الهبل الخولاني بصنعاء، وقبر بمشهد السيد الفاضل عبد الله الديلمي بالأهر، وكانت له في الفقه على قواعد المذهب اليد الطولى ودرّس فيه وفي غيره، وكان لا يفتي إلا شفاهاً.

قال في مطالع البدور: إن بعض الفضلاء، رأى قبل وفاة هذا القاضي أنه انهدم الجامع الكبير من الجهة الشرقية، وهي الجهة التي كان يدرّس فيها فتعقب ذلك وفاته رحمه الله.

عبد الحميد بن أحمد المعافى

وفيهما مات الفقيه النحوي شارح ملحة الإعراب عبد الحميد بن يحيى بن عمرو المعافى بالسودة بلدته. وله أشعار جيدة ذكرها في اللآلئ المضيئة، وشرحه على الملحة يدل على تحقيقه وقوة نظره وتدقيقه.

عبد الله بن عامر الشهيد

وفيهما توفي بحجرة حوث السيد العلامة عبد الله بن عامر بن علي الذي تقدم دعوته (سنة ١٠٥٥ هـ)، وكان يعتمد مذهب الهادي وكتبه. وله مؤلف سماه (التصريح في المذهب الصحيح).

محمد بن علي البكري

وفيهما مات بمكة المشرفة الشيخ المحدث العلامة محمد بن علي بن عسلان البكري

الصادقي. نشأ بمكة، فاستفاد بها وأفاد ودرّس في الفنون، وكان عين وقته. ومن مؤلفاته شرح قواعد الإعراب، وله أسانيد عالية استفادها القاضي صالح بن محمد العياني عند إقامته بمكة، وكان جماعاً للكتب محباً لها، ولما مات تفرقت وكثير منها وصل إلى اليمن.

عبد الواحد النزيلي

وفي (سنة ١٠٦١هـ)، توفي الفقيه المحدث الفاضل عبد الواحد النزيلي بمحله المحويت، وهو شيخ السيد الإمام محمد بن إبراهيم بن المفضل في صحيح البخاري والسيد العالم عبد الرحمن بن محمد بن شرف الدين جحاف في صحيح مسلم قرأه عليه بخفّاش.

يحيى المغلافي

وفيهما توفي القاضي الرئيس يحيى المخلافي، كان له في زمن محمد باشا قيام مع الإمام القاسم آخر مدته، ثم لما وقع صلح الباشا مع الإمام سكن بجهته بالحيمة موالياً للإمام، ثم نعم منه الخلاف على أصحاب الإمام في أيام الباشا حيدر بعد انتقاض الصلح في أيام المؤيد واختلف مع المولى الحسين بن القاسم، ووصل معيناً للباشا حيدر بجنده حتى بلغ محطة حدة، وكتب إلى الباشا يؤذنه بوصله، وخلعه طاعة الإمام وألب عليه مخالفته وسائر الحيام.

ولما فتحت صنعاء بالخط الأغلب، وخرج حيدر خائفاً يترقب، أظهر القاضي الأسف، واعتذر عما سلف.

صالح داود الأنسي

وفي (سنة ١٠٦٢هـ) توفي بآنس ببلدة حدقة القاضي العلامة المحقق صالح بن داود الأنسي الحَدَقِي. له تصانيف، منها شرح عقيدة المتوكل إسماعيل، ومختصر شرح الجامع الصغير للعَلَقَمِي.

ناصر بن محمد صبح العياني

قال في الطبقات: في (سنة ١٠٦٢هـ) توفي بشهارة السيد ناصر بن محمد بن يحيى صَبَحُ الغُرْبَانِي، ينتهي نسبه إلى الإمام القاسم بن علي العياني، تقدم ذكر دعوته سنة ١٠٢٩هـ، ثم أُسِرَ إلى شهارة، فتاب وأناب، وبقي مدرّساً بشهارة حتى مات، وقد

سبق كيفية دعوته. وفي طبق الحلوى أن وفاته (سنة ١٠٧٣هـ).

محمد بن أحمد المؤيدي

قال في الجامع الوجيز: في (سنة ١٠٦٢هـ) توفي بيندر المخا، ونقل إلى حيس السيد العلامة محمد بن أحمد بن الإمام الحسن بن علي بن داود المؤيدي. وكان عالماً محققاً مصنفاً، له شرح على كافية ابن الحاجب، وشرح على الهداية، وتولى للإمام المؤيد بن القاسم بلاد العدين.

وابنته الشريفة فاطمة التي كتبت إلى المتوكل إسماعيل تشكو أن عامله بالعدين أخذ ضيعتها التي أنخلتها أمها فقالت:

تملكتُ فذكاً قدماً بإنحال	مولاي بنتُ رسول الله فاطمة
عن الخليفة في حكمٍ وإبطال	فَنُوزَعَتْهُ فماتت غير راضية
وابناه ثم عليُّ سيد الآل	وكان شاهدها زوجُ النبي به
وأخلتني أُمِّي بعضَ أموال	وها أنا ابنتها سُميتُ فاطمة
وعُمرتُ بعدَ هذا بعضَ أحوال	وكان في صحةٍ منها وعافية
ملكِي كذلك فانظر أنت في حالي	فنازعوني وقالوا لا سبيل إلَيَّ
في سالف الدهر ما لاقاه في الحال	وانظر إلى حظ هذا الاسم كيف
ست الحمد لله فينا الحاكم الوالي	لا يظلموني أمير المؤمنين وأنـ
مُعمرأ لك في عزٍّ وإقبال	وأسأل الله أن يوليكَ أنعمه
على النبي رسول الله والآل	وأن يصلي صلاةً لا انقضاء لها

ولما وصلت هذه الأبيات إلى المتوكل وشيخ الإسلام أحمد بن صالح أبي الرجال أمروا برد ضيعتها، وكانت أنخلتها أمها لما زوّجتها بابن عمها، فلمّا ماتت الأم أخذ الورثة تلك الضيعة. وقد حمّس هذه الأبيات القاضي يحيى بن إسماعيل المعافى والسيد إسماعيل بن إبراهيم جحاف بتخميسين عظيمين. وأختها هي الشريفة العالمة الأدبية زينب بنت محمد بن أحمد بن الإمام الحسن سيأتي ذكرها في عام وفاتها (سنة ١١١٤هـ).

و وفاة والدهما السيد محمد بن أحمد بن الإمام الحسن في (١٨ ذي الحجة سنة ١٠٦٢هـ) عن (٥٣ سنة)، قرأ بصعدة وصنعاء، وشارك آل الإمام القاسم في المهمات، وكان لا يعد نفسه ولا يعدونه إلا منهم، وقاد المقانب معهم وحاصر صنعاء، وكانت حضرته معمورة بالعلماء والفضلاء، وأنه مع عظيم تكليفه وعلو جاهه وصيته لا يفتر عن البحث في العلوم والمذاكرة.

ومن مؤلفاته تحفة الطالب وزلفة الراغب، شرح كافية بن الحاجب، وله ديوان شعر. ولما حج المولى أحمد بن الحسن، والمولى محمد بن الحسين، والقاضي أحمد بن سعد الدين، والمولى محمد بن أحمد بن القاسم في (سنة ١٠٥٣هـ) أيام الإمام المؤيد كان المترجم له هو الأمير عليهم وعلى جميع الحاج لكماله وأهليته للإمارة. وقبره مشهور مزور بحبس بجنب قبر الولي المعروف بالخامري، وحفيده هو السيد العلامة محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن الإمام الحسن، سيأتي ذكره، وكان للمترجم له محمد بن أحمد رئاسة كاملة وشجاعة هائلة في حصار صنعاء وغيرها، ثم ولّاه المولى الحسن بن القاسم بعد الفتح بلاد العدين فاستمر عليها، ثم زاده المتوكل إسماعيل بندر المخا وبلاد حيس وما إليها من المخاليف حتى مات.

حوادث سنة ١٠٦٣هـ

وفي (سنة ١٠٦٣هـ) عاد الشيخ يحيى رَوكان إلى الخلاف، فسير الإمام إليه المولى محمد بن الحسين، وما زال يروغ له من ساقين، إلى أن وضع الحديد منه في الساقين، وأرسل به إلى حضرة الإمام، ومات بضوران، وسبق له ذكر في (سنة ١٠٦١هـ)، وتلبث أياماً لتقرير أعمال الشام، وكان قبل أيام جوّز الإمام من حال ابن روكان الانتظام، فأذن له بالعود إلى أهله وعين له معونة في عمارة الخراب، وصلاح الأسباب.

وفيها وقع فساد ببحر القلزم، وذلك أن جماعة من الإفرنج الذين أسرههم السلطان في حرب مالطة، كانوا تحت الترسيم ببندر السويس، فهربوا منه وركبوا بحر اليمن يريدون النفوذ إلى الفرنج الذين بالهند، ثم للقوق بديارهم من وراء الحبشة، فصادفوا قرب القنفذة سفينة إلى جدة عابرة، فطلبوهم الإزواد والإمداد، ثم أخذوا سفينتهم غصباً وأتوا

على آخرهم قتلاً ونهباً، ثم توجهوا في البحر سائرين.

وحين علم بهم نائب اللحية النقيب سعيد المجزبي، ونائب المخا السيد الرئيس محمد بن أحمد بن الإمام الحسن، أخذوا عليهم الموارد والمصادر، ولزما عليهم جوانب البحر الزاخر، ولما انتشر لواء القتال، طووا شراع الإرتحال، وحانت لحينهم الآجال، وقبض الأميران عليهم، وتوجه الأديار إليهم، وأدخلوا بندر المخا، وعرض عليهم الإسلام، الراحض لما قبله من دَرَن الآثام، فمالوا إلى الحيف، واختاروا أن يعمل فيهم السيف، فقتلوا عن آخرهم، وهم زهاء سبعين، وزُجر بهم من وراءهم من الملاعين.

وفيها ظهر نيزك في المشرق غير مستطيل، والله غيبُ السموات والأرض من دقيق وجليل، وتعبه نجمٌ خر من جهة المغرب إلى جهة المشرق بعد العشاء، فكان له صوت كالرعد الشديد.

وقال صاحب ذيل رَوْح الرُّوح: في (١٧ محرم سنة ١٠٦٣ هـ)، ظهر بقدره الله عمود من نور في جهة الغرب، ورأسه ممتد إلى جهة الشرق، وله ذؤابة ممتدة إلى جهة العدن، ولم يزل هذا النيزك يتنقل في البروج إلى جهة القبلة إلى أن بلغ منزلة الثريا، ثم غاب.

وفي العشر الآخرة من محرم هذا ظهر نجم آخر من النيازك، ولم يكن له نورٌ ساطع مثل الأول وتعقب هذه النيازك ارتفاع سعر الطعام.

وفيها سار الإمام إلى ظفار داود لبث فيه ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى السودة.

وفيها وصل من بلاد الحسا، وقيل من الحجاز شرح لعقيدة الإمام المتوكل إسماعيل التي أنشأها.

وفيها وصل إلى الإمام عالم من مصر يقال له: حجازي بن علي المصري الشافعي الأشعري، فأحسن إليه الإمام وشرح عقيدته شرحين، وأهداهما للإمام.

وفي هذه (سنة ١٠٦٣ هـ) وصل إلى الإمام الشيخ العارف جعفر الواعظ من علماء الحنفية الخائضين في علومهم الظاهرة والخفية الأصلية والفرعية، فأقام عنده أياماً واستملى عقيدته وطالت المراجعة بينه وبين القاضي شهاب الدين أحمد بن صالح بن أبي الرجال في مسألة الرجا والشفاعة، واحتدّ طبع كل منهما حتى أشار الإمام إلى القاضي بتخفيف المقال. ولما وصل المذكور إلى صنعاء اتفق بينه وبين العلامة محمد بن الحسين بحث تلك

المسألة بعينها.

وفيهما وردت الأخبار إلى اليمن بوفاة السلطان إبراهيم بن أحمد خان وألقى مقاليد الملك إلى ذي القهر والسلطان، فاتفق رأي الوزراء والأعيان على أن ينتصب في دست ملكه ولده السلطان محمد بن إبراهيم، وكان يومئذ بسن البلوغ، لكنه ثابت الجأش، كامل الحزم نبيه القدر، وكان له ثلاثة إخوة: مراد، وسليم ابني إبراهيم ضُبُطا تحت قيد الترسيم، وأحمد بن إبراهيم قتله أخوه لأمر حدث منه.

ولما اجتمع الأمر في يد محمد بن إبراهيم أقبل على افتقاد الأقاليم وجهَّز إلى طوائف الفرنج كل جيش عظيم، فاستفاد الممالك الفاخرة، وافتتح البلدان العامرة منها جزيرة مالطة، كما سيأتي.

وفي (سنة ١٠٦٣هـ) أعاد المولى أحمد بن الحسن الحج إلى بيت الله الحرام، وزار تربة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام. ويُذكر أنها فُتحت له قبة جده بالعناية، بعد أن تشمَّس عن فتحها أهل الولاية، قال السيد العلامة محمد بن إسماعيل عثيش في تمتعه للبسامة، مشيراً إلى هذا للمولى أحمد بن الحسن:

وحج في عصابة غر غطارفة بيت الإله وزاروا خاتم النذر
وشاهدوا الآية العظمى التي بهرت لما دنا فتح مشوى سيد البشر

وإلى مثله أشار السيد العلامة المؤرخ محمد بن إسماعيل الكبسي في اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية، وفي العناية التامة شرح تكملة البسامة، فقال: إنه في (سنة ١٠٦٣هـ)، أعاد المولى أحمد بن الحسن الحج وصحبته جماعة من العلماء والأعيان، ونحو ثلاثمائة من الجند والفرسان، وكانت طريقه من الساحل، وزار جده نجم آل الرسول الإمام القاسم الرسي بن إبراهيم.

ولما وصل إلى أبيار علي أراد أمير وشريف مكة والأتراك منعه عن الدخول خشيةً وثوبه عليها، فكتب إليهم ابن مِصان كبير قبيلة حَرْب، وهذيل: إن لم تتركوا صاحب اليمن يدخل المدينة لزيارة جده أدخلته إليها في مائة ألف سيف، فكان دخوله المدينة بعد ذلك بكفالة ابن مِصان في زِيٍّ عظيم، ولما طلب من الآغا رئيس السدنة أن يفتح له باب الحجرة الشريفة امتنع السادن، فقال له: تمنعني من جدي؟ فأجاب عليه: إذا كان جدك

فسيفتح لك، فلم يشعروا بعد ذلك إلا بانفتاح الباب بسرعة، فخالط السدنة الرجل وانبهر من حضر، وتحدث بهذه الكرامة أخلط الرفاق، وشاع خبر وقوعها في الآفاق.

قال صاحب طبق الحلوى: والذي ذكر لي الشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي المكي عند وفوده إلى صنعاء: أن الصفي عرض على الآغا أن يدخله القبة المنورة، فامتنع بإعذار، فلما أقنعه بالإيلاس عدل إلى شفاعة الأكياس، فبعث إليه على جهة الخفية بحملة من الذهب الأحمر، فانقلب طبع الطواشي، وعاد تشمسه إلى التلاشي، وأنشد منه لسان الحال ملاطفاً للصفي بقول من قال:

وَبُئْتُ لَيْلَى أَرْسَلَتْ بِشَفَاعَةٍ إِلَيَّ فَهَلَّا نَفْسُ لَيْلَى شَفِيعُهَا
أَكْرُمُ مَنْ لَيْلَى عَلَيَّ فَأُبْتَغِي بِهِ الْمَالَ أَمْ كُنْتُ أَمْرًا لَا أُطِيعُهَا

ففتح له المقام الأزهر، وقضى منه جميع الوطر، وكان بعد أحيان، أن انتهت للآغا عيون السلطان، فزحلقيه عن ذلك المقام.

(الشيء بالشيء يذكر) أخبرني سيدي السند المقام غصن السيادة المورق، وروض المجد والكرم المؤنق، الحسن بن أحمد بن الحسين بن القاسم أنه أيام جواره بالقبة النبوية، وإقامته بالمدينة المحمية، حاول الولوج إلى حضرة جده، فامتنع ذلك الآغا، وتعدى بمنعه عن بيت أبيه وبقي،

قال: فداخلني من الإكتئاب ما قدّم وحدث واشتد بي الكرب، ثم إني واجهتُ الحضرة النبوية بكلام مضمونه: إن كنتُ من أولادك يا أبت فلائي شيء يحول بيني وبينك هؤلاء الذين يزعمون أنهم خدامك، وداخلني الإنكسار، فلم أشعر إلا بالآغا يلاطفي في المقال، ويستدعيني إلى حضرة الكمال، فبادرت بالدخول، وقرّ خاطري بالمثل، وأسرجتُ القناديل من أيمن الداخل، وظفرت من العز المنيع والجاه الرفيع بطائل، وأنشد لسان حالي وقد أسعفني بسؤالي:

إِنْ يَدُنْ مَنِي فَلِي فِي قَرْبِهِ نَسَبٌ أَوْ يَأْ عَنِّي فَفِي عَرْنِيهِ شَمَمٌ

ثم ظهر لي من بعد أنه انكسر أحد القناديل.

كرامة لم يحزها غيره أبداً ولا تبختر في أثوابها القشْب

وأنفق أحمد بن الحسن في حجته هذه مائة ألف حرف. ذهب وعاد إلى الروضة - وطنه - ومعه رجل يقول: إنه من ولد عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن المطهر، فأنكره آل عبد الرحيم. وخرج معه السيد أحمد بن محمد الأنسي القهدة، وكان فاراً إلى مكة مدح الشريف زيد فأعتاه ثم قابله الإمام بالإكرام.

وفي هذه الأيام استقر المولى محمد بن الحسن بصنعاء وتوجه إليه معظم السياسات والأوامر والنواهي فيها وفيما حولها من البلاد، وقويت يده في الإصدار والإيراد.

وفيها حُولت المجزرة بصنعاء إلى باب اليمن، وجُعِلَ لذلك واستصلاحه سجل، سعى فيه الفقيه محمد أفندي، ورَسَمَتْ فيه أعيان صنعاء، وكان محلها قبلُ بسوق الحطَب.

وفيها منع أهل الشَّعيب عن الواجبات التي تؤخذ منهم ويُرَد على رؤسائهم قسوط منها، وأعلنوا التظاهر بالملاهي، وأغمضوا عن توريث النساء، فتقدم عليهم السيد علي بن هادي المحرابي من تعز؛ لأن قعطبة تابعة لتعز، ففرمته المخالفون، ووصل إليه شرف الدين بن مطهر وصلاح بن محمد من جماعة المولى أحمد بن الحسن، فمهداً قواعد الدولة، ورجع أهل الشَّعيب إلى الطاعة. وكان قد انخرطوا في سلك يافع وابن شعفل، فلم يعضدوهم، وعاد المحرابي إلى تعز، فاستمر فيها نائباً لمولانا محمد بن الحسن، حتى ساءت تصرفاته واستنكرت حركاته بعقب قضية صدرت منه، وهي أنه اجتذب إمام محراب تعز في صلاة العيد وأهانته وجرده من ثيابه وانتهبه، فتعقبه اضطراب بدنه وحصول رعشة معه لا يمكنه القيام.

وكانت زوجته بنت الأمير رجب بن مصطفى السابق، وفاته (سنة ١٠٦٠هـ) فأقامت عليه البينة باختلال عقله، وفسخت نكاحه، فلم تمض أيام حتى مات بصنعاء، ولم يبق من ذرية الأمير رجب بن مصطفى إلا هذه الزوجة المذكورة، وبعد موته تخربت داره بالمخادر.

وفيات سنة ١٠٦٣هـ

محمد بن صلاح السلامي

فيها مات القاضي العارف محمد بن صلاح بن سعيد بن قاسم السلامي الأنسي. قرأ على سيدنا العلامة إبراهيم حثيث، وكان زاهداً حشن الثياب، وهو أول من بايع المتوكل إسماعيل، ووفاته بدمار. وكان المدرّس بتلك الديار، في مثل التذكرة والبيان، وشرح الأزهار، والمتصدر للفتيا للسائلين، ولفصل الحكومات بين المتخاصمين، إلى أن كف بصره. وقبره في مقبرة دمار الغربية، وهو من بيت صالح، وقد ترجمه في الطبقات وبغية المريد.

يحيى الشيبيني

وفي (سنة ١٠٦٣هـ) مات حاكم دمار القاضي يحيى الشيبيني، وكان هو السبب في عزل المولى عبد الله بن الإمام القاسم عن ولاية دمار لاستنكاره لأشياء من أحواله، وما زال عبد الله بن القاسم يعاود أخاه المتوكل إسماعيل إلى أماكن سكونه، ولم يتم له إرجاع ولايته، قال أمره إلى سكونه في بيته، بدمار إلى وفاته بها. وفي مطلع الأعمار في ترجمة هذا القاضي يحيى بن محمد بن علي بن معوضة بن علي الشيبيني الذماري أن المتوكل عزل صنوه عبد الله وعين بدله السيد أحمد بن هادي بن هارون الهاروني من بلاد الشام، فقبض على هذا القاضي الشاكي ما كان يعتاد في الماضي، فعصّر على يديه بالنواجذ، وقال: يا أسفا على تعدينا على الوالي الأول بالشذائذ.

عبد الله بن أحمد الجربي

وفيها مات القاضي عبد الله بن أحمد بن معوضة الجربي بالروضة. وقراءته على السيد الحسن بن شمس الدين، والسيد صلاح بن أحمد الرازحي، وله اليد الطولى في علم الكلام والفقه وتقدم له ذكر عند وفاة والده (سنة ١٠١٦هـ).

حوادث سنة ١٠٦٤هـ

وفي (سنة ١٠٦٤هـ) ارتحل الإمام من السودة إلى عمران، وكانت هذه السنة سنة قحط. ولما وصل الإمام إلى عمران تلقاه أولاد إخوته جميعاً للاستبشار بوصوله بعد الغيبة، فمنهم: محمد بن الحسن، وأحمد بن الحسن، والحسين بن الحسن، ومحمد بن أحمد بن القاسم، ومحمد بن الحسين بن القاسم، ومن كوكبان الأمير الناصر بن عبد الرب، وطلب من الإمام وآل الإمام تشریف حصن كوكبان، فوصل إليه جميعهم، وبذل الناصر مجهوده بأكمل الإكرام، وقدم للإمام اثني عشر من نجائب الخيل، وأنفق إنفاقاً دل على كرم نفسه وطيب أعراقه. ثم إن آل الإمام رجعوا إلى صنعاء، والإمام توجه إلى ثلا، وطاف قلعة الشاخنة، وقننه الباذخة، وهي من شوامخ القنن، لا سيما في نظر المطهر بن الإمام، فإنها أعلى من شمام، واتخذها كنّاً من مصائد الصدام، وحرزاً من مكائد الأروام، ولما انقضى مرام الإمام عاد إلى مدينة سام فلبث بها إلى آخر شعبان، ثم سار بخيله ورجله إلى صوران.

وفيات سنة ١٠٦٤هـ

قال في الوجيز: في شعبان (سنة ١٠٦٤هـ)، توفي السيد العلامة محمد بن الحسن بن شرف الدين. وكان زاهداً عابداً ودفن بجنب والده، ولعله محمد بن الحسن بن شرف الدين جحاف الذي سبق وفاة والده (سنة ١٠٥٥هـ).

صلاح بن علي الشويطر

قال في الطبقات: وفي (سنة ١٠٦٤هـ) توفي الفقيه العلامة صلاح بن علي المداني الحارثي الشويطر الذماري. قرأ على عبد الوهاب المسلمي، وعنه أخذ القاضي عبد السلام السلامي وأكثر الفضلاء، وكان ورعاً زاهداً لازم الأذان بمدرسة الإمام شرف الدين بدمار زيادة على (٤٢ سنة) كما أخبر بذلك تلميذه الفقيه سعيد الويناني.

حسن بن علي الاكوع

وفي بغية المريد أنه في ليلة الجمعة (٢ ربيع الثاني سنة ١٠٦٤هـ)، توفي القاضي

العلامة الحسن بن علي بن صالح بن سليمان الأكوع الشهاري وعمره (٦٤ سنة)، وله ترجمة في مطالع البدور، وذكر وفاته (سنة ١٠٢٤هـ) توهّم والصحيح ما هنا.

وفي (سنة ١٠٦٥هـ) في صفر، طلب الإمام إلى ضوران آل الإمام محمد وأحمد والحسين أبناء الحسن ومحمد بن الحسين، ومحمد بن أحمد وأمر بحشد الجنود، وزف البنود إلى بني أرض بلاد الرصاص، ويافع لإصلاح فاسدها، وتقويم مائسدها، فاجتمع لأولاد إخوه الإمام، وأمير كوكبان زهاء عشرة آلاف رجالة وألف عنان من الخيل، وأنفذ قبل ذلك رسائله إلى الشيخ حسين الرصاص؛ لأنه أول قفل لتلك الأقفاص، وإليه التصرف في بلاد بني أرض.

وأما ما يليها كبلاد دثينة، فألى الهيتمي ومن خلفه العولقي، ومن خلفه الواحدي، ومن خلفه الفضلي، وبلاد هؤلاء متصلة بحضرموت. فلما علم الرصاص بما عزم عليه الإمام شخّخ بالعرين، وبرز بروز ليث العرين، وحشد قبائل البلاد، وحرّض على التأهب في الأغوار والأنجاد.

وكان مراد الإمام هو حضرموت لمواصلة السلطان الكثيري المحبوس المستنجد بالإمام، فرأى الرصاص أن نفوذ العساكر إلى خلفه؛ دلالة على عجزه، وآية على ضعفه، فركّز نفسه هدفاً للحين، وانتقش في رق تاموره قول أحمد بن الحسين:

غير أن الفتي يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا
وإذا لم يكن من الموت بدّ فمن العجز أن تموت جباناً

فرتب هو والعولقي عسكرهما بنجد السلف. وجنحاً ببقية السلاطين من أمام ومن خلف. وكان قليل من أصحاب الإمام قد نفذوا إلى الزهراء، وهي مما غلب عليه الرصاص، وكانت في الأصل للقايفي. ثم تقدم جماعة منهم إلى قرية بالقرب منها، تسمى (بذي كريش)، ولما سئم الرصاص الانتظار، بادر إلى ذي كريش بجيش جرار، فعدم التبصر برأيه والاستضاءة، وبادر إلى أمر كان له فيه أناء، ودارت به الدوائر، وزل عنه قول الشاعر:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلُّ

فإن أمراء الإمام لما جاء قم العيون بما أزمع عليه الرصاص رموا بنفوسهم إلى نجد السلف وبادروا إليه يوم الخميس (٤ ربيع الآخر سنة ١٠٦٥ هـ)، فباتوا تلك الليلة وانقض جمعهم بكرّة على الشيخ ومن إليه، فقصّد أحمد بن الحسن مركزه وهو المقام الأول والمركز المعدل، فاشتجر الرماح، واشتد الكفاح، واختلفت الرصاص، ونادى لسان الحال ولات حين مناص، وحزت الرؤوس، وتداعت إلى فئائها النفوس، ولما حمى الوطيس، وهدرت الأبطال بشقاشق العيس، وقد أبان الصفي عن تخليق العقاب، وشجاعة حيدر حين اقتلع الباب، فانخزل عن الرصاص منصر العولقي، وتأخر عن دائرة المركز للهول الذي لقي، وتبعه قبائل يافع بمن بقي.

وثبت للكفاح الرصاص. وصار وقومه ذريةً للرماح، وهدفاً للرصاص.

وفي أثناء هذا الالتحام عطف عليهم من جانب الوادي عز الإسلام محمد بن الحسن بن الإمام، فاتفق الفشل من الجانبين، وركبتهم موجات البحرين، وأمر أحمد بن الحسن أصحابه بترك الرمي، فاخترطوا السيوف، وأقبلوا على الحتوف، واختلط الفريقان حتى اغبرّ الدوّ، واصطدمت الهامات في الجوّ، وانجلى المعركة عن قتل السلطان حسين الرصاص، ورسب في حبائل الاقتناص.

وحمل رأسه إلى القائد للجميع محمد بن الحسن إلى رداغ، ثم إلى الإمام.

والذاهب من أصحاب الصفي قدر ستين نفرًا، وقتل من أصحاب الرصاص الجسم الغفير، فقد تبعهم الصفي والسيف يعمل فيهم ذات اليمين وذات الشمال، وأكثر مولانا الصفي من الحمد لله والثناء عليه، لما ساق من النصر والفتح على يديه.

وبعد النصر على الرصاص أمر المولى الصفي بجمع النساء وميزّ الحرائر، وأرجعهن إلى أهلهن حالاً، وقسم الإماء المملوكات كغيرها من المأخوذات، وقومت الإماء وأعطى كل غانم القيمة، ولم توطأ امرأة، ولو مع شدة العزبة، وأرجع الجميع لأهلهن. وأما الأثاث والحبوب فشيء واسع، غنم أهل قيفة، حيث بيع القدح بأرخص الأثمان، وحمل ألفاف الناس ما لا تطيقه الأقلام، مصائب قوم عند قوم فوائد، وأما سراة الناس فما كان مغنمهم إلا القتال، وانتزاع أرواح الكماة والأبطال.

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

وكان الصفي قد أمر إلى الخيالة والرجالة ألا يشتغلوا بقطع الرؤوس أو بالطمع؛ لئلا يشتغلوا عن القتال، فعملوا بهذا الأمر في المبادئ.

ولما هبت ريح النصر انخطوا إلى الأطماع، وقطع الرؤوس وأضربوا عن ذلك التنادي، والذين قاتلوا مع السلطان حسن الرصاص بنجد السلف، فمنهم: آل علي وهم عترته الذين ثبتوا في اللقاء، ومنهم: بنو أرض بطون كثيرة، ومنهم: بنو غيلان نحو أربعمائة رجل، ومنهم: أصحاب ناصر الدرع، ومنهم: أصحاب غراب، نحو: ستمائة مقاتل، ومنهم: الصاغبة ومنهم: أهل مظفر والظفير وأهل حصين، ومنهم: آل هشام وآل سعادة، وعليهم عهدة الطريق إلى البيضاء لا غير، ومنهم: أهل هصبص شيخهم ناصر معوضة آل عمر، ومنهم: الملاحم الذين تقدموا إلى ذي كرش، ومنهم: العوالقة خيل ورجل، ومنهم الهياثمة، أصحاب الهيتمي المجاور لدثينة، وأغلب هؤلاء لما أحسوا يوم الخميس بصدق الضرب والطعن نكصوا على الأعقاب، وأسلموا قومهم للعذاب، وفروا فرارا الآبق، وما رعوا للرصاص عهده السابق. ووقع القتل الذريع في آل علي بطانة الرصاص، قتل منهم نحو المائتين من رؤسائهم علي بن مزاحم الجرهمي، وأبو بكر بن ناصر.

ولقد ثبت الرصاص الثبات الهائل، ولم يسمع له صوت فزع عند التصاول، وأصيب بثلاث رصاصات.

وما قصدت بتعظيمي عداك سوى تعظيم شأنك فاعذري ولا تلم
ولم يكونوا عدواً ذلَّ جانبُه وإنما غرقوا في سيلك القرم

ولما انجلت المعركة أقام أحمد بن الحسن في الصلاة خمسة أيام. وعد للأجناد بها معلومهم العام، وجملة العدد لمن حواه المعسكر نحو أربعين ألفاً.

وارتحل وصلَّى الجمعة الثانية بالبيضاء، وبذل لمن وصل الأمان في نفسه وأهله وماله فأتوا إليه أفواجا، فمن مشائخهم: منصر بن صالح العولقي صاحب دثينة، وصل في قومه وأهنته وقدّم من الخيل ما أبان عن نعمته. فأكرم الصفي نزله، وأخذ عليه العهد، (ودثينة من أخصب البلاد، فيها الثمرة، وأنواع الفواكه)، ثم أذن الصفي للعولقي بالعود إلى وطنه. ووصل إلى الصفي السلطان سالم بن حيدر الفضلي، وكان موالياً من (سنة

١٠٥٥هـ) وعطاياه تجري عليه من ذلك الحين. ووصل السلطان صالح بن عبد الواحد الواحدي، فقبِل بالإحسان، ومثله الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله العمودي، وبلاده محاذية لحضرموت، ولم يُسَلَفْ شيئاً من التعدي، وأنفذ مولانا الصفي أولاد هؤلاء إلى صنوه محمد برداع، وهو أنفذهم إلى حضرة الإمام بضوران نابوا عن آبائهم، وأكرموا بالمقام الشريف غاية الإكرام، وقُرِرَ الجميع على ولايتهم وأُخِذَ عليهم ما يؤخذ على العمال من الرفق، وانقلبوا إلى أوطانهم شاكرين.

وأما السلطان صالح بن أحمد الرصاص فشرد بأهله من بين يدي الفتنة، فوضع له مولانا الصفي الأمان، فحذر من شدة الخوف وطلب الموائيق الأكيدة على يد مولانا الحسين بن الحسن وسلمه ورقه، فتأكد له من الصفي، فأسعف له ووفى، وهو الأحق بأن يفي، فبلغ إلى الصفي وبايعه باليدين، ولما أحب الرجوع إلى بلاده أعطاه العطاء الجزيل وأجراه على معتاده، وأوقر له الجمال من العطايا، وجعله هو وقومه علماً بين البرايا، ولم يشترط عليه غير الطاعة والعمل الموافق للشرع، وأقام في جبل يُقاف من أعمال البيضاء.

ثم تحشد أهل يافع، فأرسل إليهم أولاد الإمام، وحرصوهم على الطاعة والإتتمام، فأصروا على قبيح أفعالهم، وانحازوا إلى شواهي قبايلهم.

فسار بعض الجند إلى الحلقة مع المولى محمد بن الحسين، فاستقر بها يومين. ووصلت الأخبار أن الشريف سالم بن حسين الحسيني قادم لنصرة يافع بغارة.

وفي ثمار الاثنين (١٩ جمادى الآخرة سنة ١٠٦٥هـ)، تقدم محمد بن الحسين إلى دائر جبل العرّ لاستخراج يافع، فترل جماعة منهم إلى سفح الجبل، فاشتجر الحرب بينهم، فقتل من أصحاب محمد بن الحسين نحو أربعة عشر نفراً وجرح نحو الثلاثين. ثم حملوا على أهل العرّ بسفح الجبل فهزموهم إلى أعلاه، واتصل الضرب في أعقابهم، ثم طلع عسكر الإمام وخيله إلى أعلى الجبل، واحتلط الجميع وحصل الاستيلاء على رأس الجبل، وقُفلة، ودخل الجند بلاد (مرفد).

وكان المتولي للملحمة فيهم السلطان عبد الله بن هريرة، ومعه رايات الشيخ الحبيب سالم، ولهم فيه اعتقاد عظيم، وهو شريف من أولاد الشيخ أبي بكر بن سالم من آل با علوي.

ولما استقر أصحاب الإمام بمرفد اجتمع يافع من كل أوب يوم الثلاثاء (٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٠٦٥هـ) وأحاطوا بمرفد، فرأى أصحاب الإمام ألا يخرجوا إليهم فيتركون لهم سورتهم حتى يفلوا شوكتهم.

وفي خلال ذلك وصل صفى الإسلام من البيضاء، فلما ضربت طبوله ولوا الأدبار، واستولى عليهم الإديار، ثم طلبوا بعد ذلك الأمان، فبذله لهم، ودخلت الأجناد الموسطة. ولما سكنت الزعازع، وصلاح أمر يافع، أمر الإمام الأمراء بالترث زيادة في الاستقرار والاطمئنان، لكنهم راجعوا الإمام بسرعة وصولهم إليه وبالعود، فعادوا إليه وأمروا على البلاد الرئيس شرف الدين بن عبد الرحمن بن المطهر شرف الدين، وكان على الأمراء أن يتلبثوا ولا يسرعوا بالعود.

ولما بلغ سلطان حضرموت هذا النصر الجسيم، والفتح العظيم أطلق عمه من قيد الترسيم، وأشعر الإمام بالطاعة، والاعتزاء إليه في الجمعة والجماعة، فأرسل إليه الإمام الأمير صالح بن الحسين الجوفي، فلما وصل هنالك وجد الأمر على حقيقته، وعاد الأمير وقد صلحت البلاد والديار، فوجه إلى بدر بن عمر ولاية ظفار.

وفيما عاد الشيخ يحيى روكان إلى عناده، وحنَّ إلى ما ألفه من فساد، فجهَّز عليه الإمام من قصده إلى عقر داره، وعطله عن ساسوسه وأوطاره، ففر هارباً إلى شهارة مستشفعاً بالحسين بن المؤيد؛ فأعرض عنه، ثم سار إلى الإمام بضوران، فبقي بها حتى مات كما سبق.

وفيها وفدت الأخبار أن الباشا بمصر عزل الباشا الذي بسواكن.

وفي ذي الحجة (سنة ١٠٦٥هـ) ظهر لآل الإمام عاقبة حسن الرأي الذي كان رآه الإمام وهو ألا يرتفعوا عن بلاد يافع حتى تستقر القواعد وتعرف المقاصد، فإن ابن العفيف تغلب على البلاد، وطرده عامل الإمام بالسيوف الحداد، وأخرجه من الجهة اللحجية على قدميه بعد قتل بعض أصحابه.

فلما علم الإمام انتدب للدخول إليهم ولده الناسك البار الزاهد محمد بن المتوكل، وكان يومئذ في سن البلوغ، لكنه من الرسوخ في سن الشيوخ، وبادر إلى الوصول إلى البيضاء خشية أن ينجم خلاف الرصاص، فقد انتهب عقيب هذا الخلاف قافلة بنجد

السلف، واستدعى ابنُ الإمام، أولاد أعمامه الأعلام.
فساروا جميعاً وتتابعَت الأجناد إلى البيضاء، ثم إلى الوسطة بلاد ابن هريرة؛ لأنه لم يظهر منه شقاق، وإن كان في الباطن مع أصحابه بالاتفاق.

وفيات سنة ١٠٦٥هـ

أحمد القيرواني

فيها مات بصنعاء الشيخ العارف أحمد القيرواني المالكي المغربي.
وصل إلى صنعاء في دولة المؤيد محمد بن القاسم، ثم سار إلى مكة للحج. استقر مدة ثم عاد اليمن ومعه كتبه لا يفارقها، فتوفي وقبض كتبه القاضي الحسين بن يحيى السحولي إلى أن يظهر وارثه.

إبراهيم بن يحيى جحاف

وفي رابع عشر شعبان (سنة ١٠٦٥هـ) توفي بحدود السيد العلامة الأديب إبراهيم بن الهدى بن إبراهيم بن المهدي بن أحمد جحاف عن (٧٥ سنة)، فإن مولده (سنة ٩٩١هـ).

كان مفتياً وذا عناية بالحديث، وله فيه مستحازات عن الشيخ أحمد بن علي بن مطير وغيره، وهي مجموعة بخطه، وكان حاكماً حبور وإماماً جامعاً، وله في الفرائض تأليف حسن، خرج فيها الأحاديث من أصولها، وكان من أهل الملكة والرياضة الكلية لنفسه، عاكفاً على كتب الطريقة مواظباً على الجماعة في مسجد حبور، وله شرح على أبيات الجعبري في التلاوة لآي الفاتحة. وكان بينه وبين الحسن والحسين ابني القاسم غاية الصداقة والمفاكحة. وكان يرى رفع اليدين عند تكبيرة الافتتاح، ووضع الكف على الكف، كما هو قول أكثر العلماء.

وأعلى ما وقع له من الطرق ما يرويه عن الشيخ العلامة علي بن محمد بن مطير، عن عمه عبد الله بن إبراهيم بن مطير، عن القاضي زكريا عن الشيخ ابن حجر العسقلاني بأسانيده المعروفة. وله تخميس قصيدة الصفي الحلبي التي أولها: (فيروزة الصبح أم ياقوتة

الشفق). ومن شعره:

وإذا أسبل الظلام رواقاً
فأنا أرفع الأكف إلى من
قائلاً رب أنت تعلم بالحال
ولعمري ما يهدم اليأس ظني
لو تكون السماء والأرض رتقاً
هذه سنة الأوائل من قبـ
كلما جاءهم من اليأس كأس
وهذا معشر به واستراحوا
خطرة القلب عنده إيضاح
فقيم السؤال والإلحاح
والإله المؤمل المسماح
أو تحول السيوف والأرماح
لما طال ما استراحوا وراحوا
فلهم في رجائهم أقـداح

محمد بن الحسين المحرابي

وفيها مات ببلاد عذر السيد العارف حاكم الشريعة بها محمد بن الحسين المحرابي، ويروى عنه أنه كان يميل للمذهب الشافعي.

حوادث سنة ١٠٦٦هـ

وفي (سنة ١٠٦٦هـ) تحرك جند الإمام إلى ابن العفيف والناخي، فالتقاهم الشيخان ومن معهما بحرب عوان، ورتبوا الأحزاب في ظهور الهضاب وبطون الشعاب. وما زالت سير الحرب حامية، وأحوال الفريقين متكافية، إلى أن جادت صولة أصحاب الإمام، وخفقت بريح نصرهم الأعلام، فانهمز ابن العفيف، وآل كيـله إلى التطفيف، ثم هتف بالأمان والوصول، فأسعف إلى ما يقول، ووصل إلى الوسطة. ثم سار من حينه إلى حضرة الإمام بضوران، ولم يلبث أن توفي فصلّى عليه الإمام صلاة الجنائزة، وحضر غسله وجهازه، وأما الناخي فإنه قاتل بعض القتال.

ثم دخل فيما دخل فيه ابن العفيف، فأخذ له الأمان، وكان قد قتل من أهل آنس مقاتيل، فغدروا به وقتلوه.

وبعد هذه الملحمة أذعن أهل يافع بالطاعة، وغيرهم من حد العرّ إلى عدن وهي بلاد واسعة ذات أرزاق نافعة، ووصل إلى الإمام أعيان المشائخ كالشيخ عبد الله بن هرهرة

وغيره، ولما وصل الشيخ صالح بن أحمد الرصاص إلى الإمام، خلع عليه؛ لأنه لم يجر منه خلاف في هذه الحرب، وأعادته إلى بلاده. واستبقى ابن هريرة لديه.

ثم رجع الإمام أن يأمر الأمراء الذين يبايع أن يقبضوا سلاح أهل يافع إلى حصن الدامغ، فأوصله أهل يافع على ظهورهم، وأودع خزانة الحصن، ثم أرسل الإمام الشيخ محمد بن الحاج أحمد عواض الأسدي، إلى بلاد بيحان إلى الشريف طالب بن حسين الجوفي الحمزي، فسار إليه وعاد به، وجعل الإمام ولاية البيضاء ويافع إلى ابن أخيه الحسين بن الحسن، فاستمر عليها واستقر أولاً بالبيضاء ثم برداع عهداً طويلاً.

وفيها تألب جماعة من أهل صنعاء وصوفيتها على البائیان بسبب تغيير قانون البيع والشراء، واستعلائهم في الخانات على المسلمين، وراموا إخراجهم، فلما بلغ الإمام أنكر عليهم ما صنعوه وعرفهم أنهم في جواره بأداء الجزية، وأنه لا بد من برهان شرعي يُستند إليه في حرم الذمة، ثم أودع جماعة من المتعصبين السجون، ثم أطلقهم بعد أيام.

وفيها هم الإمام أن يجهز إلى الحبشة بسبب ما وصفه رسوله القاضي الحسن الحيمي، وحرّض الإمام بقصائد، ولم يتم ذلك.

وفي شعبان ورمضان (سنة ١٠٦٦ هـ) اشتد الطاعون بصنعاء حتى خرج منها ليلة عيد الفطر، قدر ثلاثين جنازة، والله الأمر.

وفي آخر رمضان انصب مطر الخريف بغزارة، ووصل السيل العظيم، فأخرب جانباً من عقود الدوائر وبيوتاً من السائلة، ثم تكرر فأخرب بقية العقود من الطرفين، ودفن غيول السد بشعوب، وخرج بعضه من باب السبحة ولولا انكسار الخندق الأسفل لركب المدينة وأخرب فيها ما شاء من البيوت.

وفيها مرَّ محمد سعيد رسول ملك الهند باليمن راجعاً من الأبواب السلطانية إلى الهند، وكان أرسله ملك الهند يستصرخ السلطان على شاه العجم، لما أخذ من أطراف بلاده، وطلب من السلطان أن يشن عليه الغارات من الشمال، فيحصل بذلك التنفيس عليه، فاعتذر السلطان بما بينه وبين شاه العجم من الصلح المعقود، والأيمان والعهود.

وفيها استدعى الإمام السيد العلامة أحمد بن علي الشامي بسبب أن ولده قتل مملوكاً له، فأوضح للإمام الحقيقة أن قتله للعبد دفاعاً؛ لأنه ألقى عليه حجرة عظيمة، لولا دفاعه

لقتله فعذره الإمام.

أبو طالب أحمد بن القاسم

وفي (٢٣ صفر سنة ١٠٦٦هـ) توفي بصعدة المولى الإمام والغرة في أبناء الإمام صفى الإسلام أبو طالب أحمد بن القاسم، وكان أكبر من أخيه المتوكل، وعمره (٥٩ سنة)، فإن مولده في (صفر سنة ١٠٠٧هـ). وكان من أعضاء الدين وأعمدة المسلمين، تولى لوالده وأخيه المؤيد الشرف وصعدة، وكان يأمر باصطناع الطعام الواسع، وتفريقه بالليل على الضعفاء إلى بيوتهم، وكان لا يرد سائلاً، ولو يعطيه من ثيابه حتى سمي أبو الطالب، وله مقامات محمودة في جهاد الأتراك. وكان مع أخيه المؤيد أسيرين بكوكبان ست سنوات، وأدّخر للحرب عدة كاملة.

وعقب وفاة المؤيد دعا بشهارة، وبايعه شيخ الإسلام أحمد بن سعد الدين المسوري، لكن تغلبت السياسة والقوة وتجمع الأمراء لمصلحتهم، فجرى ما انتهى إليه استقرار دعوة المتوكل، فولاه على صعدة وبلادها، حسبما سبق ودفن بقبته المعروفة بصعدة.

وله تراجم حسنة في مطالع البدور وبغية المريد، وكان محباً للصدقات والمآثر الحسنة، ومنها الحسنة الجارية والمنقبة العالية، جامع الروضة فهو على كيفية يقطع من شاهدها أنها برّ موصول وعمل متلقى بالقبول، حتى قال بعضهم:

لا تحسب الجامع في روضة وإنما الروضة في الجامع

ووقف عليه ما يقوم به من أموال في سعوان وغيره، ومعمرات، منها سمسة سوق العنب، ومن مآثره سمسة الأزرقين، عمرها بوصية من زوجته بنت المعافى وسمسة ريذة وغير ذلك، وبعد وفاته وجه المتوكل ولاية صعدة لولده المولى علي بن أحمد، وأما ابنه محمد بن أحمد فبقي قائداً كبيراً، يتردد إلى حضرة الإمام، وولايته بلاد الظاهر وخمر وعمران، وما جاورها، وكان قد أشار على المتوكل بأمرين ترك الصّر الذي يصير إلى مكة مع أمير الحج، وترك فتح المشرق تفرساً منه أنه لا ينضبط الأمران، فكان الأمر كما تفرس.

من حوادث سنة ١٠٦٦هـ

وفيهما وقع بين ذو محمد وذو حسين من برط إخن، وقاتل، ذهب فيه منهما جماعة.
وفيهما أنشأ السيد العلامة الحسن بن أحمد الجلال رسالةً لعلها (براءة الذمة بنصح إمام الأمة) استشكل فيها التجهيز على المشرق - سبق إشارة إليها - ويمكن المناقشة لبعض أطرافها، كأبحاث ومؤلفات الجلال الأخرى، وقد كتب عليها بعض القاصرين جواباً شغل فيه القرطاس، واستنتج من غير قياس.

وابن اللبون إذا ما لُزَّ في قرنٍ لم يستطع صولة البزل القناعيس

وفيهما وصلت إلى اليمن نسخة من كتاب فتح المتعال في مدح النعال للشيخ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، نزيل القاهرة المحروسة، وكان قد صنف قبله في ذلك ابن عساكر والشيشي والبلتيني، لكنه أوعب فيه ما يتعلق بالنعال الشريفة، وما قيل فيها من المدح اللطيفة، وانجر كلامه إلى أطراف تقضي بسعة إطلاعه، ورتبه على فاتحة في معنى النعل والقبال، والشراك والشسع وما يناسب ذلك وأبواب.

الباب الأول: في بعض ما ورد فيه من الأحاديث وتفسير ألفاظها وما يتبع ذلك.

الثاني: في صفات النعال العظيم البركات، وما يتصل بذلك.

الثالث: في إيراد نبذة من المقطعات والقصائد الموقولة فيه، وما يتصل بذلك.

الرابع: في سرد جملة من خواصها وخاتمة في زبد مما يتعلق بها وما يتصل بذلك. ومثل في هذا الكتاب النعال الشريف بالذهب الأحمر على الأنحاء المختلفة، يقول صاحب طبق الحلوى: فكتبت في ديباجته ما صورته: لما وقف العبد الحقير الضعيف على مثال النعل الشريف هزه الشوق إلى من به كمال التشريف، وتعلل عن رؤية الذات المقدسة بمشاهدة هذا المثال اللطيف منشداً للحال قول من قال:

يا عين أن بُعد الحبيب ودأره ونأت منازلُه وشط مزاره

فلك هنا فلقد حُظيت بطائل إن لم تريبه فهذه آثاره

ثم أنشد في الحال مواجهاً لتمثال شريف النعال:-

أي عيوني نزهي الأحداق في شبه نعل المصطفى فهي حديقة

صُورَتْ بِالْتِّيرِ كَيْ تَرْمَقَهَا
أَيُّهَا الْكِتَابُ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ
فَارِ سَمُوهَا بِسُودِ الْعَيْنِ أَوْ
وَاحْضِبُوهَا بِسَحِيقِ الْمَسْكِ إِذْ
وَاجْعَلُوهَا عَوْذَةً مِنْ كُلِّ مَا
يَا لَهَا نَعْلًا بِهَا جَازَ إِلَى
وَسَمَتْ حِينَ أَقْلَتِ قَدَمًا
ثَبَّتَتْ أَقْدَامَهُ فِيهَا وَقَدْ
لِي قَلْبٌ يَشْتَهِي تَقْبِيلَهَا
وَطَرِيقِي فِي هَوَاهَا وَاضِحٌ
أَحْمَدُ حُدِي وَمُخْدُومِي وَمَا

أَعْيُنُ النَّظَارِ فِي ذَاتِ رَشِيقَةٍ
فِي مِثَالِ النُّعْلِ أَمْثَالِ عَمِيقَةٍ
بِالسُّوَيْدَا مِنْكُمْ فَهِيَ خَلِيقَةٍ
حَمَلَتْ طَهَ إِلَى أَرْضِ سَحِيقَةٍ
يُتَحَامَى مِنْ صَدَاعٍ أَوْ شَقِيقَةٍ
سَدْرَةٍ رَاقَتْ بِأَوْرَاقٍ وَرِيقَةٍ
جَاوَزَتْ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ أُنِيقَةٍ
صَرَفَتْ أَقْلَامَ أَسْرَارِ دَقِيقَةٍ
فِي قِبَالِهَا لَكِي يَطْفِي حَرِيقَهُ
إِنَّمَا يَسْكُلُهُ أَهْلُ الطَّرِيقَةِ
أَنَا إِلَّا عَبْدٌ نَعْلِيهِ حَقِيقَةُ

(القبالان تثنية قبالة بقاف مسكورة زمام يكون بين الأصبع الوسطى والتي تليها كما في القاموس وغيره).

ولصاحبنا الصدر الأديب سنبل بن سرور.

عَلَيْكَ إِنْ كُنْتَ تَهْوَى أَرْفَعُ الرَّتْبَ
تَجِدُ نَصِيكَ مِنْ عَزٍّ وَمِنْ شَرَفٍ
وَكُرَّرَ اللَّثْمُ وَاسْتَشْعَرَ لَهُ قَدَمًا
رَفَى بِهَا السَّيْعَ حَتَّى جَازَ مُنْتَعَلًا
مُسَبِّحِينَ لِمَوْلَاهُمْ وَقَدْ عَجَبُوا
مِنْ لِي بِلِثْمِ تَرَابٍ مِنْ أَصَابِعِهِ
مِنْ نَعْلٍ أَرُوْعَ أَنْ تَسْأَلَهُ مَكْرَمَةَ
نَفْسِي الْفِدَاءَ لِأَقْدَامِ رَسَخْنِ بِهَا
مَصُورًا لَا تَزَالُ الْكِتَبُ تَحْرُسُهُ

بَلْثَمَ نَعْلِ رَسُولِ اللَّهِ خَيْرَ نَجِي
نَصِيْبِ شَانِيكَ مِنْ هَمٍّ وَمِنْ نَصَبٍ
بَيْنَ الشَّرَاكِينَ مِنْ دُرٍّ وَمِنْ ذَهَبٍ
مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ وَالْأَمْثَلِ فِي الْجَبِ
مِمَّا بِهِ خَاتَمُ الرِّسْلِ الْكَرَامِ حُبِّي
وَكَيْفَ وَالنُّعْلَ بَاقٍ فِي حِشَا الْكِتَابِ
يَهَبُ وَإِنْ بَاشَرَ الْهَيْجَاءَ لَمْ يَهَبِ
مِنْ بَعْدِ مَا نَكَصَ الشَّيْطَانُ لِلْعَقَبِ
أَعْظَمَ بِهِ مَعْجَزًا يَبْقَى عَلَى الْحَقْبِ

فكيف لو قَبِلَ النعلَ التي ارتفعت
 بل كيف لو كان ذاك اللَّسْمُ في قدمِ
 فضمَّه يا كسير القلب منتصباً
 أفديه من شبه نعلٍ لست أنزلُـه
 بالله يا فكري الوقاد خاطرُـه
 وخل عنك (ألا يا دارَ مئة بالـ
 ومِلْ عن البان في سحر البيان ولا
 وانزل على السهل من أرض الكلام ودع
 وهات ما ساقه الطبعُ اللطيف بلا
 فإن أجدت فلم أسمع بمثل
 فاختر لنا خير ما يهديه ذو كلم
 ولا تثب وثبة المغرور ممتدحاً
 فأنت أقصر باعاً أن تطول يداً
 فقف لدى النعل واشمخ بالمديح لها
 ونظّم الشهبَ ثم اجعل صحيفتها
 عسى تقوم بحق النعل إن هجمت
 (وقد وجدت مكان القول ذا سعة
 قد مثل الروم في الكاسات قيصرهم
 وذا الذي شرف النعلَ التي لمست
 لو صيغ من شكلها تاجٌ لمملكة
 وبأخا لهم هذا نعلٌ من شرفت
 قبْلُه واضرب به وجهَ الهموم إذا
 وقل لعقرب همٍ خفت عودقها

على السماك على الجوزا على زُحل
 علت محلاً على الروح الأمين علي
 للشمه فهو عندي قبْلَةُ القُبُل
 إلا السوادين من قلبي ومن مُقلبي
 أرح فوادي عن التشبيب والغزل
 حجرعاء) أو عُج برسم الدار فالطلل
 تكل طبعي بذكرَي جِيرة الكَلَلِ
 لصخر شعر ابن هاني ذروة الجبل
 تكلف ومضى فيه بلا ملل
 فيما نظمت ولم أعثر على ثقل
 نمدخ به شبه نعلَي خير متعل
 لصاحب النعل تدعى صاحب الخطل
 لذاك بعد كلام الواحد الأزلي
 أنفاً وتِه وافتخر وامرح وصُل وطُل
 جبين شمس الضحى والشمس في الحمل
 بك السعادة في الدنيا على الأمل
 فإن وجدت لساناً قائلاً فقل
 وذاك موضع أهل البغي والزلل
 أقدام هادي البرايا واضح السبل
 لما استحقته إلا أشرف الدُول
 أفواها من ثرى نعليه بالقُبُل
 ما بت في غمرات الغم في شغل
 على الفؤاد مقال الناشط الجدل

يا عقربَ الهم هذي النعلُ حاضرةٌ إن عُدتِ عُدنَا إلى عادَاتِنَا الأولِ
يا سيدَ الرسلِ لي شكوى إذا ذُكرتُ لاح الضحَى من سواد الليل في حُلُلِ
وكادت السحبُ من وهَّاج لفتحها تنهلُ جمرًا مكانَ العارضِ المَطلِ
شكوى تيرًا لفظي من فضاعتها عن وصفها ودعا بالويل والوهل
والله والله ما قاسيتُ شدتها إلا حسبتُ الردى ضرباً من العسل
وقد توسلت بالنظم الذي لحقت ألفاظُه في مثال النعل بالمثل
في حل عقدتها يا من تُحل به من الخطوب عقودَ الحادثِ الجَلَلِ
فاشفع فما خاب لا والله من علقته يداه منك بجبلٍ غير منفصل
صلى عليك إله الخلق ما أمنت بك النفوسُ شديداً الخوفِ والرجل
وما حلا ختمُ نظمٍ بالصلاة على كرام آلك أهل العلم والعمل

أما قوله: فإن أحدث.. إلخ، فسحر بابل وتغريد بلابل، وما أَلطف الجمع بين السماع والابتذال والعتور والثقل، وهكذا فليكن ابتكار المعاني، وإسكانها من لطيف الألفاظ أرفع المباني، وقوله: وقل لعقرب هم، وما بعده ناظرٌ إلى قوله:

إن عادت العقربُ عدنا لها وكانت النعل لها حاضرة

وإذ وقع ذكر النعل الشريفة هنا، فلا بأس بذكر أبحاث في ذكرها مزيد تشريف بآثاره - صلى الله عليه وآله وسلم - غير مخرجة عما نحن فيه.

البحث الأول في النعل والنعال والشسع

أما الأولان، فقال صاحبُ القاموس: النعلُ ما وقيت به القدمُ عن الأرض كالنعلة مؤنثة وجمعه نعالٌ وهو خلاف ما في المصباح وغيره أن النعل مؤنثة يعني التأنيث المعنوي وعلى القول بالتأنيث، فتصغيره على فُعِيل خارج مخرج الشذوذ، كما جاء في درع وحرب وناب وذود وغيرها، وقياسُ تصغيره فُعَيْلةً، وقد اقتصر عليه بعض الأئمة وقول بعض الأنصار: يا خير من يمشي بنعلٍ فرد، يؤيد ما في القاموس.

وأما قول ابن الأثير: إنه محمول على أن تأنيثه غير حقيقي فغني عن بيان ضعفه كما لا يخفى، ولو قيل: إنه مما جاء فيه التذكير والتأنيث، ويشهد له التصغير على فُعِيل

وفَعِيلَة، لكان توفيقاً حسناً، وفي الحديث: «لترَكِبَنَّ سَنَنْ من قبلكم حَذَوُ النعل بالنعل» أي قَطَعَ النعل على النعل، قال الترمذي عن عبدالله بن عمر مرفوعاً: «لِبَاتَيْنِ على أُمِّي ما أتى على بني إسرائيل حَذَوُ النعل بالنعل» ومن الحديث في مسألة ضالة الإبل: «مالك ولها معها حذاؤها وسقاؤها»، وهو من الاستعارة لصبرها عن الماء، وفي الحديث (إذا ابتلت النعال فالصلاة في الرحال) ورحلُ الرجل مترلُه المعنى صلوا في منازلكم عند ابتلاها من المطر، وقال الحريري: في ذُرَّة الغَوَاص في أوهام الخواص: إن النعال في هذا الحديث جمع نعل، وهو ما صلب من الأرض. انتهى

وروى ثعلب عن أبي سلمة عن الفراء أنه قال: النعال الأرضون الصلاب وأنشد:

قوم إذا اخضرت نعالهم يتناهقون تناهق الحمير

وفي الخبر: «إذا ابتلت النعال فالصلاة في الرحال»، يقول: إذا ترلقت الأرض فصلوا في منازلكم، انتهى

ويطلق النعل كما في القاموس على الزوجة، ومنه ما ألفزه الحريري في مقاماته: إن من لَمَسَ ظهر نعله ينتقض وضوءه من فعله.

ومن أمثال العرب: كاد المتنعل أن يكون راكباً.

وروى ابن عساكر عن أنس مرفوعاً «المتنعلُ راكبٌ»، وروى غير واحد كالبخاري في تاريخه وأحمد في المسند والحاكم في المستدرک عن جابر والطبراني في الكبير عن عمران بن حصين، وفي الأوسط عن ابن عمر (استكثروا من النعال، فإن الرجل لا يزال راكباً ما دام متنعلاً).

وأما الشَّعْع فهو القِبَالُ كما في القاموس، وقال الحافظ بن عساكر: الشَّعْع واحدُ شُشُوع النعل، وهو الذي يُدْخِلُه المتنعل بين إصبعيه ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام. والزمامُ السيرُ الذي يعقد فيه الشَّعْع ونحوه للنسوي في شرح مسلم، وعن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه، قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الطريق، فانقطعت شسعُه، فقلت: يا رسول الله، ناولني أصلحه، فقال: «هذه أثرَة ولا أحبُّ الأثرَة». انتهى

الأثرَة بفتح الهمزة والناء الاسم من آثرٍ يُؤثر إذا أعطى والأثرَة الاستثارة وهو من

الانفراد بالشئ، فكأنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كره أن ينفرد أحد بإصلاح نعله فيحوز فضيلة الخدمة، ويكون له بمثابة الخادم، ويكون له - صلى الله عليه وآله وسلم - ترفعُ المخدم على خادمه لتواضعه - صلى الله عليه وآله وسلم - مع من يصحبه، وأورد الفتنى عند ذكر حديث الاستخارة في الأمور قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : ((ليسأل أحدكم ربّه حتى في شسع نعله)).

وروى أبو يعلى في مسنده عن عائشة رفعتة: «سلوا الله كل شيء حتى الشسع، فإن الله إن لم ييسره لم ييسره»، وروى ابن السني في عمل اليوم والليلة عن أبي هريرة «ليسترجع أحدكم في كل شيء حتى في شسع نعله فإنها من المصائب».

وروى ابن عري في الكامل عن أبي هريرة: «إذا انقطع شسع أحدكم فليسترجع فإنها من المصائب».

واعلم أن النعل لباس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قاله ابن العربي، قال: وإنما أتخذ الناس غيره لما في أرضهم من الطين، أو قال: المطر. انتهى نقله عنه غير واحد كالشيخ عصام.

البحث الثاني فيما ورد في النعال الشريفة

عن قتادة عن أنس كانت نعل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لها قبالة، وعن ابن عباس: كان لنعل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قبالة مثنى شراكهما، وقوله: مثنى بضم الميم وفتح الثاء المثناة، وتشديد النون اسم مفعول والتثنية جعل الشيء اثنين أو بفتح الميم وسكون الثاء كمرمي اسم مفعول.

وعن عيسى بن طهمان، قال: أخرج إلينا أنس بن مالك نعلين جرداوين لهما قبالة، قال: فحدثني بعدُ ثابت عن أنس أنهما كانتا نعل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قوله: جرداوين بالجيم أي لا شعر عليهما.

قال في النهاية: استعارة من أرض جرداء، لا نبات فيها وفسره في شرح السنة بالخلقين، وكان - صلى الله عليه وآله وسلم - يلبس النعال السبئية.

وفي جواب عبدالله بن عمر على عبيد بن جريح، وقد سأله عن لبس النعال، قوله: رأيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يلبس النعال التي ليس فيها شعر ويتوضأ

فيها، فأنا أحب أن ألبسها. انتهى

السَّيْتِيَّة بكسر السين نسبة إلى سَيْت، بمعنى جلد البقر المدبوغ مطلقاً أو بالقرَض خاصة، كما قاله الأصمعي، وهو ورق السلم يجلب من اليمن، قيل: وكانت نعله - صلى الله عليه وآله وسلم - مخصوفة وكانت صفراء، وفي حديث ابن عمر ما يقضي بهذا، وكان يقدّم اليمنى في اللبس واليسار في الخلع، كما كان يحب التيامن في شأنه كله.

البحث الثالث

أفاد ابن الجوزي أن الذي يدم لبس اليمنى من قبل اليسرى ينال الأمن من الطحال، وقد ساق منافع النعال صاحب فتح المتعال، وأطاب وأطال، فمعناها أن من أدام حمله أعني مثال النعل النبوي، نال القبول عند الأنام، وشاهد نبئ - صلى الله عليه وآله وسلم - في المنام، حائزاً قَصَب السبق في الاغتنام، ومن احتوى عليه غلب الأضداد والطغاة والبغاة وأحرز نفسه من مردة الشياطين وعيون الحاسدين، وهذا من طريق التجربة لخواص النعل الشريفة. انتهى

وفي هذه السنة أيضاً خرج إلى اليمن كتاب ربحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، وقد ذكر هو أيضاً في النعل الشريف مبحثاً، وأورد جملة من المقطعات المسمّى واحداً (دُوَيْت) بالمهملة لفظة فارسية معناها اثنان، ومنه ما جاء في حديث سلمان الفارسي: التمر بك بك والعنب دو دو بك بمعنى واحد بالفارسية، فالمعنى من دُوَيْت بيتان وضبطه بالذال المعجمة تصحيف.

وفيها وصل درويش من الهند إلى صنعاء يحدث من أكرم غريباً في غربته فكأنما أكرم سبعين نبياً مرسلأ، وما زال يطرحه تجاه المصلين يوم الجمعة، ثم زاد فيه بعد أيام بعد قوله في غربته في بيته، وهو مما لا أصل له، ولا ذكره السخاوي، ولا سيدي أحمد بن عبد الله بن أحمد في الأحاديث الدائرة على الألسنة، ولا الديبع في تمييزه وما عليه شيء من طلاوة الحديث النبوي.

حوادث سنة ١٠٦٧هـ

في (صفر سنة ١٠٦٧هـ) وصل السيد صارم الدين إبراهيم بن محمد المؤيدي إلى الحضرة المتوكلية ونال من التعظيم ما هو أهله وبعد شهرين انتقل إلى حضرة محمد بن الحسن، فتلقيه بالرحب والإنعام، ثم عاد بلاده، وقد أقطعه الإمام بعض البلاد كما سلف، فاستقر في محله وعمّره بالشرعة النبوية والمسائل العلمية مع حضور أصحاب وأولاد وأحباب أجّلهم قدراً ولده السيد العلامة التقي الكريم أحمد بن إبراهيم.

وفيها وصل من قبائل بحدود البصرة من بلاد الخميل البديع ما بين الحسا والدواسر، مكتوب يذكرون اشتياقهم إلى دولة الإمام وتسليمهم له واجباتهم لما بلغهم من عدله، ولم يتم ذلك لبعد الديار والأبدان، وكون تلك الجهة مما يضبطه نائب السلطان العثماني وهو أقرب إليهم وأشد في الوطنة عليهم.

وفيها جاءت الأخبار أن السلطان محمد بن إبراهيم استولى على البعض من بلاد مالطة وأسر عالماً من النصارى.

وفي ربيعها أرسل الإمام القاضي الحسن بن أحمد الحيمي إلى أمير حضرموت بدر بن عبد الله الكثيري فتلقيه بالإكرام، وعاد إلى الإمام بهدية عظيمة ونفائس لها قيمة للإمام.

وفيها عمر محمد بن الحسن السمسرة العظيمة في سوق البز للتجارة، فاستعملت للبيع والشراء ومحازين، وكان لها شهرة ودور كبير مئات السنين ومن بعد فنب صنعاء سنة (١٣٦٧هـ) تعطلت.

وفيها عاد أحمد بن الحسن لعمارة حصن ذي مرمر، وأملاه بالحبوب والمعدات والذخائر، ثم كان مقر ملكه، ودفن بجانب جامع الذي بناه بقرية الغراس تحت الحصن مشهور مزور، ولما استوطن ذي مرمر والغراس السيد العلامة صلاح بن أحمد بن عبد الله الوزير، أيام إقامة والده فيه أثناء الدولة المطهرية وعقب أيام الإمام شرف الدين، قال:

وطني أوقاتي بسفح الغراس	لله أيامي بلذي مرمر
وأحسن النظم نظام الجناس	والجنس منضم إلى جنسه

والشمل مجموع بمن ارتضي
وللصبا غصن إذا هزه
وسفع خذآن إلى جانبي
ملاعب تجري بها خيلنا
والشامخ الفرد لنا مؤئل
له من الزهر نطاق ومن
ولعله كان مع زوجته ابنة خاله السيد العلامة علي بن الإمام شرف الدين، فهي التي
أشار إليها بقوله: والشمل مجموع بمن ارتضي، وانظر إلى رقة هذا النظام وما اشتمل
عليه من الانسجام، وله من هذا النمط ما يعلق بالأرواح كقوله:

ولي حبيب كأن الله صوره
أو أنه صافي البلور أودع في
إذا تذكرت أني عنه منتزع
وإن تذكرت أرضاً قد أقام بها
أهابه عند أفراح اللقا فأرى
فمن يث إليه بعض ما انطبقت
من ناضر الزهر أو من ذائب اليرد
أحشائه الورد محمر الطباق ندي
ضمت صدري إشفاقاً على كبدي
قبلت من فرط أشواق إليه يدي
في الظي ما يتقيسه الناس في الأسد
عليه أحشائي من وجد ومن كمد

وفيات

محمد بن الحسين بن القاسم

وفي عصر يوم (الجمعة ٨ شوال سنة ١٠٦٧هـ) توفي بصنعاء ودفن بجوار مسجد
حجر في بستان المتوكل السيد العالم الإمام صاحب المؤلفات التي منها منتهى المرام شرح
آيات الأحكام. وكانت له في العلوم اليد الطولى المولى محمد بن الحسين بن الإمام القاسم
بن محمد.

ومن مشائخه القاضي عبد الرحمن بن محمد الحيمي والقاضي أحمد بن صالح العنسي،

إسماعيل بن يحيى جحاف

قال في الوجيز في (١٤ شعبان سنة ١٠٦٧هـ) توفي السيد العلامة إسماعيل بن يحيى بن إبراهيم بن المهدي جحاف بحبور ، وكان عالماً محققاً في فنون شتى حتى الطب، وكان معتزلي المذهب في الصفات وأكثر القواعد.

حوادث سنة ١٠٦٧هـ

وفي (شوال سنة ١٠٦٧هـ) وفدت الأخبار إلى الحرم الشريف واتصلت باليمن أن السلطان محمد بن إبراهيم قد وجه إلى الحرم خارجةً بأسباب منها، ما نُمي إليه من الشريف زيد من عدم الوفا، وإهمال عين الزرقاء ونهرها الأصفي، وما نسب إليه من قتل مصطفى، وهذه الخارجة بخمس بوش من أمراء بني عثمان يتفرد كل باشا بخيل سوابق، وألوية بواسق وسناجق خوفاق، وآغوات وبكر ليكيه وأعيان، فأنهر لها الشريف زيد، وأظهر مواد القوة وأسباب الأيد، وقطع أنه أول مرمي بتلك الصواعق، وأقدم معني بتلك الفيالق، وتوقع سائر البلدان اليمنية، زائلة هذه الخارجة العثمانية. فلما توسطت تلك الأجناد ينبع، وما ولاها من البلاد أخذت أكثرهم الرمضاء بجمهرها اللفاح، وانقطع عنهم لذيذ الماء القراح، فتفتت أكبادهم بالأوام، ووصل البعض منهم إلى مكة وقد قلّ حذهم وقلّ جهدهم، ورأوا الشريف في أهبة رائعة وقوة مانعة، فما زادوا على عتابه لإهمال عين الزرقاء، فاعتذر بأن عملها كان موجهاً إلى سواه، وأن إهمالها كذلك مما لا يهواه، فحلموا عنه بعد ذلك الكلام، ولكن.

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لا جيء إليها اللئام

وفيها نفر جماعة من عسكر الإمام إلى ابن أخيه عز الإسلام، فما زال بهم حتى عادوا إلى حضرة الإمام.

وفيها مات الأمير حسين عبد القادر صاحب عدن.

حوادث سنة ١٠٦٨هـ

في (شهر ربيع الثاني) سار الأمير الناصر بن عبد الرب بن علي بن شمس الدين أمير كوكبان إلى حضرة الإمام، فأدّر شأبيب الإحسان عليه، وطلب منه إعانة على تكاليف الجند حتى لزمته ديون لكفائتهم، ولأهل الحقوق، فأخذ الإمام بضبعه، وأعادته مجبور الخاطر إلى ربعه.

وفيهما أول ظهور القرش - الريال - الدكني باليمن ولكثرة الغش فيه امتنع الناس عن التعامل به في بادئ الأمر، ثم تعاملوا به بإسقاط ثمنه.

وفيهما عقد المولى محمد بن الحسن لولده يحيى ولاية تعز والحجرية، فأصدر فيها وأورد، وبسّق غصن ملكه وتأوّد، وأعطى فأحجل الغيث الهامع، واستوى في سببه الداني والشاسع، وارتفع له قدر وتفخيم، وانتصب له كرسي ملك عقيم، فامتدت ذبول أوامره على غير تلك البلاد، ولباه إنسان السعادة بلسان الإسعاد، والسر في كمال هذه المعاني، واقتعاد الكرسي السليماني، هو الكرم الذي لا يوضع من الأناسي إلا في العيون، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون.

وفيهما جهز الشاه عباس على اللاهجان أو الشاهجان.

وفيهما سار محمد بن الحسن إلى اليمن الأسفل، فقوم المعوّج وأصلح المهمل وبنى في مدينة إب بابنة السيد محمد بن أحمد بن الإمام الحسن الذي كان متولياً للعدين، فزفت إليه من العدين وهي أخت الشريفة العالمة الأديبة زينب بنت محمد الشهارية واستقرّ باب أياماً.

وفي رجب هاجت ريح بلا مطر، فرفعت البحاح وكسرت الشجر.

وفي ذي الحجة ثار السلطان جعفر بن عبد الله بن عمر الكثيري على عمه بدر بن عُمَر، فخرج من حضرموت إلى ظفار، وما إليها، وذكر أن ذلك بعناية من أخيه صاحب حضرموت.

وفيهما توفي أمير الحاج المصري رضوان باشا فتاب عنه في الأمانة مملوكه الأمير قيطاس النائب على جدة.

وفيات سنة ١٠٦٨هـ

عبد الرحمن بن محمد نهشل الحيمى

فى (ربيع الأول سنة ١٠٦٨هـ) توفى القاضى الحافظ العلامة عبد الرحمن بن محمد بن نهشل الحيمى، بصنعاء وقبره بآجرة الروض مشهور مزور، عليه صخرة عظيمة فيها التعريف باسمه وحاله. وكان فى الحفظ لألفاظ السنة النبوية نسيج وحده، درّس مدة فى الفنون على أنواعها مرجعاً فى البحث فى كتاب الكشاف والعَضُد وحواشيهما، ودرّس مدة فى كتب الحديث كجامع الأصول.

ولما قرأ فى هذا الكتاب القاضى الحسن بن يحيى حابس على العلامة محمد بن عز الدين المفتى، وحضر القراءة القاضى عبد الرحمن الحيمى، فقال له المفتى: القراءة فى التحقيق عليك والوقوف فى المعنى بين يديك، وناهيك باعتراف هذا الإمام، شهادة لهذا البحر اللّهام.

ولالأديب أحمد بن الحسن بن حميد الدين مؤلف ترويح المشوق.

إن وجية الدين حَبَر عصره عالى السند
خير ثقات قام بالعلوم دهرأ وقعد
وحتّ فيها عزمه حين انتقاها وانتقد
بحر الكلام البرق — ساموس الصحاح المعتمد
عاش سعيداً ومضى على الطريقة الأسد
فأرخوا ميلاده (بقول هو الله أحد) (١)
وجاء عند عمره (الله) ذي الطول الصمد
هكذا وتاريخ الوفاة جاء بمجموع العدد

(١) لأن جملة عدد حروف قل هو الله أحد إلى آخر السورة ألف واثنين ١٠٠٢، وهو تاريخ مولده إلا اسم الجلالة ست وستين فهو عمره، والمجموع ألف ولمان وستين تاريخ وفاته.

بشارة إشـارة عنوان فضل ومدد
 بالله يا من سبقه إلى المعالي والرشد
 يا جامع الشارد مما شذ عن قوم ونـد
 يا باذل المجهول في العليا ومن جد وجد
 ما فعلت تلك اللسان والبنان والجلد
 والكلم الثمر التي سببت وروّت من ورّد
 أقسم لولا أسوة أضحت علي في الأبد
 وإن بعد اليوم والأمس على التحقيق غد
 لذبت من فرط الشجا وحرّة فقد وقـد
 وكل شيء صائر بعد البقا إلى أمد
 عادت عليك رحمة نـدها أسنا العدد
 ولازمت مثواك ما أبرق غيم ورعد

وقوله (فقد وقد) من البديع الجديد سماه في الريحانة إيهام التأكيد، نقل عن القاضي عبد الرحمن الحيمي أنه انتقل من مذهب الهادوية إلى مذهب الشافعية، وقد يظهر ترجيحه لمذهب الشافعي من عبارة شرحه لبلوغ المرام ومن مشائخه في الحديث الصابوني.

وحصل بينه وبين المؤيد بن القاسم وحشة، وكان العلامة الحسين بن القاسم يكافح وينافح عنه، وكانت الرصانة من لوازمه، فبدر منه بعض الأيام أنه ذكر له طول قعود الدولة العثمانية في تحت السلطنة، فقال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

ومن شعره:

صنعا إذا كنت مشغوفاً بمسكنها فاعد لها من حروف الحاء ما رُسِمَا
 حبٌّ وحبٌّ وحمائم مع حطب حظيرة وحمار حرفة وحمّا
 وزيد عليها الحلبة.

صالح بن الناصر الجوفي

وفيه مات الأمير الشريف صالح بن الناصر الجوفي الحمزي. وكانت إليه إمارة بلاد الزاهر، وخلفه أخوه الشريف علي بن الحسين الحمزي.

علي السريهي

وفيه مات شيخ القراءات السبع بجامع صنعاء الفقيه علي السريهي قصد الحج، فلما وصل إلى حلي بن يعقوب توفي.

عبد الهادي القويي

وفي (رمضان سنة ١٠٦٨ هـ) توفي بصنعاء ودفن بمقبرة باب اليمن الفقيه العارف عبد الهادي القويي الحضرمي الأصل الشافعي.

كان متجرداً عن أحوال الدنيا مائلاً قلبه إلى العلم، وأهله. وله كتب نحو ستمائة مجلد صارت إلى القاضي الحسن بن يحيى حابس بعد وفاته، إلا ثلثها، فقد جعله لفقراء المسلمين بصنعاء تباع وتصرف فيهم، وكان له ولوع بأكل القات، وهضر أغصانه بأنامل اللذات، ويعد ذلك عوناً على مطلبه، وزيادة في مكسبه، وما أحسن قول بدر الدين محمد بن علي بن الخواجّا لطف الله الشيرازي الأصل الصنعائي مولداً ومنشأً:

إني امرؤ لي في الرضا مشربٌ أقطع فيه جل أوقاتي
أقع بالوصل إذا جاءني وقهوة تبسط أوقات

والترجم له هو الذي أخبر بسماع النداء من الهواء للإمام القاسم.

علي جابر الشارح

وفيه توفي بصنعاء الفقيه العلامة شيخ شرح الأزهار والبيان، علي بن جابر الشارح. قرأ على الفقيه العلامة إبراهيم بن حثيث، والإمام محمد بن عز الدين المفتي.

ونقل عنه أنه أحال بحضرة المفتي مقدوراً بين قادرين، فداعبه المفتي بأن حمل طرف حجر، وأمره أن يحمل الطرف الآخر، ثم قال له: هذا مقدور بين قادرين، فانقطع مع أن محل المسألة هل تتعلق قدرة زيد بعين ما تعلقت به قدرة عمرو؟ والمثال بمعزل كما لا يخفى.

ومما أخبر به أنه رأى على رأس قبة الإمام يحيى بن حمزة نوراً كالمصباح، فأنكر شيخه إبراهيم بن حثيث، فسار إليه، فوجد المصباح، فاطفأه، فانطفأ، ثم عاد إلى الظهور بعد الخفاء، وهذا كما ظهر على قبر الشيخ حسن بن ناجي في قبته بذار، ذكره الموزعي المؤرخ وغيره.

ومن تلاميذ صاحب الترجمة العلامة الحسين بن محمد المغربي، وصنوه الحسن والعلامة صالح بن أحمد السراجي والعلامة عثمان بن علي الوزير، والعلامة المهدي بن حسين الكبسي، والعلامة الحسن بن لطف الزباري وغيرهم، وكان يُقرئ في مسجد الجديد بصنعاء حتى توفي.

محمد بن علي الحيداني

وفيه مات ببلدة السيد الداعي محمد بن علي الحيداني وسبق في (سنة ١٠٦١هـ).

أحمد بن علي مطير الحكمي

وفيه (سنة ١٠٦٨هـ) مات الشيخ العلامة أحمد بن علي بن محمد بن إبراهيم بن أبي القاسم بن عمر بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن محمد بن محمد بن عيسى بن مطير الحكمي الشافعي. كان بمساقط جبل تيس وجوار جبل ملحان.

وهم بيت علم، وكان يرجح أشياء تخالف مذهب إمامه الشافعي، وله منظومة للأزهار، وشرح على غاية السؤل ومصنفات أخر.

أخذ في الحديث عن والده وغيره، وعنه أخذ الفقيه علي بن محمد العُقيبي، ونقل عنه أنه أنشأ رسالةً، وذكر فيها أنه لا يصح حديث ((ستفترق أمي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة))، وهي ما أنا عليه وأصحابي، كما أخرجه أهل السنن، وقال: الحديث إنما هو من طريق معاوية بن أبي سفيان لم يروه غيره، كما أخرجه أبو داود في سننه وهو آحادي لا يحتج به في هذه المسألة، هذا ما نقل عنه، لكن الحديث رواه غير أبي داود بطرق كثيرة عن جماعة من الصحابة غير معاوية مثل أبي هريرة وآخرين.

وكان في مسألة الإمامة على مذهب الزيدية، قال ما نصّه: اعتقدنا مودة الآل رحمة

الله على محسنهم ومُسِيئهم، ونُفَضِّلهم ونُصَلِّي عليهم، فلأجل القُرْبَى يُكْرَمُونَ.
ثم قال: واعلم أن اعتقادنا أن الإمام بعد الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - عليُّ بن أبي طالب، ثم أبناؤه مرتبين.. إلى آخر كلامه.
وعبارته في العلميات تدل على سبقه في كثير منها، وكمال عنايته، وقد ثارت بينه وبين أهل مذهبه بجهته أذية لميله إلى مذهب أهل البيت.

حوادث سنة ١٠٦٩هـ

فيها سُمع في الجو صوت مهول، وأمرٌ من وراء العقول، وهو شيء من غمط الصواعق، والآيات الباهرة الخوارق، وحسب كل من بجهات شهارة، وما والاها أنه في بلدته فأخرب في دار القبة بشهارة جانباً وهلك في سيران رجل أو اثنان.

وفي (ربيع الثاني سنة ١٠٦٩هـ) وصل إلى الإمام السلطان بدر بن عمر شاكياً بما وقع من ابن أخيه من الغدر والاستيلاء على ظفار وأن ذلك بسبب إثبات الخطبة للإمام في تلك الأقطار، فاعتم الإمام لذلك الخلاف، ووعد ذلك البدر بالإنصاف، وأنزله في برج القبول، وأهَبَّ على مطلبه المقبول، نسمة القبول.

ولما استهل (جمادى الأول سنة ١٠٦٩هـ) برز الإمام في المنشية، خارج ضوران بضرب الوطاق، ووصل إليه في أول جمادى الآخرة، محمد بن الحسن من صنعاء، فأحكما عقد ذلك المرام وأزما على اصطفاء الصفي لفتح حضرموت والشحر وظفار.

وفي (آخر جمادى الآخرة)، وصل إلى الإمام من مكة المشرفة الشريف الحسن بن باز بجميع حشمه وخدمه مغاضباً للشريف زيد، وكان إليه ولاية القوز، فأحسن له التزول وتلقاه بالقبول، وبقي بأهله في بيت الفقيه برغبته، لكون الجهات التهامية، أنسب من الجبال بحال أهل مكة، وجعل الإمام لبيوته وأتباعه هنالك ما يقوم بهم.

وفي (شعبان) جاءت الأخبار أن طائفةً من أهل ينبع أثبتوا للإمام الخطبة في بلادهم، وكان له هناك عين من أهل صنعاء المهاجرين إلى تلك الديار، يقال له الفقيه حُسين النحوي.

ولما علم بقية أهل البلاد أشفقوا من إشراف الشريف على ما فعلوه وسعوا في ترك الخطبة، فتركت، وكان الشريف، قد توعدهم، وكتب عليهم سجلاً وأراد رفعه إلى السلطان، وكتب أيضاً إلى أهل المدينة بمثل ذلك.

وفي شعبان أخذ الإمام يرعد ويرق، ويؤذن بالنفوذ إلى المشرق، وعين له البيهس المصور والحسام المشهور أحمد بن الحسن بن المنصور.

وفي رمضان كان بخروج محمد باشا عن طاعة صاحب الأبواب ما أخرجه عن دائرة الصواب، وجرعه من النية ما هو أمر من الصاب، وكان مَبْوْشاً بِبَحْرٍ إِيْجَةٍ، فأمسك عصي الكبر، وضرب بها من بحر الخلاف في لُجَّة، فعزله السلطان عن تلك البلاد، ورماه إلى دائرة الإبعاد، ووجه إليه الأمير قيطاس نائب الدفتر دار بمصر على جدة وغيره من الأمراء الكبار، فأصلوا عليه جحيم الحروب، وأهَّبُوا على مَعَاظِنِهِ زَعَاذِعَ الْخَطُوبِ، وأمسكوه في قبضة الأسار، فبرز عليه أمر السلطان بقطع معقد الأزرار، وأصيب قيطاس بذلك الحرب، فحمل إلى مصر، فأدرك حِمَامَهُ وفقد مقامه.

وفي (١٥ شوال سنة ١٠٦٩هـ) تَقِيَ الصَّغِي للترال، فسار إلى السَّر وخولان وقحوان، ثم رغوان، واستقر به إلى تمام ذي الحجة، ثم سار إلى مأرب وبيحان، وبقي بمحل يقال له: الحَمَام، ثم دخل أطراف بلاد العولقي، فوصل بلدة واسط، ثم إلى وادي حجر، وأدرك الجندُ بهذه البلاد مشاقَّ وتعويقاً لتَوَعَّرَ مسالكها، وأكلوا لُحُومَ الْحَمَرِ وانقطعت القوافل عنهم.

وفي هذه الأيام سار أخوه عز الإسلام إلى رداع رداً للجند العازم، ولما بلغه من المشاق التي نالتهم.

وفي هذه السنة (١٠٦٩هـ) أكمل محمد بن الحسن عمارة سمسرة سوق البز بصنعاء وهي أجمل وأنفع السماسر والخانات العظيمة للتجارة، وقد عم انتفاع التجار بها مخازين للتجارة، ودكاكين بداخلها وأماكن حتى للعلماء، كان للسيد محمد بن إسماعيل الأمير فيها مكان يؤلف فيه فهي واسعة وطبقات، وقد رسم إكمال تاريخ عمارتها في أبيات مكتوبة فيها آخرها:

كملت عمارتها وجا تاريخها (ربح التجار بها وفاز المالك)

٢١٠ + ٦٤٣ + ٢١٦ + ١٠٦٩هـ

ثم بقيت مئات السنين عامرة مستقيمة عمدة للتجار الكبار، مأمونة محروسة محكمة الأقفال كبنك قبل حدوث البنوك بصنعاء جامعة للفلوس والتجارة والسدقاتر، يتسابق التجار الكبار على شراء سهوم فيها بأغلى الأثمان.

وفي (سنة ١٣٦٧هـ) لما حوصرت صنعاء بادر كثير من التجار بأموالهم وحُلِيِّهم لحفظها بما لما عرفوه أنها محفوظة دائماً بحراستها وأمنائها، فلما نُهب القبائل صنعاء تسابقوا إليها حتى بلغ أنه كان أحدهم يأخذ الخيشة من الريالات الفضة فوق ظهره فيقتله آخر ويأخذ الخيشة، وهكذا، ونهبوا منها أموالاً جزيلة بالملايين، ونقبوا جدرانها، وأخيراً حرقوا بعضاً منها، وكثيرٌ ممن أوصلوا إليها أموالهم وحليهم سلمت بيوتهم التي كانت أموالهم وحليهم بها وذهبت في السمسرة التي كانوا يظنونها أحفظ من بيوتهم.

وفيات سنة ١٠٦٩هـ

أحمد بن صالح العنسي

في صفر مات القاضي العلامة أحمد بن صالح العنسي الأصل ثم العياني، ثم البرطي، ثم الصناعي. كان عارفاً بالنحو والمعاني والأصول، وغلب عليه علم الكلام واللطيف، فتبحر فيهما على قواعد المعتزلة، وحقق الغايات وتذكرة ابن متويه على القاضي عبيد الهادي الثلاثي، وغلب عليه الشك في وضوئه وصلاته، وهو داء يعتري الفضلاء، وأصابه آخر مدته داء النقرس في قدميه ودفن بخزيمة مقبرة صنعاء.

وفي مطالع البدور أن هذا القاضي كان من أجلاء العلماء وخيارهم، ومن خواص الحسين بن القاسم بن محمد وعيبة سره، وشرّح الرياضة، ولعله لم يتم شرحه لها، وله كرامات منها رؤيته للنور في مواضع ومناجاة بعض الجن له بأخبار خاصة، وقبره بخزيمة بجانب قبر السيد محمد بن عز الدين المفتي.

وفيهما مات القاضي العارف حاكم ظفار وذيبين محمد بن صالح بن حنش.

عبد الله بن الإمام القاسم

وفي (جمادى الآخرة سنة ١٠٦٩هـ) توفي المولى الأمير عبد الله بن الإمام القاسم بن

محمد بدمار. وقبر إلى جنب قبر أخيه الحسين بقبته، وهو جد السادة آل الوريث، وآل عبّاد، وكانت له ولاية ذمار، ولكنه استعجل بمبايعة الإمام أحمد أبي طالب، فعتب عليه المتوكل، وانفصل عن الولاية إلى وفاته.

وفي (ذي القعدة) مات الآغا محمد بن ناصر المحبشي نائب زبيد بألم النقرس، وكان طلع صنعاء وأتاب زبيد ولد أخيه الشيخ عبد الله سراج، ولازم محمد بن الحسن بدمار وصنعاء حتى توفي.

أحمد الشرفي شريف الجن

وفيهما توفي السيد أحمد الشرفي المعروف بشريف الجن. وكان له معرفة بأحوال الجان ويدّعي أنه يراهم ويسمع أقوالهم، وقدم من الشرف إلى المتوكل بضوران، فمات بها، وكان يقول: إنه أخذ المعرفة عن الإمام القاسم.

حوادث سنة ١٠٧٠هـ

فيها انقطع حاج العراق لما حصل بين الشريف زيد والشريف أحمد بن الحارث من الفتنة وطريق العراق تقطع عرض بلاد اليمامة، وهي بلاد ولاية الشريف أحمد، وأمّا تجار الحسا، فإنهم نفذوا من بندرهم البحرين المعروف بالقطيف إلى البحر الفارسي، وخرجوا إلى عدن وتركوا مكة.

وفيهما جهّز الإمام ولده الهمام محمد بن الإمام، وولد أخيه محمد بن أحمد بن القاسم بعساكر إلى البيضاء لإصلاح الطريق وتسكين القبائل، فزلاها، واستقروا بها أياماً. وفيها صالت الجراد على البلاد.

وقام منها خطيب فوق سنبلة إنا على سفر لا بد من زاد حتى أفسدت مغارس البن في وادي أخرف، ثم إن الصفي تجرّد تجرّد الحسام، وعبّ عبة البحر فانفصل عن حَجَر وطلع العقبة.

وقد قدم بعض عيونه يسرّ الطريق، فلما استقرّ الصفي بأعلى العقبة شارف على إدراك بعض الطلبة، فانهمز من أعلاها أولُ مقدمي للسلطان، ثم انهزم البقيسة فاستولى

الصفى على الخزائن والأزواد والذخيرة والإمداد، وهذا المحل هو الذي يقال له ريدة أبي مسدوس، وعند ذلك طلعت على الصفى طلائع الانتصار وتواتر إليه قبائل تلك الأقطار، ثم تقدم إلى بلاد المحجرين، ولم يبق بينه وبين السلطان غير يومين، وكان السلطان إذ ذاك بهنين.

فدافع الحضارم ركبناً ورجاله، وقتلوا عن منصب سلاطهم لا محالة، فأطلقت عليهم الرصاص المذابة، ووجه إليهم الردى أسبابه، فخر منهم جماعات للجنوب، وانهمزم أكثرهم إلى الأودية والشعوب، فانهمزم السلطان من هنين إلى شبام، وقد طوي عنه بساط الأحكام، وحل عنه تاج الحل والإبرام، وأدبرت عنه ريح النصر، وكاد أن يلقى يوم بدر، فدخل الصفى هنين بمن معه من الرجال والفرسان، واستلم البيعة للإمام واغتسم ذخائر السلطان، ثم عطف الصفى على شبام، فدخلها وهي عين في مدائن الإسلام.

وخرج السلطان إلى محل يقال له شنافر، واستولى الصفى على منازل البدر، ونسي أصحابه ما قاسوه في أيام حجر، وفرق الصفى بينهم الأموال والتحف، حتى أنساهم الإقلال فيما سلف، ولما سقط في يدي السلطان، وفارق الأوطان رجع إلى الطاعة، وتوسل إلى الصفى بالشفاعة، وأعلن بإنابته وبعدم إصابته.

وفيهما جهز الإمام ولده محمداً، وولد صنوه محمد بن أحمد في عساكر حمة إلى البيضاء من أجل إصلاح الطرقات، خلف الصفى والرزم على أهل تلك الجهات، تخوفاً من مثل ما مضى وغزوا في خلالها إلى بلاد الشيخ على الهيثمي، فاستوليا عليها، وأخذوا ما ظفروا به، ففر الهيثمي إلى بلاد الفضلي، وكان ذلك لمعاضدته صاحب حضرموت، ولقطعه الطريق النافذة من جهته إلى الصفى، ثم أرسل الصفى بالسلطان بدر بن عبد الله الكثيري إلى مقام الإمام، فأعاده إلى ولايته بعد البيعة والإتتمام.

ثم وصل الهيثمي والقرعة والفضلي إلى حضرة الإمام؛ فبذل لهم ما يليق بمجاهد من العطايا والإكرام.

وبعد صفاء الخواطر أعادهم إلى بلادهم، وفيها حصل بين أولاد السلطان اختلاف وشجار، وأمور غير مبنية على قرار، لما أدركوا من شيخوخة والدهم، مع اضطراب أحوالهم واختلاف مقاصدهم، ولما كانت بلاد البسوط، ونعمان متوسطة بين بلاد

العولقي وبلاد الواحدي، وكانوا أيام الخروج على حضرموت قد قطعوا الطريق، وسعوا في سبيل التفريق، فقرن منهم الفقيه علي الجملولي في الأصفاة كل شيطان مريد، وبغلهم صلحت البلاد، ونفذ فيها الإصدار والإيراد، وأرسلهم الجملولي إلى مقام الإمام، ومن جملتهم الهيثمي، ولتكرر عصيانه حبسه الإمام بكوكبان، وأرجع الآخرين بلادهم بعد العهود.

ثم ارتحل صفي الإسلام يوم حضرة الإمام، فوصل ضرران في أمة فأخرة، ودولة قاهرة، تعنو لها الأكاسرة ونصر عجيب، وفتح قريب بعد أن استقر في البيضاء مدة، وفيها جاء الخبر أن جماعة خرجوا من حضرموت، وكانت طريقهم شبة، انتهبوا في الطريق ثم قتلوا.

وفيها جاء الخبر أن صاحب عُمان جهز على ظفار بدلالة جعفر بن عبد الله الكثيري. وفي هذه المدة انتهب عسكر الحيمة سوق الحصين، ولما أطلع الإمام رأى أن الصواب في أن يتغاضى، فأودع كبارهم الحبس، وكان قادراً على ما هو فوق ذلك بلا لبس.

وفي (يوم الخميس ٦ رجب سنة ١٠٧٠هـ) بعث الإمام إلى قبائل برط من دهمه بدرهم وأكسيه بواسطة قاضيهم أحمد بن علي وأمرهم بالغزو إلى أطراف بلاد الرمل، فغزوا إلى هنالك وبلغوا إلى بدو يقال لهم: المَعَصَّة والعرضان، فانتهبوا إيلهم ورجعوا مقتصرين على ذلك الفعل، وأراد الإمام من غزوهم هذا أن يُقوِّم مدد جند حضرموت، ولم يكن له أثر في ذلك لبعدها عن حضرموت.

وفي هذه السنة أمر الإمام بضرب الخمس الكبار، فارتفع بسببها صرف القشر إلى مائة بقشة، ثم إلى ثلاثة أحرف، وقلت القروش، ثم ضرب أحمد بن الحسن البقشة الأحمدية المعروفة.

وفيها جهَّز الإمام ولده علياً للحج إلى بيت الله الحرام، فقصى المراد، وعاد إلى الإمام، وفيها اتفق بين الإمام وسلطان الهند رموز لطيفة بأفكار صحيحة وأذهان شريفة تبصرة للمشاعر وتذكرة بقول الشاعر:

حواجبا تقضي الحوائج بيننا ونحن صموت والهوى يتكلم

وذاك أنه وصل إلى الإمام رجل من الهند يقال له: محمد بن إبراهيم، له اتصال

بالسلطان، والسلطان في العقيدة على نهج أبي الحسن الأشعري، ويعزى إليه العرفان والإنصاف، وفي تهذيب الحاكم من كتب أصحابنا ردوده على الأشعرية فيها متانة، فطمع الإمام في أن يتأمل السلطان تلك الردود، وأن تحقق من ميله إلى مذهب الزيدية والمعتزلة بنود، فرُتّب هدية تليق بالشاهجان، وصدّر من جملتها ذلك الكتاب في الفرسان، فلما اتصلت الهدية بالجناب، ووقعت عينه على الكتاب، عرف المراد، عندما نظر منه في مظان الاعتقاد، وهياً للإمام هدية سنّية، وأدمج أثناءها أجل تفاسير الأشعرية، وهو مؤلف الرازي المسمّى مفاتيح الغيب، فأيس الإمام عن تلك الطلبات وعرف أن العقائد صارت موروثّة مع التركات.

وفي آخر شوال خر نجمان عظيمان في بلاد شرعب ضحوة النهار ببلدة يقال لها الأجنوب، فأحرقا ما فيها، ويقال: إنه سمع صوتهما في بلاد عتمة، وأدرك بعض القرين صمم، وقيل: إن هذه الآية وقعت عقيب إحراقهم الجراد والدبا بالنيران.

وفيهما وفدت الأخبار من الهند أن رجلاً من الباطنية استخف قومه فأطاعوه، وأظهر دعوة النبوة وأشاعوه؛ فمزّق السلطان درع سحره المركوس، ودمغ بالتنكيل به رؤوس الثنوية والمجوس، بأن رماه بصواعق الجيوش، حتى أودع جماعة من أتباعه بطون الوحوش، وعطله عن بلده، وفرق بينه وبين أهله وولده، وأحرق كتبه التي تلعبت بالدين، وأربت في الخبث على أساطير الأولين.

وفيهما اشتهر رجل من لاعة من بني الناشري يتعاطى الكيمياء فنمي إلى الإمام، وهو بصنعاء، فأفرغ له منظره، فاحتال في ترويح صنعته، وأدرج في البوتقة فضة مع ترب قد أعده، ثم نزع من البوتقة سبيكة قطع الإمام أنها من أثر صنعته ولطيف حكمته، فأجازه الإمام، ولما انفصل شكاه الغرماء أنه استدان منهم مالا ولم يقضه فُعرف احتياله، والمعادن في اليمن مشهورة، لكن صنعتها لا تكون إلا بالأكسير، وكان مع ملوك حمير مخزوناً، وهو الذي يجلّ ملكهم ونضدّ سلكهم.

وقد عُدّ في اليمن ما بين بيشة وعدن قدر خمسة وعشرين معدناً منها معدن جبل عيشان، ونهم وخولان وبينون.

وفيهما أظهر التعمية شريف من بني الجلال يسمى بعلي، وليس حاله بعلي، وانهمك في

أنواع منها أنه كان يضم راحتيه على شيء مُدرك ثم يفتحها خاليةً فحبسه الإمام بكمران، فيسط حصيره على ماء البحر، ثم وثب إليها، وخرج سائراً إلى السر عليها، وكان خليعاً يقطع الصلوات وينهمك في اللذات، ويعدل عن سيرة سلفه السادات، ودخل المشرق، وكان منتهى سفره، ومنقطع خبره.

وفيهما خرج إلى اليمن والحرمين السيد محمد بن إبراهيم الهندي المذكور سابقاً، ومعه للإمام هدية عرف منها قدر عشرين من البراذين الملونة بياض وسواد، وهي مما لا يوجد بهذه البلاد، وهدية إلى صاحب الحرمين وعارضة في يرم ألم، فتوفي هنالك ونفذ الأغصا من جهته إلى حضرة الإمام بالهديتين، فقبض ما هو له وحفظ هدية الشريف حتى وصل لها نائب آخر من السلطان.

وفيهما جاءت الأخبار باضطراب أولاد الشاهجان بعد وفاته، واستقرار الملك والترتيب في يد ولده أور تقريب، بعد أن عرض واحداً من إخوته على الأنطاع وطرد الآخر في البحر، وهو الشاه شجاع.

وفيهما خطب القاضي أحمد بن سعد الدين المسوري على منبر جامع صنعاء، فأثبت ذكر الإمام زيد بن علي والإمام المهدي ثم استمر ذلك.

وفيهما نشر السيد العلامة أحمد بن علي الشامي رسالة منها:-

((اعلم أرشدنا الله وإياك أنه قد صار يتعاطى بعض علماء العصر التجاري بالتفكير والتفسيق والفتاوى بإهدار الدماء، وهو ظاهر البطلان؛ لأن دار الحرب حيث فرضت، وقيل بما في البلاد التي ولائها أهل الجبر والتشبيه، إنما هي دار إباحة فيما بين الكفار، وأما بين المسلمين فلا وجه لإهدار الدماء التي حرمها الله وأكد تحريمها، وأجمع أئمة الآل وشيعتهم على ذلك)) إلى أن قال: ((وكذلك القول بسقوط القصاص فيها إنما يتجه على قول من يجعله حداً، وذلك غير معمول عندهم، والرواية الصحيحة عن أبي طالب القول بثبوتها كما في التذكرة وغيرها))، ثم قال: ولو فرض صحة النقل عن أبي طالب، فهو مسبوق بإجماع سلفه، كيف والأدلة القرآنية والسنة النبوية قاضية بثبوتها نحو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨] ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] ﴿فَمَنْ عَتَا عَلَى عِتْيِكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ..﴾ [الحج: ١٩٤] ﴿وَأِنْ عَاقَبْتُمْ

فَعَاقِبُوا... إلخ» [النحل: ١٢٦] ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥] وقوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «من قتل له قتيل فهو بخير النظرين». والمصير إليه في الدار المفروضة لا يعتمد عليه ولا يلتفت إليه مع ما ذكر.

وأما لو قال: إن المسلمين يكفرون بإقامتهم في تلك الدار، فهو أبعد ونفيه أحق وأرشد لقيام الأدلة الواضحة في ثبوت الإسلام في دار الكفر، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢] وإجماع السلف والخلف على صحة إسلام من أسلم في مكة من النساء والرجال وإسلام أهل البيعتين وغيرهم ممن وفد على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مع كوفهم في بلاد الشرك، وأما تكفير القاعد مع الخائض فالسبب أن ذلك القاعد كافر بالأصالة؛ لأنه من أهل النفاق، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠] ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٦٩] وفي القعود المنهي عنه ما عرف من الخلاف، مع أن كفر من وقف مع الخائض إنما هو حيث رضي بالكفر بدليل: (ولكن من شرح بالكفر صدراً)، ومن لم يعلم منه الرضى فالإقدام على تكفيره هجوم على ما لا ينبغي لذي دين ولب وحذر، فكيف بمن هو من أهل العلم والنظر؛ لأن التكفير والتفسيق إنما هو بالأدلة القطعية كما لا يخفى.

مع ما في هذا القول من المفاصد، فإنها لو امتدت يد إمام زمان على أقطار كثيرة صاروا مسلمين، فإذا كانت الكثرة بعد ذلك لأهل العدوان لزم أن يكونوا مرتدين علمائهم وجُهاً لهم، ولزم عدم صحة أنكحتهم ومواريتهم، وهذا باطل. والتكفير باللازم لا تقوم له حجة؛ لأن التكفير إنما هو بالأدلة القطعية، وللإمام شرف الدين كلام حسن في هذا الشأن.

انتهى كلام العلامة الشامي باختصار، وهو رد على المتوكل إسماعيل، كما رد عليه العلامة الهادي بن أحمد الجلال - كما سبق - وقد حرر المتوكل جواباً، وكلام الشامي متين ورصين، وقيل: إن جواب المتوكل في غير محل النزاع.

وفيات سنة ١٠٧٠هـ

المهدي المهلا

في (ربيع الثاني سنة ١٠٧٠هـ) توفي القاضي العلامة الأديب المهدي بن عبد الله المهلا النيسائي الأصل، ثم الشرفي. كان محققاً في النحو مشاركاً في غيره، وله شعر متوسط وخط حسن، حصل عدة كتب بالأجرة للمتوكل ومحمد بن الحسن.

وفي الطبقات: القاضي العلامة المهدي بن محمد بن عبد الله بن المهلا بن سعيد، وأنه تلميذ الحسين بن القاسم، وكاتبه، وأجازه المتوكل إسماعيل (سنة ١٠٦٠هـ)، وأخذ عنه ولده علي بن المهدي، والقاضي أحمد بن صالح أبو الرجال، والسيد صالح بن أحمد السراجي وغيرهم، وأنه العلامة المنطيق، ولسان الصواب والتحقيق، وله ذيل على البسامة، ذكر فيه الحسن والحسين، وقيام الإمام المؤيد بن القاسم والمتوكل إسماعيل، وله إلى الحسن أبيات في شأن الغاية للحسين بن القاسم.

عبد الله بن محمد السلامي

قال في الطبقات: وفي (سنة ١٠٧٠هـ) توفي القاضي العلامة عبد الله بن محمد بن صلاح السلامي الأنسي. قرأ على عدة من الأعلام الكبار، وعنه ولده عبد السلام وابن أخيه صلاح بن عبد الرحمن، وغيرهما، وكان فقيهاً، فاضلاً محققاً، تولى أعمال يريم، وأوقاف تعز، وكان حاكماً للمولى محمد بن الحسن في السفر والحضر، وله الرأي السديد والبلاغة.

ناصر بن عبد الحفيظ المهلا

قال في الجامع الوجيز: في (سنة ١٠٧٠هـ) توفي بشجعة الشرف، القاضي العلامة ناصر بن عبد الحفيظ المهلا، وقد سبق ذكره عند ذكر وفاة والده (سنة ١٠٦٠هـ).

حوادث سنة ١٠٧١هـ

وفي (سنة ١٠٧١هـ) منع الإمام أهل الذمة من عصير الخمر وأمر بكسر أوانيهم.

وفيها ظهر في صنعاء، ثلج على الأشجار.

وفي (صفر سنة ١٠٧١هـ) عقد الإمام لولده محمد ولاية ضوران، وبلاد آنس، فسار إليها من صنعاء، واستقر بها وهو في الاستقامة والورع على نمط واحد ما عرف بغيره.

وفيها جاء الخبر أن أولاد ملك العجم ثارت بينهم الفتن في بلاد اللاهجان، فتمزقت ممالكهم، وأهلها إمامية، وحكى قطب الدين النهرواني، أنه كان بلا هجان زيدية في رأس المائة التاسعة، لكن ذكر بعضهم عن الحكيم محمد بن صالح الجيلاني حكيم صنعاء أنه لم يبق للزيدية مذهب هناك في هذا العصر الأخير.

وهذا محمد بن صالح خرج من العجم إلى اليمن بدولة المتوكل، وقد برع في الطب وظهرت عنه فيه خوارق، وعلى الحملة لم يسمع في العصور المتأخرة بعد الشيخ داود صاحب التذكرة بمثله، وكتب بخطه عدة من كتب الطب في اليمن، وكان قد خدم رجلاً في العجم في هذا الفن، وترتب عليهم وتنقل معهم في الأسفار، وخاض معهم البحار.

روى العلامة الحسين بن محمد المغربي عنه، قال: خدمت حكيماً نصرانياً، وكنت متشدداً في نجاسة رطوبته ولا أظهر له ذلك، فركبت معه البحر، فاتفق أنه قطع ذات يوم حبة من الخيار وقلبها من اليمين إلى اليسار، ثم أرسل إلي قطعة لاكلها، (فانتولتها) وما زلت به حتى غفل عني، فألقيتها في البحر، وكان يتعاطى علم العربية وشيئاً من علوم الفقه بدون معرفة. والكمال موزع وأصله من بلاد الجليل.

وفي هذه السنة (١٠٧١هـ) في أول جمادى الأولى سار الإمام إلى بلاد شهارة.

وفيها انتشرت الجراد وأتت على ثمرات البلاد، فوجفت القلوب، وارتفعت أسعار الحبوب.

وفيها وقع اختلاف بين الأمراء الذين بمصر من قبل السلطان، وافترق العسكر بقاهرة مصر.

وفي (جمادى الأولى سنة ١٠٧١هـ) حصل بعض اختلاف في طريق عدن من حدود بلاد الفضلي في الجهة الجنوبية، وقتل هناك أربعة من العسكر، فأرسل صفى الإسلام من كشف أمر العسكر ورسم أدباً بمقتضى ذلك الفعل المنكر، ثم وقع اختلال ببلاد الفضلي والهيثمي، اقتضى نفوذ الصفى إلى تلك الجهات بنفسه، فأصلح ما فسد وهرب الفضلي عن محله.

وفي آخر رمضان ذكر أنه اتحد الأمر بين السلطان بدر بن عُمر الكثيري، وولد أخيه السلطان جعفر وطلب من عمه أن يتوسط له في أخذ الأمان من الإمام والوصول إليه. وفيها خرجت بنت سلطان الهند من البحر إلى المخا بأموال وخدم وأتباع وحشَم تريد الحج إلى بيت الله المعظم، ونفحت نائب المخا السيد زيد بن علي جحاف بمال عظيم وهدية فاخرة، وأخبرت أن بالهند شدة شديدة.

وفيها ساخ جبل في جهات بني عَشْب، فأخرب قرية تحته إلا بيتين في طرفها، ودفن كثيراً من أموالها.

وفي آخر ذي القعدة جاءت الأخبار أن أصحاب الصفى غزوا إلى بلاد الجيد لقبضه وقبض الفضلي، فلم يظفروا بالجيد وظفروا بالفضلي، ثم أفلت من أيديهم وفر إلى والي عدن أمير الدين القرشي، فأمنه وأرسله إلى حضرة الإمام.

وفيها وصل السلطان جعفر الكثيري والشيخ الفضلي إلى حضرة الإمام.

وفي آخر ذي الحجة وصل صفى الإسلام أحمد بن الحسن إلى مستقر أهله بالغراس وذي مرمر وفيه انتشر مرض الحمى والنافض، فتعطلت منه بيوت، والأمر لله سبحانه.

وفيها مر بعض الهنود بهيجة من بلاد قحاة، فعقر عليه الأسد حمارة وتركه فريسة يوافيها بالليل فيأكلها كما هي عادة الأسد في أنه لا يأكل ما عقره بالنهار إلا بالليل، فألهم الهندي إلى سم الفأر، فوضعه في جوف الحمار ثم وافاه الأسد فأكل منه، فهلك ثم جاءت الأسود، فأكلت منه فهلك، ثم كذلك حتى تعطلت الأسود بتلك الهيجة وكثير من الهياج.

وفيهأ أمر الأمير يحيى بن محمد بن الحسن بن القاسم بإعادة النوبة، وكانت قد تركت من أيام سيف الإسلام الحسن بن القاسم وأيام أخيه الإمام المويد من حين فتحت صنعاء، واستمر بيت القاسم على تركها حتى أعادها الأمير يحيى بن محمد بتعز، فهَيَّت أدواتها، واستُكملت آلتها، فرجفت طبولها في قلوب أهل العناد، وأوَّبت عند سماعها الجبال والصفائف الجياد.

وفيهأ نزل بصنعاء ثلج عظيم غير معهود وقد نزل بها أيام الإمام شرف الدين، وأيام الصليحي وأيام الرشيد، ثم (في سنة ١١٤١هـ)، ثم (في سنة ١٣٨٢هـ) وغيرها.

وفيات سنة ١٠٧١هـ

إبراهيم بن الحسن العيزري

في (النصف الآخر من ربيع الأول سنة ١٠٧١هـ) توفي القاضي العلامة إبراهيم بن الحسن بن سعيد بن محمد بن جابر بن علي بن عواض بن مسعود بن علي بن الحسن العيزري الأهنومي بصنعاء. وكان ملازماً للكتابة للإمام، وعليه فصل القضاء والأحكام، وله مقصد مليح ورأي صحيح ودفن بخزيمة.

وفي بغية المريد: كان القاضي إبراهيم بن الحسن بن سعيد بن محمد بن جابر بن علي بن عواض بن مسعود بن علي العياني النوّي المعروف بالعيزري، رفيع المثلة مراقباً لحقوق الله. وكان بصحبة الإمام المتوكل إسماعيل عند توجهه إلى شسهاره، فأدركته الوفاة بصنعاء.

ونسبُهم إلى بني نوف بطن من همدان، سكنوا جبل الأهنوم، وكان بين القاضي إبراهيم وبين السيد أحمد بن هادي بن هارون كمال الصداقة والصحبة، ولما توفي السيد أحمد بن هادي قبل أسبوع من وفاته تمى جواره، فمات بعده بأسبوع، وقبر جواره بخزيمة، وتاريخ وفاته في آخر مرثاة له كانت على ضريح قبره:

(نعيمك إبراهيم في جنة المأوى) يجعل تاء جنة أربعمائة.

(١٠٧١هـ)

أحمد بن هادي بن هارون

قال في بغية المريد: والسيد العلامة أحمد بن هادي بن هارون الهدوي، توفي بصنعاء في (ربيع الأول سنة ١٠٧١هـ). وكان سيداً سرياً، ذكي القلب، ثابت الجنان، له فراسة صادقة، ومسكة في العربية، وعرفان في الفقه، واشتغل بأمور الإسلام العامة وسد الثغور، وقام بأمور لا يقوم بها غيره، وقام مدة بأمور صعدة، وغزا نجران، وتولى بدمار، وكان قد تولى بلاد خولان، وسكن حيدان، فحمدت سيرته، وكان لا يُعرف كُنه ما عنده من العلم لشدة ذكائه، وله كرامات كثيرة.

قال الإمام المؤيد بن القاسم: إنه لما أُلح على صاحب الترجمة في قيامه بعمل خولان واستدناه إلى مقامه رأى الإمام في ليلة وصوله من يقول له:

بشراك يا ابن الطهر من هاشم بماجد دولته محمد
بأحمد المنصور من مثله بسورك فيمن اسمه أحمد

وهذه الرؤيا كانت للسيد سليمان بن محمد بن المطهر عند ولادة ابنه الإمام أحمد بن سليمان، وأخبر صاحب الترجمة أنه إذا غفل عن بيته ظهر في غرفته سراج وتلاوة.

وجاءه رجل له مقام عجيب في الاتصال بالجن، فقال له: إن بعض الجن توصي أنه إذا صرع أحد من المسلمين كتب له المترجم له ١٣ مرة (قل هو الله أحد) ثم يكتب اسمه أحمد بن الهادي بن هارون، ففعل ذلك وشفي من ابتلي.

وكان بينه وبين المؤيد محمد بن المتوكل أنس عجيب وصحبته عند عزمه إلى البيضاء، وقره بخزينة مقبرة صنعاء، وعليه لوح من شعر القاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال هذه الأبيات:

هذا الضريح الذي فوق الضراح سما	وجاز من بعد أفلاك السماء سما
فيه الهمام ضياء المبهمات ومن	بالذكر والغزو شق الخنفس البهّما
ما زال بالحرب والمحراب مشغلاً	إن قيل ما ذا الذي تمراه قال هما
قد حالف الخط والخطي مدّته	ما زال ينشر فيها العلم والعلماء
عليه أسنا سلام الله ما حمدت	منه السّمات وما مزّن السحاب همى

إبراهيم بن أحمد العبالي

قال في مطالع البدور وغيره: وفي (رمضان بصنعاء سنة ١٠٧١هـ) توفي السيد العلامة إبراهيم بن أحمد بن علي بن صلاح بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسن بن يحيى بن علي بن الحسن بن عبد الله بن عيسى بن إسماعيل بن عبد الله بن محمد بن الإمام القاسم الرسي بن إبراهيم العبالي. كان علامة محققاً، وله حواش وأنظار، وعمره اثنان وعشرون سنة لا غير، لم يعرف من الدنيا غير العلم وإحيائه، والمذاكرة لأربابه في صباحه ومساءه، حتى بذ الأقران وصار على صغره كبير الشأن. ووضع على المغني لابن هشام ما يجري مجرى الحاشية، وقرأ على عمه عز الدين بن علي العبالي، وله حواش على شرح الأزهار وغيره بخطه الجميل.

أحمد بن علي العنسي

وفي العشر الوسطى من (جمادى الأولى سنة ١٠٧١هـ) توفي بصنعاء حاكم برط القاضي العلامة أحمد بن علي بن قاسم بن يحيى بن محمد بن يحيى بن محمد بن قاسم بن إبراهيم العنسي، ثم العياني. كان بالفقه وعلم الكلام كوالده، وكان استقراره ووالده بمدينة عيان، ثم لما خربت ذلك الوقت انتقلوا إلى برط، فاستقروا بها وصار إليهم واجبات قبائلهم باختيارهم وتخيرهم، وأجراهم على ذلك المؤيد بن القاسم إلا ما فضل عن كفايتهم واستمروا على ذلك ووصل إلى الإمام المتوكل وهو بصنعاء مع قبائله من برط لزيارة الإمام فصادف وفود الحمام، فكانت وفاته بيثر العزب غربي صنعاء ودفن بخزيمة.

محمد بن علي العنسي

وأخوه هو القاضي العلامة محمد بن علي بن قاسم العنسي. كان يتولى القضاء الشرعي، وهو أول من تلقب بالقاضي الشرعي من أسرته، كان عالماً فاضلاً ذكياً نبلاً زاهداً كريماً، توفي ببرط في (ربيع الأول سنة ١٠٦٥هـ)، وقبره جوار أبيه في قبتهم بحجرة الرضمة، ووالدهما سبقت ترجمته في (سنة ١٠٤٥هـ) ثم قد وافانا القاضي العلامة محسن بن يحيى العنسي بزيادة إيضاح عن أسرهم الشهيرة، فالقاضي علي بن

قاسم بن يحيى بن محمد.. إلخ. وأخوه حسين هما علمان وذريتهما كثيرة، فالقاضي علي كان من وزراء وأنصار الإمام القاسم بن محمد وقادة جيوشه، وتولى القضاء في عدة مناطق، ووفاته في (رمضان سنة ١٠٤٥هـ)، كما أفاد القاضي محسن بن يحيى، وقبره بقبة هجرة الرضمة شمال المسجد الأكبر غربي العنان.

الحسن بن محمد العنسي

ومنهم القاضي الحسن بن محمد بن علي بن قاسم العنسي. كان عالماً أديباً نبيلاً ورعاً، توفي يوم (الجمعة في ذي الحجة سنة ١٠٩٨هـ)، وقبره بقبتهم بهجرة الرضمة غربي العنان بمرت.

صلاح الفلكي

وفي (سنة ١٠٧١هـ) توفي قاضي جبلة العارف صلاح الفلكي.

علي بن يحيى الخيواني

وفي (شوال سنة ١٠٧١هـ) توفي بصنعاء الفقيه العارف علي بن علي الخيواني، ثم الصنعائي. كان مكفوفاً، وزاد عمره على الثمانين سنة، وشارك في الفنون مع جدل وحدة، وله في حفظ السير والقصائد يد طولى ودرس في أصول الفقه غيره، وفي الطبقات: أنه قرأ بصنعاء، ثم هاجر أيام الأتراك عن صنعاء إلى صعدة، ودرس بها واستقر إلى أن فتحت صنعاء، فعاد إليها، وقرأ وحقق وأعاد شيئاً من مسموعاته على السيد محمد بن عز الدين المفتي، وكان أحد عيون أصحابه، فاستفاد وزاد علمه، ونور الله قلبه بأنوار المحبة لآل محمد عليهم السلام، وله حاشية على الأزهار، ولم يزل بصنعاء حتى توفي بها، وقد أخذ عنه جماعة، منهم السيد صالح بن أحمد السراجي، والقاضي علي بن يحيى السماوي، والقاضي علي بن محمد سلامة وغيرهم.

أحمد بن علي الشامي

وفي (العشر الأواخر من شوال سنة ١٠٧١هـ) توفي السيد العلامة شمس الإسلام أحمد بن علي بن الحسن بن محمد بن صلاح بن الحسن بن جبريل بن يحيى بن محمد بن سليمان بن أحمد بن الإمام يحيى بن المحسن بن محفوظ بن محمد بن يحيى بن يحيى بن

الناصر بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن الناصر أحمد بن الإمام الهادي يحيى بن الحسين الشامي، نسبة إلى شام صعدة مدران، حيث خرج جده الحسن بن محمد إلى مسور بخولان وأخوه الهادي بن محمد إلى بلاد يريم وخبان.

ودفن بجانب قبر الأمير محمد بن الحسين بن القاسم جوار مسجد حجر بـيستان المتوكل غربي صنعاء، (ثم قد نقل مسجد حجر إلى جنوبي صنعاء، ونقلت جثث الموتى إلى المقبرة العامة، وعُمر في المحل بنك الإنشاء والتعمير سنة ١٣٩٠هـ)، مولده بمسور في حجر أهله، ثم هاجر إلى صنعاء وأقبل على العلوم فحققها في أيام الوزير حسن باشا، وبرع في فقه الزيدية والفرائض، وتخرج بالسيد محمد بن عز الدين المفتي والقاضي إبراهيم بن يحيى السحولي، وغيرهما، وجعله الباشا إمام مسجد الشهيدين، وفوضه في غلة بشر الشهيدين، فبقيت في يده حتى مات، ثم قبضها نظار الأوقاف.

وما زال مع اشتغاله بالعلوم ووظيفة المسجد يشارف على عقود النكاح وأجوبة الأسئلة، وهما مما يصير إلى الأفندي المعين من قبل الباشا، فبلغ إلى السيد ما أوحش خاطره من الأفندي، فخرج إلى الحيمة، وكانت مائلة إلى الإمام القاسم، فعظموه ونزّلوه منزلة أمثاله من العلماء العاملين، واستنابه الإمام على جانب من أعمالها، ولازم آخر مدته الحسين بن القاسم سقراً وحضراً، واعتمده من الفتاوى والحكومات وحكّمه فيما شاء من وجوه الرعايات، وهو بذلك خليف، فإنه عين أهل اليمن علماً وعملاً ورئاسة، واستقر بعد موت الحسين ببيته باب السبحة، جوار مسجد حجر يدرّس في الفنون ويفيد بالفتاوى، وقد كُفّ بصره.

وكان له على أهل البطالات وطأة شديدة، وله أنظار على وجه الصحة والرصانة مشحونة بما الكتب للدرس والتدريس، واختيارات منها، فسُخ زوجه الغائب، والقول بمذهب القاسم الرسي والمالكية بطهارة الماء قليلاً أو كثيراً ما لم تتغير أحد أوصافه.

والقصاص في اللطمة كما هو مذهب الهادي والإمام شرف الدين، وانفرد بقوله: إن الزوال ميل الظل أدنى ميل في الشتاء والصيف من دون فيء الزوال، كذا روي عنه، ونقل القرآن غيباً بعد أن كف بصره واستكتب جامع الأصول لابن الأثير، وسمعه عليه بعض أولاده، فكان حسن الختام، وكان قد أحرز الفنون نحواً وصرفاً وبياناً وأصولاً وفروعاً

وتفسيراً وحديثاً، وفرائض، والمساحة والضرب والتقسيم، وله حواش على شرح الأزهار وغيره.

محمد علاء الدين البابلي

وفي (سنة ١٠٧١هـ) توفي العلامة المحدث أبو عبد الله بن محمد بن علاء الدين البابلي المصري، استقر بمكة أياماً تتفق به زهور العلوم العقلية والنقلية، وتتعطر مجالس السنة النبوية، مع حفظ رائع حتى شهد له أهل العرفان في فنون شتى بأنه وحيد عصره وإمام دهره، ولما فقد بصره اشتاق إلى وطنه مصر، فسار إليها ومات بها، وقيل: إن وفاته (سنة ١٠٨٠هـ) ومن شعره:

رب إمام قليل فقهه يؤم بالناس ثم يححف
مخالفاً فيه قول طه من أم بالناس فليخفف

عبد الرحيم اللاهوري

وفي (شوال سنة ١٠٧١هـ) توفي بشهارة الشيخ العارف عبد الرحيم بن بادشاه اللاهوري الحنفي، سمع في الحديث عن البابلي المصري السابق ذكره، والعلامة زين العابدين بن عبد القادر الطبري، وذكر أن أعلى الأسانيد في وقته إسناد زين العابدين، واستكتب بحضرة الإمام المتوكل إسماعيل أحكام الإمام الهادي وأمالي أحمد بن عيسى ومستدرك الحاكم، وأكثر مجمع الزوائد للهيتمي، وكان بمحل من الديانة، ومن لطيف ما اتفق له أنه قدّمه المؤمنون بمسجد جامع ضوران ليصلي بهم لعدم حضور الإمام لجلالة قدره، وهو يرى أن الرفع والضم سنة، قال: فعارضت في نفسي بين أن أفعل بمذهبي الذي يجهلونه وهم عامة ويستنكرونه، وقد يتفرق بعضهم وتتغير خواطرهم، أو أترك السنة في مذهبي، ثم رأيت الترك وأدبت الصلاة حسبما يعرفون بدون ضم ورفع، وما فاتني من ثواب السنة جبره ثواب التجميع وعدم التفرق في الدين.

وكان ملازماً للمتوكل حضراً وسفراً، فسافر بسفره إلى شهارة، فتوفي بها.

الرملي سليمان

وفيهما توفي السيد الرملي، الفلكي سليمان بن محمد بن عامر.

حسن بن باز

وفيهما توفي الشريف حسن بن باز المكي.

علي بن إبراهيم الحيداني

وفي سنة ١٠٧١هـ توفي السيد العلامة علي بن إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن صلاح بن المهدي بن الهادي بن علي بن محمد بن الحسن بن يحيى بن علي بن الحسن بن عبد الله بن عيسى بن إسماعيل بن عبد الله بن القاسم الرسي المحنكي الحيداني. قرأ على العلامة علي بن قاسم السنجاني بصنعاء، وعلى القاضي إبراهيم بن مسعود صاحب الظهرين، وعلى الإمام المؤيد محمد بن القاسم، وكان سيداً هاماً ذا عزيمة صادقة.

وله في الجهاد وقعات هائلة، وكان محققاً مبرزاً في الفقه، يعارض بأنظاره أهل الأنظار في الفن، وكان نائب بلاد ذيبين وأوقافها زيادة على ثلاثين سنة، وجاوز عمره المائة السنة حتى سقطت شعور حواجه على عينيه وأقعد آخر عمره، وأما سمعه وبصره فلم يتغيرا.

الشيخ السلمي الغديري

وفي (سنة ١٠٧١هـ) توفي الشيخ السلمي من أكابر مشائخ اليمن الأسفل، وممن عظم شأنه في ذلك الزمن، وبموته اضمحل جلالهم وتفرق عبيدهم في الجهات، وتشتتوا لطلب الأقوات، ثم قد استمر المشيخ في ذريته أزماناً.

الحسن بن أحمد الحيمي

وفي (ثاني عيد النحر سنة ١٠٧١هـ) توفي بشبام القاضي العلامة حاكم المسلمين ببلاد كوكبان الحسن بن أحمد بن صالح اليوسفي الجمالي الحيمي. سكن وأهله شبام، وكان أحد أعيان دولة المؤيد بن القاسم، ثم أخيه إسماعيل وهو من أكابر العلماء،

وأفاضل الأدباء، يقوم بالأمر العظيمة الدولية ويشتغل بالعلم درساً وتدرساً، وكان يوجهه المتوكل إسماعيل في المهمات لفصاحته ورجاحته وتدبيره، منها إرساله إلى حضرموت لما وقع من اختلاف السلاطين آل كثير، فقام بالأمر أتم قيام. وإرساله إلى الحبشة لما وصلت كتب من ملكها يفهم منها رغبته في الإسلام.

فتوجه في أكثر من خمسين رجلاً من المخا ولاقى مشاقاً عظيمة واستمر سفره بحراً وبراً نحو تسعة أشهر، ودخل على ملك الحبشة في يوم عيد النصرى لابساً شعار الإسلام، وظهر أنه لا يريد الإسلام، وإنما مكاتبته للاتصال بين الحبشة واليمن وموانئها، وأكرمه الملك وأصحابه وأراد أن يخلع عليه خلعة حرير خالص وسوارين من ذهب، فقال له: هذا لا يحل في شريعتنا!

وكانت للقاضي وجماعته صولة ببلاد الحبشة، حتى كان أصحابه يبطشون بالنصارى إذا تعرضوا لهم ويضربونهم، وشاع أن العرب يأكلون الناس، فزادت مهابتهم، وكان أعظم معين لهم على ذلك البنادق، فإن أهل الحبشة لا يعرفونها إذ ذاك، وقد حصل عليها أهل اليمن من الشراكسة والعثمانيين، ولولا هي لما قدر القاضي وجماعته المرور في أراضي الحبشة؛ لأنهم كانوا ينصبون عليهم كالجراد، فيرمونهم بالبنادق فيقتلون منهم، فينهزمون لأصواتها وتأثيرها.

ثم لما آيس من إسلام الملك استأذنه في العود اليمن، فتناقل عنه، ثم أذن له، وكان الملك لا يصحو عن شرب الخمر، فعين له وقتاً للوداع ترك فيه الشرب وجمع وزراء وأعيان دولته، فأمر القاضي أصحابه أن يرموا بالبنادق عند وصولهم إلى باب الملك، كما يفعل أهل اليمن ويسموها تعشيرة، فلما سمع الملك صوت البنادق هرب من إيوانه والوزراء والأعيان، فدخل القاضي إلى الدار، ثم عاد الملك إلى إيوانه، وأخذ في أهبة سفرهم إلى اليمن، وكانت مدة غيبته سنتين، ورجع إلى الإمام سالماً، وقد جمع رحلة نفيسة في كرايس متداولة بأيدي الناس أثبتتها المؤرخ السيد مطهر بن محمد الجرموزي في كتابه: تحفة الأسماع والأبصار بما في السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار، مخطوط، منها: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله على ما آتانا من الإيمان والبلوى، ونصبه لنا من البرهان الموصل إلى التمسك بالسبب الأقوى، وعلمنا من البيان ما يؤثر خيره للأعقاب

وَيُرَوَّى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أنور من فلق الصباح وأضوى، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أسري بجسده إلى سدره المنتهى عندها جنة المأوى، وبعثه إلى الثقلين على حين اختلاف الأديان واتباع الأهواء، فأخرج بغيث هدايته في رياض قلوب أوليائه عُشب الإيمان، فأصبح للنضارة أحوى، صلى الله عليه وعلى آله صلاة نبلّغهم بها كل أمل ورجوى، وسلم عليهم سلاماً لا يقحل غصن دوحته ولا يذوى.

وبعد.. فإنه سألتني من وجهه إليّ أمل الإسعاف، وأمرني من لا تسعني مخالفته على طريقة الإنصاف، أن أصف له ما ينبغي مذاكرته من سفرنا إلى الديار الحبشية، واتصالنا بملك الفرقة النصرانية المسيحية، عن أمر مولانا أمير المؤمنين وخليفة الله الداعي إلى كتابه المبين، وأمينه على تبليغ ما أنزله على قلب جده سيد المرسلين، المتوكل على الله رب العالمين، إسماعيل بن أمير المؤمنين المنصور بالله القاسم بن محمد بن رسول الله صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

فأجبت به إلى ذلك إثارةً لقصده، وقضاءً لما ثبت علي من حقوق وده، ولما أرجوه من نعرش أهل الخمول والحث على ارتكاب الأخطار في طاعة الله وطاعة أئمة الرسول، وشجعتني على رقبته أنه ليس من التأليف المفتقر إلى كمال الاجتهاد، ولا من التصنيف الذي يتطرق إليه انتقاد النقاد، لا تتعلق بروايته معرفة الإرسال والإسناد، ولا المعلول بالانقطاع والإعصال، ولا علم الجرح والتعديل في أحوال الرجال، وإنما أخبار عن مدركات الحواس، وشهادات النظر التي يستوي فيها الكافة من الناس، ولذلك لم أدخل في قول من قال من صنف فقد استهدف، وإنما الأعمال بالبنيات، ولكل امرئ ما نوى، وبالله أستمد الهداية والتوفيق، وأعوذ به أن أكون ممن جذبته الأهواء فهوت به إلى مكان سحيق.

والسبب الباعث للسفر إلى ملك الحبشة المسمى بلغتهم (سجد فاسلداس) ابن السلطان (سجد شينوس) ومعنى سجد كثير السجود وسينوس اسم للباري بلغتهم، أنه بعث إلى مولانا أمير المؤمنين المؤيد بالله رب العالمين رسولاً من مسلمي تلك الديار في (سنة ١٠٥٢هـ)، وأصحبته بمهدية من الرقيق والزياد وسلاح الحبشة، وضمن كتابه

استدعاء رجل يصل إليه من خاصة الإمام.

كما أخبرني سيدنا القاضي العلامة غرة علماء الشيعة والعلامة، وجوهرة عقد أعضاء الخلافة والإمامة، شمس الملة والدين أحمد بن سعد الدين بن الحسين المسوري - أطال الله أيامه - أن مولانا المؤيد لم يستحسن المسارعة إلى إجابة هذا الملك بإرسال أحد إليه قبل المعاودة منه، وتكرار المراسلة، ووجه مولانا المؤيد هدية سنية وعطية فاخرة هنية.

وصدر رسوله من الحضرة الإمامية مثنياً عليه بلسان الثناء متملياً من أنوار ذلك الفضل والسنا.

وتوجه راجعاً من بندر المخا بتجهيزه في المراكب المعدة مع جماعة العسكر المحافظين وإعداد عدة المحاربة في تلك المراكب من المدافع والزبارط مع البنادق المتخذة سلاحاً للعسكر المنصور، وذلك لأجل الخوف من الأتراك الذين بجانب (سواكن) وبندر (مُصَوَّع)^(١) وقطع دابرهم، فوقع التجهيز من النائب في البندر على هذا التقرير، وبلغوا به إلى بندر (بيلول) المعروف لم يعرض لهم شيء من جانب الخصم، وتوجّه رسول ملك الحبشة إلى مخدومه بتلك الهدية، والجواب عليها فيما ذكره.

ثم إن ملك الحبشة عاود في (سنة ١٠٥٧هـ) إلى مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله بكتاب آخر وهدية أخرى، واستعجل من المؤيد الرجل المطلوب وصوله إليه، وذكر في كتابه: نيل الفرض بإرسال الرجل الذي استدعاه، فلما وصل رسوله إلى أطراف الحبشة وبلغه وفاة مولانا الإمام المؤيد أرسل إلى الملك يعلمه بذلك، فرجع إليه كتاب إلى الإمام المتوكل وأمره أن يبلغ الكتابين معاً إلى المتوكل (سنة ١٠٥٧هـ)، فخرج إلى بندر المخا، وجاءت طريقه بطن قحمة من جانب زبيد ثم مور والأمروخ والأهنوم، ووصل إلى الإمام إلى شهارة مستقر الأئمة وعمدة معاقل الزيدية، فأعظم مولانا أمره وأكرم مثواه، وأحسن نزله، وعرف ما في كتبه، وما استدعاه الملك من وصول رجل يفيض إليه بسرّاً لا تحمله بطون الأوراق، ولا يطيب له أن يفيضه إلى رسوله لما يخالطه من الإشفاق.

(١) وردت هذه الكلمة مرات بالسين (مسوع) ومرات بالصاد (مصوع) ولعلها بالصاد أصوب.

وكان في هذا ما لا يخفى من الإجمال، فاختص مولانا عليه الصلاة والسلام بذلك الرسول في بعض مجالسه الخالية، وسأله عما في كتاب الملك، وهل عنده ظن بمراذه مسن ذلك، فقال: الذي يبلغ إليه ظني أنه يريد الإسلام، فلما قال ذلك سُر به مولانا أيده الله، ولملت أسارير وجهه، وأسرّ في نفسه أن هذه نعمة جليلة، وأمر عظيم يتوصل إلى إتمامه بكل حيلة.

ثم شاور أهل حضرته واستنصحهم في ذلك، وما الذي يتوجه فيه من الرأي، فاتفق نظر كثير من أهل الفضل والقول الفصل، أن إجابة هذا الملك إلى وصول رجل إليه تجب قطعاً، ويتوجّه لزومها شرعاً، حيث قد تعلق الطمع بإسلامه، وانخراطه في هذا السدين ونظامه، فإنه يجب إجابة من يظن فيه ذلك، ولو لم يُرج إلا صلاحه بنفسه، كيف ومن المعلوم من طريق العادة أنه يتبعه الجماهير وقد وقع في ذلك الرأي خلاف من بعض أهل النظر، استناداً إلى ما ثبت لديهم بالفكرة وتقرر، وهو أن هذا الملك الثابت في تحت ملكه المتقرر لديه أباطيل شركه، لا يغلب في الظن أن هذا المنهج قصده، ولا يجدي فيه عيّسه، ولا يوري فيه زنده، فاطرح هذا الرأي لما كان القائل به القليل، والترجيح بكثرة الرجال دليل، وأي دليل، لا سيما وقد طابق ذلك رأي صاحب الحل والعقد والإبرام والنقض المهتدى بهداه، الذي يقصر كل نظر في المصالح عن منتهى نظره ومداه، مولانا أمير المؤمنين مع الاستظهار لذلك بقوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: ((لأن يهدي الله رجلاً على يدك خير لك مما طلعت عليه الشمس))، وليس الطريق إلى إمكان الهداية إلا الظن، فاستقر الرأي على وجوب إجابة هذا الملك بوصول رجل إليه يبحث عن سره، ويطلع على حقيقة أمره.

وكنت في تلك السنة في سفر الحج إلى بيت الله الحرام، وزيارة الضريح النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، وكان من فضل الله عليّ أن هذه هي الحجة الثالثة.

. ولما رجعنا من ذلك السفر الميمون ووصلنا إلى الحضرة المولوية أعزها الله في (غرة شهر ربيع الأول سنة ١٠٥٧ هـ)، وهذا الخبر شائع أمره، ذائع سرّه، كنت ممن تشرف بالمفاوضة فيه مع مولانا أمير المؤمنين - أيده الله - وأجبت بما ظهر لي من النظر، وسنح لدي من خاطر الظن الذي حضر، بما يطابق رأي الأكثر، وكان مولانا يكرر النظر في

تعيين الرجل الذي يتوجه إلى تلك الديار، ثم إنه حصّني بفضيلة هذه العريضة، وقلّدي القيام بهذه الفريضة العظيمة، وأدلى إليّ بحسن ظنه، وإن ذلك من فضل الله علي ومنه. فأجبتة إلى ذلك وسألت الله أن يضيء لي أنوار هذه المسالك، ثم إن مولانا أخذ في تعيين هدية فاخرة، وعارفة تليق بمقامات الملوك ومكارمه الطاهرة، أسنى من هدية الملك من خلع الديباج العجيبة، ومطارف الملوك السنية القشبية، والسيوف القاضية القاطعة والدروع السابغة، والبنادق الفاخرة البالغة، مع شيء من الآت الخيل النفيسة؛ والأتراس المناسبة لكل حضرة رئيسة.

ولما استكمل ما يريده من ذلك أرسل رسالتين إلى الملك عظيمتين، كنت أحبُّ إثباتهما إلا أن إحداهما ذهبت بحريق النار الذي سيأتي ذكره، والأخرى التي وصلت إلى الملك فاتنا ذلك منها بفوقها من أيدينا ولم يخطر بالبال رقعها إلا بعد الذهاب، وكان مولانا أودعنا ما اقتضاه نظره وحسن تدبيره، وهو أن قال: إذا انتهيتم إلى هذا الملك أظهرتم له هذه الرسالة الظاهرة المتضمنة لجواب عليه وذكر الهدية، وأخّرت الرسالة الأخرى حتى تجتمعوا به في موقف خال، وهو لا بد أن يفيض إليكم ما عنده، فإن وجدتموه يريد ذلك الأمر الذي تعلق به الأمل، وأنه يريد الدخول في ملة الإسلام المشرفة دفعتم إليه الرسالة الأخرى وخضتم معه في ذلك على ما يقتضيه الحال سرّاً وجهراً، وإن وجدتموه تائهاً في ضلالته، سادراً في ظلمات جهالته لا سبيل إلى ولوج النصيحة في لبه، ولا طريق إلى تقرير ذلك في قلبه، أعرضتم عنه صفحاً، وطويتم عنه كشحاً، والحاضر يرى ما لا يراه الغائب، والحازم من تنفعه النصائح والتجارب، فاعتمدنا هذه الوصية النافعة، ووجدناها، والله الحمد لأسباب الرشاد جامعة.

ذكر ابتداء السفر

وتوجهنا من حضرة الإمام - عليه السلام - في (غرة جمادى الآخرة سنة ١٠٥٧ هـ) مقدّمين بين يدي ذلك حسن التوكل، وخالص التوسل، والمبالغة بتقوى الله عز وجل، وطاعته تعالى وطاعة خليفته الإمام الأجل؛ فإن ذلك أبلغ ما يستعان به على نجاح المقاصد الصالحة، ونموّ متاجر الخير الراجحة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِغِ

اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿١٧٠﴾، وكان في صحبتنا جماعة ممن يليق مصاحبته في ذلك السفر من الشيعة والعسكر وأهل الرعاية والمروءة والحماية، وكان مرورنا على السنيين الأعظمين والرئيسين المكرمين عز الملة والدين، وجبل العلم والحلم الشامخ الحصين محمد بن الحسن بن أمير المؤمنين، وصفي الإسلام والمسلمين وسيف الله على أعدائه المفسدين أحمد بن الحسن بن أمير المؤمنين - حفظهما الله - وهما إذ ذاك بمدينة صنعاء حرسها الله وعمرها بأهل الإيمان والتقوى.

وكان هذا الرسول الواصل من الملك استصحب إليهما كتابين وما تيسر من الهدية، فأجابا عليه ووجها إليه ما تستنى من الهدية مضافة إلى هدية مولانا أمير المؤمنين - أيده الله تعالى - فكانت هدية من أسنا الهدايا وعطية من أجزل العطايا، واستقبلنا السفر المبارك على تيسير الله وتديره، وهو الصاحب في السفر والخليفة في المال والأهل والولد، ولا يجمعهما غيره تعالى؛ لأن الصاحب لا يكون خليفة والخليفة لا يكون مستصحباً.

فلما انتهينا إلى بندر المخا وقد أمر مولانا - أيده الله - إلى نائب المخا بتجهيز جميع العسكر المحافظين في البندر بأعظم ما يكون من الإعداد في المراكب لما يُتوهم أن يعرض من الأتراك من بندر سواكن ومن بندر مُسَوَّع، ففعل النائب ما أمر به، وتجهزنا من هنالك في (نصف شعبان سنة ١٠٥٧هـ)، وكان جملة سفرنا في البحر يومين، والمسافة مع استواء الرياح أقرب من ذلك، فقد تقطع في يوم واحد.

ولما وصلنا إلى بندر (بيلول) وكنا استصحبنا إلى السلطان شحيم بن كامل الدنكلي كتاباً من نائب المخا لما بينهما من الاتصال وحسن المعاملة، وجميل المواصلات، وكان السلطان شحيم غائباً حين وصولنا إلى بندر بيلول، فراسلناه حتى وصل، وكنا قبل وصوله ضاربين خياماً في مكان خارج البلد بينها وبين البحر؛ لأننا كنا أدركنا من أهل البلد تشوشاً من وصولنا، فبقينا هنالك حتى وصل سلطانهم شحيم.

وقد كان صحبتنا جماعة من تجار الحبشة، ولما وصل السلطان شحيم تلقانا بالإكرام وسني الضيافة، واطلع على أخبارنا وعلم أننا نريد الوصول إلى ملك الحبشة، وكان له اتصال به، كما هو عادة من هنالك ممن يدعي الإسلام، وليس له منه إلا اسمه.

ولما اجتمعنا به ومعه بدو كثيرون مُنْكَرُوا الصُّورَ، خالون عن التخلق بالشرع

الشريف؛ لما شاهدناه من اختلاط نسائهم برجالهم ولا يسترون عوراتهم ولا يتسترون بمكراهم، كأنها من المعروف، والبِدْعُ لديهم أمر مأنوس مألوف، ولسانهم أعجمية تخصهم، قليل من يعرفها وجعلوا ينظرون إلينا من بعد ويتعجبون منا كما نتعجب منهم. ولقد حُكي لنا أن كبيرهم متزوج باثنتي عشرة امرأة وغيره مثله، ولعلمهم يريدون الإطلاع على أحوالنا، والتجسس ليقفوا في طريقنا ويصلوا إلى شيء مما بأيدينا، كما يفعله المتخطفون، وكان من فضل الله ومما أمدنا به إيماننا عليه الصلاة والسلام استصحاب البنادق، فإنها دفعت عنا المكروهات، وكانوا يعجبون من رميها غاية العجب، وأحسب أنهم اعتقدوا أن صاحبها إذا رمى بها تمكن من متابعة الرمي بدون انقطاع، ونحن نوههم ذلك، فتحدثوا به وشاع، وملأ القلوب والأسماع.

ثم إنا بقينا في بندر بيلول قدر شهرين منها رمضان وخرجنا لصلاة العيد والسلطان شحيم معنا بأصحابه، ناشرين الأعلام مظهرين شعائر الإسلام، وصلينا في الجبَّانة، وخطبنا خطبة العيد المأثورة مع ذكر الإمام - عليه السلام - والدعاء له جهراً على رؤوس الأنام.

ثم لما كان بعد العيد بثمانية أيام توجهنا من بيلول وفي صحبتنا السلطان شحيم بأصحابه نحو ثلاثين، والقافلة من الجيوش نحو ثلاثين نفرًا، وسبب هذا التحير في بيلول أن الطريق كثيرة الأخطار من وجوه، منها: أنها مفاوز منقطعة الماء لا يعرفه إلا الدليل الماهر، وأهل الأمانة قليل فيهم، فإن الدليل إذا شاء سلك بالناس حيث لا يوجد ماء فيهلكهم أو يتحكم في أموالهم، ومنها الخوف من البدو، ومنها الخوف الأعظم من (القاله) أبادهم الله لإمكان وصولهم إلى هذه الطريق، فاحتجنا إلى نفسي المخاوف ومراسلات كبار البدو بنظر السلطان شحيم، وبذل الأموال لهم، وقد توجهنا من بيلول في أرض مستوية كثيرة الأشجار نحو مرحلتين، ثم دخلنا في أودية بين جبال عالية فيها ماء جارٍ.

وجاء لنا أخبار أن البدو يريدون غزونا في تلك الليلة، فأمرنا بالاحتراس، فكان من عجائب الاتفاق أنها جاءت أربعة قبيلة، وسمعنا حينئذ فرميناً عليها بالبنادق، فسمع البدو الرمي فهربوا، وكانوا نحو خمسمائة، ثم سافرنا اثنتي عشرة مرحلة، فوصلنا (عين ملسي)

وهو أعظم خطراً لقربه من (القالّة)، وهم أمة شديدة البأس متينة المراس، كثيرة العدد؛ إذا توجهوا للحرب في مدينة (أوسة) وما إليها، فقد يبلغ عددهم نحو مائة ألف وهم أهل قوة وصبر، ولقد حَكِي لي أن الرجل منهم إذا صرخ بأعلى صوته عند ملاقاته الحرب، وسمع ذلك عدوه انقلب قلبه، وهم مسلطون على النصارى بالحبشة، وأكثر السبي إنما يكون بأيديهم.

ثم أقمنا في (عين ملي) شهراً، وكان السلطان شحيم قد قدم رسولاً بكتاب إلى بعض أمراء الحبشة يخبره بوصولنا، وأن يتلقانا إلى محل معين سبق الكتاب من يبلول، ورجع الجواب إلى عين ملي، فأظهر السلطان شحيم المسرة وضرب بالنقارة، واجتمعوا للعب لتبشيرنا، ثم ارتحلنا وهو في صحبتنا خمس مراحل، ثم أشعرنا أنه يريد الرجوع؛ لأنه إذا جاوز لم يتيسر له الرجوع منفرداً بأصحابه عنا، ثم جَمَعْنَا وقافلة الحبشة، وكان هنالك ثلاث طرق، إحداها: ظاهرها الأمان من القالّة. والثانية: تحتل المخافة منهم. والثالثة: مقطوع بخوفها.

فاختلف رأي قافلة الحبشة، فرسول الإمام المرافق لنا يريد سلوك الطريق المأمونة، وإن كانت بعيدة المسافة، وقافلة الحبشة يريدون سلوك الوسطى، وكلهم لا يريدون الثالثة، فطلب لنا السلطان دليلين وعهدهما، وقال لنا: تسرون مرحلتين وليس بعد ذلك إلا أرض مقفرة، حتى تصلوا أرض الحبشة، فتودّعناه وعزمنا ثلاث مراحل إلى جنب جبل عظيم طولاً وعرضاً وبحيرة، يتصل ماؤها بالجبل وبجبال أخرى، ثم أدركنا من الدليلين دلائل الخيانة، فتحيرنا في ذلك المحل ثلاث ليال مع عظيم الوحشة وكثرة السباع، وخوف القالّة، فلم نشعر إلا وقد انصبّ علينا ثمانية أشخاص وتشاوروا مع الدليلين، فلم نجد بداً من تسليم شيء من المال لهم، ثم ارتحلنا غرباً شمالاً، ثم مالوا بنا غرباً مقابلة، فعلمنا أنهما قد تاهّا بنا في غير الطريق، ونكثا العهد، فتوائب عليهما أهل الحبشة، وقالوا لهما: قد غدرتما بنا، فهذه محال القالّة، فأجاباهم: غير هذه الطريق ليس فيها ماء، فتوسلنا إلى الله من خوف الهلاك بالعطش أو الجوع أو القالّة، وقد نفذ الزاد.

وكان رسول ملك الحبشة يستقبلنا في رأس جبل عال يستطلع أخبارنا، وقد أعد معه زاداً، وصار يتنقل في الجبال، فأدرك نارنا في شاطئ البحيرة، ومعه جماعة تعرف القالّة

والقفار، كما يقال (أهدى من دعمص الرمل) فانحدر إلينا من الجبل بمن معه، ففزعنا منه، وتأهبنا للقتال، فتقدم أحدهم، فعلمنا أنه من رسول ملك الحبشة، فكان الفرج بعد الشدة، فهرب أحد الدليلين وربط أهل الحبشة الدليل الثاني، وقالوا: يسترجعون منه المال، فلم نستحسن استرجاعه.

ثم وصلنا إلى ماء جارٍ شربتُ منه مواشينا، فهلك بعضها لانقطاع بطونها من الماء، ثم بشرنا الرسول أن أمير ملك الحبشة أمره أنه متى وجدنا بعث إليه رسولاً ليتلقانا بعسكره وأمرنا بسرعة الإرتحال، وأمر أصحابه أن يكونوا في أعالي الجبال عيوناً، وكان يتزل بنا في أماكن حصينة. وسرنا أربع مراحل، ثم اجتمعنا بالأمير المسمى بلغتهم (أحدانبسه) ومعناه واحد من الأسود، وهذا اسمه العلم، ولقبه (نعل جاده) وهو لقب يلقب به كل من يتولى ذلك القطر، وكان على جبل صعب، فانحدر إلينا، ولما ضربت البنادق هالتهم، وانخطوا برؤوسهم نحو الأرض، وهو أشيب مكشوف الرأس على عادتهم، طويل الشعر والأظفار، وقد استصحب معه من الطعام الحاصل لسرعة الإرتحال، فارتحلنا خمس مراحل إلى قرية بين جبلين عند نهر يسمى (وسمه) في ولايته، وعليه الحراسة من القالة في كل شهر عشرة أنفار يتناوبون في جبل يُسمى (كحل) لا مسلك للقالة إلى بلاد النصاري، إلا منه، فإذا علموا بالقالة أُنذروا قومهم ليهربوا إلى رؤوس الجبال، ويخلون بينهم وبين بيوتهم.

وللتحيرات المفاجأة فقدنا الزاد، فكنا نشترى غنماً لنأكلها فلم تنفع نفع الزاد، فوهنت منا القوى ونحلت الأجسام، وكان بعض عسكرنا يأكلون ثمر الدوم البهش، والمسافة بين بندر بيلول وبين بلاد الحبشة نحو شهر.

فلما وصلنا مع الأمير إلى (وسمه) توجهت رسله ورسول الإمام المرافق لنا، ثم تقدمنا إلى مسكن الأمير في جبل عال اسمه (حنطالوه) واسم هذه البلاد عموماً (أندرتة) كثيرة الخيرات، كنا نشترى أكثر من أربعين رطلاً عسلاً شهداً أبيض، ما رأيت مثله بالشقة السوداء من بز المراددي، وأقمنا في محله أربعين يوماً، وكانت صلاة الأضحى، فخرجنا لها إلى ساحة البلد، ومن انضم إلينا من المسلمين، وأقمنا الصلاة وهم يتعجبون، ووصل إلينا إلى ذلك المحل الفقهاء (آل كبير صالحو) وهو اسم تعظيم، وكان معنا

كتاب إليهم من مولانا أمير المؤمنين، وكسوة سنبة دفعناها إليهم، ورأينا عليهم سيماء الصلاح، ونور الإسلام، فسررنا بهم غاية السرور، وكان بعضهم يتكلم العربية، فسألناهم عن أمور نحتاج إلى معرفتها، ووصل معهم رجل آخر اسمه (كبيرى خير الدين) له معرفة جيدة بمذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه، وهو أفاقه من آل كبيرى صالح، وهم أشهر منه لعلو منصبهم.

ثم رجع جواب الملك مع خمسة من رسله، فتلقاهم الأمير (نعل جاده) وقرأ كتاب الملك قائماً كعادتهم، وأخبرنا بما أمر به الملك من إكرامنا وصحبتنا في الطرق المخوفة، فشكرنا ذلك للملك وأحسننا مخاطبة رسله بما يليق، ثم حملوا أثقالنا وسافرنا ثلاث مراحل إلى بلاد (السحرت) وتلقانا أميرها اسمه (إسحاق)، واجتمع الأميران، وقد كان أسلم لدينا رجل، فقبلنا إسلامه، وقال (نعل جاده): هو باختيار إذا أحب الإسلام، وقال (إسحاق): سنقتل الرجل الذي خرج من ديننا، فقال له (نعل جاده): إن العرب أهل مروءة ونجدة وشهامة، يرضيهم القليل ويغضبهم القليل، ولا يتركون الرجل الذي دخل في دينهم ولو ذهبوا عن آخرهم، ولا فائدة من الإساءة إلى أضياف الملك، فكفه بذلك.

ثم إن أمير السحرت أمر أهل بلاده بالحضور لحمل أثقالنا، وطلب منهم جيشاً لصحبتنا، فحضر نحو ألفي رجل بالحراب والخيل وسار بنا خمس مراحل حتى اتصلنا ببلاد (امرقلّي) فتلقانا أميرها (قباقسطوس)، فسارع في تجهيزنا وسار بنا سبع مراحل، ووجدنا قوماً عظيمين كليل مصر وسيحون وجيحون، وفيه حيوانات عظيمة، فرأينا فيه حيواناً ميتاً كالقبة العظيمة، يقال له: فرس البحر، ومقدار عرض النهر مائة ذراع، ويصب في نيل مصر، ثم اتصلنا ببلاد (الفلايسة) أولها واد عظيم اسمه (أغنه) تحت جبل اسمه (سُمين) وهو أعظم جبال الحبشة لا يبرح الثلج فيه شتاءً وصيفاً، وهذه البلاد ولايتها إلى بعض وزراء الملك اسمه (دُمُوهُ) وله وكلاء في البلاد، وهو لا يفارق حضرة الملك.

وقبيلة (الفلايسة) من أعظم قبائل الحبشة على دين اليهودية، وهم أهل نجدة، وما زال الملك يغزوهم حتى غلبهم ولا يعترض عليهم في أمور دينهم، ثم سرنا حتى اتصلنا ببلاد (الاحمرة) عشيرة الملك وكرسي مملكته، وكان سيرنا في بلاد الفلايسة والاحمرة اثنتي

عشرة مرحلة، ثم وصلنا قرية قريبة من مدينة الملك أهلها كلهم مسلمون، وفيها مسجد، ومكتب لتعليم الصبيان القرآن، فأنسنا غاية الأنس وتسرى عنا ما ثقل على قلوبنا مما قاسيناه من مخالطة الكفار ومنكراتهم، وجاء مسلم إلى رفيقنا الحاج سالم بن عبد الرحيم رسول الملك إلى الإمام يخبره أن رجلين قد اتصلا بوزراء الملك وألقيا إليهم كلاماً؛ بأن الحاج سالماً قد جاء صحبتته بهؤلاء العرب المسلمين، ليدخل الملك في دينهم، ونصحنا النذير بافتقاد ما معنا من كتب الإمام لئلا يكون فيها شيء مما يصدق الكلام، وجاء الحاج سالم إليّ مبهوراً من ذلك خائفاً، وقال لي: انظر في كتاب الإمام، فإن كان فيه ما تُحشى عاقبته أصلحته، فأعدت النظر في كتاب الإمام، وليس فيه إلا ما نجد له عذراً، وإن كان فيه مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ.. إلخ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ولم نجد في قلوبنا قلقاً، ثم تقدمنا إلى محل قرب مدينة الملك وبتنا طاوين، فهؤلاء النصراني ليس فيهم مروءة، ولا مكارم أخلاق التي لا تخلو منها أمة، فهم لؤماء وبخلاء، ولبعد الإتصال بالملك وسوء معاملة وزرائه، لم يصلنا جوابه إلا آخر اليوم الثاني، فدخلنا إلى بيت وزير اسمه (حواريا) يوم (الجمعة سلخ صفر سنة ١٠٥٨هـ)، واجتمع علينا في أزقة المدينة الرجال والنساء بلا حجاب، ليتعجبوا منا، ووصلت إلينا الضيافات من بيت الملك، ومن وزرائه طعام مصنوع، وعسل كثير وبقر وغنم، ودنان خمر، فأشار إليهم الحاج سالم أن يرفعوه.

ثم في الصباح استدعانا الملك، فتقدمنا إلى قلعته الباهرة مبنية بالحجارة والنورة، وأكثر البيوت عشاش والباني لدار الملك هندي، والقلعة تشتمل على دور عديدة وساحات مديدة، وفي كل مكان الفرش الرومية ومطارج الهند بالذهب مرصعة والأسرة الفاخرة، بالحلية والجواهر ملمعة.

ولما وصلنا إليه وقد انتظم مجلسه وتهيأ الوزراء وغيرهم بأفخر هيئة، حيث لبسوا مطارف الدياج المطرزة بالذهب والحريز، وجعلوا في أوساطهم مناطق الذهب المحلاة بالفصوص الفاخرة ونفيس الجواهر، وأخذوا في أيديهم السيوف السنارية المحلاة كذلك بالذهب الخالص، وانتظموا قياماً أحسن انتظام بصورهم عظيمة الأجسام، ليست سوداء

ورؤوسهم مكشوفة عن الشعر الجعد الناعم، وفي أيديهم أساور الذهب، وفي آذانهم الأقراط المتأللة كاشتعال الذهب.

وقد كان في النفس شيء من الكلام، فخطر في البال أن الوزراء يريدون معرفة حقيقة ما نقل إليهم، والإطلاع على كتاب الإمام؛ لأن لهم اليد القوية على الملك. ولما رأنا الملك نزل من سريره وقعد على الأرض إكراماً لنا وإعظاماً لإمامنا، وقاعدته أنه لا يتزل من سريره إلاً لأكثر وفد، ثم إن كل وفد لا يقعد بين يديه إلا بإذنه، فأقبل علينا بعد استقرارنا، وقد أعد ترجماناً شريفاً يقول: إنه من آل الحسين بن علي - عليهم السلام - من أرض بخارى، يعبر بالعربية أحسن عبارة، فسألنا عن أحوالنا وأحوال الإمام وأولاد إخوته، ثم سألنا عن كتاب الإمام، واستدعاه، فأجبنا أن معنا كتاباً وهدية من الإمام إلى الملك، ولإيصال الكتاب والهدية مجلس آخر، فأجاب علينا الشريف قبل أن يترجم جوابنا أن قواعد هؤلاء القوم غير ما عرفتموه، وهي: أن الوفد يقدم هديته ورسالته حال قدومه، فقلنا له: بلغ الملك ما قلناه، واعتذر لنا فيما جهلناه، فبلغه، وقبل عذرنا، ثم قال لنا: في أي محل تريدون النزول في منازل النصاري أو المسلمين، فقلنا: في منازل المسلمين والكل في جوارك وحماك، فأمر بتزنا بيوت تصلح لنا.

ثم أستاذنا في الوصول إليه في اليوم الثاني بالكتاب والهدية، فوجدنا حضرته كالأمس، فقرأ الشريف كتاب الإمام جهراً، ثم سلمنا الهدية شيئاً فشيئاً، وسألناه أن يجعل لنا رجلاً يتولى رفع حوائجنا إليه، فاستحسن ذلك وعينه على الوزير (حواريا) فأجرى علينا في كل شهر ثلاثين حملاً من الخنطة وأربعين رأساً من الغنم، وأربع رؤوس من البقر وعشرين جرة من العسل وست جوار من السمن.

وبعد ستة أيام طلبنا الملك وأمرنا أن نقل من المصاحبين، ففهمنا أنه يريد كشف السر الذي يساق الحديث، فتوجهنا ولم يكن في حضرته إلا ثلاثة وزراء، وأمر الحاج سالماً أن يترجم، فحدثنا وجاريته في حديثه، ثم قلنا: هل بقي في نفسك شيء؟ فقال: لا: فانصرفنا تصفح أحواله، وهل نجد سبيلاً إلى ذلك الأمر الذي هو غاية الأمل؟ فلم نجد لذلك النداء عربياً ولا مجيباً، فكنا نحن وهو كما قيل: إنك لفي واد وإننا في واد ولكم بين مرید ومراد، فأعرضنا عنه صفحاً وطوينا كشحاً.

ثم وصل إلينا رسول من بعض تجار اليمن بجهة مسووع يرفع ما نريده من أخبار اليمن وأحوال إمامنا، وانتظام أمور ساداتنا أيدهم الله، فسرنا ذلك غاية السرور وحمدنا الله على تلك الأخبار التي هي قرة العيون، ثم إنا سارعنا بتحقيق الأخبار إلى مولانا أمير المؤمنين وعرفناه أنا نريد العود من جهة مسووع وأنه - حفظه الله - يكتب إلى باشة الأتراك هنالك، يستأمن لنا منه؛ لأن عودنا من الطريق الأولى لا سبيل إليه، ولا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين، ثم كان من ألطاف الله أن وصل إلى الملك رسول من باشة الأتراك بسواكن مهدية، وهو عربي اللسان من أهل سواكن اسمه الأمير عبد الوهاب، حسن الأخلاق، كامل الصفات، جميل المعاشرة، له نسك أهل الصلاح، يحفظ القرآن غيباً حفظاً جيداً، وله معرفة بكتب السير والآداب، فروح عنا بأدبه، وجرى لنا على يديه منافع كثيرة، فأسررنا إليه ما نريد من العود عن جهة مسووع، وأنا قد رفعنا إلى ذلك إلى مولانا الإمام ونريد تمامه على يدك:

إن أراد الصديق نفع صديق فهو أدرى في نفعه كيف يسعى

فأحسن الجواب، وقال: قد عزمت أن أعطيك عجري وبحري، أعلم أي ما وصلت بالهدية إلى الملك إلا للإحاطة بأخباركم، فإن محمد باشا بسواكن أقعده وصولكم وأقامه، فأراد استكشاف ذلك.

وأمر سفركم على طريق مصووع، سيكون على أحسن الوجوه، واتفقنا على أخذ رأي الملك؛ لأنه لا يجب مرورنا من جانب الأتراك لما يلقاه أهل الحبشة من سوء معاملتهم، فهو يحب فتح الطريق من جهة بيلول، وربما كان هذا هو ضميره المستكن من هذه المواصللة لإمامنا، فإنه يعلم أنه لا يتم فتحها إلا بقوة وعناية من وجوه منها: معاودة الإتصال بالإمام، من هذه الطريق، فأجاب بأن مروركم من جانب الأتراك لا سبيل إليه، فإنهم أعداؤنا وأعداؤكم، فقلنا له: لا ننكر عداوتهم، وأما غدرهم فلا نظنه، وهم على ملتنا ونبينا وكتابنا نبههم وكتابهم، فكيف لا نقبل الأمان منهم، ثم لم يجد بداً من إسعافنا غير أنه طلب منا شاهداً نكتبه بيده براءته من رأينا، فكتبناه وخلي سبيلنا عن طريق مسووع، فكانت عاقبتها أحمد، وكانت أمورنا من نفقة وغيرها على يد الوزراء المعتادين للرشاد ونافسونا على علو منزلتنا عند الملك والاتصال به في أي وقت، وأدركنا منهم

العداوة وأقمناهم بالحريق الذي وقع معنا، فإننا لم نشعر ليلة وقد هدأت العيون إلا وقد اشتعلت النار بجانب العشة التي أنا فيها، وكانت الريح شديدة، فاشتعلت وأتلفت ما لدينا من الآلات والأثقال، ولم ننج إلا بالنفوس، وأعظم ما أهدمنا حريق الكتب التي استصحبناها وحمدنا الله على سلامتنا.

إذا سلمت رؤوس الرجال من الردى فما المال إلا مثل قص الأظافر فأقام الملك الحريق وأقعده وأبرق وأرعد، ولم نرفع ذلك إليه، وقلنا له: ليس في هذا بأس، ولم نتوجع واستعنا بالحزم، واشتغلنا بحصول إذنه لعودنا، فطاولنا حتى مضت تسعة أشهر، والعذر في تأخيرنا دخول شهور الخريف والأمطار ليلاً ونهاراً أربعة أشهر يحتبس الناس فيها، ولقد رأينا كثرة الأمطار والعيون ونضارة السهل والجبل والأرجاء بالزهور والخضرة الزبرجدية، والحمرة الوردية، والصفرة العسجدية، ومع الأمطار لا تتيسر الأسفار فأقمنا كالقبض على الجمر.

رضيت قسراً وعلى العسر رضى من كان ذا سخط على صرف القضا ولما انقضت شهور الخريف عاد إلى الماطلة؛ لأهم لا يرون الكذب عاراً، وطلبنا من نجتمع بهم من أهل شريعتهم، فلم نجد إلا رهباناً طريقتهم الزهد والعبادة والخلوة واجتناب الأنكحة.

وبلغنا خبر رجل عظيم من القسيسين والأخبار، ولكنه وقع في قضية اقتضت حبسه في جزيرة ببحر النيل، وهو من أقباط مصر، والقاعدة أنه لا يقعد هذا المقعد إلا قبطي، بأمر صاحب بيت المقدس يبعثه إلى الحبشة، ولسان القبط عربي وإنجيله بالعربي، وجميع شريعتهم بالقلم العربي، ويسمونه في الحبشة (الأبون) كما يقال في العربية القاضي، ويشارك الملك في نصف ما يُجنى إليه، فكان هذا ممن طالت مدته اثنتي عشرة سنة وعظم ملكه، وتكبر في نفسه، ومالت إليه الأكابر، واعتمدت عليه العساكر، فاغتار منه الملك وعمل له الحيل.

وكان من الأسباب أن الأبون بطش بمسلم كان من بطانته، فأنتهبه وهتك ستره، وهذا المسلم من أهل الهممة، والأنفة، فرفع إلى الملك أموراً يستنكرها على الأبون فأودعها أذنأ واعية، فطلب الملك الوزراء وأطلعهم على أن هذا الأبون صار يخطب في مهاوي الهلاك.

وللرهبان كبير يسمونه (الإحقيق) على وزن زنديق، فشاورة، واجتمع رأيهم أن يصيحوا في المدينة أن من علم بفاحشة على الأبون تخالف دينهم، وصل إلى الملك في يوم معلوم، فأجفل إليه الناس وأعلموه بمعاصي الأبون ومخازيه، ورقموا شهادتهم بخط الشريف محمد بن موسى البخاري؛ لأنهم يريدون رفعها إلى صاحب بيت المقدس العربي، ثم أشاروا على الملك بقتله، فرجح حبسه في جزيرة، وطلبوا رأي صاحب بيت المقدس، واستدعوا من يقوم مقام الأبون.

ثم خرجنا يوماً للضيافة إلى بعض المنتزهات إلى محل الأبون، فوجدناه محلاً نفيساً من أعجب ما رآه الرءون، وفيه تلامذته، فأحسننا مخاطبتهم فاطمأنوا وكان كبيرهم غائباً، فوصل إلينا في اليوم الثاني وهو ناسك يتكلم العربية اسمه (خاطروس) أحسن من رأيناه، فسألنا عن شريعتنا، فذكرنا إليه الأركان الخمسة، وأحكامها والطهور والأذان والإقامة والتوجه والزكاة، فقال: من يأخذها؟ فقلنا: الإمام الأعظم ويصرفها في مصارفها، فأعجبه الصرف في الفقراء ليشاركوا الأغنياء والصرف في الجهاد سبيل الله.

وما برح يعاودنا ويتأسف على ما مضى من الأيام، ونحن أعجبنا به، ثم قال: لولا أني كبير يظهر خبري لصحبتكم إلى بلادكم على أن تتركوني على ديني، فقلنا: لدينا نصارى ويهود على دينهم، منهم من يبقى على دينه مستأمناً بالجزية، ومنهم من يعود بلاده، ثم قال: عندنا الإنجيل ثلاثة أسفار بالعربي، فاطلعت على الأول وهو مواعظ، وأما الأحكام ففي الأخيرين.

وسمعنا قضية وهي أن هذا الملك لما مات أبوه وله خمسة عشر ولداً من أمهات شتى، فأوصى بحبسهم وإجراء النفقات لهم لئلا ينافعوا الملك إلا أخوا الملك من أمه ليعضده، فبقي عاصداً له قائماً بأمر جنده، حتى أدركته نخوة، واستقلال وهمة بقتل الملك، والثوب على الملك، فدبر الملك عليه الحيلة وقبضه ليلاً وهؤلاء الأعمرة أهل كيد متين، فسألته أمهما وألاً يقتله، فأرسله إلى جزيرة في بحر النيل ولم يظهر خبره.

ثم هيئت أحزاننا بماطلة الملك بسفرنا، ووقعت مراسلة منه، ومن وزرائه لبعض عساكرنا يرغبونهم في البقاء، ورأينا رسالاً من أهل (أوسه) (وسنار) والأترار قد حيرهم الملك، فلم نجد ملاذاً غير الالتجاء إلى الله ودرس القرآن، فيسر الله لنا منامات مبشرات،

منها: إن رأيت في منامي وصولي إلى إمامنا المتوكل على الله إلى ديوانه الذي يقعد فيه لقضاء حوائج الناس، فوجدته مملوئاً بالعلماء كل واحد منهم فارش سجادته يصلون ويتنظرون وصول الإمام - عليه السلام - إليهم لصلاة الجماعة، فوصل فسلمت عليه وشق الصفوف إلى محل صلاته، فجعلت أطلب لي مكاناً للصلاة، فلم أجد متسعاً إلا في سجادة سيدنا القاضي العلامة عبد القادر بن علي المحرسي، فصلبت بجنبه، ثم سمعت المسبح يقول:

هات الأحاديث تصريحاً وتبييناً لعلها من عليل النفس تشفيها
إن الأمور التي في النفس تخفيها لا تخشها إن ذكر الله يكفيها
فقمتم من منامي رقتهم. ثم رأيت رؤيا أخرى قائلاً بلي علي هذين البيتين:-
وكن حازماً في كل أمر تريده فإن صواب الرأي ما كان أحزمه
وشاور عليمًا في الأمور بحرباً حليماً إذا ما دبر الأمر أحكمه

ورؤيا ثالثة وهي أني رأيت أني أتلو القرآن على سيدنا علي بن سعيد السريحي القارئ المشهور بمحروس صنعاء حرسها الله، فوصلت إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، فقال لي: قف على هذه الآية، ومرائي أخرى وهي جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة.

ولشدة الضجر والسهر وصفت ذلك في قصيدتين من الأولى:-

على كل سعي في الصلاح ثواب وكل اجتهد في الرشاد صواب
وليس على الإنسان إدراك غاية ودون مداها للعيون حجاب
ولو علم الساعون غاية أمرهم لما كان شخص بالشورور يصاب
فقل لأمر المؤمنين لقد دعا وحق له بعد الدعاء يجاب
ولكن دعا قومًا يظنون أنهم رموا غرضاً في دينهم فأصابوا
يقولون: إن الله جل جلاله هو الروح عيسى إن ذا لعجاب
وحيناً وقالوا: بالأقنانيم فريّة فيحصرها ضبط لهم وحساب
وقالوا: هي الرب الثلاثة كلها بذلك أفتت فرقة وأجابوا

ولكن يقولون الثلاثة واحد
وهذا ضلال بين وجهالة
لقد ضاق ذرعي لاحتباسي بأرضهم
وحبب أوطاني إلي بأن لي
وللعدل والتوحيد فيها مسارح
فهل لي إلى تلك المنازل عودة
وهل أردن للشرع مورده الذي
وهل أسمع صوت المنادي لجمعة
وهل أنظر الدار التي ضربت لها
وهل يسعدن دهري إلى نيل مطلبي
فإن لم يكن يا دهر عُتَبَى فطالما
ولكنني أقفو مقالة شاعر
إلى الله أشكو أنني في منازل
تمر الليالي ليس للنفع موضع
أرى الكفر مكشوف القناع وأهله
فشمر أمير المؤمنين لحربهم
وأنت سليل القاسم القائم الذي
وقل يا بني الهادي أحيوا إمامكم
يفادون بالأرواح دون إمامهم
وناد بأبناء المكرم حمزة
ولا تنس أشراف القواسم إمام
ومن بعد هذا ناد من كان يقتدي
إذا أقبلت يوماً طوائف جمعهم

وهن لتكميل الإله نصاب
تفطر منه الصم وهي صلاب
وكدر مني مطعم وشراب
بها جيرة طاب الزمان وطابوا
وربع منيع شامخ وجناب
وهل لي إليها مرجع ومآب
تدل عليه سنة وكتاب
ينادي بأعلى صوته فيجاب
مدارس علم حولها وقاب
فما لي منه غير ذاك طلاب
عُتِبَ فلم ينفع لديك عتاب
فللقول حكم بالغ ولباب
تحكم في آسادهن كلاب
لدي ولا للمعتفين جناب
يظنون به خيراً فحباب وخابوا
فهم نقذ البيدا وأنت عُقاب
رمت شهبه أهل الضلال فغابوا
تجيك شيوخ منهم وشباب
ويصدق طعن منهم وضراب
تجيك سيوف منهم وجراب
أسود لديها صولة ووثاب
يزيد إماماً حب ذاك صحاب
تضيق بهم عن بسطهن رحاب

ولا تسمعن قول العذول فرما
يقول بلاد الكافرين بعيدة
ورأي الذي قد شاهد الحال راجح
ولله علم سابق في أمورنا
فيا رب وفقنا وأبد إماننا
فأنت لكل في الأمور مثاب
.. إلخ. ومن الثانية:

من لقلب ولطرف ما جمع
ولحزون نأى عن داره
كل يوم وله من همه
صرت في أرض قليل خيرها
جعلت رباً نبياً مرسلأ
ثلثوه وهو رب واحد
ولصب لم يزل حلف الوجع
وعن الأحباب كيف المرتجع
ما أطار النوم عنه ووزع
وكثير الشر فيها يصطنع
جاء بالحق وبالصدق صدع
جل عن ذلك ربي وارتفع

.. إلخ، وهي طويلة في سيرة الجرُموزي للمتوكل إسماعيل.

وَحَدَّث أَنَّ مُسْلِمَةَ ارْتَدَّتْ وَتَنَصَّرَتْ، وَلَهَا بَتَّانٌ عَلَى مُسْلِمٍ مِنْ مَسُوعَ، وَلَهُمَا خَالَةٌ مُسْلِمَةٌ هَرَبَتْ بِهَمَّا، وَوَضَعْتُهُمَا لِدِينَا، فَجَاءَتْ أُمُهُمَا الْمُرْتَدَّةُ مَعَ نَصَارَى يَرِيدُونَهُمَا، فَخَرَجَ أَحَدُ أَصْحَابِنَا بِالسَّيْفِ، فَهَرَبُوا، وَلَمْ يَجِءْ إِلَيْنَا مِنَ الْمَلِكِ وَوُزَرَائِهِ شَيْءٌ، وَشَاعَتِ الْقَضِيَّةُ وَسَكَنُوا، ثُمَّ سَيَّرْنَا هُمَا إِلَى أَبِيهِمَا مُسَوِّعٌ عَلَى يَدَيِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَسُولَ بَاشَةِ الْأَتْرَاكِ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَزَّنَا بِالْإِسْلَامِ.

وبعد التسعة الأشهر سافرنا في آخر (ذي القعدة سنة ١٠٥٨هـ) وأصبحنا الملك بثلاثة من كبار حضرته للقيام بضيافتنا، وغيرها، ولما سافرنا عشر مراحل انقضت مهمة أحدهم، وقد قام بنا أحسن قيام، ثم أفضت نوبة الثاني، فقبض الضيافة لنا من الناس، وأخذها لنفسه، وفارقنا ومعنا نفوس كثيرة من الرقيق، والخدامين أكثر من مائة نفر، فاعتمدنا على الله، ثم على أنفسنا، فكلما وصلنا قرية طلبنا أهلها وعرفناهم بمقدار ما أمر به الملك من الضيافة، فإن سلموها وإلا أخذناها قسراً، وكنا قد أعددنا ما نحتاجه من

سلاسل الحديد نربط بها المتمردين والحراميين.

ومرض بعض الرقيق، فاحتجنا من يحملهم على سرر، فكنا نربط رئيس القرية ونسيّره تحت الحفظ معنا، وكان يحمل المرضى تسعة أنفار إلى القرية الأخرى، فنربط رئيسها ونترك الأول وهلم جراً، فوصلت جميع أثقالنا سالمة مع المرضى، ولولا ذلك لهلكنا:

إذا لم تكن إلاّ الأسنة مركباً فلا رأي للمضطّر إلا ركوبها

ولقد حاول أهل قرية، الامتناع بالهرب، فأمرنا نساءهم بالحمل، فرجعوا مغلوبين، وتمت لنا هذه الأمور بشرف الإسلام، ولو اجتمعوا على إهلاكنا لم يشعر الملك بشيء وسرّ الإمام بما فعلناه عليه وعلى آباءه وعلى جده أفضل الصلاة والسلام.

ثم سافرنا خمساً وعشرين مرحلة، وانقضت نوبة المأمور المهاب، ثم أفضت النوبة إلى الثالث، ففعل ما أمره الملك مع زيادة وصير إلينا من الزاد ما يبلغنا إلى بندر مسوع لأجل المفازة بين (مسوع) و (دياروي) وهي عشر مراحل، وأقمنا في (دياروي) (١) اثني عشر يوماً نصلح ما نحتاج إليه من أمورنا.

وبلغ إلينا أن مولانا أمير المؤمنين، قد أرسل رسولاً قاصداً إلى باشة الأتراك بسواكن ليأخذ لنا الأمان، ويقف في مسوع حتى نصل إليه، فأسرعنا السير، ولما توسطنا المفازة رأينا بدواً من الأشرار نحو خمسمائة، حملوا علينا من جهتين، فأرسلنا حبشياً ليعرف ما يريدون، فإن كان المال بذلناه لهم، وإن كانت النفوس، فالموت دونها، ثم سلمنا لهم شيئاً من المال، وكنا قد أرسلنا رسولاً خبيراً إلى نائب الباشا بمسوع، فعاد جوابه مع مائة من العساكر، وقد أحاط الله بأولئك البدو الأشرار بجيش من أعدائهم، فقتلوا منهم وسبوا نساءهم وباعوهن في مسوع، وتحدثوا أنها من كرامات إمامنا - عليه السلام - ولا شك في ذلك ولا ريب، فإن حقه عند الله عظيم، وقد دفع الله عنا ببركته المهالك ووصل إلينا رسول الإمام مع المائة من العساكر، فسر بوصولنا وفرحنا به وارتحلنا، فوصلنا مسوع، فتلقانا نائب الباشا بأحسن كرامة وأقمنا به ثمانية أيام لنتهيأ لسفر البحر ثم ركبنا ثلاث

(١) لعلها دردوى.

سفن إلى بندر اللحية، فوصلنا جزيرة دهلك وبقينا بها أربعة أيام لعدم استواء الريح، ثم سافرنا على الجلاب ليلاً ونهاراً مع الاهتداء بالنجوم، فطلع علينا سحب متراكم مع ريح عاصف، فهاج البحر المتلاطم وأمطرت السماء فاجتمع هول المطر والريح والظلمة، وأهل الجلبة يعالجون أعمالها وينتظرون الفرج، فضغفت قواهم، ودام المطر تلك الليلة واليوم الثاني، وكان زورق مربوطاً بالسفينة، فامتلاً ماءً، فأشرفت على الفرق، فقطعتناه بالسيف فانفصل.

وأما السفينتان الآخرتان فرمى بهما البحر إلى جزائر، فتأخرتا، ولما وصلنا إلى بندر اللحية رفعنا الخبر إلى مولانا أمير المؤمنين، فرجع جوابه مشتملاً على مقبول الدعوات والتحنن والبركات والتحيات، وتوجهنا إلى حضرته الشريفة، فوصلنا إليه (٤ ربيع الأول سنة ١٠٥٩هـ) على ٢١ شهراً، منذ فارقناه، فاستبشر بنا أيده الله، كما استبشرنا به، وأكرمنا بأفضل ما يكرم به الغائب بعد إياه، وتلقانا بمكارم الأخلاق وأحسن في كرامة المصاحبين لنا من العسكر وغيرهم أتم الإحسان.

ثم عاود ملك الحيشة المكاتبه والهدية إلى الإمام المتوكل إسماعيل (سنة ١٠٦٢هـ) فأجاب الإمام بقوله: ((بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، إلى السلطان الملك المعظم عمدة سلاطين الأمة العيسوية التي هي أقرب الناس مودة للذين آمنوا من الأمة المحمدية.

المرجو من الله أن يجمعنا وإياه على كلمة سواءٍ ألا نبعد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله.

السلطان (سنجد فسلد) ابن السلطان (سنجد سينوس) سلام على من أتبع الهدى، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي ختم به النبيين، وصدّق به المرسلين - صلى الله عليه وسلم - وعلى أهل بيته الطاهرين، وأن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وأقول كما قال رب العزة معلماً لنا في كتابه الذي أنزله أن نقول لأهل الكتاب: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ

وَتَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ [النكيت: ٤٦] ونرجو أن تكونوا إن شاء الله ممن قال الله فيهم من سلفكم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ. فَأْتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٣-٨٥] وأنه وصل إلينا كتابكم الاعتذار في تأخير رسل الهدية عن رسولنا القاضي حسن أحسن الله إليه بما ذكرتم من الأسباب، وإننا لم نختَر إرسال القاضي حسن إليكم لاستمداد شيء من الهدايا الدنيوية التي أحقر من أن تذكر، فإنه يقوم بها أدنى حامل، وإنما اخترناه ليحمل عنا إليكم الهدية الدينية، والدعوة الإسلامية المحمدية، حين أنسنا منكم القبول، واستدعيتم وصول الرسول، ليكون تواصلنا على أمر الله، وتعارفنا على كلمة الله، التي يقول عز وجل فيها معلماً لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] وبقوله عز وجل: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ.. إلخ﴾ [الشورى: ١٣].

فهذه هي الهدية التي قصدناها، ونرجو أن تكونوا لها قابلين، وبسيفها على الأعداء صائلين ولنا سلف في ذلك جدنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولك سلف في ذلك (أصحمة النجاشي) - رحمه الله - كتب إليه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة سلم أنت وإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالة على طاعته وأن تتبني وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى)).

ولما وصل إليه الرسول بكتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الرسول

له: ((يا أصمحة إن عليّ القول وعليك الاستماع، إنك كأنك في الرقة علينا منا، وكأننا في الثقة بك منك؛ لأننا لم نظن بك خيراً قط إلا لنناه، ولم نخف من شيء قط إلا أمناه، والإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاض لا يجور))، وقد أرسل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - رسله إلى الناس فرجاك بما لم يرجهم وأمنك على ما خافهم... إلخ.

فقال النجاشي: ((يا لله إنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وإن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل))، ثم كتب النجاشي جواب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

((بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة سلام عليك يا نبي الله ورحمته وبركاته الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله وما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت، وإنه كما ذكرت، وقد عرفت بما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، وأشهد أنك رسول الله صادقاً مصداقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين)).

وإذا كان الأمر كذلك فحق علينا أن ندعوك إلى ما دعا إليه سلفنا، وحق عليك أن نجيب إلى ما أجاب به سلفك إن شاء الله، فإن ذلك منا ومنك أنفس الهدايا.

هذا وهديتكم التي صحبت رسولكم وصلتنا كما ذكرتم في كتابكم وهو خمسون رأساً من الرقيق الأحمر والأصفر والأخضر وعشرة رؤوس من السود وبغلة بسرّج ذهب وعذارات فضة وعدتھا فضة وبغلة أخرى بسرّج وعدتھا وعذاراتھا نحاس، وقبلناھا، وصدر في حفظ الله مع رسولكم ما تقفون عليه، إن شاء الله في البيان الصادر طي هذا الكتاب، يكون إن شاء الله سبباً إلى التوصل إلى الغرض المطلوب، والأمر المحبوب من الاجتماع على كلمة الله والاتحاد في أمر الله، والقول كما علمنا الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

ولصاحب الترجمة القاضي حسن الحيمي أشعار جيدة وله ذرية لهم مروءة ورياسة،

رئيسهم ولده القاضي العلامة محمد بن الحسن، ستأتي ترجمته في الجزء السادس في (سنة ١١١٥هـ)، وفاته وذكر بعض الأعلام من أقاربه، وحفيده القاضي العلامة الخطيب أحمد بن محمد بن حسن الحيمي المتوفى (سنة ١١٥١هـ) ستأتي ترجمته في الجزء السابع.

أنباء سنة ١٠٧٢هـ

في (سنة ١٠٧٢هـ) غلت الأسعار وقلت الثمار وشمل القحط البلاد وانتشرت الجراد، وفيها انتهت قبائل عَنَزَه ولام بالحجاز محل الحج الشامي.

وفي (ربيع الثاني سنة ١٠٧٢هـ) سار الأمير محمد بن الحسن من صنعاء إلى اليمن الأسفل، فاستقر باب وجبله، وانقضى الحال أن يكف يد ولده يحيى عن كثرة التصرفات لما رآه من كرمه وتهالكه على فعل المعروف.

واستبد في نزوله هذا بمحصول بلاد العدين، وكانت ولاية للسيد العلامة محمد بن أحمد بن الإمام الحسن المؤيدي، فلما مات خلفه السيد حسين المؤيدي فتوفي، فأراد أولاد السيد محمد بن أحمد، والإمام المتوكل إسماعيل توليتهم، فلم يتم، واستولى عليها يحيى بن محمد بن الحسن، وتبَّه أبوه الإمام أن البلاد بلادي وفيها عاملي.

وفيها سار المولى علي بن أحمد بن القاسم، والفقير الحملولي إلى فيفا، فواجه إليه بنو مالك ومن انضم إليهم.

وفيها انتهب الثممي من مشايخ سفيان دراهم للحطروم في العمشية في الوقت الذي العهدة عليه في تأمين الطريق، فعيَّه قبائله واسترجعوا منه أكثرها.

وفيها تهيَّأ السيد عبد الله بن حسين جحاف للحج، فلما وصل صبيا حضر صلاة الجمعة، فسمع من الخطيب تقدم الخلفاء على علي، والجمع بين الإمام وسلطان الروم في الدعاء، فلم يتماسك عن القيام والتكلم في جانب الخطيب بما ينكي، وكاد الحال يفضي إلى قتال.

وفيها غزا الشريف محمد بن الحسين صاحب صبيا إلى أطراف بلاده، فنشب الحرب بينه وبين الحرامية، وكانت الدائرة عليه، قُتل من أصحابه نحو السبعين، وانتهب سلاحهم، ووقعت فيه جناية، وكان هو الذي يغزو وينهب، فانقلب الدست، وصار

يقصد إلى عقر داره.

وفيها حصل ما بين قبائل ديبان وشوابه، وهران، حرب أفضى إلى قتل ثم اصطالحوا.
وفي (رجب سنة ١٠٧٢هـ) سار الأمير أحمد بن الحسن إلى رأس غيل الخاردار
الأعلى وسكن هناك أياماً، وقطع شجرة كانت القوام قد أعادت بها شنار الأصنام،
ولأهل نعم فيها اعتقاد، ثم رجع الغراس وقد قطع ذلك الغراس، ثم ما برح يعاود غيل
الخاردار، وعمر به الحمام، وطنب فيه الخيام، وطاب به المقام.

وفيها أشار الإمام إلى الأمير محمد بن الحسن أن يسمح بالعدين، فلم يسعد وهو
حقير في جنب وفود الأجناد، وكثرة الإمداد، والسعي منه في حياطة البلاد والعباد.

وفيها أذن الإمام للشيخ عبد الله هرهرة في العود إلى بلاده.

وفي (نصف شعبان سنة ١٠٧٢هـ)، سار الإمام من وادي أقر إلى سودة شطب، ثم
إلى بلاد غفار وكحلان، ثم عاد.

وفي نصف (رمضان سنة ١٠٧٢هـ)، خرج جماعة من شياطين البرتغال من سواحل
الهند إلى ساحل عدن في ثلاثة أغربة، فجرت الريح بأمرهم رخاءً، وحالوا بين التجار
وبندر المخا، وكان النائب به السيد زيد بن علي جحاف، وكان بحر الود بينه وبينهم
غير صاف، فأردف عليهم بردفين، ووجه إلى أغربتهم مدفعين، فلما علموا أنه لا قدرة
لهم عليه دبروا الحيلة وتفظنوا لجبخانه البارود في مركب المسلمين فرموها، فانقضت
كالسهم المقرطسة أو الطيور التي النيران لها أجنحة، فأحرقت الجبخانه مركب المسلمين
وانكسر، ثم هلك منهم بالسيف من أدركه الفرنج، وغرق بعضهم وأسبر بعضهم
وأرسلهم النصاري إلى سلاطنتهم، وأخير الفتى سرور من أهل المخا، وكان من جملة
الأسرى الذين رجعوا إلى اليمن بعد أن أطلقهم سلطان الفرنج أنهم سافروا في البحر
سبعة أشهر، وفي البر أكثر. وبعد ذلك ترسم الفرنج على باب المندب، وأخذوا الأتاوة.

ولما بلغ سيف الإسلام أحمد بن الحسن هذا الفعل الشنيع فلم يأخذ الاستئذان من
الإمام لتضييق هذا الحادث، فوالى المراحل، وترك ما كان عزم عليه من معاودة الحج،
لترجيح هذا المهم، ورفع المد لهم، فرقم له في عليين ثواب الغزاة المرابطين، ولم يظفر
بطلبته من أولئك الشياطين، فإمها طارت بهم الغربان إلى بلادهم، ثم سار سيف الإسلام

إلى عدن، واستقر بها، وجهاز إلى ملك الهند هدية من الخيل العتاق اليمنية العربية المحبوبة، فعاد الرسول بعد أيام بمديدة مضاعفة وتُحَف مرادفه.

نبلاء سنة ١٠٧٢

عبد الرحمن بن محمد جحاف

فيها توفي السيد العلامة عبد الرحمن بن محمد بن شرف الدين جحاف بصنعاء. وكان عاملاً بخفّاش للمولى الحسين بن القاسم، ثم للإمام المؤيد بن القاسم، ثم للمتوكل إسماعيل، ثم استقر بصنعاء على أحسن حال. وكان عارفاً بالنحو وأصول الفقه والمنطق، وله شرح على غاية السؤل. وكان متواضعاً إلى نهاية متمسكاً بالسنة النبوية، اسمع تيسيراً لديع على السيد العلامة إبراهيم بن يحيى بن الهدى جحاف، وأجازته، وأسمع صحيح مسلم على العلامة عبد الواحد التريلي.

الحسين بن محمد النعمي

في (العشر الأواخر من ربيع الثاني سنة ١٠٧٢هـ) توفي السيد العلامة الحسين بن محمد النعمي التهامي القبي من صبيا.

هاجر إلى صنعاء، فقرأ بها الفقه على القاضي شهاب الدين أحمد بن يحيى حابس وغيره، ثم وصل إلى صنعاء، فقرأ على السيد محمد بن عز الدين المفتي في الفقه وغيره، ودرّس فيه وفي غيره.

قال في الطبقات فيه: النعمي القبي التهامي العلامة، قرأ بصعدة على حابس وغيره وبصنعاء على المفتي وعلى الفاضل أبي القاسم ابن الصديق البيشي وأخذ عنه كثيرون كالسيد مهدي بن الحسين الكبسي، والقاضي علي بن أحمد السماوي والسيد عثمان بن علي الوزير وغيرهم.

وكان عالماً ورعاً محققاً سيما في الفقه وقواعده، وله حواش على شرح الأزهار وغيره، وهو المراد بقولهم في الحواشي، تمت تهامي.

وأثنى عليه تلميذه مهدي الكبسي، ووصف شيئاً كثيراً من أحواله وزهده وتحقيقه.

أحمد بن الحسن بن حميد الدين

وفي (ليلة الثلاثاء ١٨ محرم سنة ١٠٧٢هـ) توفي السيد أحمد بن الحسن بن حميد الدين بن المطهر بن الإمام شرف الدين صاحب (ترويح المشوق بتلويح البروق). كانت وفاته بالروضة ودفن بخزعة، كما أشار إلى ذلك القاضي الأديب الحسن بن علي بن جابر الهبل المتوفى (سنة ١٠٧٩هـ) في هذين البيتين:

يا قمر أحمد قد حويت مكارماً ومحامداً
شهدت بذاك خزعة وكفى بذلك شاهداً

وفي البدر الطالع والجامع الوجيز: أنه توفي (سنة ١٠٨٠هـ) والصحيح أنه (سنة ١٠٧٢هـ) لأدلة كثيرة.

وقد ترجمه أبو الرجال في مطلع البدور ترجمة طويلة، والحيمي في طيب السمر، وفي روح الروح وطبق الحلوى.

وكان عالماً شاعراً أديباً زاهداً، ذكر في كتابه ترويح المشوق ما دار بينه، وبين جماعة من أدباء عصره وترجمه محمد أمين في نفحة ريحانة الألباء، ومن شعره قصيدة أولها:

إياك من سود الحدق فهي التي تكسو القلب
وقصيدة أولها:

يا رشاً أثمرت بي العواذلا ما لك جانب الوفاء عادلا
وقصيدة أولها:

ما بين معترك المقل لله أيام الغسل
وقصيدة أولها:

سقى الأثل كل سحاب مظلة عليه ولا برحت مستهلة

ودرس كثيراً لدى الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم بن المفضل، والقاضي العلامة عبد الرحمن بن محمد الحيمي بشبام، ولقد كانت مقاماتهم رحلة للطالبيين ونزهة للناظرين ومن

مراسليه القاضي محمد بن إبراهيم السحولي، كما في مطلع البدور.

أحمد الذنوبي

وفيهما توفي السيد أحمد الذنوبي، درس ببلاد حجة والظفير في الفقه، وكان إذا سار إلى بلده الذنوب يشغل نفسه في أمواله ويفتي ويدرس مع ذلك.

محمد بن علي الجملولي

وفيهما توفي حاكم السودة بما القاضي العلامة محمد بن علي الجملولي، وقد ولي القضاء بيندر المخاء زماناً، ثم نقل لقضاء السودة.

ناصر صبح

وفي (آخر جمادى الأولى سنة ١٠٧٢هـ) توفي بشهارة السيد العارف ناصر صبح بن محمد بن يحيى الغرباني من ذرية القاسم العياني الذي عارض الإمام القاسم آخر أيامه بالحيمة، فقصده محمد باشا فاستسلم أصحابه، ففتك بهم الباشا وفر السيد صبح إلى العصيمات، ثم سكن شهارة وفي الطبقات أن وفاته (سنة ١٠٦٢هـ) كما سبق.

المهدي بن الهادي النوعة

وفي (جمادى الأولى سنة ١٠٧٢هـ) توفي السيد العارف المهدي بن الهادي النوعة، كان ذا ولوع بالتاريخ وصنف فيه مؤلفاً في جزئين سماه الإقبال.

ولاه الأمير الحسن بن القاسم ذي السفال، واستمر كذلك زمن المؤيد ثم المتوكل إسماعيل ثم سار إلى بلدة ساقين بمال جزيل فرفع خبره إلى المتوكل، فاستدعاه من الطريق، فوصل، وذكر أن المال من غلة أمواله التي شراها منذ تولية الحسن له ومما أحياه هنالك، فكف عنه المتوكل. ثم إنه بطيبة نفسه سمح من ماله بشيء لبيت المال، ولما عرف المتوكل طيبة نفسه به قبله.

ثم استوطن ذريته ذي السفال في أعمال بعلم وعدل وصلاح وكرم وهم سادة أجلاء إلى عصرنا آخر القرن الرابع عشر.

محمد بن محمد القشاشي

وفي (١٩ ذي الحجة ١٠٧١هـ) توفي بالمدينة المنورة الشيخ العلامة الحافظ أحمد بن محمد بن يونس بن أحمد الدجاني بن علي بن الحسن بن ياسين المقدسي الأصل المدني المولد والوفاة المعروف بالقشاشي، عن ثمانين سنة إلا أشهراً؛ لأن مولده في (٢ ربيع الأول سنة ٩٩١هـ)، وهو الذي شرح عقيدة المتوكل إسماعيل.

وترجمه الشيخ إبراهيم الكردي، وأثنى عليه كثيراً، وذكر أنه أخذ عن أبيه، وعن أبي المواهب أحمد بن علي بن عبد القدوس في الحديث والأصول وغيرهما.

وله مؤلفات واسعة، ومنها شرح العقائد النسفية، وشرح الحكم العطائية، وحاشية على المواهب المدنية وديوان شعر، وله زاوية معروفة بالمدينة، وهو من الزهاد ومؤلفاته تزيد على خمسين.

الناصر بن عبد الرب

وفي (يوم الثلاثاء سلخ ذي الحجة سنة ١٠٧٢هـ) توفي الأمير الكبير الصدر الشهم الناصر بن عبد الرب بن علي بن شمس الدين بن الإمام شرف الدين ملك كوكبان وحافظ حوزته وهو فرع من الشجرة المتوكلية.

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة بعد الممات جمال الكتب والسير

كان اليمن بخدوده، تحت رسم آبائه وجدوده. تلقاها المطهر عن أبيه الأطهر، فرقم ملكه على صفحاتها بلسان السيف الأبتى، رد عنها فيالق الأتراك، بملاحم بلغت الدماء بها إلى كعب الشراك، حتى طهر منهم كل رستاق، وأذاق شجعانهم السم الزعاق، وما خلا عن العرفان المنسوب إلى أخويه فخر الدين عبد الله الرضّى، وجمال الدين علي المرتضى، ولكنهما تربعا في كرسي مملكة المعارف، ولبسا من قميص التحقيق أجمل المطارف، ومن وقف على ما دار بينهما في معنى قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «أنا مدينة العلم وعلي بابها» تنسّم نفحة كلام أمير المؤمنين، وعلم أن السلالة النبوية هم المراد بقول الصادق المصدوق الأمين (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين)، واختص جمال الهدى باكتناه السر العرفاني، وسمت ذاته إلى ارتفاع التجرد عن حضيض

هذا العالم الفاني.

ولما انقضى دور الدولة المطهرية المطهرة، تَلَّعَبَ من بعده وبعد أخيه شمس الدين بالملكة تَلَّعَبَ الصولجان بالكرة، وفاتهم ضم النشر وجمع الأمر، ففاضت روح مملكتهم إلى جسد الاشتراك، واستحكمت الأتباع على أمرهم حتى سقط إلى أيدي الأتراك، وأشخص منهم إلى الأروام، من نفذت عليه أحكام، وصرفت بامتحانه أقلام، ثم لما استحكمت الدولة المنصورية والعصابة القاسمية كان أهل هذين البيتين زوجين في حثمان، وجوادين في مقبض عنان، فانضمت أيديهم على ملك كوكبان فأمروا فيه بالمعروف ونهوا عن العصيان، وقسموا بالسوية، وعدلوا في الرعية، وما زال الأمير منهم يقفو الأمير، والخطير المقدار يتبع الخطير.

نجوم سماء كلما انقض كوكب بدا كوكب تأوي إليه كواكبه

وهم الآن درة تاج مجد باذخ، وعصابة دائرة بهامة ذلك العلم الشامخ، فيهم البلغاء والعلماء والعباد والكرماء. ولما مات الأمير الناصر خلفه ولده عبد القادر محب الأفعال، منقطع الأشكال.

وفي المواهب السنية للسيد الحسن بن عبد الرحمن أن وفاة الأمير الناصر في سنة ١٠٧٣هـ وأرخ وفاته السيد العلامة محمد بن إبراهيم بن المفضل وكتب على ضريحه:

غيث رضوان من الرب الرحيم	بضريح الملك والمجد المقيم
ناشر العلياء باني مجدها	الكريم ابن الكريم ابن الكريم
الخضم البحر في يوم الندى	والهزبر الليث في الخطب الجسيم
رفعت روح له طاهرة	وسمت في درج الفضل العظيم
وأتى التاريخ: (في الرفع بها	ولي الناصر جنات النعيم)

(١٠٧٣هـ)

وقيام الناصر الناصر بعد وفاة أبيه بالجنند سنة ١٠٣٨هـ أيام الجهاد، كما سبق.

حوادث ١٠٧٣هـ

ابتداء شعار يوم الغدير

في سنة ١٠٧٣هـ كان من الصفي أحمد بن الحسن ابتداء شعار يوم الغدير ١٨ ذي الحجة بنشر الأعلام والزينة والاحتفال، ولما وصل الصفي إلى حضرة عمه الإمام نجبور، اجتمعوا على فعل هذا الشعار، فقام به للشيعه شنار.

وجاء الخبر مع حجاج اليمن أن قبائل عنزة انتهبوا الركب الشامي، وهزموا أميره، وأسرُوا ابنه الصغير، فتفاداه بمال جزيل.

وأما أمير حاج اليمن، فإن الحراميين قتلوه في رجوعه وقتلوا من عسكره أربعة أنفار، ومن الحجاج رجلاً بسبب تقصيره، فيما يعتادونه وقت دخوله.

وحاج العراق، حج على أتم الأحوال، وفيها ظهرت ببلاد صنعاء دود خضر وسود، فأكلت النبات وظهرت الدبا بالتهائم والسهول.

وفي صفر عزل صاحب مصر النائب بسواكن والنائب بمصوع، وجدد صاحب مصر مقام الشافعي وأصلحه.

وفي ربيع الأول كثرت الجراد بتهامة، فأكلت الزرائع.

وفي هذا العام لم يدخل إلى المخا غير يسير من البز بسبب فتنة الفرنج المتقدمة.

وفيها سار المولى محمد بن أحمد بن القاسم؛ للإصلاح بين قبائل ذبيان وعيال عبد الله، ونشب الشر بين أهل الرجو، وبعض أهل البلاد؛ بسبب ضربهم الطبل في بلاد الرجو، ثم زال الشر.

وفيها وقع حرب في عنس ومذحج، وقتل منهم نحو العشرة. وفي (جمادى الآخرة) هرب الشيخ الجيد من حبس ضروران إلى بلاده بالمشرق.

وفيها وصل إلى أحمد بن الحسن شيخ يقال له الحميلي، وبلاده، يقال لها: البديع متوسطة بين الدواسر وبين الحسا وولايتها إلى شريف مكة، فأكرمه الصفي وعاد بلاده، ومعه خطيب استدعاه وخطب ببلاده للإمام جمعة أو جمعيتين، ثم عاد الخطيب، ولم يتم

الترتيب، ولما قبض محمد بن الحسن بعض بلاد ولده يحيى، فأذن لأهل النوبة بالانصراف، فساروا إلى حضرة عمه أحمد بن الحسن، فأمرهم بالاستمرار عليها معه، فضربت، واشتاق إليها العوام، لما كانوا يسمعون عنها في دولة الأروام، ولم يكن قصد محمد بن الحسن إلا زحلقتها من باب ولده يحيى لتكليفها جملة من المال، ثم أمر بها محمد بن الحسن، فضربت بين يديه.

وقد سبق أن ضربت بين يدي الإمام الناصر صلاح الدين محمد بن علي، وقد ذب عنها وعن الدواة المحلية، وإسدال الحجاب بعض الأحيان، ونحو ذلك الهادي بن إبراهيم الوزير في كتابه (كريمة العناصر في الذب عن سيرة الإمام الناصر).

وفي آخر (رجب سنة ١٠٧٣هـ) اضطرب الأمر على خلف الأمير علي ظفار من جهة العماني سلطان بن سيف، فإن آل كثير ما زالوا ذلك المعقل شجى في حلقه وهم يرون أن خلفاً تطفل على ظفار فشنوا الغارات عليه، وقتلوا من أصحابه زهاء أربعين، فهرب على سواح في البحر، ولم يترك بظفار إلا مدفعين، فدخلها السلطان محمد بن جعفر الكثيري، وبدل قوانينها والأحكام، وحوّل الخطبة للإمام، فقال: العماني: لم نبعث بالأمير خلف إلا تلبية لداعي آل كثير، وإلا فنحن في غنية عن ذلك الصقع الحقيق بمملكتنا الوافرة وهو في الحقيقة يتنفس الصعداء.

وفي (أول فصل الصيف من سنة ١٠٧٣هـ) حصل غيم طبق اليمن رجب وشعبان فبطل بعض الزرع.

وفي (شعبان) حصل حرب بين بلاد خيار ووادة، فقتل سبعة أنفار من الجاسنيين، فأدبهم الإمام وارتفع الخصام.

وفي رمضان حاول الهيثمي الفرار من حبس كوكبان إلى بلاده بالمشرق، فضوعف عليه التضييق.

وفي شوال طلع محمد بن الحسن من اليمن الأسفل إلى مقام الإمام بضوران، ثم توجه إلى صنعاء.

وفي هذا العام حكم حاكم بلاد بعدان بالحق على غريم ألد ففتك بالحاكم، فقتل بعده بالقصاص اللازم.

وفيهما تواتت الفتن بين بني حذيفة وسحار فسار إليهم الأمير علي بن أحمد فأدبهم.
وفيهما كتب الإمام إلى عباس شاة سلطان العجم للمعاهدة والألفة فأجاب الشاه بما
يدعو إلى الصفا والوفاء.

نبلأ سنة ١٠٧٣هـ

الحسين بن يحيى السحولى

في (نصف محرم سنة ١٠٧٣هـ) توفي بصنعاء حاكمها القاضي العارف شرف الدين
الحسين بن يحيى السحولى. ودفن إلى جنب أخيه بالتربة التي تجمعهم جنوبي صنعاء جنب
مسجدهم السعدى.

محمد بن صلاح الفلكى

وفي (سنة ١٠٧٣هـ) توفي حاكم ذمار القاضي العلامة في الفقه والفرائض محمد بن
صلاح الفلكى. وكان له اليد الطولى في الهندسة والمساحة مع دماثة أخلاق.
ترجمه في الطبقات فقال: القاضي العلامة الكامل عين الشيعة محمد بن صلاح بن
محمد بن ناصر بن محمد بن صلاح الفلكى نسبةً إلى قرية فلكه بدمار الذمارى المذحجى،
ويعرف جده الأعلى بناصر الدين الفرائضى لمهارته في علم الفرائض، أخذ المترجم له عن
والده، وعن العلامة إبراهيم حثيث.

وأخذ عنه محمد بن صلاح السلامى وحسين المجاهد وحسين دغفان ومهدي
الشيبسى وغيرهم، وكان فقيهاً فاضلاً بارعاً عارفاً فريداً الدهر، وآية العصر بدمار
وما إليها. كان مذهب الهدوية بطرف لسانه، وتعتريه الحدة، فيرجع عنها سريعاً، مع
الرفق والبر بالطلبة. وكان غاية في الفرائض والحساب والجبر والمقابلة وغير ذلك مما
يتعلق بالفن، وتولى القضاء مدةً طويلة، فكان محمود الأثر يصدع بالحق ورثاه غير واحد.

أنباء سنة ١٠٧٤هـ

في نصف محرم خسف القمر بـرج الدلو حتى انطمس جـرمه.

وفيها سار الإمام من ضوران إلى صنعاء وفي عيد النحر حصل حرب بـعمران بين قبائلها وعيال سريح بسبب دخولهم إليها بالطبول على ما جرت به عادة القبائل من الأنفة عن ذلك، فقتل أربعة من الفريقين.

وفي (٢٠ جمادى الأولى سنة ١٠٧٤هـ) سار الإمام من الروضة إلى الخارد استدعاه للضيافة الصفي أحمد بن الحسن، ثم سار إلى ناعط، ثم خرج إلى السودة ثم شهارة واستقر زمناً.

وفيها وصل رجل من المغرب الأقصى من القيروان، ومما أخبر به أن بعض أمراء تلك الجهة له مرأة يرى الإنسان فيها باطنه، كما يرى ظاهره^(١)، وهذا لا يكاد يصدق.

وفي (رمضان سنة ١٠٧٤هـ) جاءت الأخبار أن الانقليز انتهبوا بندر سورت بالهند. وفيها حصل شجار بين سفيان وسحار بحضرة الإمام بشهارة وتراجموا فحجز بينهم عسكر الإمام.

وفي (ذي القعدة سنة ١٠٧٤هـ) حصل حرب في صعفان حراز بسبب المرعى وقتل سبعة أنفار فبادر الإمام بالإرسال عليهم وأدهم بمقتضى الحال.

وفيها أمر الإمام الشيخ عامر بن صلاح الصايدي بالتزول إلى تعز لافتقاد ما شجر بين السيد حسين المحرابي عامل محمد بن الحسن والشيخ راجح الكينعي عامل الإمام فالتأمت بوصوله الأحوال بين الرئيسين.

وفيها أمر الإمام ببناء قصر مدينة عيان وإعادةه كما كان في دولة آل عثمان، فبناه السيد الرئيس صالح عقبات واستقر به وأمر الإمام أن تجمع زكاة خيوان وغيره إليه، وما زال السيد عقبات مستقراً به إلى أن ظهر له من سفيان خداع وعصيان، ولم يكن عنده

(١) وجدت الكشافة في المغرب قبل زهاء أربعمائة سنة.

نصاب يقطع به الأسباب، فوصل إلى الإمام.

فيها ساخ جبل في مدوم الشرف، وكان على ظهره أموال هلكت بملاكه.

وفي ذي الحجة ثارت فتنة بين خيوان وبين صبارة سفيان، وقتل منهما سبعة فأدبهم الإمام، وهدأت فتنتهم، وفيها أحرق الإمام كتاب الفصوص لابن عربي، محيي الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن عربي الطائي الحائمي الأندلسي بناءً على أن ما فيه كفر بحت.

والناس في ابن عربي على ثلاثة أصناف: صنفٌ حزم بتكفيره كالشيخ أحمد بن تيمية الحبلي، والحافظ الذهبي، والشيخ إسماعيل المقرئ الزبيدي الشافعي، والشيخ الحسين الأهدل اليمني الشافعي، وأبي مخرمة صاحب الفتاى.

وصنفٌ حزم بإسلامه، بل قال: هو من الأولياء، وإنما جهل المكفرون مقصاده وهم خلائق لا يحصون جزموا بتزييه كصاحب الروض في فقه الشافعية، وشارح رسالة القشيري وخرجوا قوله بوحدة الوجود على معنى استناد كل الأشياء إلى واجب الوجود بناءً على ما ذكره الشهرورزي في المعارف في الجمع والفرقة، وقد شرح القيصري، وبين مقاصده ونزّهه عن الحلول، كما تنزه ابن الفارض بنفسه عن الحلول في تائيته.

والصنف الثالث: توقف في شأنه كالسيوطي والسخاوي وهو الأول بمن لم يعرف مقاصده.

ومن ألغازه في فص الحكمة الأحدية، في الكلمة اليهودية، قوله: «وما ثمة ما يدب بنفسه، وإنما يدب بغيره، فهو يدب بحكم التبعية للذي هو على الصراط المستقيم، فإنه لا يكون صراطاً إلا بالمشي عليه».

وقوله في فص الحكمة العلية في الكلمة الإسماعيلية، «يُسَمَّى الله أحديُّ بالذات كلُّ بالأسماء وكلُّ موجود، فماله من الله إلا ربه خاصة يستحيل أن يكون له الكل»، وقوله في الحكمة الإحسانية في الكلمة اللقمانية:

إذا شاء الإله يريد رزقاً	له فالكون أجمعه غذاءُ
وإن شاء الإله يريد رزقاً	لنا فهو الغذاء لما يشاء

وغير ذلك، وقد خرجها القيصري في الشرح على وجه لا يتجاسر معه إلى نسبة الكفر البواح إلى ابن عربي، ولهم اصطلاحات معقدة.

وحديث لبس الخرقة ضعفه الدميري في حياة الحيوان وغيره، ولا يدل على خصوص مذهبهم ولا تفاصيله التي لا يساعد عليها نقل عربي، ولا الكتاب والسنة، وقال بعض الصوفية: إن التصوف أمر يرد على الخاطر فيقع منه بمحل.

نعم، ولا نقدح في جانب أهل التصوف المحمود، كما كان عليه جماعة من سلف أهل البيت وكالجنيد والشبلي وغيرهم ممن هو على مسلك حميد ورأي سديد.

وقال العلامة القاسم بن الحسين بن إسحاق المتوفى (سنة ١١٦٥هـ):-

ألا قل لمحبي الدين لا در دره	ولا بل من فيض الفتوحات راقمه
فصُوكُ شانت كف دينك إذ غدت	تمانع منا كلنسا وتسالمه
فمن عقدت يوماً خناصره على	فصوصك قد والله ساءت خوائمه

نبلأ سنة ١٠٧٤هـ

طالب بن الحسين الجوفي

في شوالها توفي الأمير طالب بن الحسين الجوفي أمير بيحان، وتلك البلدان استدعي إلى صنعاء بسبب قرابته ببيحان فمات بصنعاء.

علي بن سعيد الهبل

وفي (شوال سنة ١٠٧٤هـ) توفي بالروضة القاضي العالم علي بن سعيد بن صلاح الهبل، بعد أن طعن في السن، وفقد بصره، قاضي الإمام المؤيد بن القاسم بشهارة وزين حضرته، وكان من الزهد والورع بمحل عظيم، وبعد وفاة المؤيد خرج مع الإمام أحمد بن القاسم إلى ثلا، ثم حضر معه إلى المتوكل إسماعيل، فولاه جهات خولان، فاستقر بها إلى أن كف بصره، فانتقل إلى الروضة ولازم جامعها المقدس للعبادة والإفادة والتلاوة. وقبر بالمقبرة شرقي الروضة، جوار قبر الحاج أحمد عواض الأسدي وغيره من الفضلاء.

وروي عنه أنه قال: رأيت رؤيا أني لا أموت حتى أسمع ألفاظ الأذان من أعضائي، فلما مرض مرض الموت سمع الأذان منها، فقطع بالموت فمات.

ورثاه القاضي الأديب الشاعر الحسن بن علي بن جابر الهبل أنشأها في الحال عند دفنه - ولم يكن لديه قلم وقرطاس - فكان يكتب أبياتها على التراب ويتحفظها ثم أملاها في يومه، منها:

أندري من تحزمت المنون	ومن أرقمت لمصرعه العيون
ومن ذا أثقل الأعناق حملاً	وخف لحزنه العقل الرصين
ومن ملأ القلوب أسى وحزناً	فكل فتى لمصرعه حزين
ومن في جنة الفردوس أضحى	لديه الظل والماء المعين
أندري يا زمان بمن دهننا	صروفك إنك الزمن الخؤون
لئن كدّرت من عيش البرايا	فمبدأ خلقهم ماء وطين
هوى البدر الذي قد كان حقاً	به نور الهداية مستين
هوى الجبل الذي قد كان بأوي	إليه المتجسئ والمستكين
مضى القرم الذي قد كان ذخراً	تنسأط به الحوائج والشئون
فأي سحاب دمع ليس يهمني	وأي حصاة قلب لا تلين
وليس يرد سهم الموت درع	مزردة ولا حصن حصين
سقيت الغيث قيراً حل فيه	نقى وعلاً وإيمان ودين
رجعنا عن ثراه بجيش حزن	له في كل جارحة كمين
وأجرينا جياد الصير عنه	ولكن شوط مرزئه بطين
فيا لهفي عليك وقد تدانى	خروج الروح وانقطع الأنين
وأُسكِنت التراب برغم قوم	مهلك في قلوبهم مكين
يكاد النوم أن يغشى الأمافي	فتلفظه لذكراك الجفون
أهتئى إذ دفقت عقود دمع	محباة لغيرك لا تفون

وكيف الصبر عنك أو التسلي
فهل يدري سريرك من علاه
وهل يدري ضريحك من تغشى
قرنت بصالح الأعمال فيه
يعز على العلوم نواك عنها
هلالاً كنت غالتة الليالي
جعلت وداد أهل البيت ديناً
ودنت بدينهم في كل حال
وكننت من التشيع في محل
فيهنيك القدوم على كريم
ويهنيك ادخارك كل كسب
وأخذك للصحيفة يوم حشر
سأنظم فيك ما يعلو ويغلو
عليك صلاة ربك بعد طه
وأمر القاضي علي بن جابر ابنه الحسن أن ينشئ أبياتاً على ضريح علي بن سعيد،
فقال أبياتاً منها:

يا قبر جادك وابل الرضوان
فلقد ثوى بثرأك حَبْرٌ ماجند
يا ضاحكاً في جنة الفردوس قد
ما كان أبرك منك عُمرأ ماضياً
وسعت في كسب الثناء فأنت مَنْ
والعلم أجمع قد غدوت ميرزاً
وبذلت نفسك للأئمة راعياً
واستوطنتك عواطف الغفران
حزنت لموقع موته الثقلان
أبكيت من كانت له عينان
قضيت في طاعة الرحمن
كفل الثناء له بعمير ثاني
في شوط حلبته على الأقران
لمهودهم في السر والإعلان

جاهدت في مولاك حق جهاده
أعرضت عن دار الغرور فأنت من
كم ليلة أحبيتها متهجداً
تدعو إلهك في دجاءها قائلأ
آه لو أنك عشت من أعمارنا
هيهات لا يبقى على ملكوته
فاذكر أهالك الذين تركتهم
واسأل لنا مولاك غفراناً إذا
أحسن ضيافتنا غداة قدومنا
وصلاة ربك لا تزال مدى المدى
والآل من عذبت موارد ذكرهم

تبغي رضى المتفضل المنان
دار المقامة في أعز مكان
بالفكر والصلوات والقرآن
جد بالفكاك على الأسير العاني
دهراً وكننا نحن في الأكفان
إلا الإله وكل حي فان
يتجرعون مرارة الأحزان
حضر الحساب وزلت القدمان
فلقد عهدتك مكرم الضيفان
تهدى إلى المختار من عدنان
من كل مخلوق بكل لسان

المعافى بن سعيد الذماري

وفيها توفي بخبان من أعمال المغرب الصغير الفقيه العلامة الفروعى المعافى بن سعيد بن سعيد الذماري الموشكي. أخذ عن ابن رافع وغيره، وأخذ عنه القاضي يحيى بن محمد السحولي، وكان زاهداً فاضلاً ورعاً علامة كبيراً سيما في الأصول.

وإلى هنا انتهى الجزء الرابع من خلاصة المتون في أنباء ونبلاء اليمن الميمون، ويليه الجزء الخامس أوله (سنة ١٠٧٥هـ) إلى (سنة ١١٠٠هـ)، ثم السادس من (سنة ١٠٠١هـ) إلى (سنة ١١٣٩هـ)، ثم السابع إلى (سنة ١١٨٠هـ)، ثم الثامن إلى (سنة ١٢٠٠هـ)، ثم التاسع على (سنة ١٢٢٥هـ)، ثم العاشر إلى (سنة ١٣٠٠هـ)، وأما القرن الرابع عشر فتره النظر في أربعة مجلدات ضخمة، وقد تضمن إخلال التراجم أنباء.

المصادر والمراجع غير المطبوعة

م	اسم الكتاب	المؤلف	المكتبة
١	بغية المريد في أنساب ذرية السيد علي بن محمد بن الرشيد	للسيد عامر بن محمد بن عبد الله بن عامر بن علي	المتحف البريطاني رقم ٣٧١٩ OR
٢	روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح	لعيسى بن لطف الله بن المطهر بن الإمام شرف الدين يحيى توفي سنة ١٠٤٨هـ	صورة في معهد المخطوطات العربية القاهرة رقم ٢/٢٦٢
٣	روح الروح أيضاً الجزء الثالث	لصلاح بن عيسى بن لطف الله	الامبروزيانا رقم D٢٨٤ ARABO
٤	أنباء اليمن ونبلأؤه، الجزء الأول والثاني من القسم الرابع	للقاضي عبد الله بن عبد الكريم الجرافي اليمني	مكتبة الجامع الكبير العربية بصنعاء رقم ٣٣٤
٥	البذة المشيرة إلى حمل من عيون السيرة في أخبار المنصور بالله رب العالمين القاسم بن محمد	للسيد المطهر بن محمد بن عبد الله بن محمد الجرهموزي، توفي سنة ١٠٧٧هـ	مكتبة المتحف البريطاني رقم ٣٣٢٩ OR
٦	السيرة المباركة سيرة الإمام المؤيد محمد بن القاسم	للجرهموزي أيضاً	امبروزيانا رقم ١١٥A٧٣٥ ARAB
٧	الجوهرة المضيتة في تاريخ الخلافة المؤيدية	للجرهموزي أيضاً	مكتبة الحكومة الألمانية، برلين رقم ٩٧٤٤
٨	سيرة المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم	للجرهموزي أيضاً	مكتبة الفاتيكان رقم ٩٧١
٩	الجامع الوجيز في وفيات العلماء أولي التبريز	لصفي الدين أحمد بن عبد الله الجنداري	الجامع الكبير، صنعاء، ويوجد ما بكرولفم في دار الكتب المصرية رقم ٢١٣٢

م	اسم الكتاب	المؤلف	المكتبة
١٠	الآلأ المضيفة في أخبار الأئمة الزيدية	للسيد أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي، توفي سنة ١٠٥٥هـ الجزء الثالث	الاميروزيانا رقم C ٢١٠١
١١	عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر	لمحمد بن أبي بكر الشلي	مكتبة جامعة كميج رقم (٢) ١٤٠٢ OR
١٢	اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية	لمحمد بن إسماعيل الكبسي، توفي سنة ١٣٠٨هـ	مكتبة القاضي محمد بن علي الأكوع، نعر
١٣	مجهول تاريخ دولة الترك		مكتبة الجامع الكبير صعاء رقم ٣٧
١٤	قطعة من كتاب تاريخ اليمن		الاميروزيانا رقم D ٣٦٥ عربي.
١٥	أنباء الزمن في تاريخ اليمن	ليحيى بن الحسين بن القاسم توفي سنة ١١٠٠هـ	دار الكتب المصرية رقم ١٣٤٧ تاريخ

وأما المصادر والمراجع المطبوعة فكثيرة مذكورة في آخر الرسالة للكاتبة الفاضلة حياة محمد البسام السعودية جزاها الله خيراً.
انتهى ما اختصرته من رسالتها في (٢٤هـ ربيع الثاني سنة ١٤٠٨هـ).

بقلم أحمد بن محمد محمد زبارة
(١٩٨٧/١٢/١٤م)

الفهارس

٤.....	خلاصة المتون في أنباء ونبلأ اليمن الميمون
٥.....	قراءة الإمام القاسم بصنعاء سنة ١٠٠١هـ
٥.....	وفيات
٥.....	إبراهيم بن محمد الجملولي
٥.....	عبد الرحمن بن عبد الله الحيمي
٦.....	وفيات
٦.....	المطهر بن صلاح بن شمس الدين
٩.....	علي بن قاسم السنحاتي
١٠.....	الحاج علي بن عبد الله الأسطى
١٠.....	الحاج علي بن علي الأسطى
١٠.....	الحاج محمد بن عبد الله الأسطى
١١.....	الحاج حسن قاسم الأسطى
١٢.....	أسر الفقيه يوسف الحماطي وقتله
١٦.....	الوفيات سنة ١٠٠٦هـ
١٧.....	محمد بن علي الشكاذي
١٧.....	حوادث سنة ١٠٠٧هـ
٢٠.....	وفيات سنة ١٠٠٧هـ
٢٠.....	أحمد بن محمد المحرابي
٢١.....	حوادث سنة ١٠٠٨هـ
٢٢.....	وفيات سنة ١٠٠٨هـ
٢٢.....	إبراهيم بن محمد بن مسعود
٢٢.....	الشيخ ياقوت الحنفي
٢٣.....	حوادث سنة ١٠٠٩هـ
٢٣.....	من رسالة أميرة المداح السعودية:
٢٤.....	[نهاية النهضة الأولى للإمام القاسم]
٢٨.....	حوادث سنة ١٠١٠هـ
٢٨.....	وفيات سنة ١٠١٠هـ

٢٨.....	لطف الله بن المطهر
٢٨.....	مهدي بن أحمد الرُّجْمِي
٢٨.....	سعيد بن داود الآتسي
٢٩.....	عبد العزيز بن محمد بهران
٢٩.....	حوادث سنة ١٠١٢هـ
٣١.....	وفيات سنة ١٠١٢هـ
٣١.....	عبد القادر حمزة
٣١.....	إبراهيم بن علي بن إبراهيم
٣١.....	حوادث سنة ١٠١٣هـ
٣١.....	[بداية النهضة الثانية]
٤٥.....	وفيات سنة ١٠١٣هـ
٤٥.....	عبد القادر حمزة
٤٦.....	أحمد بن محمد بن شمس الدين
٤٦.....	الأمير مطهر بن الشويع
٤٦.....	حوادث سنة ١٠١٤هـ
٤٦.....	حوادث سنة ١٠١٥هـ
٤٧.....	وفيات سنة ١٠١٥هـ
٤٨.....	حوادث سنة ١٠١٦هـ فما بعدها
٦١.....	وفيات سنة ١٠١٦هـ
٦١.....	أحمد بن معوضة الجربي
٦١.....	محمد بن أحمد بن معوضة
٦١.....	عبد الله بن أحمد بن معوضة
٦١.....	أحمد بن محمد بن المنتصر
٦٢.....	رضي الدين العيزري
٦٢.....	أحمد بن حسن الدوّاري
٦٢.....	علي بن صلاح العيالي
٦٣.....	أحمد بن يحيى الدَّوَيْد
٦٩.....	[مقتل علي بن الإمام]
٨٢.....	وفيات سنة ١٠٢٢هـ

- أحمد بن عامر بن علي ٨٢
- الإمام الحسن بن علي بن داود ٨٣
- سعيد بن عطف القداري ٨٣
- صلاح بن أحمد الوزير ٨٣
- الهادي بن عبد الله أبو الرجال ٨٤
- الحسن بن شرف الدين الكحلاني ٨٥
- عبد الله بن المهلاء ٨٦
- كارثة زلازل ٨٦
- الإمام القاسم ٨٧
- وفيات سنة ١٠٣٠هـ ١٠٢
- صالح بن عبد الله حنش ١٠٢
- جابر بن محمد الغشمي ١٠٢
- وفيات سنة ١٠٣١هـ ١٠٢
- سعد الدين المسوري ١٠٢
- عبد الرحمن الطباطبائي ١٠٣
- أحمد بن محمد الخرجي ١٠٣
- حوادث ١٠٣
- عبد الله بن المطهر ١٠٥
- محمد بن علي عثيش ١٠٦
- وفيات ١٠٨
- (أمير الدين بن عبد الله بن نهشل) ١٠٨
- محمد بن عبد الله العياني ١٠٨
- عبد الله بن قاسم العياني ١٠٨
- محمد بن علي حمزة ١٠٩
- [أول خروج للعثمانيين من اليمن] ١١٣
- [موحد الدولة اليمنية "إسماعيل بن القاسم"] ١١٥
- وفاة علي بن الحسين المسوري ١٢٢
- داود بن الهادي المؤيدي: ١٢٦
- لطف الله بن محمد الغياث ١٢٧

- حوادث سنة ١٠٣٦ هـ ١٢٨
- وفيات ١٣٥
- الحسن بن حميد الدين ١٣٥
- الحسين بن محمد زُغَيْب ١٣٥
- علي بن شمس الدين ١٣٥
- ابنه الأمير عبد الرب بن علي ١٣٦
- الحسن بن سعيد العيزري ١٣٦
- عابدين بن المطهر الشويح ١٣٧
- حوادث سنة ١٠٣٨ هـ ١٣٨
- وفيات ١٤١
- أحمد بن محمد لقمان ١٤١
- يحيى بن أحمد المنتصر ١٤١
- سعيد بن صلاح الهبل ١٤٢
- حوادث سنة ١٠٤٠ هـ ١٤٢
- وفيات ١٤٤
- إبراهيم بن الهادي النعمي ١٤٤
- الحسين بن عبد الرب بن علي ١٤٤
- أحمد بن علي بن أبي الرجال ١٤٤
- أحمد بن محمد المؤيدي ١٤٤
- زيد بن علي المسوري ١٤٤
- يحيى بن أحمد حابس ١٤٥
- صالح بن عبد الله الحاضري ١٤٥
- صلاح الفلكي ١٤٥
- علي بن محمد مطير الحكمي ١٤٥
- حوادث سنة ١٠٤٢ هـ ١٤٦
- وفيات ١٤٦
- إبراهيم بن حثيث ١٤٦
- محمد بن سليمان الأهنومي ١٤٧
- طه بن عبد الله الشافعي ١٤٧

- أحمد بن الهادي الديلمي ١٤٧
- حوادث سنة ١٠٤٣هـ ١٤٧
- وفيات ١٥١
- علي بن محمد الجملولي ١٥١
- محمد بن عبد الله أبو علامة ١٥٢
- محمد علي الغشم ١٥٢
- صلاح بن أحمد المؤيد ١٥٣
- حوادث سنة ١٠٤٥هـ ١٥٤
- أحمد عواض الأسدي ١٥٥
- صلاح بن عبد الله السراجي ١٥٦
- أحمد بن موسى الصعدي ١٥٧
- أحمد بن عامر بن محمد الذماري ١٥٨
- الهادي بن صلاح النعمي ١٥٨
- أحمد بن علي الحيمي ١٥٨
- علي بن الحسين العابد ١٥٩
- علي بن قاسم الغنسي ١٥٩
- المهدي بن عبد الله الذيباني ١٥٩
- أحمد الحكيم بن لقمان ١٦١
- الحسن بن القاسم ١٦٧
- صالح بن عبد الله العياني ١٧٧
- عيسى بن لطف الله ١٧٨
- عبد الهادي الثلاثي الحسوسة ١٨٠
- عبد الله بن حسن البشاري ١٨٠
- عبد الرحمن بن المنتصر العبسي ١٨١
- عامر بن محمد الذماري ١٨١
- حوادث سنة ١٠٤٩ ١٨١
- المولى الحسين بن القاسم ١٨٩
- مقارنة بين الحسنين ١٩٢
- وفيات ١٩٣

١٩٣	إبراهيم بن هادي النعمي.....
١٩٤	إبراهيم بن أحمد عامر.....
١٩٤	محمد بن عز الدين المفتي.....
١٩٥	أحمد بن عبد الله البشري النضم.....
١٩٦	حوادث سنة ١٠٥١هـ.....
١٩٧	وفيات.....
١٩٧	عثمان بن علي بن الإمام شرف الدين.....
٢٠٢	محمد بن عبد العزيز المفتي التعري.....
٢٠٢	وفيات.....
٢٠٢	محمد عبدالله المحالبي.....
٢٠٣	محمد بن صلاح شرف الدين.....
٢٠٣	محمد بن هادي بن محمد أبو الرجال.....
٢٠٣	الحسين بن علي جحاف.....
٢٠٤	حوادث سنة ١٠٥٤هـ.....
٢٠٨	وفاة الإمام المؤيد.....
٢١٠	معلومات عن المؤلف.....
٢١٣	من الفصل الأول.....
٢١٣	الإمام المؤيد نشأته وولايته.....
٢١٩	والآن ننقل من الفصل الثاني.....
٢٣٣	من الفصل الثالث علاقة المؤيد بالخارج.....
٢٤٢	من الفصل الرابع.....
٢٤٢	إصلاحات الإمام الداخلية.....
٢٤٨	الخاتمة.....
٢٥٠	خلافة الإمام إسماعيل.....
٢٥٣	وفيات.....
٢٥٣	أبكر الحسيني.....
٢٥٣	إبراهيم بن علي الحوثي.....
٢٥٤	المؤرخ طاهر بن يحيى.....
٢٥٤	فتح عدن.....

٢٥٦	وفيات.....
٢٥٦	الحسين بن عبد الله الحمزي.....
٢٥٦	صلاح بن عبد الخالق جحاف.....
٢٥٨	الحسن بن شمس الدين جحاف.....
٢٥٩	أحمد بن محمد الشرفي.....
٢٥٩	محمد بن أحمد السلفي.....
٢٥٩	حوادث.....
٢٦٣	وفيات سنة ١٠٥٦هـ.....
٢٦٣	الهادي بن المطهر الشويح.....
٢٦٣	إبراهيم بن أحمد عامر.....
٢٦٣	زين العابدين بن العيدروس.....
٢٦٤	محمد بن عامر.....
٢٦٤	حوادث ١٠٥٧هـ.....
٢٦٦	وفيات سنة ١٠٥٧هـ.....
٢٦٦	الحسن بن علي العبالي.....
٢٦٦	حوادث سنة ١٠٥٨هـ.....
٢٧٥	الأمير رجب الرومي.....
٢٧٥	إبراهيم بن يحيى السحولي.....
٢٧٦	عبد الحفيظ المهمل.....
٢٧٦	حوادث سنة ١٠٦١هـ.....
٢٧٨	وفيات سنة ١٠٦١هـ.....
٢٧٩	أحمد بن سعيد الهبل.....
٢٧٩	عبد الحميد بن أحمد المعافى.....
٢٧٩	عبد الله بن عامر الشهيد.....
٢٧٩	محمد بن علي البكري.....
٢٨٠	عبد الواحد النزيلي.....
٢٨٠	يحيى المخلافي.....
٢٨٠	صالح داود الآنسي.....
٢٨٠	ناصر بن محمد صبح العياني.....

٢٨١	محمد بن أحمد المؤيدي
٢٨٢	حوادث سنة ١٠٦٣هـ
٢٨٧	وفيات سنة ١٠٦٣هـ
٢٨٧	محمد بن صلاح السلامي
٢٨٧	يحيى الشببيبي
٢٨٧	عبد الله بن أحمد الجربي
٢٨٨	حوادث سنة ١٠٦٤هـ
٢٨٨	وفيات سنة ١٠٦٤هـ
٢٨٨	صلاح بن علي الشويطر
٢٨٨	حسن بن علي الأكوغ
٢٩٤	وفيات سنة ١٠٦٥هـ
٢٩٤	أحمد القيرواني
٢٩٤	إبراهيم بن يحيى جحاف
٢٩٥	محمد بن الحسين المحرابي
٢٩٥	حوادث سنة ١٠٦٦هـ
٢٩٧	أبو طالب أحمد بن القاسم
٢٩٨	من حوادث سنة ١٠٦٦هـ
٣٠٢	البحث الأول في النعل والنعال والشسع
٣٠٤	البحث الثاني فيما ورد في النعال الشريفة
٣٠٥	البحث الثالث
٣٠٦	حوادث سنة ١٠٦٧هـ
٣٠٧	وفيات
٣٠٧	محمد بن الحسين بن القاسم
٣٠٩	إسماعيل بن يحيى جحاف
٣٠٩	حوادث سنة ١٠٦٧هـ
٣١٠	حوادث سنة ١٠٦٨هـ
٣١١	وفيات سنة ١٠٦٨هـ
٣١١	عبد الرحمن بن محمد نهشل الحيمي
٣١٣	صالح بن الناصر الجوفي

٣١٣	علي السريحي
٣١٣	عبد الهادي القويعي
٣١٣	علي جابر الشارح
٣١٤	محمد بن علي الحيداني
٣١٤	أحمد بن علي مطير الحكمي
٣١٥	حوادث سنة ١٠٦٩هـ
٣١٧	وفيات سنة ١٠٦٩هـ
٣١٧	أحمد بن صالح العنسي
٣١٧	عبد الله بن الإمام القاسم
٣١٨	أحمد الشرفي شريف الجن
٣١٨	حوادث سنة ١٠٧٠هـ
٣٢٤	وفيات سنة ١٠٧٠هـ
٣٢٤	المهدي المهلا
٣٢٤	عبد الله بن محمد السلامي
٣٢٤	ناصر بن عبد الحفيظ المهلا
٣٢٥	حوادث سنة ١٠٧١هـ
٣٢٧	وفيات سنة ١٠٧١هـ
٣٢٧	إبراهيم بن الحسن العيزري
٣٢٨	أحمد بن هادي بن هارون
٣٢٩	إبراهيم بن أحمد العبالي
٣٢٩	أحمد بن علي العنسي
٣٢٩	محمد بن علي العنسي
٣٣٠	الحسن بن محمد العنسي
٣٣٠	صلاح الفلكي
٣٣٠	علي بن يحيى الخيواني
٣٣٠	أحمد بن علي الشامى
٣٣٢	محمد علاء الدين البابلي
٣٣٢	عبد الرحيم اللاهوري
٣٣٣	الرملي سليمان

٣٣٣	حسن بن باز
٣٣٣	علي بن إبراهيم الحيداني
٣٣٣	الشيخ السلمي الخديري
٣٣٣	الحسن بن أحمد الحيمي
٣٣٨	ذكر ابتداء السفر
٣٥٦	أنباء سنة ١٠٧٢هـ
٣٥٨	نبلأ سنة ١٠٧٢
٣٥٨	عبد الرحمن بن محمد جحاف
٣٥٨	الحسين بن محمد النعمي
٣٥٩	أحمد بن الحسن بن حميد الدين
٣٦٠	أحمد الذنوبي
٣٦٠	محمد بن علي الجملولي
٣٦٠	ناصر صبح
٣٦٠	المهدي بن الهادي النوعة
٣٦١	حمد بن محمد القشاشي
٣٦١	الناصر بن عبد الرب
٣٦٣	حوادث ١٠٧٣هـ
٣٦٣	ابتداء شعار يوم الغدير
٣٦٥	نبلأ سنة ١٠٧٣هـ
٣٦٥	الحسين بن يحيى السحولي
٣٦٥	محمد بن صالح الفلكي
٣٦٦	أنباء سنة ١٠٧٤هـ
٣٦٨	نبلأ سنة ١٠٧٤هـ
٣٦٨	طالب بن الحسين الجوفي
٣٦٨	علي بن سعيد الهبل
٣٧٢	المصادر والمراجع غير المطبوعة
٣٧٤	الفهارس